تَعْرِيفُ الصَّالِحِينَ

ألف حكمة رائعة في ميادين التربية الإيمانية

جمعُ وَ شرحُ

فريقٍ من الباحثين

بإشرافِ وَ مُشارَكةِ

الأستاذ الدكتور مُصطفى مخدوم

المجلد الثالث

دار طيبة الخضراء

للنشر والتوزيع اعلم بتنفع به

تغريدات الصالحين

ألف حكمة رائعة في ميادين التربية الإيمانية

ح فهد بن شتوي الشتوي ، 1444 هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

سليمي ، محمد حسن

تغريدات الصالحين ألف حكمة رائعة في ميادين التربية الإيمانية

محمد حسن سليمي - ط ١، مكة المكرمة ، 1444 هـ

2186 ص؛ 17×24 سم

ردمك: 978-603-8350-81-2

1- الوعظ و الإرشاد 2- الحسنات و السيئات أ. العنوان

ديوي 213 1444/2820

رقم الإيداع: 1444/2820

ردمك: 978-603-8350-81-2

الطبعة الأولى (1444هـ - 2023م)

دار طيبة الخضراء للنشر والتوزيع | علم ينتفع به

dar.taibagreen123
dar.taiba
@dar_tg
dar_tg
dartaibagreen@gmail.com
yyy.01@hotmail.com
012 556 2986
055 042 8992
مكة المكرمة - العزيزية - خلف مسجد فقيه

تغريدات الصالحين

ألف حكمة رائعة في ميادين التربية الإيمانية

جمع و شرح

فريق من الباحثين

بإشراف و مشاركة

الأستاذ الدكتور مصطفى مخدوم

المجلد الثالث

دار طيبة الخضراء

للنشر والتوزيع | علم ينتفع به

بسم الله الرحمن الرحيم

باب العبودية

٧٠١

مجالس الكرام

قال أبو إدريس الخولاني رحمه الله: «المساجد مجالس الكرام»[(١)].

المعنى الإجمالي

مساجد الله هي الأماكن التي يجلس فيها الكرام ويحضرها أحبُّ الناس إلىٰ الله تعالىٰ.

المساجد بيوت الله تعالىٰ ونوره في أرضه، وفيها يُعبَدُ الله ويُذْكَرُ؛ ففيها يجد المسلم حاجته من صلاة وذكر وتعليم علم وإرشاد جاهل وقضاء، إلىٰ غير ذلك مما تؤديه المساجد من رسالتها.

والمساجد أحب البقاع إلىٰ الله تعالىٰ في الأرض كما قال النَّبِيُّ ﷺ: «أَحَبُّ البِقَاعِ إِلَىٰ اللهِ المَسَاجِدُ»[(٢)].

ولا يغشىٰ المساجد إلا من استحقوا وصف الله لهم بالرجال كما قال تعالىٰ:

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٥/ ١٢٣).

(٢) أخرجه البزار في مسنده (٨/ ٣٥٢) برقم: (٣٤٢٦)؛ والشهاب القضاعي في مسنده (٢/ ٢٥٣) برقم: (١٣٠١).

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [النور: ٣٦-٣٧].

ولا يعمر مساجد الله إلا الكرام من عباده، فهي مجالسهم التي يؤثرونها في دنياهم علىٰ ما سواها؛ ففيها يتعلم المسلم آيات الله، ويتفقه في دينه، ويزكي نفسه، ويلتقي بإخوانه فتتوثق صلته وأُخُوَّته بهم، ويزداد معرفة بإخوان له آخرين، فتتآلف قلوبهم، ويرتفع عند الله شأنهم، فهم زوار الله، وحقٌّ علىٰ الكريم ﷻ أن يكرم زائريه كما جاء عن ميمون بن مهران رحمه الله قوله: «المساجد بيوت الله عز وجل، وحقٌّ علىٰ المزور أن يكرم زائره»(١).

(١) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ٢٨٤)

٧٠٢

صفة العبودية

قال الحارث المحاسبي رحمه الله: «صفة العبودية أن لا ترى لنفسك مُلْكًا، وتعلم أنك لا تملك لنفسك ضرًّا ولا نفعًا»(١).

المعنى الإجمالي

من صفات العبودية لله تعالىٰ ألا ينظر العبد إلىٰ نفسه بأنه مالكها، والمتصرف فيها كيف شاء؛ فهو لا يستطيع أن يعطي لنفسه العافية من مرضه، ولا اليسر من عسره، ولا الفرح من حزنه، ولا الاتساع من ضيقه.

والعبد لا يستطيع أن يقدم لنفسه نفعًا ولا ضرًّا؛ إذ لو كان مستطيعًا لدرأ عن نفسه الضر، وجلب لها النفع، قال الله تعالىٰ: ﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأعراف:١٨٨].

فإذا علم العبد ضعفه وعجزه عن ملك شيء لم يملكه الله، وعن قلة حيلته في صرف ما يصيبه من السوء صحت عبوديته لله تعالىٰ، وطابت عبادتُه بشعور اللذة

(١) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٦١)؛ وحلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ١٠٩).

والمتعة، وقد قال سبحانه: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [يونس:١٠٧].

٧٠٣

التوحيد رغم التقصير

حكي عن يحيى بن معاذ ﵀ أنه قال: «إلهي، إن لم أكن لحقِّك راعيًا، فلستُ لغيرك داعيًا»(١).

المعنى الإجمالي

هذه كلمات قالها يحيىٰ بن معاذ ﵀ في مناجاته لله تعالىٰ، وفيه اعتراف بالتقصير الذي حصل منه تجاه ربه، وهو أمر لا يسلم منه إلا الأنبياء، فالكلمات وإن كانت ليحيىٰ بن معاذ لكنها لسان حال أغلب الناس، فقال: إلهي وخالقي! لم أكن لحقوقك مؤديًا، ولحدودك حافظًا، ولمحارمك راعيًا! وبعد أن قدَّم بين يدي الله الاعتراف والمعذرة من الذنوب، لم ينس يحيىٰ حسنَ الظنِّ بالله سبحانه، وأن كل مؤمن مهما عظمت ذنوبه وكثرت آثامه، فإن إيمانه يشفع له عند ربِّه يوم القيامة، فيقول يحيىٰ مذكِّرًا بهذا الأمر -وما كان ربه نسيًّا-: لست لغيرك داعيًا، أي: لم أُشرِك بك قط، وهذا مصدر رجائي عفوَك ومغفرتَك!

ويجوز أن يكون مراد يحيىٰ الدعاء، فيحتمل المعنيين، فلا يدعو غيرَ الله، ولا يدعو إلىٰ غير الله رغم تقصيره، والله أعلم.

---

(١) تهذيب خالصة الحقائق ونصاب غاية الدقائق للفاريابي (ص: ٩١).

والمقصود من هذه الحكمة، تذكير الإنسان بتقصيره نحو ربه، وأن هذا التقصير مهما كبر لا ينبغي أن يُنَسِّيَه عظَمَ رحمتِهِ لأهل التوحيد، فمن كان مؤمنًا ومات على ذلك، فهو من أهل الرحمة والمغفرة.

قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٨].

وقال ﷺ في الحديث القدسي: «قال الله ﷻ: يا ابن آدم! إنك ما دعوتَني ورجوتَني غفرتُ لك على ما كان فيك ولا أُبالي. يا ابن آدم! لو بلغتْ ذنوبُك عنانَ السماء ثم استغفرتَني، غفرتُ لك ولا أبالي. يا ابن آدم! إنك لو أتيتَني بقُراب الأرض خطايا ثم لقيتَني لا تُشرِكُ بي شيئًا، لأتيتُك بقرابها مغفرةً»(١).

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٥/ ٥٠٩) برقم: (٣٥٤٠)، وقال: حسن غريب؛ وأحمد في مسنده (٣٥/ ٣٧٥) برقم: (٢١٧٢)؛ والطبراني في الأوسط (٥/ ٣٣٧) برقم: (٤٣٠٥).

٧٠٤

معنى العبودية

قال الجنيد رحمه الله: «العبودية ترك الاختيار، وملازمة الذلة والافتقار»[(١)].

بيان المفردات

الذلة: نقيض العِزّ[(٢)].

الافتقار: افتعال من الفقر، بمعنى الحاجة[(٣)].

المعنى الإجمالي

تشتمل هذه الحكمة على بيان معنى العبودية وحقيقتها، وأنها ترك الاختيار فيما يبدو من الأقدار التي هي بيد الواحد القهار، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [القصص:٦٨]، فهو مسلّم لأقدار الله، راض بما يختاره ربه مع بذله للأسباب حسب استطاعته، وعدم الرضا بما اختار الله له خرم في صفة العبودية، التي هي أعز صفة يملكها الإنسان، فلو فقدها فقد أغلى ما يملك، ويبقى

(١) الفتوة لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٤٠).
(٢) لسان العرب لابن منظور (١١/ ٢٥٦).
(٣) تهذيب اللغة للأزهري (٩/ ١٠٢).

عبدًا كذلك، ولكن عبدًا مجبَرًا، ولا ينال الجزاء الذي قد يناله بالطاعة المطلقة له.

ومن مظاهر العبودية أيضًا ملازمة الذلة والانكسار والحاجة والافتقار إلىٰ ربه وصاحبه، ويبقىٰ ضعيفًا مسكينًا أمامه لينظر إليه نظرة شفقة ورحمة، وأيّ سيد يحب أن يرىٰ مملوكه متكبرًا مختالًا أمامه؟ فما بالك برب العالمين خالق كل شيء ومالكهم؟! لا يحب كذلك، وهذا صريح في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء:٣٦].

والعبد الحق يرىٰ نفسه مملوكة لله، ولا يرىٰ نفسه تملك شيئا، ويرىٰ تكاليفه مستحَقة عليه لكونه مملوكًا عبدًا، ويطيع الله بحب وشغف لما أنعم به بأنواع من النعم واللذات، ويصبر علىٰ البلايا والمحن التي قد يصاب بها لاختباره أو لرفع درجاته، ويأخذ بالأسباب حسب إمكانيته، ولكن يرضىٰ بقضاء الله تعالىٰ وتدبيره له بعد ذلك، فيجد ربه كافيًا في شؤونه كما يقول ﷻ: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ [الزمر:٣٦].

٧٠٥

خصال العبودية

قال ابن عطاء الأدمي رحمه الله: «العبودية في أربع خصال: الوفاء بالعهود، والحفظ للحدود، والرضا بالموجود، والصبر عن المفقود»(١).

المعنى الإجمالي

مرتبة العبودية مرتبة عظمى لا يصل إليها إلا من أحبوا الله حق المحبة، وأحبوه في قلوبهم، وأثنوا عليه بألسنتهم، وخضعت له جوارحهم كلها منقادة مستسلمة.

ولأهمية العبودية ورفعة شأنها، فقد ذكر الله رسوله ﷺ بصفة العبودية، ولم يذكره بصفة الرسالة في أكثر من موضع، من ذلك قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ [الإسراء:١]، وقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ [الكهف:١]، وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١]، وقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم:١٠]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الحديد:٩].

---

(١) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (٢/ ٣٤٩).

وللعبودية أربع خصال إن توافرت في العبد فهو عبد لله تعالىٰ، وهي: الخصلة الأولىٰ: الوفاء بالعهود، وقد امتدح الله الموفين بالعهود، ووصفهم بالتقوىٰ، وأُولىٰ هذه العهود الوفاءُ مع الله تعالىٰ؛ الوفاء بعبادته كما أمر، وترك الشيطان الرجيم وما يجيء به من شرك وتعلق بما يغضب الله تعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [يس: ٦٠-٦١]، وكذلك الوفاء بالعهود والعقود التي أمر الله بالوفاء بها، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء:٣٤].

والخصلة الثانية: الحفظ لحدود الله من التعدي والمجاوزة، وقد جعل الله الحافظين لحدوده من المؤمنين، الذين ينالون جنة الله ورضوانه الأكبر، قال تعالىٰ: ﴿ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة:١١٢]، ونهىٰ الله عن مقاربة حدوده فقال تعالىٰ: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾ [البقرة:١٨٧]، وجعل سبحانه من يتعدىٰ حدوده ظالمًا لنفسه، فقال تعالىٰ: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [البقرة:٢٢٩].

والخصلة الثالثة: الرضا بالموجود من كل ما قسمه الله وقدره للعبد؛ فإن العبد يطلب من ربه، ولكنه يرضىٰ رضًا تامًا عند رؤيته لما قسمه الله له، بعد بذله للوسع والجهد البشري، فإن قلقه وضيق صدره يدل علىٰ ضعف عبوديته وإيمانه بالله تعالىٰ.

ومن رضا العبد بالموجود ترك الالتفات إلىٰ عطاء الله لغيره من العباد؛ وذلك لعلمه ويقينه أن الالتفات ومدَّ العين إلىٰ ما ليس له لا يغني عنه شيئًا، وليس للوصول إليه سبيل، وهذا كله في كل أمر الدنيا، وأما الآخرة فلا رضا بالقليل، بل الكثير والكثير حتىٰ يكون منتهىٰ الأمر الجنة.

ولقد كان النبي ﷺ يأكل ما وجد من الطعام كثيرًا كان أم قليلًا، ولا يعيب منه شيئًا، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «ما عاب النبي ﷺ طعامًا قط، إن اشتهاه أكله وإلا تركه»(١).

والخصلة الرابعة: الصبر عن المفقود، فما فقده العبد من الأنفس والثمرات والأموال كلها فإنه يصبر صبر المؤمن، لا يكون جزعًا ولا ساخطًا شاكًا بتدبير الله وأمره وقضائه وقدره؛ فإن ما فقده لن يعود حين يتبرم ويسخط، فالأَوْلىٰ الرضا والتسليم لأمر الله وقضائه. فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١٩٠) برقم: (٣٥٦٣).

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٢٠٢) برقم: (٢٣٩٦)، وقال: حسن غريب؛ وابن ماجه في سننه (٢/ ١٣٣٨) برقم: (٤٠٣١).

٧٠٦

الانخداع بالنِّعم ونسيان المنعِم

قال الجريري رحمه الله: «عبدُ النِّعَم كثير، وعبدُ المُنعِم قليل»(١).

المعنى الإجمالي

أشارت هذه الحكمة إلىٰ أمر عظيم ينخدع به الناس كثيرًا، وهو الفرق بين العبد الحقيقي والعبد الزائف، حيث الناس في غالبهم لا يعبدون الله الذي خلقهم وأنعم عليهم بجميع النعم التي يستمتعون بها وجعلها خادمة لهم، بل يكون غالبهم عبيدًا لهذه النعم، فمنهم من يعبد السلطة والقوة، ومنهم من يعبد المال والغِنىٰ، ومنهم من يعبد الحسن والجمال، وهكذا الأمور الأخرىٰ التي سخرها الله تعالىٰ له ليكون عبدا له تعالىٰ فقط، ولكنه ينساه ويشتغل بهذه النعم ويمجدها ويفتخر بها ويسعىٰ لها كأنه خُلق من أجلها، فيصير عبدًا للنعم وليس عبدًا للمنعم، مع أن النعم مخلوقات مثله، والمنعِم هو الخالق وحده لا شريك له.

والناظر في شؤون الحياة والمعتبر فيها يتجلىٰ له كلا الأمرين بوضوح، وقد ورد حال العباد مع مُنعمهم في كثير من النصوص التي تكشف هذه الحقيقة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ

(١) تهذيب خالصة الحقائق للفاريابي (١/ ٥٠٤).

ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [يونس:١٢].

وينسىٰ ربه بعد الإفراج عنه ويجعل مع الله إلها آخر كما في قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الزمر:٨].

والحقيقة أن هذه الحياة ومتعلقاتها كلها من نعم الله علىٰ عباده، ونعمته لا تحصىٰ، فينبغي للمرء أن يصلح بوْصَلته ويوجهها إلىٰ وجهتها الصحيحة، فلا يغترّ بالنعم ولا يكون عبدًا لها ولا ينشغل بها عن المنعم الحقيقي، بل يكون من القلائل الذين يشكرونه فيدخل في دائرة قوله ﷻ: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ:١٣].

٧٠٧

الخضـوع لله

قال محمد بن علي الترمذي رحمه الله: «اجعل مراقبتك لمن لا يغيب عن نظره إليك، واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه»(١).

المعنى الإجمالي

ذكر الله تعالىٰ أن كلَّ مَن في السماوات والأرض أسلموا لله وأذعنوا لحكمه وأمره طوعًا أو كرهًا، فقال تعالىٰ: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران:٨٣]. فالمؤمن خضع له بالطوع والتدين، والكافر خضع بالاضطرار، وليس ذلك الخضوع إيمانًا إلا أنه يدل علىٰ أن اسم الإسلام هو الخضوع وعلىٰ ذلك أضيفت الأعمال إلىٰ الإسلام(٢).

(١) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ١٧٧). وهذا الشرح يتعلق بالقسم الثالث من الحكمة، وأما شرح القسم الأول فقد مر في باب مراقبة الله، الحكمة رقم: (٢٠٣)، وشرح القسم الثاني مر في باب الشكر، الحكمة رقم: (٥٩٨).

(٢) تعظيم قدر الصلاة للمروزي (٢/ ٦٩٧).

والخضوع المقترن بالمحبة لله تعالىٰ يمثل غاية الإسلام والاستسلام لله تعالىٰ؛ ولذا فإن علىٰ العبد واجبَ الخضوع المستمر لله تعالىٰ، وطاعته لله في السر وفي العلانية.

فإذا كان البشر -ممن لا يدينون لله تعالىٰ بالألوهية- يخضع بعضهم لبعض؛ لينالوا الأعطيات والدرجات الرفيعة، فإن علىٰ المسلم أن يكون خاضعا لله؛ لأنه ليس خارجًا عن ملك الله وسلطانه، وقد أخبر الله تعالىٰ أن كل من السماوات والأرض يسجدون له، فقال تعالىٰ: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴾ [الرعد:١٥]. وهو خضوع يستصحب فيه العبد «حال العبودية لله تعالىٰ، والاعتراف بالتقصير في طاعة الله وعبادته لما أولاه ربه تعالىٰ مما لا سبيل له إلىٰ مكافأة بعمل»[1].

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال (١٠/ ١٣٠).

٧٠٨

صحـة العبوديـة

سئل محمد بن خفيف رحمه الله: متى تصح العبودية؟ فقال: «إذا طرح كله على مولاه، وصبر معه على بلواه»(١).

بيـان المفردات

طرح: طرحت الشيء فأنا أطرحه طرحًا: إذا رميته(٢).

المعنى الإجمـالي

يحكم على العبد بصحة عبوديته لله إن توافر فيها أمران، الأول: طرح ووضع كل الشواغل والعلائق الدنيوية التي تبعد العبد وتشغله عن الله، وتجعله يبعد عن الاستقامة على الصراط المستقيم؛ لأن كثرة تلك العلائق والشواغل من حب للمال والولد والجاه والسلطان وغيرها، تبعده عن تحقق هدفه المتمثل في رضا الله عنه.

إن صحة عبودية العبد واكتمالها لا يكون إلا حين يضع العبد فقره وقلة حيلته بين يدي ربه سبحانه وتعالى، ويؤمن إيمانا كاملا أن الأمر كله لله، وليس للعبد منه شيء كما قال تعالى: ﴿ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران:١٥٤].

(١) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (٢/ ٣٤٨).

(٢) العين للخليل بن أحمد (٣/ ١٦٩)؛ والصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (١/ ٣٨٦).

والثاني: الصبر مع الله على البلوى الذي تصيب العبد؛ لأن كل بلاء قد قدّره الله، في نفسه وأهله وماله وولده، فقد صبر نبي الله أيوب ﷺ على بلواه، فعوضه الله خيرا مما فقده في الابتلاء. قال الله تعالى: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٣-٨٤].

٧٠٩

تعلق بأوصافه وتحقق بأوصافك

قال ابن عطاء الله السكندري ﵀: «كن بأوصاف ربوبيته متعلقًا، وبأوصاف عبوديتك متحققًا»[(١)].

المعنى الإجمالي

لا يمكن فهم الصلة التي بين العبد وبين الرب إلا من خلال معرفة صفات كل من العبد والرب، فالصلات نابعة من الصفات تابعة لها، ولا يمكن معرفة الصلة بين اثنين إلا بعد معرفة صفة كل واحد منهما، ومعرفة التفاوت والتفاضل بينهما، ومعرفة درجة احتياج أحدهما للآخر، ودرجة فضل أحدهما على الآخر[(٢)].

فالإنسان ضعيف يحب الغلبة والقوة، فقير يحب الغنىٰ والخير، خاضع لناموس الموت والفناء، محب للخلود والبقاء، متعرض للأمراض والأخطار، ولوع بالصحة والسِلامة، عميق الهواجس والخواطر، بعيد الآمال والنظرات، ملول طِرف، سؤوم ضجِر، حاجاته ومطامعه أكثر من أنفاسه. والرب ﷻ متصف بالقوة والقدرة، والعلم والخبرة، والرحمة واللطف، والاستجابة والقبول، والقرب الذي لا مزيد عليه، وجميع صفات الجمال والجلال والكمال. فإذا تأملنا صفات

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ٩٧).

(٢) الأركان الأربعة للندوي (١٤).

الإنسان وصفات الله تبين حاجة الإنسان الدائمة وافتقاره المتواصل إلىٰ التعلق بمولاه واللجوء إليه في كل وقت وحين.

فيجب علىٰ الإنسان أن يتعلق بصفات الربوبية التي لا يستقيم أمره دونها، فيتعلق بقوة الله ليجبر ضعفه وقلة حيلته، ويلجأ إلىٰ غناه لكي يفتح عليه أبواب فضله، ويطيعه ويعبده لينال رحمته ويدخل مستقر كرامته، ويتوكل عليه ويعتصم به ليكون غياثه وأمله، قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [فاطر:١٥].

ويجب علىٰ الإنسان أن يتحقق بصفات عبوديته وخضوعه، وافتقاره وعجزه، ويقول بلسان الحال ولسان المقال: «اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي»(١)، ويقول: اللهم إن تكلني إلىٰ نفسي تكلني إلىٰ ضعيف وعورة وذنب وخطيئة، ويقول: «اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا علىٰ عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء لك بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»(٢).

(١) أخرجه الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (٩/ ١٨٠) برقم: (١٦١)؛ قال الهيثمي: رواه الطبراني، وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة، وبقية رجاله ثقات. ينظر: مجمع الزوائد للهيثمي (٦/ ٣٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٦٧) برقم: (٦٣٠٦).

٧١٠

العبودية لله وحده

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «ما أحببتَ شيئًا إلا كنتَ له عبدًا، وهو لا يُحِب أن تَكونَ لغيره عبدًا»[(١)].

المعنى الإجمالي

يعني: ما أحببتَ شيئًا من الأشياء إلا كنتَ له عبدًا، أي: منقادًا، والله تعالىٰ لا يحب أن تكون لغيره عبدًا، ولا يرضىٰ بذلك[(٢)].

وبيان ذلك أن القلب إذا أحب شيئًا أقبل عليه وخضع له، وأطاعه في كل ما يأمره به. كما قال الشاعر:

إنَّ المحبَّ لمن يحبُّ مطيعُ[(٣)]

وهذه حقيقة العبودية، وهي: الخضوع والطاعة، وليس للقلب إلا وجهة واحدة، وليس للإنسان إلا قلب واحد. قال تعالىٰ: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾ [الأحزاب:٤]. فعلىٰ هذا، إذا أقبل الإنسان علىٰ ربه أعرض عما سواه وكان عبدًا له، وإذا أقبل علىٰ هواه أعرض عن الله، فكان عبدًا لسواه، والله سبحانه

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ١٩).

(٢) شرح الحكم العطائية للشرنوبي (ص: ١٤٠).

(٣) الكامل في اللغة والأدب لمحمود الوراق (٢/ ٤).

لا يرضىٰ لعبده أن يكون عبدًا لغيره.

قال تعالىٰ: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية:٢٣]. وهذه الآية نص في ذمِّ من أحب هواه واتخذ ربًّا من دون اللهِ ربِّه الحقيقي(١).

وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «تَعِسَ عبدُ الدينارِ والدرهمِ والقطيفةِ والخميصةِ»(٢).

(١) إيقاظ الهمم لابن عجيبة (٤٤٨-٤٤٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ٣٤) برقم: (٢٨٨٦).

٧١١

العبوديـة الحقّـة

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «مَن عبدَه لشيء يرجوه منه، أو ليدفع بطاعته وُرُودَ العقوبة عنه فما قام بحقِّ أوصافه»[(١)].

المعنى الإجمالي

الغاية من خلق الإنسان هي عبادة الله مصداقا لقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ﴾ [التوبة:٣١]، وإذا قام الإنسان بما كُلّف به من عبادة الله كان مستحقا لأن ينجيه الله من عذابه؛ قال ﷺ: «يا معاذ بن جبل»، قلت: لبيك رسول الله وسعديك قال: «هل تدري ما حق الله علىٰ عباده»؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «حق الله علىٰ عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا». ثم سار ساعة ثم قال: «يا معاذ بن جبل»، قلت: لبيك رسول الله وسعديك، قال: «هل تدري ما حق العباد علىٰ الله إذا فعلوه»؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «حق العباد علىٰ الله أن لا يعذبهم»[(٢)].

فالله سبحانه وتعالى مستحِقٌّ لأن نعبده لأنه هو الخالق لنا، المنعم علينا، الرازق لنا، المنعم علينا بكافة أنواع النعم، ولأنه كريمٌ وأهْل لأن يُرجىٰ ثوابه، ولأنه قوي عزيز

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ١٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ٢٩) برقم: (٢٨٥٦)، ومسلم في صحيحه (١/ ٤٣) برقم: (٣٠).

حكَمٌ عدْل وأهلٌ لأن يُخشىٰ عذابه، ولأن له جميع صفات الجمال والجلال والكمال فهو أهل لأن يحبه العباد لأجل جميل صفاته.

وظاهر الحكمة قد يشكل علىٰ القارئ لأنه يفهم منه القدح في العبادة إذا كانت رجاء لعطائه، وفرارا من عذابه، وهو مخالف لظواهر النصوص التي تثني علىٰ الصالحين بذلك كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦]، وقوله تعالىٰ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة:١٦]، وقد رغب الله عباده في الطاعات بذكر الجنة ونعيمها، كما حذرهم عن المعاصي بذكر النار وعذابها ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد:١٥]، وقال: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٣]، وقال: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران:١٣١].

والجواب عن هذا الإشكال هو أن يقال بأن مراد ابن عطاء هو أن الله تعالىٰ يستحق العبادة لذاته وإنْ لم تكن جنة ولا نار، ولا يمنع ذلك من طلب الجنة والنجاة من النار فإنه مشروع وقد طلبه سيد العارفين.

٧١٢

العبودية طريق السعادة

قال ابن تيمية رحمه الله: «مَن أراد السَّعادةَ الأبديَّةَ فليلزمْ عَتَبَةَ العُبوديَّة»[١].

بيان المفردات

العتبة: أُسْكُفَّة الباب التي يوطأ عليها[٢].

المعنى الإجمالي

السعادة هي الغاية التي يسعىٰ جميع البشر إلىٰ الوصول إليها ونيلها، لكن يختلف مفهومها لدىٰ كل شخص، فمن الناس من يظن أنها تحصل في كثرة المال، ومنهم من يظن أنها في كثرة الأزواج والأولاد، ومنهم من يظن أنها بعلو الجاه والمنصب، ومنهم من يظن أنها بالرفاهية والتمتع بما لذَّ وطاب، فيسعىٰ كلٌّ منهم في سبيل تحقيق السعادة التي يراها، ويفني عمره من أجل ذلك، حتىٰ إذا وصل إلىٰ هدفه رأىٰ أنه ما حقق السعادة التي يطلبها، ولا أدرك أنها ليست السعادة الحقيقية التي يرجوها.

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٥٢).
(٢) مقاييس اللغة لابن فارس (٤/ ٢٢٥).

فإذا أردت أيها العبد أن تعرف السعادة الحقيقة لتفوز بها في الدنيا والآخرة فتأمل في أمر الخالق سبحانه، وتفكر لماذا خلقك، وماذا يريد منك، ستعرف أنه سبحانه خلقك لتكون عبدا له، مطيعا لأوامره، مستعينا به، راضيا بقضائه وحكمه، مراقبا له، عالما أنه مطلع عليك، موقنا أنه لا نفع إلا منه ولا ضرر إلا بإذنه.

وإذا عرفت ذلك، وتحققت بصفات العبودية، وأقبلت عليه إقبال العبد علىٰ خالقه، خاضعا له متذللا إليه منكسرا بين يديه، فتح لك باب القرب منه، والأنس به، ورزقك السعادة والرضا في الدنيا الفانية، والآخرة الباقية.

باب التواضع

٧١٣

التواضـع والتكـبر

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «من تواضع تخَشُّعًا رفعه الله، ومن تعظَّم تطاولًا وضعه الله»[(١)].

بيـان المفردات

تخَشُّعًا: تخشَّع: رمىٰ ببصره نحو الأرض وخفض صوته، والتخشُّعُ: تكلُّف الخُشوع، والتخشُّعُ لِلَّهِ: الإِخْباتُ والتذلُّل[(٢)].

تعظَّم: تكبَّر.

تطاولًا: التطاول هو: التفضُّل ورفع النفس والتكبُّر[(٣)].

التواضع: اشتقاقه من الضَّعَة، وهو: رضا الإنسان بمنزلة دون ما يستحقه، وهو وسط بين الكبر والضَّعَة، فالضَّعَة: وضع الإنسان نفسه مكانًا يُزري به بتضييع حقه، والكبر: رفع نفسه فوق قدره. والفرق بين التواضع والخشوع: أن التواضع يعتبر بالأخلاق والأفعال الظاهرة والباطنة، والخشوع يقال باعتبار أفعال الجوارح،

(١) المصنف لابن أبي شيبة (٧/ ١٩٧) برقم: (٣٦٤٤٧)؛ الزهد والرقائق لعبد الله بن المبارك (ص: ١٨).

(٢) لسان العرب لابن منظور (٨/ ٧١).

(٣) ينظر: الصحاح تاج اللغو وصحاح العربية للجوهري (ص: ٣٤٥٤)؛ لسان العرب لابن منظور (١١/ ٤١٤).

ولذلك قيل: إذا تواضع القلب خشعت الجوارح[١].

المعنى الإجمالي

التواضع خُلُق الأنبياء والمرسلين ﷺ، وقد أمر الله ﷻ نبيه ﷺ بالتواضع فقال: ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الشعراء:٢١٥]، والأنبياء هم قدوة البشر.

إن الله ﷻ يُيَسِّر للذين يتواضعون ابتغاء مرضاته ما يرفعهم ويُعلي أقدارهم، ويَضع في طريق المستكبرين عقبات تصدهم عن بلوغ المجد، وتودي بهم إلىٰ المهانة والصغار، فمن استكبر وضعه الله، ومن تواضع لله رفعه الله[٢]. جاء في الحديث: «وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»[٣].

وقد بين النبي ﷺ معنىٰ التكبر، وذكر جزاء المتكبر، فقال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»، قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونَعْلُه حسنة، قال: «إن الله جميل يحب الجمال؛ الكبر بَطَر الحق وغَمْطُ الناس». ومعنىٰ (بَطَر الحق)؛ أي: ردُّه وعدم قبوله، ومعنىٰ (غَمْطُ الناس)؛ أي: احتقارهم والاستهانة بهم[٤].

(١) ينظر: الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة للراغب الأصفهاني (ص: ٢١٣).

(٢) الأخلاق الإسلامية وأسسها لعبد الرحمن حسن حبنكة (١/ ٧٢٢).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٢١) برقم: (٢٥٨٨).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٦٥) برقم: (٩١)؛ وينظر المعلم بفوائد مسلم للمازري (١/ ٣٠٣).

٧١٤

رفعة أهل التواضع وضَعَة أهل الكبر

قال أيوب السختياني رحمه الله: «إنّ قومًا يريدون أن يرتفعوا فيأبى الله إلا أن يضعهم، وآخرين يريدون أن يتواضعوا فيأبى الله إلا أن يرفعهم»[(١)].

المعنى الإجمالي

إن الناس على طبقات شتى، فمنهم من يكون كل همه في الحياة أن ينال منصبًا وشهرة ليرتفع قدره عند الناس، وليكسب تعظيمهم والثناء عليه، فمثل هذا لن يكون له من الشأن ما أراد، بل إنه لن يجد إلا الذلة والمهانة، حتى وإن نال في بداية الأمر ما أراد من منصب وسلطة، ولكن لن يموت حتى يذوق الذل والهوان، وحتى يصغر في عين الناس كما هو صغير في عين الله، وهذا في الدنيا، أما في الآخرة فإن الله أعد له عذابًا أليمًا، بل إن الله حرم عليه الجنة، جاء في الحديث: «بينما رجل يجر إزاره من الخيلاء خسف به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة»[(٢)]، وفي حديث آخر: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»[(٣)].

ومن الناس من يسعى إلى التخفي وعدم إظهار نفسه مهما بلغ في مراتب

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (٩/ ٢٤٧).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١٧٧) برقم: (٣٤٨٥).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٦٥) برقم: (١٤٩).

العلم، ولا يريد شهرة، ولكن يأبىٰ الله إلا أن يعزه ويرفع منزلته ومرتبته بين الناس، جزاء له علىٰ تواضعه ومعرفته بأن ما وصل إليه إنما كان بفضل الله ومنِّه، وليس بجهده وسعيه، ولذلك ورد في الحديث: «وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»[(١)].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٢١) برقم: (٢٥٨٨).

٧١٥

ما ينافي التواضع

قال الفضيل بن عياض رحمه الله: «من رأى لنفسه قيمة فليس له في التواضع نصيب»(١).

المعنى الإجمالي

حين يرتقي العبد المؤمن في درجات الإيمان يعرف نفسه حق المعرفة؛ فلا يرفعها فوق شأنها، ولا يحط من شأنها، ويكون التعامل مع النفس تعاملا شرعيا؛ فيهتم العبد بعيوبها ومفاسدها فيصلحها ويزكيها.

وإن رزق الله العبد مقامًا من علم أو جاه فليتواضع لعباد الله، ولا ينتظر منهم أن يقدموه علىٰ أنفسهم، أو يقضوا حوائجه، ولنا في رسول الله ﷺ أسوة وقدوة، فقد كان في خدمة أهله، ويخصف نعله، ويرقع ثوبه، ويحلب الشاة لأهله، ويعلف البعير، ويأكل مع الخادم، ويجالس المساكين، ويمشي مع الأرملة واليتيم في حاجتهما، ويبدأ من لقيه بالسلام، ويجيب دعوة من دعاه، ولو إلىٰ أيِّ شيء(٢).

ومن الدلائل العملية علىٰ تواضع رسول الله ﷺ حمل اللَّبِنَة مع الصحابة رضي الله عنهم

---

(١) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ٢٧٨).

(٢) مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٣١٣).

في بناء المسجد، وكذلك في حفر الخندق، حتىٰ قال قائل من المسلمين:

لـــئن قعـــدنا والنبـــيُّ يعمـــلُ لــذاك منــا العمــلُ المضــلَّلُ[١]

إن المقصود برؤية القيمة للنفس المنافية للتواضع، أن يجعل العبد لنفسه مكانًا عليًا، فلا ينظر إلىٰ أحوال الناس، ولا يعيش همومهم، ولا يشاركهم فيما يحتاجونه إليه في أمور دينهم ودنياهم، فهو يريد من الناس أن يقدموا له كل أنواع المصالح، وهو لا يفعل لهم شيئًا؛ متعللًا بأنه سيد مطاعٌ، وذو مكانة لما يصلوا إليها. وهذا الأمر كله مناف للتواضع، الذي يراد به خفض الجناح، والنفع لكل الناس، كما أمر الله الرسول ﷺ بقوله: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء:٢١٥].

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٤٩٦)، زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم (٣/ ٥٦).

٧١٦

أرفع الناس وأكثرهم فضلًا

قال الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: «أرفع الناس قدرًا مَن لا يرى قدره، وأكثرهم فضلاً مَن لا يرى فضله»(١).

المعنى الإجمالي

لقد ربَّىٰ النبي ﷺ -وهو أكثر العالمين قدرًا وفضلًا ومنزلةً عند الله تعالىٰ- الصحابةَ الكرامَ علىٰ ألا يرىٰ أحدهم لنفسه قدرًا علىٰ أخيه، ولا فضلًا عليه؛ فأمر المهاجرين والأنصار أن يتآخوا في الله أخوين أخوين؛ فآخىٰ النبي ﷺ علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وتآخىٰ حمزة بن عبد المطلب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وزيد بن حارثة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وتآخىٰ جعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ومعاذ بن جبل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وهكذا كان حال باقي الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أجمعين(٢).

وبهذه المؤاخاة تجسدت معاني الأخوة الإيمانية بين المؤمنين، وزالت عصبيات الجاهلية التي تقوم علىٰ وضع الحواجز بين العباد؛ فتجعل لكل منهم قدرًا لا يمكن لأخيه أن يصل إليه، وفضلًا عليه بما يملكه من مؤهلات النسب، والحسب والمال والولد.

(١) مناقب الشافعي للبيهقي (٢/ ٢٠١).

(٢) ينظر: الروض الأنف للسهيلي (٤/ ١٧٨).

إن تواضع كل إنسان علىٰ قدر معرفته بربه ﷻ ومعرفته بنفسه(١)، لكن إن رأىٰ الإنسان لنفسه قدرًا فوق قدره، فإن ذلك يدل علىٰ جهله بربه ﷻ، وعدم معرفته بنفسه؛ فقد أراد إبليس -وهو مخلوق- أن يلبس رداء ليس له، فعاقبه الله بلعنه وطرده إلىٰ يوم الدين.

وإن أكثر الناس فضلًا من لا يرىٰ لنفسه فضلًا علىٰ الآخرين، فلا يمن علىٰ أحدٍ بخير أو معروف كان سببًا في إيصاله لعبدٍ من عباد الله تعالىٰ، بل يحمد الله تعالىٰ أن هيأ له سببًا لنفع الناس وخدمتهم، فينسب الفضل كله لله أولًا وآخرًا. فلقد قال الله لنبيه ﷺ: ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ [المدثر:٦].

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (٣/ ٣٤٣).

٧١٧

التواضع خلق الكرام

قال الشافعي رحمه الله: «التواضع من أخلاق الكرام، والتكبر من شيم اللئام»[١].

بيان المفردات

شِيم: شِيمة الإنسان: خُلُقه، والأشيم من كل شيء: الذي به شامة، والشامة: علامة مخالفة لسائر اللون[٢].

اللئام: لؤُمَ الرجل يلؤم لؤما وملأمة؛ فهو لئيم، ويقال: قد ألأم الرجل، إذا صنع ما يدعوه الناس عليه لئيما، فهو ملئم[٣].

المعنى الإجمالي

من الأخلاق الحسنة والشيم الكريمة في العباد الأخلاق الحسنة؛ ومن تلك الأخلاق التواضع، وهو خلق نفيس لا يتخلق به إلا من كرُمت نفسه، وزكت وتطهرت من نقائصها ومذامها، فـ " التواضع خلقٌ كريمٌ من أخلاق المؤمنين،

(١) مناقب الشافعي للبيهقي (٢/ ٢٠٠).
(٢) العين للخليل بن أحمد (٦/ ٢٩٣).
(٣) تهذيب اللغة للأزهري (١٥/ ٢٨٧).

ودليلُ محبة رب العالمين»[١]، فلا يتواضع إلا من تخلق بأخلاق الأنبياء والصالحين، وكيف لا يكون ذلك؟ وقد قال رسول الله ﷺ: «وإن الله أوحىٰ إلي أن تواضعوا حتىٰ لا يَفخر أحد علىٰ أحد، ولا يبغي أحدٌ علىٰ أحد»[٢].

والكبر خلق اللئام، وأول من تخلق به إبليس لعنه الله؛ فقد أبىٰ واستكبر أن يسجد لآدم عليه السلام، وأن يذعن لأمر الله تعالىٰ، فعاقبه الله بالطرد. ويكفي المتكبرين خوفًا من الكبر، ما جاء في الحديث القدسي، قال رسول الله ﷺ: «قال الله تبارك وتعالى: الكبرياء ردائيٰ، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدًا منهما قذفته في النار»[٣].

(١) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم لمجموعة من المؤلفين (٤/ ١٢٦٨).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ١٦٠) برقم: (٢٨٦٥).

(٣) أخرجه أبو داود في سننه (٦/ ١٨٩) برقم: (٤٠٩١)؛ وأحمد في مسنده (١٤/ ٤٧٣) برقم: (٨٨٩٤)؛ وابن حباه في صحيحه (٥/ ٤٤٤) برقم (٤٧١٨).

٧١٨

ثمرة التواضع والقناعة

قال الشافعي رحمه الله: «التواضع يورث المحبة، والقناعة تورث الراحة»[١].

المعنى الإجمالي

يسعىٰ كل عبد من عباد الله أن يُرزق المحبة، ولا تأتي المحبة دون أن تتعارف القلوب وتتآلف؛ فهي جنود مجندة، فعن النبي ﷺ أنه قال: «الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»[٢].

ويبدأ التآلف والتعارف بين الأرواح والنفوس حين تتواضع لبعضها، فلا تكون حواجز أو موانع تمنع من التلاقي والتواصل، ولذلك فإن التواضع ركنٌ أصيلٌ من أركان المحبة وتأصُّلها بين الناس؛ فالنفوس مجبولة ومفطورة علىٰ التعامل معها بإحسان؛ فمن رآه الناس متواضعًا معهم لا يستعلي عليهم، ورأوه سهلًا لينًا يألفُ ويؤلَفُ احترموه، وبادلوه مشاعر طيبة مقابل مشاعره، ومن ترفع علىٰ الناس وتطاول عليهم، وجعل لنفسه قيمة عليهم، ولم يهن لهم بقول أو فعل، فإنهم يبغضونه، ويكرهون مجالستهم، ولن يسلم من أذاهم.

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٥٦). وهذا الشرح يتعلق بالقسم الأول من الحكمة، وأما شرح القسم الثاني فسيأتي في باب الزهد والقناعة، رقم الحكمة: (٨٧٦).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٤١) برقم: (٢٦٣٨).

٧١٩

الشرف في التواضع

قال إبراهيم بن شيبان رحمه الله: «الشرف في التواضع، والعز في التقوى، والحرية في القناعة»[(١)].

المعنى الإجمـالي

تختلف مفاهيم الناس عن الشرف؛ فيراه قوم في الأحساب والأنساب الرفيعة، ويراه آخرون في الأموال والأولاد والجاه والسلطان، وهذه الرؤى كلها رؤى مادية لا علاقة لها بالدين؛ وما امتنع الملأ من قريش من الدخول في الإسلام إلا لعلمهم أن الإسلام يساوي بينهم وبين عبيدهم وأرقائهم ومماليكهم، وليسوا مثلهم، وفهموا من كلمة التوحيد: أشهد أن لا إلا الله وأن محمدًا رسول الله، أنها تسلبهم سيادتهم وامتيازاتهم التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم؛ ولذلك لما قال لهم رسول الله ﷺ أن يقولوا كلمة يملكون بها العرب، وتدين لهم بها العجم، قالوا له:

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري (١/ ٣٨٠)؛ والرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ٢٧٩). وهذا الشرح يتعلق بما يخص التواضع من الحكمة، وأما شرح ما يخص التقوى فقد مر في باب التقوى والاستقامة، الحكمة رقم: (١٨٠)، وشرح القسم الثالث سيأتي في باب الزهد والقناعة، رقم الحكمة: (٨٩٤).

وأبيك وعشر أمثالها، فلما قال لهم: قولوا لا إله إلا الله، نفروا من ذلك(١)، وذكر الله تعالىٰ عنهم ذلك في القرآن الكريم، فقال تعالىٰ: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴾ [ص: ٥-٦].

إن الإسلام قد ساوىٰ بين العربي والعجمي والأبيض والأسود والحر والعبد، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن ربكم واحد، وأباكم واحد، لا فضل لعربي علىٰ عجمي، ولا لعجمي علىٰ عربي، ولا أحمر علىٰ أسود، ولا أسود علىٰ أحمر إلا بالتقوىٰ»(٢).

لكن من يذهبون إلىٰ جعل التفاضل والرفعة والشرف بين الناس بمعايير الدنيا من الحسب والنسب والولد والجاه والسلطان يبتعدون عن معيار الإسلام؛ لأنهم ما علموا أن الوزن والفضل عند الله إنما هو بالتقوىٰ، فقد قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات:١٣]، وإنما الشرف في التواضع حتىٰ لا يبغي بعض الناس علىٰ بعض كما قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وإن الله أوحىٰ إلي أن تواضعوا حتىٰ لا يفخر أحد علىٰ أحد، ولا يبغي أحد علىٰ أحد»(٣).

---

(١) ينظر: الرحيق المختوم للمباركفوري (ص: ١٠٢).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨/ ٤٧٤) برقم: (٣٤٨٩)؛ والطبراني في المعجم الأوسط (٥/ ٨٦)، برقم: (٤٧٤٩).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ١٦٠) برقم: (٢٨٦٥).

باب التحذير من الكبر

٧٢٠

عواقب السخرية

قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لو سَخِرتُ من كلبٍ لَخَشيتُ أنْ أُحَوَّل كلبًا»[(١)].

بيــان الـمفردات

سَخِرتُ: من السخرية، وهي الاستهزاء والضحك من الآخَر[(٢)].

الـمعنى الإجمــالي

تشتمل الحكمة على بيان آثار السخرية والاستحقار بالآخر وعواقبها الوخيمة، حيث السلف من شدة تواضعهم وخوفهم من ارتكاب ما لا يُرضي الله بمثل هذه الأشياء يصغّرون أنفسهم دائمًا لئلا تدخل في القلب ذرة من الكبر والغرور، فإن التكبر لا يليق بالمخلوق كما ورد في حديث قدسي يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: «الكِبرياءُ رِدائي، والعظَمةُ إِزاري، فمن نازَعَني واحدًا منهما قَذفتُه في النار»[(٣)].

وهذا الأثر يعالج داءً نفسيًّا خفيًّا ببيان نتيجته بأن السخرية والاستصغار لأي

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٥/ ٢٣١) برقم: (٢٥٥٤٦)؛ وهنّاد بن السَّرِي في كتاب الزهد (٢/ ٥٧٠).

(٢) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (٢/ ٦٧٩).

(٣) أخرجه أبو داود في سننه (٦/ ١٨٩) برقم: (٤٠٩١)؛ وأحمد في مسنده (١٤/ ٤٧٣) برقم: (٨٨٩٤)؛ وابن حباه في صحيحه (٥/ ٤٤٤) برقم (٤٧١٨).

شيء كان حتىٰ للحيوانات أيضا مآله خطير، فإن كلها مِن خلق الله، وما للإنسان ميزة في كونه إنسانا لولا لطف الله به، فبأي شيء يتكبر بنفسه ويستحقر الآخر؟ وكما ورد: «البلاء مُوكَّل بالقول»(١)، فلا يُستبعد أن يبتليه الله بما استهزأ به.

والقرآن والسنة وآثار السلف مليئة في ذم هذا المرض والتحذير منه والنهي عنه، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ ﴾ [الحجرات:١١]. ونهىٰ النبي ﷺ التعيير لأحد بخَلقه أو بذَنبه، لأن الشكل هو من صنع الله، وصنع الله كله حسن، وأما الذنب فمن منا يخلو منه؟ ولذلك جاء في الحديث: «مَن عَيَّر أخاه بِذنبٍ لَم يمُت حتّىٰ يعمله»(٢)، أي مِن ذنبٍ كان قد تاب منه.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٥/ ٢٣١) برقم: (٢٥٥٤٧)؛ والشهاب القضاعي في مسنده (١/ ١٦٢) برقم: (٢٢٨).

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٦٦١) برقم: (٢٥٠٥)، وقال/ حسن غريب، وليس إسناده بمتصل.

٧٢١

خطورة الإعجاب بالنفس

قال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من أُعجِب برأيه ضلَّ، ومن استغنى بعقله زلَّ، ومن تكبرَّ على الناس ذلَّ»(١).

المعنى الإجمالي

الإنسان قليلٌ بنفسه كثيرٌ بإخوانه، فمهما بلغ الإنسان من العلم، ومهما أوتي من الملكات والمهارات، فإنه يظل محتاجا إلى التعاون مع الآخرين وإلى الاستفادة من تجاربهم، كما أنه لا يستطيع الاعتماد على رأيه فقط قبل الرجوع إلى حكم الشرع، فإن هوى الإنسان يجب أن يكون تابعا لأمر الله، جاء في الحديث: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به»(٢).

فمَن أُعجب برأيه على خلاف ما أمر به الله، أو ظن أنَّ رأيه أفضل من آراء جميع الناس الآخرين، فإن ذلك سيوقعه في ضلالات الفكر والقول والعمل، قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية:٢٣]، وجاء في الحديث: «إذا رأيت شُحًّا مُطاعًا، وهوىً مُتّبعًا، ودنيا مُؤْثَرة، وإعجابَ كلِّ ذي رأيٍ برأيه، فعليك بخاصة

(١) الإعجاز والإيجاز للثعالبي (ص: ٤٤).

(٢) السنة لابن أبي عاصم (١/ ١٢).

نفسك ودَعْ العوام»[١]. ومعنىٰ: «وإعجابَ كلِّ ذي رأيٍ برأيه»؛ أي: فلا يرجع إلىٰ رأي صاحبه وإن كان رأيه هو الصواب الظاهر ورأىٰ أن رأيه هو الخطأ الواقع[٢].

وكذلك مَن استغنىٰ بعقله عن اتباع حكم الشرع أو استغنىٰ به عن مشاورة الناس والسماع لهم والاستفادة من تجاربهم، فإنه بلا شك سيقع في الخطأ والزلل.

وبالمحصّلة فإن من رأىٰ نفسه أفضل من الناس فتكبر عليهم ظانّا أن ذلك سيجلب له الرِّفعة والعزة، فإنه سيقع في الذل والسقوط من أعين الناس، وعلىٰ العكس من ذلك فإن «من تواضع لله رفعه الله»[٣]، قال أبو العباس القرطبي ﵀: «التواضع: الانكسار والتذلل، ونقيضه التكبر والترفع، والتواضع يقتضي متواضَعًا له، فإن كان المتواضع له هو الله تعالىٰ، أو من أمر الله بالتواضع له كالرسول، والإمام والحاكم، والوالد، والعالم، فهو التواضع الواجب المحمود، الذي يرفع الله تعالىٰ به صاحبه في الدنيا والآخرة، وأما التواضع لسائر الخلق فالأصل فيه أنه محمود، ومندوب إليه، ومرغَّب فيه، إذا قصد به وجه الله، ومن كان كذلك رفع الله تعالىٰ قدره في القلوب، وطيب ذكره في الأفواه، ورفع درجته في الآخرة، وأما التواضع لأهل الدنيا، ولأهل الظلم، فذلك هو الذل الذي لا عز معه، والخسة التي لا رفعة معها، بل يترتب عليها ذل الآخرة»[٤].

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٤/ ٢١٥) برقم: (٤٣٤١)؛ والترمذي في جامعه (٥/ ١٤٦) برقم: (٣٠٥٨)؛ وابن ماجه في سننه (٥/ ١٤٦) برقم: (٤٠١٤).

(٢) حاشية السندي علىٰ سنن ابن ماجه (٢/ ٤٨٧).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٢١) برقم: (٢٥٨٨).

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم لأبي العباس القرطبي (٦/ ٥٧٥).

٧٢٢

عزة النفس وذلتها

قال مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ: «من أعز نفسه أذل دينه، ومن أذل نفسه أعز دينه»[(١)].

المعنى الإجمالي

العزة الحقيقية للنفس أن تكون مرتبطة بمصدر العزة وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهو القائل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٣٩]، والقائل: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر:١٠]، والقائل: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨].

إن من البلاء الذي يقع فيه العبد أن يعز نفسه فينميها ويُغذِّيها، ويجيبها إلىٰ كل رغائبها ومطالبها، فتكون مسمَّنة، ويكون دينه ضعيفًا رقيقًا؛ والدين لا يكون إلا قويًا متينًا، لا ضعيفًا هزيلًا.

ومن طلب عزة نفسه علم أنها لا تكون إلا باستسلامها وذلتها لله تعالىٰ، والاستجابة له في كل ما يدعو إليه. وقد لخَّص عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ طريق العزة ومنهجها بقوله: «إنا قوم أعزنا الله بالإسلام فلن نلتمس العز بغيره»[(٢)].

---

(١) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ٣٠٦).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٩٣) برقم (٣٤٤٤٤).

٧٢٣

ضعف ابن آدم

قال الحسن البصري رحمه الله: «مسكينٌ ابنُ آدم! ما أضعفَه! مكتومُ العلل، مكتوم الأجل، تؤذيه البَقَّةُ، وتقتلُه الشَّرْقَةُ، يرحل كل يوم إلى الآخرة مرحلةً، ويقطع من الدنيا منزلةً، وربما طغى وتكبرَّ، وظَلَم وتجبرَّ»[1].

بيان المفردات

البَقَّة: البعوضة[2].

الشَّرْقَة: بسكون الراء وكسرها: الشمس[3]، والشَّرْق: جهة شروق الشمس، والمشرق مثله[4]، والمراد هنا بالشرقة الغَصَّة، وذلك أنه عندما يشرب وينتهي نفَسُه في الشرب، ويريد أن يزيد ماء، فإنه سيأخذ نفَسًا، وعندما يأخذ نفَسًا والإناء على فيه فلربما سبق الماء إلى الرئة عند أخذ الهواء، فيكون خطرًا عليه[5].

(١) آداب الحسن البصري لابن الجوزي (ص: ١٢٦).
(٢) تاج العروس للزبيدي (٢٥/ ٨٩).
(٣) لسان العرب لابن منظور (١٠/ ١٧٥).
(٤) المصباح المنير للفيومي (١/ ٣١٠).
(٥) شرح بلوغ المرام لعطية سالم (٥/ ٢٨).

المعنى الإجمالي

يقول الحسن: إن ابن آدم ضعيف جدًّا، مسكين، عاجز، خُلق ضعيفا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾ [النساء:٢٨]، عللُه وأسقامه مكتومة، لا يعرفها حيث سترها الله، مكتوم الأجل، لأن الله غيَّبه عنه، فلا يعرف أجلَه إلا ربُّه الذي خلقه، ولشد ضعفه وعجزه عن الدفاع عن نفسه، تعضُّه البعوضة فيتأذىٰ، مع أن حجم البعوض صغير جدًّا لا يكاد يُرىٰ، وكذلك تقتله الشرقة بانحباس الهواء في رئته وضيق النفس، فقتله لا يحتاج إلىٰ قوة كبيرة وعمل كثير، مجرد الشرقة يمكن أن يسبِّب للإنسان الموتَ، وكلَّ يوم يمضي فيه عمر الإنسان ويقترب من الآخرة بعد كل لحظة، يقطع كل يوم ساعاته التي كُتِبت له من الله، فيسير إلىٰ أجله بسرعة. مع هذا كله، وهو يرىٰ نفسه، وعجزها وضعفَها، وينسىٰ كيف وُلد ومن أيِّ شيء خُلِق ومن أين خرج، وكيف نبت ونشأ حتىٰ كبر وترعرع، كما قال تعالىٰ: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ (١٧) مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ (١٨) مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧-١٩]، مع ضعفه الذي خلق فيه، وعجزه عن دفع ضرر البقة عن نفسه، ومنع الشرقة من قتله، يتألىٰ علىٰ الله ويتكبر علىٰ شرع الله، قال سبحانه: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ (٦) أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦-٧]، ظنًّا منه أنه مُسْتَغْنٍ عن غيره وقوي في نفسه، ربما دعاه هذا التكبر والغرور إلىٰ الجرأة علىٰ خلق الله، فعاملهم بالظلم والطغيان، ولو نظر إلىٰ نفسه لرأىٰ حقيقة حالِه، ولكنه أسكره الكبرياء وخدعه الشيطان.

٧٢٤

نقصان العقل بالكبر

قال محمد بن علي الباقر[١] رحمه الله: «ما دخل قلبَ امرئٍ شيءٌ من الكبر إلا نقص من عقله بقدر ما دخل من ذلك، قَلّ أو كَثُرَ»[٢].

المعنى الإجمالي

الكبر يُفْسدُ القلوب، فيبعدها عن الحق، والامتثال له، والاستسلام لسلطانه، ويؤذي الناس باحتقارهم، والسخرية منهم، ولا يسخر من الناس إلا من كان يعاني من نقصٍ لديه، في أي أمر من الأمور، فالكبر-كما يظن المتكبرون- يغطي ما نقص لديهم في صفاتهم، أو مقدراتهم، لكن نقصهم الذي يريدون ستره بستار من الكبر لن يغطي ما يريدون ستره.

وللطاعات وللمعاصي آثارهما على العقل؛ ذلك أنك لا تجد عاقلين أحدهما مطيع لله، والآخر عاصٍ، إلا وعقل المطيع منهما أوفر وأكمل، وفكره أصحّ، ورأيه أسدّ، والصواب قرينه. ولهذا، تجد خطاب القرآن إنما هو مع أولي العقول

(١) محمّد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أبو جعفر، المشهور بمحمد الباقر، من سلالة بيت النبوة، التابعي القدوة، ولد سنة ٥٦هـ، وروىٰ عن أبي سعيد الخدري وجابر وآخرين، أحد الأئمة الاثني عشر عند الشيعة الإمامية، توفي سنة ١١٤هـ. ينظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (٤/ ١٧٤)؛ شذرات الذهب لابن العماد (٢/ ٧٢).

(٢) التواضع والخمول لابن أبي الدنيا (ص: ٢٧٢).

والألباب[١]، كقوله تعالىٰ: ﴿ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة:١٩٧]، وقوله: ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة:٢٦٩]، وقوله: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴾ [الطلاق:١٠].

إن الطاعة تنير العقل والقلب معا، وتكون البركة والخير ظاهرة علىٰ الجوارح، والمعصية تُظلِم العقل والقلب معا، ألم يجعل الله التقوىٰ قرينة العلم، فقال تعالىٰ: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة:٢٨٢].

والكِبْر من المعاصي التي تَذهَب بتواضع القلب ورحمته، وتُنقص من مقدار العقل؛ لأن العقل الذي ينقص من قلة تواضع صاحبه يدل علىٰ نقصان علمه ومعرفته بالله تعالىٰ.

(١) الداء والدواء لابن القيم (١/ ١٩٤).

٧٢٥

البراءة من الكبر

قال حبيب بن أبي ثابت[(١)] رحمه الله: «من وضع جبينه لله تعالى فقد برئ من الكبر»[(٢)].

المعنى الإجمالي

لقد كانت معصية إبليس لله تعالىٰ التي استحق بها الطرد من رحمة الله أنه ما سجد لآدم عليه السلام، وكان الكبر السبب المانع له من السجود، قال الله تعالىٰ: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴾ [ص:٧٥]، لقد رأىٰ إبليس أن عنصره الذي خُلق منه خير من آدم، فامتنع عن السجود، قال الله تعالىٰ: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴾ [الأعراف:١٢].

ومما يشهد علىٰ تواضع العبد لله تعالىٰ وبُعْده عن الكبر أن يضع جبينه علىٰ الأرض لله ساجدًا؛ فإنَّ وَضْعَ ما يراه الإنسان فيه مكرمته وعزته علىٰ الأرض حبًا

---

(١) حبيب بن أبي ثابت قيس بن دينار الأسدي، أبو يحيىٰ، تابعي ومُحدث وفقيه من فقهاء الكوفة، يروي عن ابن عمر وابن عباس، روىٰ عنه الأعمش والثوري، توفي سنة ١١٩هـ ينظر: الطبقات الكبرىٰ لابن سعد (٨/ ٤٣٧)؛ الثقات لابن حبان (٤/ ١٣٧).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٥/ ٦١).

وطاعةً واستسلامًا لله تعالىٰ، لَيَدلَّ علىٰ ما يتحلىٰ به الإنسان المسلم من تواضع لله تعالىٰ.

ومن مفهوم المخالفة أنَّ من لم يضع جبينه علىٰ الأرض ساجدًا لله تعالىٰ فإنَّ في قلبه كبرًا ما هو ببالغه؛ ولذلك حين دعا الرسول ﷺ حيًا من العرب للدخول في الإسلام، فقالوا: كيف نركع ونسجد فتعلونا أستاهنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا خير في دين لا ركوع فيه»(١)، ومع هذه الأنفة، يذلون لمن هم خير منه، هذا يعبد حجرًا! وهذا يعبد خشبة! وقد كان قوم يعبدون الخيل والبقر!(٢).

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩/ ٤٣٨) برقم: (١٧٩١٣)؛ والطبراني في الكبير (٩/ ٥٤) برقم: (٨٣٧٢).
(٢) ينظر: صيد الخاطر لابن الجوزي (ص: ٣٢٤).

٧٢٦

علامـة المتكـبر

قال أبو يزيد البسطامي رحمه الله: «ما دام العبد يظن أن في الخلق من هو شرٌّ منه فهو مُتكبر»[(١)].

المعنى الإجمـالي

رؤية النفس بميزان تقليل الشر فيها، وأنه يوجد من هو شرٌّ منها في أي منحىٰ من مناحي الحياة، يبعد العبد عن التواضع، ويجعله من المتكبرين؛ فالتكبر غمط الناس والتقليل من شأنهم، لكن العاقل إذا رأىٰ من هو أكبر سنًّا منه تواضع له وقال: سبقني إلىٰ الإسلام، وإذا رأىٰ من هو أصغر سنًّا تواضع له وقال: سبقته بالذنوب، وإذا رأىٰ من هو مثله عدَّه أخًا[(٢)].

ولخطورة رؤية النفس متميزة عن الآخرين، وأن شرها أهون من شر الآخرين، ذكر السلف أقوالًا في ذم الأنفس، واتهامها بالتقصير، وإبعادها عن صفة التكبر الذميمة، من ذلك ما قاله الفضيل بن عياض رحمه الله لأخ له في عرفة: «يا أبا صَالِح إِن كنت تظن أَنَّهُ شهد الموسم شرٌّ مني ومنك فبئسما ظننت»[(٣)].

---

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي (٢/ ٣٠٥).

(٢) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء لابن حبان (ص: ٦٢).

(٣) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ٢٨٠)؛ وصفة الصفوة لابن الجوزي (١/ ٤٢٩)

٧٢٧

قبح التكبّر

قال أبو حامد الغزالي[(١)] رَحِمَهُ اللَّهُ: «يقال: التواضع في الخلق كلِّهم حسن، وفي الأغنياء أحسن، والتكبر في الخلق كلِّهم قبيح، وفي الفقراء أقبح»[(٢)].

المعنى الإجمالي

التواضع خُلُقٌ حَسَنٌ في جميع الناس، فالله سبحانه قد أمر به، قال ﷺ: «وإن الله أوحىٰ إليّ أنْ تواضعوا حتىٰ لا يفخر أحد علىٰ أحد، ولا يبغي أحد علىٰ أحد»[(٣)]، وقد رفع الله تعالىٰ من منزلة المتواضعين في الدنيا والآخرة، قال ﷺ: «وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله»[(٤)].

وأحسن ما يكون التواضع حين يكون من الأغنياء، حيث لم تغرّهم أموالهم، ولم تفتنهم ثرواتهم، بل علموا أنهم عباد لله وأنّ- ما بهم من نعمة فمِن الله،

---

(١) محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي، أبو حامد، حجة الإسلام، الشيخ الإمام، فيلسوف، متصوف، الفقيه الشافعي، مشارك في عدد من العلوم، أشهر تلاميذ إمام الحرمين الجويني، درَّس في نظامية نيسابور، له نحو مئتي مصنف، منها: إحياء علوم الدين في التصوف، والوسيط في الفقه، والاقتصاد في الاعتقاد، ولد سنة ٤٥٠هـ وتوفي سنة ٥٠٥هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٩/ ٣٢٢)؛ الوافي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي (١/ ٢١١)؛ الأعلام للزركلي (٧/ ٢٢).

(٢) إحياء علوم الدين للغزالي (٣/ ٣٤٣).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ١٥٨) برقم: (٢٨٦٥).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٢١) برقم: (٢٥٨٨).

فلم يتكبروا على الناس ولم يتعالوا عليهم.

وبعكس التواضع فإن التكبر واستعظام النفس قبيح في جميع الأحوال، لأنه ادّعاء لما لا يملكه الإنسان من صفات الكمال، بل هو منازعة لله ﷻ في صفته، فالكبرياء صفة الله سبحانه، لذلك كانت صفة التكبر مذمومة في جميع الناس سواء كانوا أغنياء أم فقراء، لأن التكبر نسيانٌ لنعمة الله واتصاف بصفة الشيطان.

لكنّ التكبر في الفقراء أقبح منه في الأغنياء مع اشتراكهما جميعا في القبح، قال ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر»(١)، قال القاضي عياض رحمه الله: «سببه: أنّ كلّ واحد منهم التزم المعصية المذكورة مع بُعدها منه، وعدم ضرورته إليها، وضعف دواعيها عنده، وإن كان لا يعذر أحدٌ بذنبٍ لكنْ لمّا لم يكن إلى هذه المعاصي ضرورة مزعجة ولا دواعي معتادة أشبه إقدامهم عليها المعاندة والاستخفاف بحق الله تعالى وقصد معصيته لا لحاجةٍ غيرها،..، وكذلك العائل الفقير قد عَدِم المال، وإنما سبب الفخر والخيلاء والتكبر والارتفاع على القرناء الثروةُ في الدنيا لكونه ظاهرا فيها وحاجات أهلها إليه، فإذا لم يكن عنده أسبابها فلماذا يستكبر ويحتقر غيره؟! فلم يبق فعله إلا لضرب من الاستخفاف بحق الله تعالى، والله أعلم»(٢).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٧٢) برقم: (١٠٧).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٢/ ١١٧).

٧٢٨

سبب التكبّر

قال الفاريابي رَحِمَهُ اللهُ: «التكبرُ: نسيانُ البدايةِ واستحقارُ النهايةِ»(١).

المعنى الإجمالي

التكبر صفة شيطانية مذمومة، تدفع صاحبها إلىٰ التعالي علىٰ الناس والتوهم أنه دائما علىٰ حق، قال ﷺ: «الكبر بَطَرُ الحقّ وغَمْطُ الناس»(٢)، فالكبرياء والعظمة صفتان لله سبحانه، واختص بهما لا يَشْرُكه أحدٌ فيهما، ولا ينبغي لمخلوق أن يتعاطاهما؛ لأن صفة المخلوق التواضع والتذلل، فعن النبي ﷺ فيما يحكي عن الله ﷻ، قال: «الكبرياء رِدائي، والعظَمة إزاري، فمن نازعني في واحدة منهما قذفته في النار»(٣).

فالمخلوق أيا ما كان لا يجوز في حقه أن يتكبر ويتعالىٰ، لأن التكبر تابع لصفة الكمال والجلال وهاتان الصفتان لله ﷻ وحده، أما المخلوق فَصِفَته الضعف اللازم الذي لا يفارقه في جميع أحواله، لكن التكبر نابع من استعظام النفس لتوهم

(١) تهذيب خالصة الحقائق ونصاب غاية الدقائق للفاريابي (ص: ٤١٢).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٦٥) برقم: (٩١).

(٣) أخرجه أبو داود في سننه (٤/ ١٠٢) برقم: (٤٠٩٠)؛ وابن ماجه في سننه (٥/ ٢٧٢) برقم: (٤١٧٤)؛ وأحمد في مسنده (٣/ ١٥٥٥) برقم: (٧٤٩٩).

وجود صفات كمال عند الإنسان، فقد يتوهم الإنسان أن ما عنده من العلم أو الحسَب أو الجمال أو المال أو القوة قد مظهر لكماله فيتكبر بسببها.

علىٰ أن حقيقة الإنسان اليقينية أنه مِن ضَعْف وإلىٰ ضعف، فبدايته ضَعْف حيث إن أصله من نطفة من ماء مهين، وحيث إنه خرج من بطن أمه باكيا، كما أن مرحلة طفولته هي مرحلة ضعف بشكل عام، كما أن مآل الإنسان إلىٰ الضعف بعد أفول زهرة شبابه، حيث يحدودب ظهره ويشيب شعره ويضعف جسمه، قال تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ﴾ [الروم:٥٤]، ثم بعد هذا الضعف ينتهي بالموت ليأكله الدود والتراب.

فإذا نسي الإنسان بدايته وما فيها من ضعف وهوان، وإذا لم يتفكر في نهايته وعاقبة أمره واستخف بذلك واستحقره، كان ذلك سببا لاغتراره بما يملكه من مظاهر عظمة زائفة، وأدىٰ ذلك إلىٰ تكبره وتعظيمه لنفسه، ولذا يجب علىٰ الإنسان أن يستذكر بدايته ونهايته دائما حتىٰ لا يقع في الكبر والغرور، قال مالك ابن دينار ﵀ لأحد الملوك: «أنت الذي أوّلك نطفةٌ مَذِرة، وآخرك جيفةٌ قَذِرة، وأنت بينهما تحمل العَذِرة[١]»[٢].

---

(١) مذرة: فاسدة. العذرة: الغائط. ينظر: لسان العرب لابن منظور (٤/ ٥٥٤)، و (٥/ ١٦٤).

(٢) تثبيت دلائل النبوة للقاضي عبد الجبار (٢/ ٦٤٦).

٧٢٩

الكبر لله وحده

قال الفاريابي رحمه الله: «الكبرُ من صفات الربوبية، والتواضع من نُعوت العبودية»(١).

بيـان المفردات

نعوت: جمع نَعْت وهو الوصف(٢).

المعنى الإجمـالي

من أسماء الله تعالىٰ الواردة في القرآن: «المتكبر» أي: شديد العظمة والجلالة، قال تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الحشر:٢٣]، وقد تقدم في الحديث القدسي قول الله تعالىٰ: «الكبرياء رِدائي، والعظَمة إزاري، فمن نازعني في واحدة منهما قذفته في النار»(٣)، فالعز والعظمة والكبرياء، من أوصاف الله تعالىٰ الخاصة به، التي لا تنبغي لغيره، فمن تعاطىٰ شيئا منها أذلّه الله تعالىٰ وصغّره

(١) تهذيب خالصة الحقائق ونصاب غاية الدقائق للفاريابي (ص: ٤١٦).

(٢) لسان العرب لابن منظور (٢/ ٩٩).

(٣) أخرجه أبو داود في سننه (٤/ ١٠٢) برقم: (٤٠٩٠) وابن ماجه في سننه (٥/ ٢٧٢) برقم: (٤١٧٤) وأحمد في مسنده (٣/ ١٥٥٥) برقم: (٧٤٩٩).

وحقّره وأهلكه، كما قد أظهر الله تعالىٰ من سنته في المتكبرين السابقين واللاحقين[١].

والتواضع من نعوت العبودية وصفاتها، حيث وصف الله تعالىٰ المؤمنين بقوله: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [الفرقان:٦٣]، أي: حلماء متواضعين[٢]، وقد جاءت أحاديث كثيرة تبين فضل التواضع، فعن رسول الله ﷺ قال: «مَن ترك اللباس تواضعا لله وهو يَقْدر عليه دعاه الله يوم القيامة علىٰ رؤوس الخلائق، حتىٰ يخيّره من أي حُلَل الإيمان شاء يلبسها»[٣]، والتواضع هو خلق المؤمنين، ومن أمثلة ذلك أن ابن عباس أخذ بركاب زيد بن ثابت رضي الله عنهما، فقال له: «تنحّ يا ابن عم رسول الله ﷺ فقال: إنا هكذا نفعل بكبرائنا وعلمائنا»[٤].

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم للقرطبي (٦/ ٦٠٧).

(٢) تفسير القرطبي (١٣/ ٦٨).

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٢٦١) برقم: (٢٤٨١)، وقال: حديث حسن.

(٤) أخرجه الحاكم في مستدركه (٣/ ٤٢٣) برقم: (٥٨٣٦)؛ والبيهقي في سننه الكبير (٦/ ٢١١) برقم: (١٢٣٢٤).

٧٣٠

أقبــح الادّعــاء

قال ابن عطاء الله السكندري رَحِمَهُ اللَّهُ: «منعك أن تدّعي ما ليس لك مما للمخلوقين، أفَيُبيح لك أن تدّعي وصْفَه وهو رب العالمين؟!»[(١)].

المعنى الإجمــالي

لا يحق لأحد من الناس أن يدعي مِلك شيء يختص به غيره من الناس، ولا تقبل دعوى من ادعى ذلك حتى يأتي عليه بالبينة التي تثبت دعواه، قال ﷺ: «البينة على المدّعي، واليمين على المدعى عليه»[(٢)]، وقد منع الشرع ذلك لأنه من الاعتداء والجور على حق الغير، وهذا المنع يشمل الأشياء المادية كالأموال والممتلكات، ويشمل الأمور المعنوية كالكذب في نسبة أفعال لم يفعلها وإنما فعلها غيره، كمن ادعى أنه تصدّق على فقير مع أن المتصدق شخص آخر وليس هو.

والله سبحانه له المثل الأعلى في السماوات والأرض، فإذا كان قد حَرّم على الإنسان أن ينسب لنفسه شيئا لمخلوق آخر ليس عنده فمن باب أولى أن يمنعه أشد المنع أن ينسب إلى نفسه صفة من صفات الله ﷻ، فعن النبي ﷺ فيما يحكي عن

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ٩٧).

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه (٣/ ١٨) برقم: (١٣٤١)، وقال: هذا حديث في إسناده مقال.

الله ﷻ أنه قال: «الكبرياء رِدائي، والعظَمة إزاري، فمن نازعني في واحدة منهما قذفته في النار»[(١)]، قال الخطابي ﵀: معنىٰ هذا الكلام أن الكبرياء والعظمة صفتان لله سبحانه، واختص بهما لا يَشْرُكه أحدٌ فيهما، ولا ينبغي لمخلوق أن يتعاطاهما؛ لأن صفة المخلوق التواضع والتذلل، وضرب الرداء والإزار مثلا في ذلك، يقول - والله أعلم: كما لا يشرك الإنسانُ في ردائه وإزاره فكذلك لا يشركني في الكبرياء والعظمة مخلوق[(٢)].

وإذا أنعم الله علىٰ الإنسان بشيء من القوة أو الملك أو الغنىٰ، فإن المسلم يعلم أن هذه الأشياء إنما هي أفضال من الله تمنّن بها علىٰ بعض عباده، وأقدار أجراها بعلمه ومشيئته، فالغني والقوي والمالك وصاحب العزة والكبرياء هو الله وحده، وأما ما اتصف به الناس من ذلك فهو ليس قائمًا بذاته، وإنما هو بمشيئة رب العالمين الذي يدبر أمورهم بعلمه ولطفه وحكمته.

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٤/ ١٠٢) برقم: (٤٠٩٠)؛ وابن ماجه في سننه (٥/ ٢٧٢) برقم: (٤١٧٤)؛ وأحمد في مسنده (٣/ ١٥٥٥) برقم: (٧٤٩٩).

(٢) معالم السنن للخطابي (٤/ ١٩٦).

٧٣١

وبال الاستكبار عن الحق

قال ابن تيمية ﷺ: «المستكبر عن الانقياد للحق يُبتلى بالانقياد للباطل»[١].

بيان المفردات

الانقياد: الخُضوع[٢].

المعنى الإجمالي

المعاندة وعدم الانقياد للحق هو صفة الكافرين الجاحدين، قال تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل:١٤]، والانقياد للحق هو صفة المؤمنين، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور:٥١].

فمن استكبر عن اتباع الحق أذلّه الله وأهانه وجازاه بأنْ جعله ينقاد للباطل، كما حصل مع طائفة من اليهود الذين استكبروا عن الحق فابتلوا بعبادة الأصنام، قال تعالى عنهم: ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٧/ ٦٢٩).

(٢) لسان العرب لابن منظور (٣/ ٣٧٠).

مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [المائدة:٦٠].

فمن تكبر عن الانقياد للحق أذله الله ووضعه؛ فإن من تكبر عن الانقياد للحق -ولو جاءه على يد صغير أو من يبغضه ويعاديه- فإنما تكبر على الله، فإن الله هو الحق، وكلامه حق، ودينه حق، والحق صفته ومنه وله، فإذا رده العبد وتكبر عن قبوله، فإنما رد على الله، وتكبر عليه(١).

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ٧٥).

٧٣٢
المتكبر ذليل

قال ابن القيم رحمه الله: «من تكبر عن الانقياد للحق أذلَّه الله وصغَّره ووضعه»[(١)].

المعنى الإجمالي

بين النبي ﷺ معنى الكبر فقال: «الكِبْرُ بطر الحق وغمط الناس»[(٢)]، فالمتكبر إن ظهر له الحق لم يقبل به وردّه عنادا واعتدادا برأيه؛ وحفاظا على غروره كيلا ينكسر كبرياؤه، فكان جزاؤه من جنس عمله، ومعاملته بنقيض قصده، فكان رده للحق سببا في إذلاله واحتقار الناس له، وسقوط منزلته من قلوبهم.

وإبليس لما تكبر على أمر الله تعالى، ورفض السجود لآدم عنادا وكبرا، أذله الله وألحق به الصغار والهوان؛ فطرده من الجنة، وحرمه من رحمته، قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٢-١٣].

وبسبب الكبر تخلف اليهود عن الإيمان بالرسول ﷺ، مع علمهم بصحة

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ٧٥).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٦٥) برقم: (٩١).

نبوته، والكبر هو الذي منع عبد الله بن أبي من الايمان، وبه تخلف الايمان عن أبي جهل وسائر المشركين، فإنهم لم يكونوا يرتابون في صدقه، لكن حملهم الكبر والحسد على الكفر، فطبع الله على قلوبهم، وماتوا على الكفر.

وقد جعل الله النار دار المتكبرين الذين كفروا بالله، قال سبحانه: ﴿ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [الزمر:٧٢]، وأي هوان وذل أكبر من هوان وذل أصحاب النار، الذين بين الله ذلهم في النار فقال: ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ [الشورى:٤٥].

باب الدعاء والمناجاة

٧٣٣

رؤية الله تعالى بالقلب

قال معاذ بن جبل رضي الله عنه: «كلِّم الناسَ قليلاً، وكلِّمْ ربَّك تعالى كثيراً؛ لعلَّ قلبَك يرى اللَّهَ تعالى»[1].

المعنى الإجمالي

الكلام نعمة من الله تعالىٰ علىٰ بني الإنسان؛ ليعبروا عن أغراضهم واحتياجاتهم بأصوات وجُملٍ وكلامٍ مفيدٍ، والإكثار من الكلام لا يفيد القلب والعقل، بل يُظلمهما ويُفسدهما، وما أكثر عبد من الكلام إلا قسا قلبه، وقلَّ بهاؤه، وعقمت حكمته، وكثر سقطه. وقيل عن كثرة الكلام أيضا أن فيه قلة الورع وعدم التقوىٰ وطول الحساب وكثرة المطالبين وتعلق المظلومين وكثرة الأشهاد من الملائكة الكاتبين ودوام الإعراض من الملك الكريم؛ لأن الكلام مفتاح كبائر اللسان، فيه الكذب والغيبة والنميمة والبهتان، وفيه شهادة الزور، وفيه قذف المحصن والافتراء علىٰ الله تعالىٰ والإيمان، وفيه القول فيما لا يعني والخوض فيما لا ينفع[2].

إن العبد العاقل يعلم أنه محتاج إلىٰ الله تعالىٰ أكثر من حاجته للبشر؛ فيكثر من

(١) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ٢٤٨)

(٢) قوت القلوب لأبي طالب المكي (١/ ١٧٥).

الكلام مع الله، ويكون إكثار الكلام معه بقراءة كتابه الكريم، والإكثار من حمده وشكره وذكره، والتلذذ بمناجاته والتضرع بين يديه، وكثرة الإلحاح عليه بالدعاء، وذلك بعد حمده والثناء عليه، بأسمائه الحسنىٰ، وصفاته العلىٰ، فمن فعل ذلك يوشك أن يكون قلبه متصلًا بالله مطمئنا، بل لعله بصفائه واتصاله بالله تعالىٰ يرىٰ ربه سبحانه وتعالى.

٧٣٤

هَمُّ الدعاء

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إني لا أحمل هَمَّ الإجابة، ولكن أحمل هَمَّ الدعاء، فإذا أُلْهِمْت الدعاءَ علمتُ أن الإجابة معه»(١).

بيان المفردات

الإلهام: هو ما يبدو في القلب من المعروف بطريق الخير ليُفعل، وبطريق الشر ليُترك، وهو ما يُلقىٰ في الرُّوع، يقال: أَلْهَمَه اللهُ، واستلهم اللهَ الصبر(٢).

المعنى الإجمالي

الدعاء من أقوىٰ الأسباب الجالبة للنفع والدافعة للضرر، ومن العبادات التي يتعبد بها العبد إلىٰ ربه؛ فيذل ويخشع، ويستكين ويتضرع، وقد ذكر الله شأن قوم أصابهم العذاب فما استكانوا لربهم وما تضرعوا، قال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ [المؤمنون:٧٦].

وإذا جمع الدعاءُ حضورَ القلب وجمعيته بكليته علىٰ المطلوب، وصادف وقتا

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ١٠٣)؛ اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية (٢/ ٢٢٩)، ولم نقف عليه في مصدر أقدم منه.

(٢) الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري (١/ ٨٣)؛ ومختار الصحاح للرازي (ص: ٢٨٦).

من أوقات الإجابة الستة وهي: الثلث الأخير من الليل، وعند الأذان، وبين الأذان والإقامة، وأدبار الصلوات المكتوبات، وعند صعود الإمام يوم الجمعة على المنبر حتى تقضى الصلاة، وآخر ساعة بعد العصر من ذلك اليوم(١).

إن الإلهام والتوفيق في الدعاء يكونان من الله تعالى للعبد الداعي له؛ وذلك بتوفيقه باختيار الزمان والمكان المناسبين، وكذا اختيار الألفاظ المأثورة الجامعة عن النبي ﷺ همٌّ يحمله الداعي، فإذا بدأ في الدعاء مستحضرًا هيبة الله وجلاله وعظمته، وآخذًا بآداب الدعاء وأوقاته فإن الإجابة لهذا الدعاء حاصلة بإذن الله تعالى.

فمن ألهم الدعاء فقد أريد به الإجابة، فإن الله سبحانه يقول: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر:٦٠]، وقال: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة:١٨٦].

(١) الداء والدواء لابن القيم (١/ ١٦).

٧٣٥

دعاء الغريق

قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: «ليأتينَّ على الناس زمان لا ينجو فيه إلا من دعا بدعاءٍ كدعاء الغريق»(١).

المعنى الإجمالي

يتميز المكروب المضطر ذو الحاجة الملْجئة بصدق دعائه، وكثرة إلحاحه على ربه، والله سبحانه وتعالى يجيب من دعاه مضطرًا تائبًا آيبًا، ويكشف السوء عنه، قال الله تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل:٦٢].

إن زماننا الذي نعيشه ونعايش ما به من مصائب ومصاعب وابتلاءات وفتن كقطع الليل المظلم، كما روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «بادروا بالأعمال فتنا كقِطَع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا، ويمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع دينه بعرض من الدنيا»(٢).

وفي الحديث: «إنها ستأتي على الناس سنون خدَّاعة، يُصَدّق فيها الكاذب،

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (١/ ٢٧٤).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ١١٠) برقم: (١١٨).

ويُكَذِّب فيها الصادق، ويُؤتَمَن فيها الخائنُ، ويُخَوَّن فيها الأمينُ، وينطق فيها الرُّوَيْبِضَةُ»، قيل: وما الرويبضة يا رسول الله؟ قال: «السفيه يتكلم في أمر العامة»(١).

لا ينجو من بين كل هذه الفتن والمحن والابتلاءات أحد من العباد، ولا مخرج له منها، إلا أن يكون دعاؤهم دعاء المضطرين، دعاء كدعاء من كاد الغرق أن يكون نصيبه؛ فقد نجَّا الله تعالىٰ المشركين من الغرق، حين كانوا يدعونه بإخلاص واضطرار، قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء:٦٧]، وقال تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت:٦٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ [لقمان:٣٢].

ومن ذلك أن يدعو العبد ربه بدعاء الكرب، وهو الدعاء الذي رواه ابن عباس رضي الله عنهما أن نبي الله ﷺ كان يقول عند الكرب: «لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السماوات ورب الأرض ورب العرش الكريم»(٢).

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٣/ ٢٩١) برقم: (٧٩١٢)؛ وابن ماجه في سننه (٥/ ١٦٢) برقم: (٤٠٣٦).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٩٢) برقم: (٢٧٣٠).

٧٣٦

إطالة الثناء في الدعاء

قال يحيى بن معاذ رحمه الله: «إلهي، أحلى العطايا في قلبي رجاؤك، وأعذب الكلام على لساني ثناؤك، وأحب الساعات إليّ ساعةٌ يكون فيها لقاؤك»(١).

المعنى الإجمالي

يطلب من المرء حين ملاقاة من يخاف سطوتهم، أو يرجو نوالهم أن يثني عليهم، والمرء يفعل ذلك مع مَنْ هم مثله خِلقةً وصُنعًا، فَلِمَ لا يفعل العباد ذلك مع الله تعالىٰ؟ الذي يستحق أن يحمد حمدًا كما يحب ويرضىٰ، حمدًا يكافئ نعمه، ويُوافي مزيده، فهو أهل الثناء والمجد.

إن أحلىٰ وأعظم عطية أعطاها الله عباده رجاؤه ومحبته، والأمل في عفوه ورضوانه؛ فلا يقنط ولا ييأس، إذ يكون القلب بعد قراءته لآيات المغفرة والرحمة والحث علىٰ التوبة راجيا لله، ومن تلك الآيات قوله تعالىٰ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور:٣١]، وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣].

(١) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ٢٦١).

وأعذب ما يقوله اللسان الاسم الجليل (الله)، ثم التثنية بالثناء عليه بأسمائه الحسنىٰ وصفاته العلىٰ؛ فالنفوس المتعطشة ترتوي بحمد الله والثناء عليه، والقلوب الخائفة المضطربة تهدأ بالثناء عليه، وتحس بالهدوء والسكينة والاطمئنان عند ذكرها الله، وترديدها اسمه الكريم، فهي تحتمي بحماه من لظىٰ الدنيا، ومن شرر الباطل وأهله، ومن ضعف النفس وشهواتها، ومن نوائب الدهر ومكارهه.

﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ [مريم:٦٥].

وأحبُّ ساعة من ساعات العبد في دنياه حين يلاقي ربه فيناجيه، ويدعوه ويستغفره، وفي يوم القيامة يلقىٰ المحبون محبوبهم وخالقهم الذي وحَّدوه وعبدوه، وعرفوه، وأثنوا عليه الخير كله، فحين يلقونه يجدون العطايا العظيمة، والفضل الكبير، والجزاء الجزيل، والرضا الذي لا سخط بعده، ولا خوف معه.

ولقد كان النبي ﷺ يدعو الله فيقول: «وأسألك الشوق إلىٰ لقائك في غير ضراء مُضرَّة، ولا فتنةٍ مُضِلَّة»[١].

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٥/ ٣٠٥) برقم: (١٩٧١)؛ والنسائي في السنن الكبرىٰ (٢/ ٨١) برقم: (١٢٢٩)؛ وأحمد في مسنده (٣٠/ ٢٦٥) برقم: (١٨٦١٥).

٧٣٧

مناجاة

قال يحيى بن معاذ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إلهي، كيف أفرح وقد عصيتك؟ وكيف لا أفرح وقد عرفتك؟ وكيف أدعوك وأنا خاطئ؟ وكيف لا أدعوك وأنت كريم؟»(١).

المعنى الإجمالي

هذه المناجاة الصادقة من يحيىٰ بن معاذ يشكو فيها لربه ما ينتابه من مشاعر متناقضة، فهو يحزن بسبب المعصية وهو في نفس الوقت فرِحٌ بمعرفة ربه، وهذا من علامة صدق العبد؛ فالعبد إذا كان صادقًا في إيمانه وكان قلبه يقظًا ساءته معصيته، فهو لا يعصي الله متعمّدًا، وإنما تغلبه شهوته، ويضعف أمامها فيقع في المعصية، عند ذلك يصيبه الهم والحزن، وتستيقظ نفسه تلومه علىٰ ما اقترف، وهذا هو شأن المؤمن؛ ورد في الحديث: أن رجلًا سأل رسول الله ﷺ: ما الإيمان؟ قال: «إذا سرتك حسنتك، وساءتك سيئتك فأنت مؤمن»(٢).

---

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي (٢/ ٢٩٢).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦/ ٤٩٧) برقم: (٢٢١٦٦)؛ والطبراني في المعجم الكبير (٨/ ١٧٧) برقم: (٧٥٤٠)؛ والحاكم في المستدرك (١/ ٥٨) برقم: (٣٣)؛ والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٤٩٧) برقم: (٥٣٦٢). قال الذهبي: هذا حديث صحيح عالٍ، ولم يخرجوه. ينظر: معجم الشيوخ الكبير للذهبي (١/ ٣٦١).

ومن أعظم النعم وأكثر دواعي الفرح هو معرفة الله ﷻ؛ هذه المعرفة هي أصل الإيمان، إذ الإيمان هو أن يعرف الإنسان ربه معرفة يصل بها إلىٰ اليقين، ويبلغ بها مرتبة الإحسان، فكلما زادت معرفة العبد بالله تعالىٰ زاد إيمانه، وكلما زادت معرفته بربه زاد حبًّا وتعظيمًا له، فالمحبة والتعظيم من فروع المعرفة، وكيف لا يفرح الإنسان إن وصل إلىٰ هذه المرتبة التي فيها سعادته في الدنيا والآخرة! فمن عرف ربه فقد وصل إلىٰ معرفة الغاية من وجوده.

ثم يواصل الإمام يحيىٰ بن معاذ مناجاته لربه وبث ما يجد من مشاعر متناقضة في داخله؛ فهو يريد أن يرفع يديه إلىٰ ربه ليدعوه ويطلب منه، ولكنه يتذكر ذنوبه وخطاياه فيصيبه الخجل من ربه؛ إذ كيف له أن يطلب من ربه وقد عصىٰ أوامره! فلو أنك أسأت إلىٰ إنسان وخالفت أوامره فهل تستطيع أن تواجهه وتطلب منه العون والمساعدة؟ ولكنه سرعان ما يتدارك ويتذكر أن الله ﷻ كريم لا يمكن أن يُقاس بأحد من خلقه، فهو أكرم الأكرمين، كيف لا يرحم مَن خلقهم وهو يعلم ضعفهم! وهذا ما يجعل المؤمن يطمع بكرم الله فيدعوه ويطلب منه رغم مخالفته لأوامره وارتكابه للمعاصي؛ قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣].

٧٣٨

البلاء والدعاء

قال يحيى بن معاذ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن لقيَني القضاء بكيدٍ من البلاء، لقيت القضاء بكيدٍ من الدعاء»(١).

المعنى الإجمالي

في هذه الحكمة الجليلة يشير يحيىٰ إلىٰ قول النبي ﷺ: «لا يردُّ القضاءَ إلا الدعاءُ، ولا يزيد في العمرِ إلا البرُّ»(٢). وهذا نصٌّ في أن الله تعالىٰ لَمَّا كتب اقدارَ البشر وقضىٰ القضاء، جعل القضاء علىٰ قسمين: قسم أبرم اللهُ أمرَه فيه، فلا تغيير ولا تبديل، وقسم آخر: قضاء معلَّق، علَّق اللهُ أمرَه علىٰ أعمال العباد، فإذا رأىٰ منهم توبةً وإنابةً إليه بالدعاء والتضرُّع غيَّر لهم ما قضىٰ وِفقَ عملِه ومصلحة عباده، وهذا الذي قصده يحيىٰ، والله أعلم.

فالدعاء من أقوىٰ الأسباب لجلب المنافع ودفع المضار، لاستجلاب الرحمات وكشف البليات، فإن قال قائل: لا فائدة من الدعاء، يكون كمن يقول: لا فائدة في الأكل والشرب وجميع الحركات والأعمال، وليس شيءٌ من الأسباب

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٥٣).

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ١٨) برقم: (٢١٣٩)، وقال: حسن غريب؛ والطبراني في الكبير (٦/ ٢٥١) برقم: (٦١٢٦).

أنفعَ من الدعاء، ولا أبلغ في حصول المطلوب(١).

فها هو النبي ﷺ يستغيث بالله بدعائه يوم الطائف وبدر وأحد والأحزاب وغيرها من المواقف النبوية التي حفظتها كتب السنة والسيرة. وكان صحابته رضي الله عنهم يدعون الله في أحوالهم كلها، وهم أعلمُ الأمة بالله ورسوله ﷺ وأفقههم في دينه، كانوا أقومَ بهذا السبب وشروطه وآدابه من غيرهم. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يستنصر به علىٰ عدوه، وكان أعظم جنديه، وكان يقول للصحابة: «لستم تُنصَرون بكثرة، وإنما تُنصَرون من السماء»، وكان يقول: «إنِّي لا أحمل همَّ الإجابة، ولكن همَّ الدعاء، فإذا أُلهِمتُ الدعاءَ فإنّ الإجابة معه»(٢).

إن العبد المؤمن يستعين بالدعاء لرد القضاء، وهذا لا يكون إلا بأمر الله تعالىٰ وتقديره ولطفه، وأن يكون الدعاء من قلب مخلص يشعر معه العبد أن الله لا يخيب رجاءه وأمله.

---

(١) ينظر: الداء والدواء لابن القيم (١/ ٢٩).

(٢) ينظر: الداء والدواء لابن القيم (١/ ٢٩).

٧٣٩

نظرة العارف لنفسه

قال يحيى بن معاذ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كيف أحب نفسي وقد عصتْكَ! وكيف لا أحبها وقد عرفتْك!»(١).

المعنى الإجمالي

إن المؤمن مهما جاهد نفسه ومنعها من الوقوع في المعاصي فإنها لا بد أن تتفلت منه، ولا يمكن إلا وأن تصيبه الغفلة فيقع في المعاصي، ولكن المؤمن التقيّ سرعان ما ينتبه ويرجع إليه رشده، وتلومه نفسه، فيعود إلىٰ ربه؛ قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾ [الأعراف:٢٠١]. ولكن هناك قوم وصلوا إلىٰ مرتبة أعلىٰ من مقام التقوىٰ، هؤلاء لا يرضون عن أنفسهم، بل يمقتونها في ذات الله؛ لأنها لا تستقيم لهم علىٰ طاعة الله كما يريدون، فالنفس مهما استقامت لا يمكن أن تنسلخ عن صفاتها الشهوانية؛ عن أبي الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «لا يفقه الرجل كل الفقه حتىٰ يمقت الناس في جنب الله، ثم يرجع إلىٰ نفسه فيكون لها أشدّ مقتًا»(٢).

ولكن هذه النظرة للنفس من هؤلاء إنما كانت لشدة محبتهم لربهم، ولكنهم

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي (٢/ ٢٩٦).

(٢) محاسبة النفس لابن أبي الدنيا (ص: ٧٢).

مع ذلك لا يمكن أن يكرهوها كرهًا دائمًا، كيف وقد وصلت إلىٰ معرفة الله ﷻ، كيف وقد لانت لهم واستجابت حتىٰ أصبحت من النفوس الراضية! فهم إنما يمقتونها لتزداد استقامة، ولكنهم ينظرون إليها من ناحية أخرىٰ فيرون أنها تستحق المحبة والشكر لأنها كانت السبب فيما وصلوا إليه في معرفة الله ﷻ.

ولقد كان النبي ﷺ يعلمنا القول الحسن بشأن الأنفس، وما هو الاختيار اللفظي الذي ينبغي علىٰ العبد اختياره لبيان قصور النفس وضعفها، فعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ، قال: «لا يقلْ أحدكم: خبُثَتْ نفسي، وليقل: لقِستْ نفسي»(١).

ولا فرق بين خَبُثت ولَقِست، وإنما كره النبي ﷺ من ذلك اسم الخُبث، واختار اللفظة السالمة، والخُبْث واللَّقْس وإن كان المعنىٰ المراد يتأدّىٰ بكل منهما، لكن لفظ الخُبث قبيح، ويجمع أمورًا زائدة علىٰ المراد، بخلاف اللَّقْس فإنه يختص بامتلاء المعدة، وفيه أن المرء يطلب الخير حتىٰ بالفأل الحسن، ويضيف الخير إلىٰ نفسه ولو بنسبةٍ ما، ويدفع الشر عن نفسه مهما أمكن(٢).

فالنفس وإن كانت تُبْعِد العبد عن ربه فترة، لكنها إن صلحت وهُدِيت إلىٰ سبيل الرشد، وتركت سبل الغي والضلال فإنها تُحَبُّ؛ إذ خيرُ الأنفس من عرفت ربها، ودانت له بالخضوع والاستسلام.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٤١) برقم: (٦١٧٩).

(٢) ينظر: فتح الباري لابن حجر (١٠/ ٥٦٤).

٧٤٠

الذنوب سبب عدم الإجابة

قال يحيى بن معاذ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا تستبطئ الإجابة إذا دعوت وقد سدَدْتَ طُرقاتها بالذنوب»[(١)].

المعنى الإجمالي

طمأن الله عباده المؤمنين بأنه قريب منهم يجيب دعاءهم إذا دعوه، فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة:١٨٦]، فالله قريبٌ من عباده، يسمع نداءهم، ويجيب دعوتهم، لكن هناك موانع تمنع الدعاء من الوصول، منها الذنوب والمعاصي، وقد تتأخر إجابة الدعاء لحكمة ربانية، فلا يستبطئ العبد إجابة الدعاء، فيستعجل حصول الإجابة؛ فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «يُستجاب لأحدكم ما لم يَعْجَل، يقول: دعوتُ فلم يُستجَبْ لي»[(٢)].

وقد ذكر ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ ستَّ حكمٍ لتأخير إجابة الدعاء، وهي:

الأولى: أنه قد ثبت بالبرهان أن الله عَزَّ وَجَلَّ مالك، وللمالك التصرف بالمنع والعطاء، فلا وجه للاعتراض عليه.

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي (٢/ ٢٩٤)، حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٥٣).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٧٤)، برقم: (٦٣٤٠).

والثانية: أنه قد ثبتت حكمته بالأدلة القاطعة، فربما رأىٰ الداعي الشيء مصلحة، والحكمة لا تقتضيه، وقد يخفىٰ وجه الحكمة فيما يفعله الطبيب من أشياء تؤذي في الظاهر، فلعل هذا من ذاك.

والثالثة: أنه قد يكون في التأخير مصلحة، والاستعجال مضرة، وقد قال النبي ﷺ: «لا يزال العبد في خير ما لم يستعجل، يقول: دعوت فلم يستجب لي»[١].

والرابعة: أنه قد يكون امتناع الإجابة لآفة في الداعي، فربما يكون في مأكوله شبهة، أو كان القلب وقت الدعاء في غفلة، أو لذنب ما صدق العبد في توبته منه.

والخامسة: أنه ينبغي أن يقع البحث عن المقصود بهذا المطلوب، فربما كان في حصوله زيادة إثم، أو تأخير عن مرتبة خير، فكان المنع أصلح.

والسادسة: أنه ربما كان هناك سبب من فَقْدٍ فقده العبد جعله يقف علىٰ الباب واللجأ، وحصوله سببا للاشتغال عن المسؤول. وهذا الظاهر، بدليل أنه لولا هذه النازلة ما كان العبد علىٰ باب اللجأ، فالحق ﷻ علم من الخلق اشتغالهم بالبر عنه، فلذعهم في خلال النعم بعوارض تدفعهم إلىٰ بابه، يستغيثون به، فهذا من النعم في طيِّ البلاء[٢].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠/ ٣١١)، برقم: (١٣٠٠٨).

(٢) ينظر: صيد الخاطر لابن الجوزي (ص: ٨٣-٨٤).

٧٤١

غضب الله لمن ترك سؤاله

قال يحيى بن معاذ رحمه الله: «يا من يغضب على من لا يسأله، لا تمنعْ مَن قد سألك»[(١)].

المعنى الإجمالي

يغضب بنو آدم حين سؤالهم، ولا يكترثون بما كان من سالف الود بين السائل والمسؤول؛ ذلك أن بني آدم جُبلوا على الأثرة والأنانية، وعدم تقبل الآخرين إن أكثروا في طلبهم وسؤالهم، ويكون هذا السلوك واضحا عند الكافرين. كما قال تعالى: ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴾ [الإسراء:١٠٠].

لكن الله تعالى يغضب من عبده إن لم يَدْعُه ويسأله، بل لقد جعل الله الدعاء عبادة، وجعل من يستكبر عنها داخلا جهنم ذليلا صاغرا، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر:٦٠]. **وفي هذا المعنى يقول الشاعر[(٢)]:**

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي (٢/ ٢٩٦).

(٢) ينظر: الدر الفريد وبيت القصيد للمستعصمي (٢/ ٤٣)، ولم ينسبه إلى أحد.

اللهُ يغضـــبُ إن تركـــتَ ســـؤالَه ... وبُنَـــيَّ آدمَ حـــين يُســـأَلُ يغضـــبُ

فلما كان الله يغضب عن المستكبرين التاركين دعاءه وسؤاله، فإنه يجيب من سأله ودعاه ورجاه وتضرع بين يديه، وأظهر مسكنته وذله وحاجته وافتقاره.

٧٤٢

ريحُ الأسحار

قال ابن الجوزي رحمه الله: «لو استنشقتَ ريحَ الأسحارِ لأفاق منك قلبكَ المخمور»[١].

بيان المفردات

الاستنشاق: هو الشمّ، أي: إدخالُ الهواء في الأنف، واستعمله الشَّرع في إدخال الماء إلىٰ الأنف في الوضوء[٢]، والمراد هنا الأول.

الأسحار: جمع سَحَر، وهو آخرُ الليل[٣].

المعنى الإجمالي

أيّها الغافل عن الآخرة، ويا أيها السكران بحُبّ الدنيا لو استيقظتَ بالأسحار ولجأتَ إلىٰ الله بالذكر والصلاة والاستغفار لأفاق قلبُك السكران بحب الدنيا وشهواتها، فإنَّ السحر هو وقت النزول الإلهي ونشر الرحمات، كما قال ﷺ:

(١) المدهش لابن الجوزي (ص: ١٦٢).
(٢) ينظر: لسان العرب لابن منظور (١٠/ ٣٥٣).
(٣) ينظر: تهذيب اللغة للأزهري (٤/ ١٧١)؛ تاج العروس للزبيدي (١١/ ٥١٢)؛ معجم متن اللغة لأحمد رضا (٣/ ١١٤).

«يتنزّل ربنا ﷻ كلَّ ليلةٍ إلىٰ السماء الدنيا حين يبقىٰ ثلث الليل الآخر، يقول: مَن يدعوني فأستجيبَ له؟ مَن يسألني فأُعطيَه؟ ومَن يستغفرني فأغفرَ له»(١).

وقد أثنىٰ الله تعالىٰ علىٰ عباده المتّقين فقال: ﴿ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات:١٨]، وقال عن بعض عباده: ﴿ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ [آل عمران:١٧].

فالأسحار هي ساعة التجلي ونزول الرحمة، تصفو فيها النفس، وتتلقىٰ فيها الأنوار الإلهية.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ٥٢) برقم: (١١٤٥)؛ ومسلم في صحيحه (٢/ ١٧٥) برقم: (٧٥٨)، واللفظ للبخاري.

٧٤٣

ظهور المحاسن والمساوئ

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «إلهي، إن ظهرت المحاسن مني فبفضلك، ولك المنّةُ عليّ، وإن ظهرت المساوي منّي فبعدلك، ولك الحجة عليّ»(١).

المعنى الإجمالي

المناجاة الصادقة من العبد لربه من أعظم الوسائل التي تقوي إيمان العبد وتزيده قربا من الله تعالىٰ، ومن المناجاة الصادقة أن يعترف العبد بنعم الله ومنّته عليه وعجزه عن شكرها، كذلك اعترافه بذنوبه وتقصيره والتي لا عذر له فيها.

واعتراف العبد بذنوبه في مقابل نعم الله عليه هو أعظم صيغة للاستغفار؛ عن النبي ﷺ: «سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا علىٰ عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء لك بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»(٢)، قال ابن أبي جمرة رحمه الله: «جمع ﷺ في هذا الحديث مِن بديع المعاني وحسن الألفاظ ما يحق له أنه يسمىٰ سيد الاستغفار؛ ففيه الإقرار لله وحده بالإلهية والعبودية،

---

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ١٤٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٦٧) برقم: (٦٣٠٦).

والاعتراف بأنه الخالق، والإقرار بالعهد الذي أخذه عليه، والرجاء بما وعده به والاستعاذة من شر ما جنىٰ العبد علىٰ نفسه، وإضافة النعماء إلىٰ موجدها وإضافة الذنب إلىٰ نفسه، ورغبته في المغفرة، واعترافه بأنه لا يقدر أحد علىٰ ذلك إلا هو[1].

وفي هذه المناجاة يجمع الإمام ابن عطاء ﷺ بين شكر الله علىٰ نعمه، وبين معرفة فضله والإقرار بعدله؛ فالعبد لا يخلو من إحدىٰ حالين: إما أن يعمل الصالحات وتظهر منه المحاسن، وإما أن تظهر منه المساوئ والقبائح، وظهور المحاسن لا يكون إلا بفضل الله وتوفيقه، فهو الهادي وهو المعين علىٰ أداء الطاعات، ولهذا فلا منّةَ للعبد فيما يعمله من خير وإنما المنّة والفضل لله سبحانه، أما ظهور القبائح والمساوئ فهو من كسب العبد واجتراحه، ولا حجةَ له ولا عذر في ذلك، والله ﷻ هو العدْل حيث بين للإنسان طريق الهدىٰ والضلال، وأعطاه حرية الاختيار فيما بينهما.

(١) فتح الباري لابن حجر (١١/ ١٠٢).

٧٤٤

قُرب الله وبُعد العبد

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «إلهي، ما أقربك مني، وما أبعدني عنك!»(١).

المعنى الإجمالي

من أفضل فواتح المناجاة أن تفتتح بمخاطبة العبد لربه بلفظ: «إلهي»؛ فهذه الكلمة تظهر نوع الصلة الصحيحة بين الإنسان وربه، وهي أن هذا المخلوق عبدٌ لخالقه، يؤمن به ويتوكل عليه، ويخلص له العبادة والتوجه، فالمخاطب هو الإله الذي لا شريك له، وعلىٰ هذا الأساس تبدأ المناجاة وتستمر، وكأن الداعي يقول: أنا الفقير الذليل الحقير الضعيف العاجز المحتاج، وأنت إلهي الذي أعبدك وأقف علىٰ بابك وألتجئ إليك في كل أموري.

وحين يتأمل الإنسان ويتفكر في حال نفسه وحال إلهه، يقف علىٰ حقيقة ناصعة واضحة، هي شدة قرب الله من العبد، وشدة بعد العبد عن الله، وهذه الحقيقة هي مما يجلب التعجب والاستغراب، وتدفع المسلم دفعا قويا ليحاسب نفسه ويصحح مسارها، كما أن المسلم يتوجه بالاعتراف بهذه الحقيقة بين يدي مولاه ليكون له عونا علىٰ التقرب إليه.

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ١٤٣).

فالله ﷻ قريب من الإنسان بعلمه؛ قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦]، كما أنه قريب من عباده بحفظهم وعونهم واستجابة دعائهم؛ قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦]، وهو قريب من المحسنين برحمته؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦]، فالله سبحانه لم يضع بينه وبين العباد حاجزا وحائلا، فمتىٰ تقرب العبد لربه وجده مكافئا ومثيبا، ومتىٰ دعاه وجده قريبا مجيبا، ومتىٰ استغفره وجده غفورا رحيما.

لكن رغم قرب الله من العبد فإن العبد هو البعيد المقصر في التقرب إلىٰ الله؛ فالله ﷻ قد فتح باب ذكره في كل وقت وحين لكن العبد هو الذي يغفل عن ذكر الله، والله سبحانه فتح باب مناجاته ودعائه ووعد باستجابة ذلك لكن الإنسان يجري وراء الأسباب ويغفل عن الالتجاء إلىٰ مسببها، فالله تعالىٰ يقِّرب العبد إذا أطاعه وتقرّب إليه، قال الله تعالىٰ في الحديث القدسي: «أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إلي بشبر تقربت إليه ذراعًا، وإن تقرب إلي ذراعًا تقربت إليه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة»[1].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٩/ ١٢١) برقم: (٧٤٠٥)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٦٢) برقم: (٢٦٧٥).

٧٤٥

خيرُ المطلوب

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «خير ما تطلبه منه ما هو طالبُه منك»[1].

المعنى الإجمالي

تتفاوت المطلوبات رفعةً ودُنُوًّا بحسب تفاوت قيمتها، فكلما كان المطلوب أشرف كان هذا الطلب أفضل، وأحسن ما يمكن أن يطلبه العبد من ربه وأن يسأله إياه هو أن يحصل علىٰ أشرف المطلوبات وأعلاها قيمة، ولا شك أن ذلك إنما هو التحقق بما طلبه الله ﷻ وأمر به الإنسان من عبادته حق العبادة والاستقامة ظاهرا وباطنا.

ويظهر لنا هذا من خلال أدعية النبي ﷺ حيث كان من دعائه: «رب اجعلني لك شكّارًا، لك ذكّارا، لك رهّابا، لك مِطواعا، إليك راغبا، إليك مُخبِتا، لك أوّاها منيبا، رب تقبّلْ توبتي، واغسِلْ حَوبتي، وأجبْ دعوتي، واهدِ قلبي، وثبّتْ حجتي، وسدّدْ لساني، واسللْ سخيمة قلبي[2]»[3]، وأوصىٰ النبي ﷺ الصحابي معاذ بن جبل رضي الله عنه

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ٥٣).

(٢) مُخبتا: خاشعًا مُطيعًا. الأوّاه: المتضرّع. حوبتي: إثمي. اسلل: انزع. السخيمة: الحقد في النفس. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (٢/ ٤)، (١/ ٨٢)، (١/ ٤٥٥)، (٢/ ٣٩٢)، (٢/ ٣٥١).

(٣) أخرجه أبو داود في سننه (١/ ٥٥٨) برقم: (١٥١٠)؛ والترمذي في جامعه (٥/ ٥١٧) برقم: (٣٥٥١)؛ وابن ماجه في سننه (٦/٥) برقم: (٣٨٣٠).

أن يقول في دبر كل صلاة: «اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»[1]، وعلمنا الله تعالى في أشرف المواقف أن نسأله الهداية إلى الصراط المستقيم كما في سورة الفاتحة: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة:٦].

(١) أخرجه أبو داود في سننه (١/ ٥٦١) برقم: (١٥٢٢)؛ والنسائي في المجتبى (١/ ٢٧٧) برقم: (١/١٣٠٢).

٧٤٦

عطاء الله سابق على الدعاء

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «كيف يكون طلبك اللاحق سببًا في عطائه السابق؟»[(١)].

المعنى الإجمالي

قدّر الله سبحانه وتعالى المقادير منذ الأزل، وقضىٰ ما هو كائن إلىٰ يوم القيامة؛ قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر:٤٩]، وقال ﷺ: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة»[(٢)]، فكل ما يصيب الإنسان من نفع وعطاء فهو مقدر في سابق الزمان.

وقد جعل الله لكل شيء سببا يستند إليه، فالدواء سبب للشفاء، ونزول المطر سبب لنمو النبات، والماء والطعام سبب للحياة، وكذلك الأمر بالنسبة للدعاء والطلب من الله جعله الله سبحانه سببا لتحقق المطلوب، قال تعالىٰ: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر:٦٠].

---

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ٥٥).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٥١) برقم: (٢٦٥٣).

لكن هذه الأسباب ليست مؤثرة بذاتها وإنما هي في ظاهر الأمر فقط؛ لأن الترتيب الذهني والمنطقي يقتضي أن يكون السبب سابقا للمسبَّب وليس لاحقا له، لكن لما كان كل ما يحدث في الكون قد سبق به القضاء منذ الأزل، دلّ ذلك على أن هذه الأسباب ليست هي المؤثر الحقيقي، وإنما المطلوب مراعاتها لأن الله جعل الأسباب الظاهرة وسيلة للحصول على المطلوب.

بناء على هذا يخطئ من يتوهم أن طلبه ودعاءه هو السبب الحقيقي لتحقق مطلوبه، بل هو سبب ظاهر فقط، لأن تقدير الله قد سبق هذا الطلب، فلْيحذر من هذا التوهم الخاطئ الذي يجعله ينسى أن الأمر بيد الله، ويعتمد على طلبه وسؤاله وليس على فضل الله ورحمته.

وهذه الحكمة من ابن عطاء الله السكندري جاءت على صيغة استفهام يحمل معنى النفي: أي لا يمكن أن يكون الطلب هو السبب الحقيقي المؤثر المؤدي إلى تحقق المطلوب، ولكن الله ﷻ هو مسبب الأسباب والقادر على كل شيء، والمقصود أن يظل المسلم مفتقرا إلى الله، خاضعا إليه، متضرعا بين يديه.

ويحتمل أنه يشير إلى نوع من النعم، وهي النعم الابتدائية التي لم يسبقها طلب كنعمة الإيجاد، فإن الله تعالى أنعم على الإنسان بنعمة الوجود دون سؤال سابق من العبد نفسه.

٧٤٧

الإقبال سبب النوال

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «لا تستبطئ النوال، ولكن استبطئ من نفسك وجودَ الإقبال»(١).

بيان المفردات

النوال: العطاء(٢).

المعنى الإجمالي

قرن الله تعالى إجابة الدعاء بالدعاء نفسه كما ربط استجابة الدعاء بإقبال العباد على ربهم والاستجابة له؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة:١٨٦].

واستجابة الدعاء ليست منحصرة بتحقيق ما يطلبه العبد كما هو، بل تكون أحيانا بإعطاء العبد ما هو أفضل له وأصلح لحاله، وإن كان هذا العبد لم يفهم

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ٥٦).

(٢) لسان العرب لابن منظور (١١/ ٦٨٣).

الحكمة من ذلك بسبب عدم معرفته لما غاب عنه، وأحيانا تكون مكفرة للسيئات عن الداعي، قال ﷺ: «ما مِن مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثمٌ ولا قطيعةُ رحِم إلا أعطاه الله بها إحدىٰ ثلاث: إما أن تُعجَّلَ له دعوتُه، وإما أن يَدّخرَها له في الآخرة، وإما أن يَصرف عنه من السوء مثلَها. قالوا: إذا نُكْثِر. قال: الله أكثر»(١).

واستجابة الدعاء مشروطة بعدم الاعتداء؛ قال تعالىٰ: ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [الأعراف:٥٥]، ومن صور الاعتداء عدم الاستجابة لأوامر الله سبحانه؛ قال القرطبي ﷺ: «ويمنع من إجابة الدعاء أيضًا أكل الحرام وما كان في معناه، قال ﷺ: «الرجل يُطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلىٰ السماء يا رب يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذِّي بالحرام، فأنَّىٰ يستجاب لذلك؟!»(٢).

وهذا استفهام علىٰ جهة الاستبعاد من قبول دعاء مَنْ هذه صفته، فإن إجابة الدعاء لا بد لها من شروط في الداعي وفي الدعاء وفي الشيء المدعو به. فمن شرط الداعي: أن يكون عالما بأن لا قادر علىٰ حاجته إلا اللّه، وأن الوسائط في قبضته ومسخرة بتسخيره، وأن يدعو بنية صادقة وحضور قلب، فإن اللّه لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه، وأن يكون مجتنبًا لأكل الحرام، وألا يمل من الدعاء.

ومن شرط المدعو فيه: أن يكون من الأمور الجائزة الطلب والفعل شرعًا، كما قال: «ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم»(٣) فيدخل في الإثم كل ما يأثم به من الذنوب، ويدخل في الرحم جميع حقوق المسلمين ومظالمهم.

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه (١/ ٤٩٣) برقم: (١٨٢٢)؛ وأحمد في مسنده (٥/ ٢٣١٧) برقم: (١١٣٠٢).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٣/ ٨٥) برقم: (١٠١٥).

(٣) تقدم في الفقرة السابقة.

وقيل لإبراهيم بن أدهم رحمه الله: ما بالنا ندعو فلا يستجاب لنا؟ قال: لأنكم عرفتم اللّه فلم تطيعوه، وعرفتم الرسول فلم تتبعوا سنته، وعرفتم القرآن فلم تعملوا به، وأكلتم نعم اللّه فلم تؤدوا شكرها، وعرفتم الجنة فلم تطلبوها، وعرفتم النار فلم تهربوا منها، وعرفتم الشيطان فلم تحاربوه ووافقتموه، وعرفتم الموت فلم تستعدوا له، ودفنتم الأموات فلم تعتبروا، وتركتم عيوبكم واشتغلتم بعيوب الناس»(١).

(١) تفسير القرطبي (٢/ ٣١١ - ٣١٢).

٧٤٨

الأدب مع الله

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «لا تُطالبْ ربَّك بتأخُّر مطلبِك، ولكن طالبْ نفسَك بتأخُّر أدبِك»[١].

بيان المفردات

تطالب ربك: أي: تعترض عليه وتسيء الظن به[٢].

المعنى الإجمالي

الله عَزَّ وَجَلَّ هو أعلم بمصلحة العبد من العبد نفسه، فقد يظن الإنسان أن مصلحته ومنفعته في تحقق مطلوب معين، فيطلب ذلك من الله تعالىٰ، ويرغب أن يعجل له مطلبه، لكن الله عَزَّ وَجَلَّ هو من بيده إجابة الطلب أو رده بحسب علمه وحكمته، وقد يؤجل الله إجابة الطلب ويؤخرها لحكمة لا تظهر للعبد، وقد يكون التأخير لمصلحة العبد وهو لا يعلم.

وإذا تأخر تحقق مطلب الإنسان في الوقت الذي يريده، فلا يحق له أن يعترض علىٰ ربه، ولا أن يسيء الظن به، قال ﷺ: «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول:

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ٥٣).

(٢) حاشية الشرقاوي علىٰ شرح النفزي (١/ ٨٧).

دعوت فلم يستجب لي»[١]، وعدم استجابة دعاء هذا المستعجل إما أنها بسبب سآمته وتركه الدعاء، وإما أن الاستعجال سبب لحرمانه من الإجابة، وذلك لأنه صار كالمبخِّل للرب الكريم الذي لا تعجزه الإجابة ولا ينقصه الدعاء[٢]، وقد يكون لعدم تحقق شرط من شروط الإجابة، فيكون المانع من قِبَل العبد نفسه، كما طلب نوح عليه السلام نجاة ولده كنعان من الغرق ظنا منه أنه داخل في الوعد الإلهي بإنجاء أهله معه، فقال الله له: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ﴾ [هود:٤٦]، وقد يكون المنع لضرر في المطلوب لا يعلمه الداعي، كما طلب موسىٰ عليه السلام رؤية ربه فمنعه الله لما في التجلي عليه من هلاكه أمام نور وجهه الكريم ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٤٣].

قال المظهري: «مَنْ له مَلالةٌ من الدعاء لا يُقبل دعاؤه؛ لأن الدعاء عبادةٌ حصلت الإجابة أو لم تحصل، فلا ينبغي للمؤمن أن يَمَلّ من العبادة. وتأخير الإجابة إما لأنه لم يأت وقتُها، وإما لأنه لم يُقدَّر في الأزل قَبولُ دعائه في الدنيا ليعطىٰ عوضَه في الآخرة، وإما أن يؤخِّر القَبول ليُلِحّ ويبالغ في ذلك، فإن الله يحب الملحّين في الدعاء، مع ما في ذلك من الانقياد والاستسلام وإظهار الافتقار، ومن يكثر قرع الباب يوشك أن يفتح له، ومن يكثر الدعاء يوشك أن يستجاب له»[٣].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٧٤) برقم: (٦٣٤٠)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٨٧) برقم: (٢٧٣٥).
(٢) ينظر: فتح الباري لابن حجر (١١/ ١٤٥).
(٣) شرح الزرقاني على الموطأ لمحمد بن عبد الباقي الزرقاني (٢/ ٤٦).

بل إن إساءة الإنسان الظن بربه بسبب عدم ظهور استجابة طلبه هي من سوء الأدب مع الله ﷻ والتي ينبغي للعبد أن يحاسب نفسه عليها، فقد أساء الأدب حين توهم أن الله لم يستجب دعاءه، وأساء الأدب حين حصر استجابة الدعاء بالشيء الذي طلبه فقط، ولم يفهم أن استجابة الدعاء قد تكون بما هو خير له من مطلوبه من حيث لا يعلم، وقد أساء الأدب حين استعجل في المطالبة، فإن الدعاء عبادة بحد ذاتها سواء تحقق المطلوب أم لا.

٧٤٩

تأخر استجابة الدعاء

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «لا يكن تأخُّر أمَد العطاء مع الإلحاح في الدعاء موجِبًا ليأسِك؛ فهو ضَمِن لك الإجابة فيما يختاره لك، لا فيما تختاره لنفسك، وفي الوقت الذي يريد، لا في الوقت الذي تريد»(١).

المعنى الإجمالي

تكفل الله سبحانه باستجابة دعاء من دعاه؛ قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة:١٨٦]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر:٦٠]، فقد أمر الله عباده بالدعاء وضمن لهم الإجابة إذا دعوه، ولكن الوعد في الآيات مطلق غير مقيد بمكان ولا زمان، فهو راجع لمشيئة الله وحكمته.

لكن إجابة الدعاء ليست محصورة في تحقيق الأمر الذي طلبه الإنسان بحرفيته؛ قال ﷺ: «ما مِن مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدىٰ ثلاث: إما أن تُعجَّلَ له دعوتُه، وإما أن يَدّخرَها له في الآخرة، وإما أن يَصرف عنه من السوء مثلَها. قالوا: إذا نُكْثِر. قال: الله أكثر»(٢).

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ٥٠).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٤٩٣) برقم: (١٨٢٢)؛ وأحمد في مسنده (٥/ ٢٣١٧) برقم: (١١٣٠٢).

فالمؤمن صحيح الإيمان يثق بوعد الله ﷻ باستجابة الدعاء، ويبقىٰ هذا اليقين في قلبه حتىٰ ولو تأخر أمد الاستجابة والعطاء، ولا يتطرق إلىٰ قلبه اليأس والقنوط أبدا، فإن الله سبحانه هو الذي أمر عباده بالدعاء، وهو أكرم الأكرمين بالعطاء، وهو القادر علىٰ كل شيء؛ قال الله تعالىٰ في الحديث القدسي: «يا عبادي، لو أنَّ أوَّلَكم وآخرَكم وإنسَكم وجنَّكم، قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطَيتُ كلَّ إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما يَنقص المِخْيَط إذا أُدخل البحر»(١).

إلا أن المسلم يعلم أن مشيئة الله فوق مشيئته، وأن أمر الله فوق أمره، فأحيانا يستجيب لعبده فور الدعاء، وأحيانا يجيء وقت العطاء بعد ذلك، ومرة يعطي الله العبد الشيء الذي طلبه، ومرة يعطيه شيئا آخر يختاره له، وكثيرا ما يدعو الإنسان بشيء لا يكون فيه مصلحته وخيره، وذلك لأن الإنسان جاهل بالغيب الذي لا يعلمه إلا الله، لكن الله بلطفه ورحمته يختار لعبده ما يناسب حاله.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ١٦) برقم: (٢٥٧٧).

٧٥٠

الإجابة مع الدعاء

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «متى أَطْلَق لسانَك بالطلب؛ فاعلم أنه يريد أن يعطيَك»[(١)].

المعنى الإجمالي

قرن الله الإجابة بالدعاء حيث قال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠]، وأخبرنا أنه يستجيب دعاء من دعاه، ومن أمثلة ذلك استجابة دعاء موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٢٥-٣٦]، فما أن انتهى موسى عليه السلام من دعائه حتى استجاب الله له.

وقد جاء في الحديث: «من أُلهم الدعاء لم يحرم الإجابة»[(٢)]، وقال رسول الله ﷺ: «إنَّ ربكم حييٌّ كريم، يستحيي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صُفْرًا»[(٣)].

---

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ٥٢).

(٢) أخرجه الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة، (٥/ ١٩٢) برقم: (١٨١٤).

(٣) أخرجه أبو داود في سننه (١/ ٥٥٣) برقم: (١٤٨٨)؛ والترمذي في جامعه (٥/ ٥٢١) برقم: (٣٥٥٦)؛ وابن ماجه في سننه (٥/ ٣٣) برقم: (٣٨٦٥).

وأمْر الله تعالىٰ لنا بالدعاء دليل علىٰ كرمه وإرادته العطاء **كما قال الشاعر:**

لـو لـم تُـرِدْ نيـلَ مـا أرجـو وأطلبُـه ... مـن جـودِ كفّـك مـا عـوّدْتني الطلبـا[1]

والله سبحانه قد جعل الدعاء والطلب سببا لحصول المطلوب، وذلك مثلما جعل الطعام سببًا للحياة، وجعل الريح سببا للمطر، فكذلك الطلب والدعاء يُظهر فيهما العبد اضطراره وافتقاره إلىٰ الله، فإذا تعبد العبدُ ربَّه بإظهار فاقته وحاجته أكرمه الله سبحانه بتحقيق مطلوبه واستجابة دعائه.

(١) كتاب الأربعين في إرشاد السائرين لأبي الفتوح الهمذاني (ص: ٣٧)، ولم يذكر قائله.

باب الذكر

٧٥١

تسبيحة خير من جبال الذهب

قال عبيد بن عمير رحمه الله: «تسبيحةٌ بحمد الله في صحيفة مؤمن يوم القيامة خيرٌ من أن تسير معه الجبال ذهبًا»[١].

المعنى الإجمالي

صحيفة العبد وكتابه يوم القيامة هي نتيجة وثمار عمله وطاعته لله تعالىٰ، أو عصيانه له، والعباد يوم القيامة علىٰ صنفين؛ فمنهم آخذٌ كتابه بيمينه، ومنهم آخذٌ كتابه بشماله ووراء ظهره[٢]، ويخاطب كل عبد بقراءة كتابه كما قال تعالىٰ: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٣-١٤].

والعبد السعيد يوم القيامة من وجد صحيفة أعماله مليئةً بذكر الله من التحميد والتسبيح والتهليل والتكبير، وكل الأذكار المأثورة في القرآن والسنة. وهذه الصحيفة الممتلئة ذكرًا خيرٌ للعبد من ملء الأرض ذهبًا؛ إذ الذهب يفنىٰ، وذكر الله يبقىٰ للعبد ذخرًا في الدنيا والأخرىٰ.

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٣/ ٢٧٢).

(٢) الجمع بين أخذ الكافر كتابه بشماله ووراء ظهره أنه يأخذه بشماله وهي مشدودة إلىٰ خلف ظهره.

لقد أوضح الرسول ﷺ خيرية الذكر على امتلاك الذهب والفضة، بل والجهاد في سبيل الله، فقال: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأرضاها عند مليكِكم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق، ومن أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم؟» قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «ذكر الله»[1].

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦/ ٣٩٧) برقم: (٢٢٠٧٩)؛ والترمذي في جامعه (٥/ ٣٨٩) برقم: (٣٣٧٧)؛ وابن ماجه في سننه (٢/ ١٢٤٥) برقم: (٣٧٩٠).

٧٥٢

الذكر طريقٌ إلى الله

قال زياد بن حُدَير رَحِمَهُ اللَّهُ: «اقطع طريقك بذكر الله»[(١)].

المعنى الإجمـالي

يعلم المؤمن أنه مسافر إلىٰ الله تعالىٰ من لدن وجوده علىٰ هذه الدنيا، وسفره إلىٰ الله ليس سفرا عاديا، بل هو سفر في طريق شائك تعترضه العقبات والعراقيل، ويصده عن سبيل الله من لم يؤمنوا بالله، ويبغونها عوجا، ويفسدون في الأرض ولا يُصلِحون.

وكلما تخطىٰ المؤمن عقبة اعترضته عقبة أخرىٰ؛ فكان لزاما عليه أن يتحصن بحصن حصين، ليلجأ إليه، فلا يجد أمرا أعظم من ذكر الله تعالىٰ؛ فهو سلاح المؤمن ودليله إلىٰ الله تعالىٰ، وحامل ضيائه ونوره ليبدد ظلمات الطريق، ويقيه كل العثرات.

إن طريق المؤمن إلىٰ الله طريق مبارك وسيلته القلوب، والقلوب لا تطمئن ولا تهدأ ولا تخشع إلا بذكر الله، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد:٢٨]، وباب الذكر واسع يشمل حياة العبد

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٤/ ١٩٧).

كلها؛ ليبقى على اتصال دائم مع الله، فلا يضل ولا يشقى، ولا يخاف دركا من قطاع طريقه ولا يخشى.

٧٥٣

الذاكر في صلاة

قال أبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود[(١)] رحمه الله: «ما دام قلب الرجل يذكر الله فهو في الصلاة وإن كان في السوق، فإن يحرك به شفتيه فهو أعظم»[(٢)].

المعنى الإجمالي

ذكر الله تعالىٰ لا يتوقف علىٰ حالات معينة دون غيرها، فالذكر يصحب المؤمن في كل حالاته، في بيته وسوقه، وفي مسجده وبين الملأ من قومه. والذكر لا يُكلِف العبد شيئًا، فهو يذكر الله قيامًا وقعودًا وعلىٰ جنب، في السلم والحرب، في الفراغ وفي الشغل، خاليًا ومجتمعًا بالناس.

ولما كان ذكر الله تعالىٰ بهذا اليسر فإن العبد عند ذكره لله تعالىٰ، في أي مكان كان، فإنه يحتسب أجره من الله تعالىٰ، وكأنه ذاكر له في صلاته. ومن أفضل الذكر الذي يقوله العبد لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله، كما أخبر بذلك النبي ﷺ[(٣)].

---

(١) أبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود الهذلي، يقال: اسمه عامر، روىٰ عن أبيه وأبي موسىٰ وجماعة، كان ثقة كثير الحديث، كان من علماء الكوفة، روىٰ عنه إبراهيم النخعي والسبيعي وآخرون، توفي سنة ٨١هـ. ينظر: الطبقات لابن سعد (٨/ ٣٢٩)؛ تاريخ الإسلام للذهبي (٢/ ١٠٢٩).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٤/ ٢٠٤).

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه (٥/ ٣٢٥) برقم: (٣٣٨٣)؛ وابن ماجه في سننه (٢/ ١٢٤٩) برقم: (٣٨٠٠).

وتخصيص السوق بالذكر لأنه مكان الغفلة، وفيه تكثر الأيمان الفاجرة، وتنشب الخصومات بين الناس؛ فقد جاء عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «أحب البلاد إلىٰ الله مساجدها وأبغض البلاد إلىٰ الله أسواقها»(١).

ونصح أبو مسلم الخولاني ﷺ رجلًا بكثرة ذكر الله تعالىٰ فقال: «اذكر الله حتىٰ يرىٰ الجاهلُ كأنك مجنونٌ»(٢).

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٤/ ٤٧٧) برقم: (١٦٠٠).

(٢) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ٣١٠).

٧٥٤

الحيوان أكثر ذِكرًا من الإنسان

قال ماهان الحنفي[١] رَحِمَهُ اللَّهُ: «أما يستحي أحدكم أن تكون دابته التي يركب، وثوبه الذي يلبس أكثر ذكرًا لله منه»[٢].

المعنى الإجمالي

كل شيء في الكون في السماء أو في الأرض يسبح بحمد الله تعالىٰ، ولا يخالف ويقصر في هذه الطاعة، ولا يسير متنكبًا طريق التسبيح والذكر إلا الإنس والجن.

لقد ذكر الله أن كل من خلقهم يسبحون بحمده فقال تعالىٰ: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ ﴾ [الإسراء:٤٤]، وهذا التسبيح من المخلوقات يجعل العبد يستحي من الله حق الحياء أن يكون ثوبه ودابته وطعامه وشرابه يسبحون بحمد الله، وهو ساه غافل لاه عن ذكر الله تعالىٰ.

---

(١) ماهان الحنفي، أبو سالم، وقيل في كنيته: أبو صالح، الكوفي، الأعور، ويقال له: المسبح، العابد، ثقة، كان لا يفتر من التسبيح، روىٰ عن ابن عباس وأم سلمة وعدة، قتله الحجاج سنة ٨٣هـ. ينظر: تهذيب التهذيب لابن حجر (١٠/ ٢٦)؛ تقريب التهذيب لابن حجر (ص: ٥١٨).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٤/ ٣٦٤).

٧٥٥

ذكر الله على كل حال

قال مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يكون الرجل من الذاكرين الله كثيرًا حتى يذكر الله قائمًا وقاعدًا ومضطجعًا»(١).

المعنى الإجمالي

يكفي الذاكرين منزلة أن الله يذكرهم في نفسه إن ذكروه في أنفسهم، ويذكرهم في ملأٍ خيرٍ من ملأهم الذي ذكروا الله فيه، وبهذا جاء الحديث عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يقول الله تعالىٰ: «أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم»(٢).

ولا يُعَدُّ الرجل من الذاكرين الله كثيرًا، حتىٰ يذكره علىٰ كل أحواله قائمًا وقاعدًا ومضطجعًا، يقول الله تعالىٰ عن أولي الألباب: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ ﴾ [آل عمران:١٩١]. ذلك أن ذكر الله لا يرتبط بأداء فريضة الصلاة فحسب كما يظن الكثير من المسلمين، بل يكون في وقت الصلاة، وخارج وقتها، في

(١) الزهد والرقائق لابن المبارك (ص: ٣٢٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٩/ ١٢١) برقم: (٧٤٠٥)؛ ومسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٦٧) برقم: (٢٦٧٥).

السراء والضراء، والشدة والرخاء، في السلم والحرب، في الإقامة والسفر. فالذكر عبادة مستمرة لا تتوقف على هيئة معينة، وزمان ومكان محددين.

٧٥٦

تحبيب ذكر الله

قـال ميمـون بـن سيــاه[١] رحمه الله: «إذا أراد اللهُ بعبـدٍ خـيراً حبَّـب إليـه ذكــرَه»[٢].

المعنى الإجمـالي

من إرادة الله الخير للعبد أن يلهمه الرشد والصواب في أقواله وأفعاله، فلا يتكلم إلا بخير، ولا يفعل إلا خيرًا، فصمتُه فكرٌ في آلاء الله ونعمائه، ونطقُه ذكرٌ لله تعالىٰ.

ومن أراد الله به خيرًا حبب إليه الذكر والذاكرين لله تعالىٰ، وأول الذكر وأعظمه قراءة القرآن الكريم، وقد قرن الله تعالىٰ بين تلاوة كتابه الكريم وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ثم جعل ذكره لعباده أكبر وأعظم من ذكرهم له[٣]، قال الله تعالىٰ: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٥]، وذكر الله

(١) ميمون بن سياه، أبو بحر، البصري، روىٰ عن جندب وأنس وغيرهما، وعنه حميد الطويل ومنصور وجماعة، كان يقال له: سيد القراء، لعبادته وفضله، توفي سنة ١٢٠هـ. ينظر: تاريخ الإسلام للذهبي (٣/ ٣٢٦)؛ تهذيب الكمال للمزي (٢٩/ ٢٠٤).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٣/ ١٠٧).

(٣) ينظر: تفسير مجاهد (ص: ٥٣٥)؛ وتفسير الطبري (٢٠/ ٤٢-٤٥).

لعباده أكثر من ذكرهم له سبب من أهم الأسباب التي جعلت العبد يحب ما يحبه الله، وحثهم وأمرهم بأن يذكروه كي يذكرهم سبب ثان لتحبيب ذكر الله في حياتهم كلها، قال ﷻ: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة:١٥٢]، وسبب ثالث أن العبد المؤمن يستحيي من الله أن يعلم أن كل موجود ومخلوق سواه يسبح بحمد الله، وإن كان لا يفقه تسبيحه، قال تعالىٰ: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء:٤٤].

إن إرادة الله تعالىٰ يسَّرت لمن أحبهم وارتضاهم أن يذكروه ولا ينسوه، وجعلت الذكر محببًا إليهم، فلا يذكرون دنيا، ولا يأنسون إلا بذكر الله؛ إذ لا يزيل وحشة قلوبهم وضيق صدورهم إلا ذكر الله تعالىٰ، وهذا من الأسباب التي تعطف العبد وتميل قلبه إلىٰ ذكر الله تعالىٰ.

٧٥٧

الذكر نعيم

قال مالك بن دينار رحمه الله: «ما تنعم المتنعمون بمثل ذكر الله»[1].

المعنى الإجمالي

الذاكرون لله متنعمون بنعمة عظيمة من نعم الله تعالىٰ عليهم، وهي ذكرهم لله تعالىٰ؛ وأولىٰ هذه النعم أنهم بذكرهم الله، ومداومتهم عليه، ولين ألسنتهم وقلوبهم، وخشوع جلودهم بذكره، يعترفون بالله الخالق الذي أوجدهم من العدم، فيقرون بنعمة الإيجاد؛ إذ أخرجهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئا، وهيأ لهم وسائل التعلم والمعرفة؛ من السمع والأبصار والأفئدة، قال تعالىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ [النحل:٧٨].

فكل أحوال العبد المؤمن في ذكر لله تعالىٰ؛ في سرائه وضرائه، في عافيته ومرضه، في جوعه وعطشه، وشبعه وريه، فأي نعمة يعيشها العباد بعد ذكر الله من نعمة، ولو تفاخر أهل الدنيا بنعيمهم وزخرفهم فما كل ذلك إلا كما قال الله تعالىٰ: ﴿ وَزُخۡرُفٗاۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف:٣٥].

(١) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ٢٦٠).

٧٥٨

معاداة الله بكراهة ذِكْره

قال حسان بن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما عادى عبدٌ ربَّه بأشدَّ من أن يَكرَه ذِكرَه ومَن ذَكَرَه»(١).

المعنى الإجمالي

ذكر الله تعالىٰ والمداومة عليه دليل علىٰ حب العبد لربه تعالىٰ، كيف لا يكون ذلك وقد جعل الله عاقبة ذكر العبد لربه ذكر الله له، قال تعالىٰ: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة:١٥٢]، وكشف الله حقيقة من لا يحبون ذكره، وأوضح صورتهم وحالهم عندما يذكر الله، أو يذكر غير الله تعالىٰ، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الزمر:٤٥].

إن التارك لذكر الله المستمر علىٰ فعله، قد حيل بينه وبين ذكر الله تعالىٰ، فلو كان من أهل الله وطاعته ومحبته لفتح الله له قلبه ولسانه، فذكر الله وما غفل، فيكون حاله حال الكاره لذكر الله والذاكرين لله، والمذكِّرين به.

ولقد كان النضر بن الحارث يكره مجالس رسول الله ﷺ، فيجلس بعد قيام

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٦/ ٧٢).

الرسول ﷺ من مجلسه -في مكة- ليحدث أناسًا من المشركين عن أخبار أسفنديار، وملوك فارس، ثم يقول: والله ما محمد بأحسن حديثًا مني، وما حديثه إلا أساطير الأولين، اكْتَتَبها كما اكتتبتُها(١).

(١) الروض الأنف للسهيلي (٣/ ١٩٢).

٧٥٩

علامة المنافق

قال شُمَيط بن عجلان رحمه الله: «علامة المنافق قلة ذكر الله»(١).

المعنى الإجمالي

وصف الله عباده الصالحين بصفات متعددة، منها أنهم يذكرونه كثيرا فقال تعالىٰ: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٣٥]، وأمر المؤمنين بأن يذكروه ذكرا كثيرا فقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٢].

ومن صفات المنافقين أنهم لا يذكرون الله تعالىٰ، وإن ذكروه كانوا مرائين يحبون أن يُحمدوا بما فعلوه، وإن قاموا إلىٰ الصلاة قاموا إليها متثاقلين وكان ذكرهم لله تعالىٰ قليلًا كما وصفهم الله تعالىٰ بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:١٤٢]. وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ [التوبة:٥٤].

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٣/ ١٢٨).

٧٦٠

مثل الذاكر لله

قال عـون بـن عبـد الله رَحِمَهُ اللَّهُ: «ذاكـر الله في الغـافلين كالـمقـاتل عـن الفارِّين، والغافل في الذاكرين كالفارِّ عن الـمقـاتلين»[١].

المعنى الإجمالي

إن من يذكر ربه يكون يقظًا، فهو في غفلة الناس كالنجم المضيء في الظلمة، وكمن يقاتل عن قوم فروا عن قتال عدوهم، وتركوا سلاحهم ومتاعهم ليغير عليها عدوهم، والغافل بين الذاكرين الله مثله كمن يفر وقومه يناجزون عدوهم في ساحة القتال.

وتشبيه الذاكر لله تعالىٰ بمن يقاتل عمن فروا، والغافل بمن فر وقومه يقاتلون تشبيه يوضح حالة الربط بين القتال والذكر؛ إذ ذكر الله تعالىٰ أن من مقومات النصر الثبات والذكر فقال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [الأنفال:٤٥].

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٤/٢٤١). وقريب منه قول حسان بن أبي سنان: «ذاكر الله في الغافلين كالمقاتل عن المدبرين». ينظر: حلية الأولياء لأبي نعيم (٣/ ١١٩).

٧٦١

الذِّكر جلاء القلوب

قال عون بن عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ: «ذكر الله صِقال القلوب»(١).

المعنى الإجمـالي

ذكر الله من تلاوة القرآن والدوام علىٰ الذكر بالغدو والآصال يزيل ما أصاب القلب من صدأ؛ ذلك أن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد، فيزول عنها الصفاء والنقاء والإقبال علىٰ الله، ولقد توعد الله القاسية قلوبهم فقال تعالىٰ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ [الزمر:٢٢].

وقال رسول الله ﷺ: «إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد، قيل: فما جلاؤها يا رسول الله؟ قال: تلاوة القرآن».(٢) وقال بعض الحكماء: كما أن الحديد إذا لم يُستعمل غشِيَه الصدأ حتىٰ يُهلكه، كذلك القلب إذا عُطِّل من الحكمة غلب عليه الجهل حتىٰ يميته(٣).

(١) حلية الأولياء لأبي النعيم (٤/ ٢٤١).

(٢) أخرجه الشهاب القضاعي في مسنده (٢/ ١٩٩) الحديد برقم: (١١٧٩)؛ والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٣٩٢) برقم (١٨٥٩).

(٣) اعتلال القلوب للخرائطي (ص: ٣٣).

٧٦٢

شفاء القلوب

قال عون بن عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ: «مجالسُ الذكر شفاءُ القلوب»(١).

المعنى الإجمالي

لا مرض أشد وأنكىٰ من مرض القلوب؛ لأن الناس يهتمون بأمراض الأجساد والأبدان، ويتركون القلوب عليلة قد أوهنها المرض، وفتك بها من كل جانب، ولم يترك لها سبيلًا للوصول إلىٰ الشفاء.

وإن غاية المريض أن يعافىٰ من دائه، وأن يصل إلىٰ شفائه، فإن كان العبد مانعًا لهذا الدواء فلا يذكر الله تعالىٰ، ولا يجلس مع من يذكرون الله، ويدعونه بالغداة والعشي، يريدون وجهه، ويخشون عذابه، فإنه يكون بذلك من المحرومين من الذكر ومجالسه وجلاسه، الذين تزيل مجالستهم ظلمة القلب وتشتته وتفرقه في شعاب الدنيا، وجمعه بهمته إلىٰ الله تعالىٰ خالق القلوب ومقلبها كيف يشاء.

والقلوب إن غفلت عن ذكر الله صدأت، واستوحشت، فأصبحت عليلة، لا تبرأ إلا بذكر الله تعالىٰ؛ ذلك لأن الذاكرين لله المداومين علىٰ مجالس ذكره يفوزون بغنائم عظيمة، وقد رغَّب الرسول ﷺ في لزوم مجالس الذكر، والالتزام بها؛

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٤/ ٢٤١).

لما لها من الأجور والمغفرة والرحمة التي تنزل علىٰ من جلس مجالس الذكر، وتغشية السكينة، وذكرهم الله في الملأ الأعلىٰ عنده، فعن أبي هريرة، وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما يشهدان به علىٰ النبي ﷺ أنه قال: «لا يقعد قوم يذكرون الله عز وجل إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده»[1].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٧٢) برقم: (٢٧٠٠).

٧٦٣

عقوبة العارف انقطاعه عن الذكر

قال ذو النون المصري رحمه الله: «لكل شيء عقوبة، وعقوبة العارف انقطاعه عن ذكر الله»[1].

المعنى الإجمالي

مما أمر الله به الرسول ﷺ الذكر في كافة وقته؛ فهو مما يعينه على الصبر مما يجده من الإيذاء، فقال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ [طه:١٣٠].

وأمر الله تعالى موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام بذكره، وعدم الضعف في ذلك، فقال تعالى: ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴾ [طه:٤٢]، أي: لا تضعفا في أن تذكراني فيما أمرتكما ونهيتكما، فإن ذكركما إياي يقوي عزائمكما، ويثبت أقدامكما؛ لأنكما إذا ذكرتماني ذكرتما مني عليكما نعمًا جمَّة، ومننا لا تحصى كثرة»[2]. وأمرهما الله بالذكر؛ لأنه جناح يصيران به مستمدين بذلك العون والتأييد من الله؛ ذلك أن أي أمر من الأمور لا يتمشى لأحد إلا بذكر الله[3].

---

(١) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (٢/ ٣٧٩).

(٢) تفسير الطبري (١٨/ ٣١٢).

(٣) ينظر: الكشاف للزمخشري (٣/ ٦٥).

ولما كان العارف بالله لا يثبت على معرفته بالله، ويزداد يقينًا بالله مع كثرة ذكره له بقلبه ولسانه، فإن تركه للذكر وانغماسه في الدنيا، يعدُّ من أقوى العقوبات عليه؛ فقد انقطع عن الله بعد اتصال، وقسا قلبه بعد لين وخشوع، وزالت عنه حياة الطمأنينة التي كان يحياها ويحيا بها.

إن العارف بالله حين يبتعد عن مولاه، وينشغل عنه بشواغل الدنيا وعوارضها فإنه يقع في عقوبة عظيمة، وهي حرمانه من لحظات الأنس بالله والذكر له، والانشغال بمرضاته، ولا عقوبة في الدنيا تعدل هذه العقوبة.

٧٦٤

حياة القلوب

قال أبو الحسين الوراق رحمه الله: «حياة القلب في ذكر الحي الذي لا يموت، والعيش الهنيء مع الله لا غير»(١).

المعنى الإجمالي

القلوب تحيا وتموت؛ فحياتها بترك الذنوب، والإقبال على الله تعالى الحي الذي لا يموت، بدوام ذكره وشكره وحسن عبادته، وذكر الله في الليل والنهار، وفي السر والعلانية، وفي الشدة والرخاء، والعسر واليسر؛ فإنَّ الغفلة عن ذكر الله تعقبها حسرة وندامة يوم القيامة.

يقول عمر بن ذر رحمه الله: «اعملوا لأنفسكم رحمكم الله في هذا الليل وسواده، فإن المغبون من غبن خير الليل والنهار، والمحروم من حرم خيرهما، إنما جعلا سبيلًا للمؤمنين إلى طاعة ربهم، ووبالا على الآخرين للغفلة عن أنفسهم، فأحيوا لله أنفسكم بذكره، فإنما تحيا القلوب بذكر الله، كم من قائم لله في هذا الليل قد اغتبط بقيامه في ظلمة حفرته، وكم من نائم في هذا الليل قد ندم على طول نومه عندما يرى من كرامة الله تعالى للعابدين غدا، فاغتنموا ممر الساعات والليالي والأيام، رحمكم الله»(٢).

---

(١) طبقات الصوفية لعبد الكريم القشيري (ص: ٢٣٠).

(٢) الزهد لابن أبي الدنيا (ص: ١٩٥).

إن العيش الهنئ والحياة الطيبة لا تكون إلا مع الله تعالىٰ، ومن أراد العيش بغير الله حرمه الله اليقين وصفاء القلب في دنياه، وخسر خسرانًا مبينًا في آخرته؛ ولذا فقد توعد الله المعرضين عنه بأن يكون قرناؤهم الشياطين، فقال تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف:٣٦].

٧٦٥

ذكر اللسان والقلب

قال محمد بن الفضل البلخي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ذكر اللسان كفاراتٌ ودرجات، وذكر القلب زُلَفٌ وقُربات»[١].

بيان المفردات

زُلَف: الزلف التقدم[٢]، وقيل: الزلف والزلفة: الدرجة والمنزلة[٣].

المعنى الإجمالي

هناك فرقٌ بين مراتب ومنازل متفاوتة بين ذكر اللسان وذكر القلب؛ فذكر اللسان كفارة للذنوب والخطايا وإن تعاظمت وكثرت؛ قال رسول الله ﷺ: «من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، في يوم مائة مرة، كانت له عَدل عشر رقاب، وكُتب له مائة حسنة، ومُحِيَت عنه مائة سيئة، وكانت له حِرزًا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء إلا رجلٌ عمل أكثر منه»[٤].

---

(١) طبقات الصوفية لعبد الكريم القشيري (ص: ١٧٤).

(٢) تهذيب اللغة للأزهري (١٣/ ١٤٦).

(٣) تهذيب اللغة للأزهري (١٣/ ١٤٧).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٨٥) برقم: (٦٤٠٣).

وذكر القلب يزيد العبد من معرفة الله وتعظيمه وخشيته، ويُدنِيه ويقربه منه منزلة أعلىٰ من منزلة الذكر باللسان؛ فهو يضيف أمرًا آخر وهو القرب من الله تعالىٰ، والوصول إلىٰ معيته وحفظه ومعونته.

إن الذكر بالقلب ينتج لدىٰ العبد مراقبة الله تعالىٰ، والحب له والخشية منه، ويبعده عن الشهوات والشبهات، ويقربه من الله قربة، ويرفعه في أعلىٰ المقامات عنده.

والحاذق الفطن الأريب من جمع بين ذكر الله بقلبه ولسانه؛ فكان من المقربين السباقين إلىٰ الله بقلوبهم قبل أقدامهم، وبفكرهم قبل لسانهم.

٧٦٦

الذكـر مع حضور القلب

قال ابن الجوزي رحمه الله: «خير الذِّكْر ما كنتَ فيه غائبًا كحاضر، ومحبوبًا كناظر»(١).

المعنى الإجمـالي

إن الذي يذكر الله ﷻ بكل كيانه، ويستحضر عظمة ربه ﷻ أثناء ذلك، فإنه يغيب عمّا حوله من الأحداث والأشخاص، فهو غائب عنهم بروحه وقلبه، مع أنه حاضر بجسده، وهذه هي مرتبة الإحسان التي وردت في الحديث: «أن تعبد الله كأنك تراه»(٢)، ومن كان يعبد الله كأنه يراه كيف يشعر بمن حوله، أو كيف يلتفت إلىٰ غيره!

إن الله ﷻ قد وصف المؤمنين بأنهم ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال:٢]، وقال أيضًا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧]، أي: لمن سمع الذكرىٰ بقلب حاضر(٣).

(١) التذكرة في الوعظ لابن الجوزي (ص: ١١٧).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٩) برقم: (٥٠)؛ ومسلم في صحيحه (١/ ٣٠) برقم: (٩).

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب للفخر الرازي (٧/ ١١٣).

يقول ابن القيم: «ذكر القلب يثمر المعرفة، ويُهَيِّج المحبة، ويُثير الحياء، ويبعث علىٰ المخافة، ويدعو إلىٰ المراقبة، ويَزَع عن التقصير في الطاعات والتهاون في المعاصي والسيئات، وذكر اللسان وحده لا يوجب شيئًا منها، فثمرته ضعيفة»(١).

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب لابن القيم (ص: ٨٩).

٧٦٧

حقيقة الذاكر

قال ابن الجوزي رحمه الله: «لَيْسَ الذاكر من قَالَ: سبحان الله والحمد لله وقلبه مُصِرٌّ على الذُّنُوب، وإنَّمَا الذاكر من إِذا هَمَّ بمعصيةٍ ذَكر مقامه بين يَدَيْ علَّام الغيوب»[١].

المعنى الإجمالي

ذِكْرُ الله تعالىٰ له أحوال؛ فهناك ذكر باللسان وحده، وهناك ذكر بالقلب وحده، وهناك ذكر بالقلب واللسان، وأفضل هذه المراتب ما اجتمع فيه القلب واللسان، ثم ما كان بالقلب وحده، ثم ما كان باللسان. وإنما كان ذكر القلب وحده أفضل من ذكر اللسان وحده كما يقول ابن القيم؛ لأن ذكر القلب يُثمر المعرفة، ويُهَيِّج المحبة، ويُثير الحياء، ويبعث علىٰ المخافة، ويدعو إلىٰ المراقبة، ويَزَع عن التقصير في الطاعات، والتهاون في المعاصي والسيئات، وذكر اللسان وحده لا يوجب شيئًا منها، فثمرته ضعيفة[٢].

ولذلك فالذاكر بلسانه وقلبُه غافل مُصِرٌّ علىٰ الذنوب ليس لذكره كبير أثر علىٰ قلبه، وإنما الذاكر الحقيقي هو الذي يكون حاضر القلب مع ربه، لا يغفل عن

(١) التذكرة في الوعظ لابن الجوزي (ص: ٨٦).

(٢) الوابل الصيب من الكلم الطيب لابن القيم (ص: ٨٩).

مراقبته، بحيث لو دفعته نفسه إلىٰ المعصية تذكر أن الله يراه، فينتهي عنها، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾ [الأعراف:٢٠١].

وإن ذكر الله بالقلب يورثك خشية الله ومراقبته، وتظهر آثار ذلك حلاوةً تجدها في قلبك، «قال سهل بن عبد الله: كنت ابن ثلاث سنين، وأنا أقوم بالليل أنظر إلىٰ صلاة خالي محمد بن سوار، فقال لي خالي يومًا: ألَا تَذْكر الله الذي خلقك؟ قلت: كيف أذكره؟ قال: قل بقلبك ثلاث مرات من غير أن تُحرك لسانك: الله معي، الله ناظرٌ إليّ، الله شاهدي. فقلت ذلك ليالي، ثم أعْلَمْتُه، فقال: قُلها في كل ليلة إحدىٰ عشر مرة. فقلت ذلك؛ فوقع في قلبي حلاوته، فلما كان بعد سنة، قال لي خالي: احفظ ما علَّمتك، ودُم عليه إلىٰ أن تدخل القبر، فلم أزل علىٰ ذلك سنين، فوجدت له حلاوةً في سِرّي، ثم قال لي خالي: يا سهل! من كان الله معه وهو ناظر إليه وشاهد عليه هل يعصيه؟ إياك والمعصية»(١).

---

(١) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ٥٩).

٧٦٨

الذِّكر شفاء من مس الشيطان

قال ابن الجوزي رحمه الله: «مَسَّة الشيطان ليس لها غيرُ ذكر الله تِرْياق»(١).

بيــان المفردات

المسّ: الجنون؛ كأن الشيطان يمس الإنسان فيُجِنّه(٢).

الترياق: ما فيه شفاء السم(٣).

المعنى الإجمــالي

إن للشيطان وساوس ومداخل، وهو يجري من ابن آدم مجرىٰ الدم كما في الحديث(٤)، ويزين للإنسان المعاصي، ويحرك الشهوات بهدف إغوائه، ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص: ٨٢-٨٣]، ولكن المؤمن إن الْتَجأ إلىٰ الله عصَمَه الله من وساوس الشيطان.

---

(١) التذكرة في الوعظ لابن الجوزي (ص:١١٨).

(٢) البحر المحيط في التفسير لأبي حيان (٢/ ٧٠٦).

(٣) ينظر: تهذيب اللغة للأزهري (٩/ ٦١).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١٢٤) برقم: (٣٢٨١). ونصه: «إِنَّ الشَّيطانَ يَجْري مِن الإنسانِ مَجْرَىٰ الدَّم».

عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ [الناس:٤] قال: «الشيطان جاثِمٌ علىٰ قلب ابن آدم، فإذا سها وغَفَل وسوس، وإذا ذكر الله خنس»[١]. فالشيطان ينقبض ويخنس عند ذِكْر الله.

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يَعْقِد الشيطان علىٰ قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عُقَد؛ يضرب كل عقدةٍ مكانها: عليك ليلٌ طويلٌ فارْقُد، فإن استيقظ فذكر الله انْحَلّت عُقدة، فإن توضأ انْحَلّت عُقدة، فإن صلىٰ انْحَلّت عُقَدُه كلُّها، فأصبح نشيطًا طيِّب النَّفْس، وإلا أصبح خبيثَ النفس كسلان»[٢]. فالشيطان مُتَربّص بالإنسان في كل أوقاته، ويحاول تَثبيطه عن فعل الخير، فيعْقِد عليه تلك العقد عند النوم، ولكنه إن استيقظ علىٰ ذكر الله والصلاة انْحَلّت تلك العُقَد، وإلا استولىٰ عليه الشيطان.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٩/ ٢٤٢) برقم: (٣٥٩١٩). وهو عند البخاري (٤/ ١٩٠٤) برقم: (٤٧٣)، بلفظ: «إذا وُلِد خَنَسه الشيطان، فإذا ذكر الله عز وجل ذهب، وإذا لم يذكر الله ثبت علىٰ قلبه».

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١٢٢) برقم: (٣٢٦٩).

٧٦٩

الإكثار من الذكر أول منازل السائرين

قال ابن القيم رحمه الله: «**أول منازل القوم:** ﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾، **وأوسطها:** ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، **وآخرها:** ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾»(١).

المعنى الإجمالي

إن العبد السائر في الطريق إلى الله يَمُرّ بمراحل ويترقّى في الدرجات والمنازل، إلى أن يصل إلى رضوان الله تعالى في جنة الخلد، وإن أُوْلى تلك المراحل هي الإكثار من ذكر الله تعالى، كما في الآية، فإذا أكثر العبد من ذكر الله فإن الله يذكره عنده في الملأ الأعلى، كما في الحديث: «فإن ذكَرني في نفسه ذكرتُه في نفسي، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خيرٍ منهم»(٢).

وإذا ذكر الله عبدًا فهذا دليل نزول رحمة الله على ذلك العبد، وهو ما فسر به العلماء الصلاة من الله على عباده المؤمنين، ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ﴾ فالصلاة من الله هي الرحمة والثناء منه تعالى(٣)، وهذه المرحلة هي ثاني مراحل السائرين إلى

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ٤٩-٥٠).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٩/ ١٢١) برقم: (٧٤٠٥).

(٣) ينظر: تفسير الطبري (١٩/ ١٢٣).

الله، وهي مترتبة علىٰ المرحلة الأولىٰ ونتيجة لها.

ثم آخر تلك المراحل: هي الجزاء من الله تعالىٰ علىٰ هذه الأعمال في جنة الخلد، عندما يدخل الملائكة علىٰ المؤمنين قائلين لهم: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد:٢٤].

باب شرف القرآن وتدبره

٧٧٠

القلوب أوعية

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إنما هذه القلوب أوعية، فاشغلوها بالقرآن ولا تشغلوها بغيره»[(١)].

المعنى الإجمالي

القلب وعاء يمتلأ بما يُصَبُّ فيها من خيرٍ أو شرٍّ، وهذه الأوعية تنبض بما فيها وما ملئت به؛ فإن كان صاحب القلب قد ملأ قلبه وشغله بذكر الله من تلاوة القرآن آناء الليل وأطراف النهار فإنه يكون قد شغل قلبه بما يرضي الله تعالىٰ، وما يؤجر عليه أجرًا كبيرًا.

وللقرآن الكريم أثره علىٰ القلوب؛ إذ هي أوعية لما يُلقىٰ فيها، قال الله تعالىٰ عن زيادة الإيمان في قلوب المؤمنين: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤].

فينبغي علىٰ العبد العاقل أن يندم علىٰ تضييع وقته في غير القرآن الكريم؛ فمن شغله القرآن عن غيره إلا أعطاه الله أفضل ما يعطي السائلين، وجعل غناه في قلبه، فيجعل انشغاله في المقام الأول بكتاب الله تعلما وتعليما، وعملا واهتداء.

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (١/ ١٣١).

فالانشغال به ينال به العبد خير أجور الذاكرين لله تعالىٰ، **كما قال الإمام الشاطبي:**

ومــنْ شَــغل القــرآنُ عنــه لســانَه ينــلْ خيــرَ أجــرِ الــذاكرين مُكَمَّــلا[١]

وأوضح الإمام أبو شامة المقدسي معنىٰ هذا البيت بقوله: «فبان من مجموع هذه الروايات أن الاشتغال بالذكر يقوم مقام الدعاء وأن قراءة القرآن من جملة الاشتغال بالذكر، بل هو أفضل، وإليه أشار الناظم بقوله: خير أجر الذاكرين، ومُكَمَّلًا: حال إما من خير وإما من أجر، وقد نص الإمام الشافعي رضي الله عنه علىٰ ذلك فقال: أستحب أن يقرأ القرآن؛ يعني: في الطواف؛ لأنه موضع ذكر والقرآن من أعظم الذكر»[٢].

(١) متن الشاطبية (ص: ٩٠).

(٢) إبراز المعاني من حرز الأماني لأبي شامة (ص: ٧٣٢).

٧٧١

من أمارات طهارة القلوب

قال عثمان بن عفان[(١)] رضي الله عنه: «لو طهرتْ قلوبكم ما شبِعتْ من كلام الله»[(٢)].

المعنى الإجمالي

الطهارة طهارتان: طهارة حسية، وطهارة معنوية، يقول الله تعالىٰ: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ [المدثر:٤]، وفي تأويل هذه الآية معنيان؛ الأول: طهارة الثياب، والثاني: طهارة القلب[(٣)].

وإن كتاب الله نور يستضيء به المؤمنون، ويهتدي بهديه الباحثون عن الطريق الأقوم والأزكىٰ والأعدل في كل مجالات الحياة البشرية يقول الله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء:٩].

---

(١) عثمان بن عفان بن أبي العاص الأموي القرشي، أبو عبد الله ذو النورين، أمير المؤمنين وثالث الخلفاء الراشدين، أحد العشرة المبشرين بالجنة ومن السابقين إلىٰ الإسلام، صاحب رسول الله ﷺ وصهره بابنتَيه رقية وأم كلثوم، ولد في ١٦ بعد الفيل، واستشهد سنة ٣٥هـ. ينظر: معرفة الصحابة لابن منده (٤/ ١٩٥٢)، تقريب التهذيب لابن حجر (ص: ٢٣٥).

(٢) فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل (١/ ٤٧٩)؛ وفي التبصرة لابن الجوزي (ص: ٣٨٠): «لو طهرت قلوبكم ما شبعتم من كلام ربكم».

(٣) ينظر: تفسير الثعلبي (١٠/ ٦٩).

وقول عثمان هنا يتركز على أن الأعمال والعبادة لها علاقة بحال القلوب، وهذا يشهد له حديث النبي ﷺ: «تُعرَض الفتنُ على القلوب كالحصِيرِ عُودًا عُودًا، فأيُّ قلبٍ أُشرِبها نُكِت فيه نُكتةٌ سوداء، وأيُّ قلبٍ أنكرها نُكِت فيه نكتةٌ بيضاء، حتى تصير على قلبين: على أبيض مثل الصفا، فلا تضُرُّه فتنةٌ ما دامت السماواتُ والأرضُ، والآخرُ أسودُ مُربادًّا كالكُوزِ، مُجَخِّيًا، لا يعرف معروفا، ولا ينكر منكرا إلا ما أُشرِب مِن هواه»(١).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ١٢٨) برقم: (١٤٤).

٧٧٢

ثقل القرآن على المنافق

قال أوس بن عبد الله[(١)] رحمه الله: «نقْلُ الحجارة أهون عند المنافق من قراءة القرآن»[(٢)].

المعنى الإجمالي

المنافقون مع قراءة القرآن على قسمين، قسم يقرؤون القرآن ولا يتعظون به؛ فلا يأتمرون بأوامره ولا ينتهون عن نواهيه، بل قلوبهم بعيدة عن التأثر به. وقسم لا يقرؤون القرآن، فلو كُلِّف أحدُهم بفتحه وقراءته لقال إن تحمل الحجار الكبيرة على ظهره أهون عليه من فتح القرآن، وقراءة آياته.

وقد ذكر النبي ﷺ تشبيهين عن القسمين، ففي حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن: كالريحانة ريحها طيبٌ وطعمها مرٌّ، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كالحنظلة، طعمها مرٌّ -أو خبيثٌ- وريحها مرٌّ»[(٣)].

---

(١) أوس بن عبد الله أبو الجوزاء الرَّبَعي البصري، من كبار العلماء، التابعي، حدث عن الصحابة، وروى عنه طائفة، كان أحد العُبَّاد الذين قاموا على الحجاج، يقال: إنه قتل يوم الجماجم سنة ٨٣هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٤/ ٣٧١)؛ شذرات الذهب لابن العماد (١/ ٣٤١).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٣/ ٨٠).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٦/ ١٩٧) برقم: (٥٠٥٩).

٧٧٣

القـرآن ربيع الـمؤمن

قال مالك بن دينار رَحِمَهُ اللهُ: «يا حمَلَة القرآن، ماذا زرع القرآن في قلوبكم؟ فإن القرآن ربيع المؤمن؛ كما أن الغيث ربيع الأرض»[1].

المعنى الإجمـالي

إن القرآن ربيع المؤمن الذي يجد فيه أنسه وسلوته وحاجته وأمر ربه ونهيه، فيعيش حياة طيبة مباركة، كما أن الغيث حياة مباركة للأرض لتنبت فيها من كل زوج بهيج.

والغيث ربيع الأرض، ينزله الله علىٰ الأرض الهامدة القاحلة فتنبت من كل زوج بهيج، كما قال تعالىٰ: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج:٥].

ولا يشعر بزرع القرآن وثمرته في قلبه وسلوكه إلا من تفيأ ظلاله، وتدبر آياته ومعانيه، وعاش بأحاسيسه ومشاعره وفكره ما عاشه صحابة رسول الله ﷺ حين تنزل القرآن علىٰ رسول الله ﷺ، فكانوا يعملون به؛ لأنهم معنيون ومخاطبون بهذا الوحي الإلهي، فأثمر ذلك إقبالًا علىٰ القرآن بكل أحاسيسهم، فنقلوا القرآن إلىٰ من بعدهم غضًا طريًا لفظًا وعملًا وسلوكًا.

(١) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ٢٥٨).

وأكثر ما يُنظر إلىٰ حامل القرآن في سلوكه، فهو حامل راية الإسلام، لا ينبغي أن يلهو مع من يلهو، ولا يسهو مع من يسهو، ولا ينبغي أن يكون له إلىٰ أحد حاجة، إلىٰ الخلفاء إلىٰ من دونهم، وينبغي أن تكون حوائج الناس إليه(١).

(١) ينظر: التبصرة لابن الجوزي (٢/ ٢٦٨).

٧٧٤

القرآن بستان العارفين

قال محمد بن واسع رَحِمَهُ اللَّهُ: «القرآن بستان العارفين، فأينما حلُّوا منه حلُّوا في نُزهة»(١).

المعنى الإجمالي

القرآن الكريم فيه شمول في جوانبه كلها؛ فهو يشمل تعريفًا بحقيقتي الدنيا والآخرة، وترسيخ مبادئ العقيدة الإسلامية، ويوضح مفاهيم الإيمان ولوازمه، ويكشف عن قصص السابقين من الأمم السابقة الذين أهلكهم الله تعالىٰ، وقصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع أقوامهم، وفيه التشريع والأحكام، والمثل التي ضربها الله تعالىٰ لتأكيد الحقائق والمعاني. يقول الله عن شمول القرآن وتفصيله لكل ما يحتاجه المسلم في حياته وتعاملاته: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:٨٩].

والقرآن الكريم بستان للعارفين؛ فمنه ينهلون علومهم، فإن أرادوا إصلاح أنفسهم وتزكيتها وتربيتها فعلىٰ القرآن الاعتماد، وفيه الأساس لكل ما يزكي النفس وينميها، ويزيل عنها كل القبائح والمفاسد. وإن أرادوا التحلي بالأخلاق والمُثل

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٢/ ٣٤٦).

فإن القرآن هو خُلق رسول الله ﷺ، وبه الحث على مكارم الأخلاق، والتحذير من مساوئها وأضرارها. وإن أرادوا الأحكام الشرعية، ما يخص الفرد والأسرة والمجتمع والدولة، وعلاقة الأمة بغيرها من الأمم، ومبدأ السلم والحرب، كل ذلك موجود في القرآن الكريم الذي يعدُّ المصدر الأول للتشريع الإسلامي. فالقرآن يهدي لأحسن الأمور وأزكاها وأعدلها، يقول الله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء:٩].

باب التفكر

٧٧٥
واعظ الليل والنهار

قال أبو سليمان الداراني رحمه الله: «من أراد واعظًا بيّنًا فلْينظرْ إلى اختلافِ الليل والنهار»(١).

المعنى الإجمالي

الوعظ وعظان: وعظٌ ناطقٌ، ووعظٌ صامتٌ؛ فأما الوعظ الناطق فهو ما يقوم به الواعظون في مواعظهم وخطبهم، وأما الوعظ الصامت فهو ما يترك أثره دون أن يكون هناك كلامٌ؛ فالموت واعظٌ صامتٌ؛ وقد كان نقْش خاتم سيدنا عمر رضي الله عنه: «كفىٰ بالموت واعظًا يا عمر»(٢).

وتقلب الليل والنهار وتكويرهما آية من آيات الله، وموعظةٌ يفيد منها الشاكرون الذاكرون لله تعالىٰ الخائفون من الوقوف بين يديه، يقول تعالىٰ: ﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾ [النور:٤٤]. ويقول تعالىٰ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا ﴾ [الفرقان:٦٢]. وتقليب الليل والنهار، واختلافهما، وإيلاج أحدهما في الآخر، وتكوير كل واحد منهما في

(١) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٧٩).
(٢) أخرجه مالك في الموطأ (٦/ ٨٥) برقم: (٢٦٧).

الآخر، بنقصان أحدهما وزيادة الآخر، أو بتساويهما، كل ذلك يدل علىٰ أن الزمن ليس مستقرا، بل يمضي، وبمضيه يتقدم العبد كل يوم إلىٰ ربه، فالليل والنهار آيتان من آيات الله لمن أراد أن يتعظ موعظة بليغة في سرعة انقضائهما، وقرب الرجوع والمصير إلىٰ الواحد القهار ﷻ.

٧٧٦

زكاة العين واللسان

قال بشر بن الحارث الحافي رحمه الله: «زكاة العين النظرُ بالعِبرْة، وزكاةُ اللسان كلمةُ الفطرة: لا إله إلا الله»[(١)].

المعنى الإجمالي

أعضاء الإنسان وجوارحه هي نِعَمٌ أنعم الله بها عليه، ويجب على العبد أن يؤدي شكرها، فكما أنه يجب عليه أن يزكّي ماله بالإنفاق منه في سبيل الله، فكذلك يجب عليه أن يؤدي زكاة جوارحه باستعمالها في طاعة الله ومرضاته، قال ﷺ: «كلُّ سُلامىٰ من الناس عليه صدقةٌ كلَّ يوم تطلع فيه الشمس»[(٢)] أي: علىٰ كل مفصل من عظام ابن آدم صدقة[(٣)].

وعين الإنسان التي يبصر بها هي من أعظم نعم الله عليه، وشكر هذه النعمة يكون باستخدامها فيما يرضي الله ﷻ، ومن أفضل العبادات التي ترتبط بالعين والنظر عبادة التفكر والاعتبار، فآيات الله المرئية منتشرة في كل مكان، وإذا نظر إليها الإنسان نظرة اعتبار وتأمّل أثمر ذلك في نفسه تقوية العلم بقدرة الله وعظمته

(١) تهذيب خالصة الحقائق ونصاب غاية الدقائق للفاريابي (ص: ١٩٤).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ١٨٧) برقم: (٢٧٠٧).
(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (٢/ ٣٩٦).

وحكمته البالغة في كل شيء، فالتفكر من أعظم العبادات لأنه يؤدي إلىٰ ترسيخ العلم بالله وإلىٰ معرفة عيوب النفس وإصلاحها، عن أبي الدرداء ﷺ أنه قال: «تفكُّرُ ساعة خيرٌ من قيام ليلة»[(١)].

واللسان من الإنسان هو العضو الذي يستخدمه للنطق والبيان، وهو من أعظم نعم الله علىٰ الإنسان التي امتن الله بها عليه، قال تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١-٤]، فذكر ما تميز به من سائر الحيوان من البيان، وهو المنطق الفصيح المُعرب عما في الضمير[(٢)].

وزكاة اللسان إنما تكون باللّهج بذكره علىٰ الدوام، وأعظم الذكر هو كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» التي فطر الله الناس عليها، قال رسول الله ﷺ: «إن الله سيخلص رجلا من أمتي علىٰ رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجِلًّا، كل سجل مد البصر، ثم يقول له: أتنكر شيئًا من هذا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: أفلك عذر أو حسنة؟ فيبهت الرجل ويقول: لا يا رب، فيقول: بلىٰ، إن لك عندنا حسنة، وإنه لا ظلم عليك اليوم، فيخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، فيقول: احضر وزنك، فيقول: يا رب، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: إنك لا تظلم، قال: فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة، قال: فلا يثقل اسم الله شيء»[(٣)].

---

(١) الزهد والرقائق لابن المبارك (ص: ٣٣٢).

(٢) الكشاف للزمخشري (٤/ ٤٤٣).

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٣٧٩) برقم: (٢٦٣٩)؛ وابن ماجه في سننه (٥/ ٣٥٦) برقم: (٤٣٠٠)؛ وابن حبان في صحيحه (١/ ٤٦١) برقم: (٢٢٥).

٧٧٧

التفكر في عظمة الله

قال بشر بن الحارث الحافي رحمه الله: «لو تفكَّر الناس في عظمة الله لما عَصَوا الله»(١).

المعنى الإجمالي

التفكر في عظمة الله يأتي بالتفكر في ملكوت الله في السماوات والأرض؛ فقد جعل الله فيهما من آياته الدالة علىٰ عظمته وسلطانه، فقال تعالىٰ: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَـٰفِرُونَ ﴾ [الروم:٨].

وتتجلىٰ عظمة الله في خلقه وإبداع صنعه لكل مخلوق من مخلوقاته، فكل مخلوق يدل علىٰ عظمته، ويدل علىٰ قهره وكبريائه، وغناه عن خلقه، واحتياج كل مخلوق إلىٰ ربه احتياج الضعيف للقوي، والفقير للغني، ومن قصر علمه إلىٰ من أحاط بكل شيء علمًا، وأحصىٰ كل شيء عددًا.

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٨/ ٣٣٧).

وقد ذكر الله تعالىٰ في آية الكرسي من عظمته وفضله ما يجعل العبد المتفكر في عظمة الله لا يغفل عن الله، ولا يتجرأ علىٰ عصيانه، قال تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [البقرة:٢٥٥].

٧٧٨

أبناء الدنيا وأبناء الآخرة

قال يحيى بن معاذ رحمه الله: «أبناء الدنيا يجدون لذة الكلام، وأبناء الآخرة يجدون لذة المعاني»(١).

المعنى الإجمالي

الفرق بين من يبحث عن لذة الكلام ولذة المعنى واضحٌ وبيِّنٌ؛ وذلك كمن يبحث عن الخروج لنزهة لطرد السآمة والملل، ولم يكن في همه ولا هدفه أن يجمع بين ما سبق وبين التفكر والتأمل في خلق الله وبديع صنعه.

وهذا المثل يوضح لنا جليًا تعلق أهل الدنيا بزخرف القول؛ من التعمق في الألفاظ الغريبة، وحشوها بكل محسن بديعي؛ حتى يحمده الناس على فصاحته وبلاغته، ودقته في اختيار ألفاظه، ولذا فقد وصف الله المنافقين بقوة أسرهم لمن يعجبون بحسن ألفاظهم، فقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴾ [البقرة:٢٠٤]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ [المنافقون:٤].

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٦٣).

وأما أهل الآخرة فينجذبون إلىٰ المعاني وأثرها في قلوبهم، وما تُحْدِث من تغير في سلوكهم وأفعالهم. وليس معنىٰ هذا الكلام أن يترك العبد صحة اللفظ، وقوة اختياره للألفاظ، وحسن إبانته عن مقصوده بالكلام القليل عن المعاني الكثيرة، ولكن لا يكون الكلام لذة قائمة بذاتها، بحيث تكون المعاني لا تمثل شيئًا في بادئ الأمر وخاتمته.

٧٧٩

عاقبة خلو القلب من ذكر الآخرة

قال سهل بن عبد الله التستري رحمه الله: «من خلا قلبه من ذكر الآخرة تعرَّض لوساوس الشيطان»[(١)].

المعنى الإجمالي

القلب وعاء يملؤه العبد بالخير أو بالشر، بخوف الله وحبه والاستعانة به ورجائه وحسن التوكل عليه، أو بالانصراف عنه والركون إلىٰ غيره من متعلقات الدنيا.

والقلب الممتلئ بذكر الآخرة قلبٌ عامر بالخير، ومحصَّنٌ من مداخل الشيطان ووساوسه، فإن أراد الشيطان النفاذ إلىٰ القلب لإفساده وجد أمامه رصَدًا وحراسًا يقظين من ذكر الله تعالىٰ وقراءة القرآن وذكر الآخرة وما بها من أحوال وأهوال وجزاء من نعيم مقيم وعذاب أليم.

إن المؤمن حين يجعل الآخرة نصب عينيه، فلا يسعىٰ سعيه التام إلا لها، ولا يبني تصوراته وأفكاره إلا منها، ولا يبدأ بكلام ولا ينتهي إلا بذكرها، يكون قد توجه الوجهة الصحيحة، واستعد بعمله ورجائه لفضل ربه ورحمته لأن يكون ممن

(١) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ١٧٠)؛ وحلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ١٩٨).

ينالون الدرجات العلىٰ من الجنة.

وإن خلو ذكر الآخرة من قلب العبد وفكره ولسانه يجعله يعيش حياة العمىٰ- وإن كان مبصرًا- والضنك والتعاسة في الدنيا؛ لأنه قد أعشىٰ وأعمىٰ بصره عنها، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴾ [طه: ١٢٤-١٢٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٧].

ولا يسلم القلب الخالي من ذكر الله من تسلط الشيطان عليه بوسوسته وهمزه ونفخه ونفثه وإغوائه؛ لأن الشيطان يسهل عليه أن يغوي كل من لا همَّ له إلا الدنيا، فتكون مبلغه من العلم، وهو عن الآخرة من الغافلين.

٧٨٠

حقيقة الاعتبار

قال أبو علي الجوزَجاني رَحِمَهُ اللهُ: «الاعتبارُ: أن ترى الدنيا للفَناء، والعاملين فيها للموت، وعمرانَها للخراب»(١).

بيان المفردات

الاعتبار: القياس والتقدير، وورد بمعنىٰ الاتعاظ والتدبر لمقايسة الأمور فيه والاتعاظ بها؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾ [الحشر:٢]؛ أي: تدبروا وانظروا فيما نزل بِقُرَيْظَةَ والنَّضِير، فقايسوا فعالهم واتعظوا بالعذاب الذي نزل بهم(٢).

والفَناء: هو الزوال، نقيض البقاء، والفعل: فَنَىٰ يَفْنَىٰ فَنَاءً، فَهُوَ فانٍ، وفَنِي الرجل يَفْنَىٰ إذا هَرِم وأَشْرف علىٰ الموت(٣).

(١) تهذيب خالصة الحقائق للفاريابي (١/ ٤٩٦).

(٢) مقاييس اللغة لابن فارس (٤/ ٢٠٩ – ٢١٠)؛ لسان العرب لابن منظور (٤/ ٥٣١). وبنو قريظة وبنو النضير قبيلتان يهوديتان كانتا في المدينة، وقد خانوا النبي ﷺ والمسلمين ونقضوا العهد الذي كان بينهم، فعاقبهم النبي ﷺ بأن جلىٰ بني النضير وقتل رجال بني قريظة وأسر النساء والأطفال، فنزلت الآية إثر غزوة بني النضير.

(٣) تهذيب اللغة للأزهري (١٥/ ٣٤٣).

الخَراب: ضد العُمران والبنيان، أي الدمار والهدم، والجمع أَخْرِبة[(١)].

المعنى الإجمـالي

يبين الجوزجاني في هذه الحكمة أن حقيقة الاعتبار هي استشهاد واستحضار ما وراء الموجود، فنحن نرىٰ الدنيا باقية والناس فيها أحياء يعملون ليلا ونهارا، ويعمرون الأرض بكل طاقة ويكشفون كل يوم شيئا جديدا، ولكن مآل كل هذه الأشياء إلىٰ الفناء والموت، وأهلها سيموتون ومظاهر العمران هذه ستخرب في النهاية، فلا تتعلق بالدنيا الزائلة ولا تنخدع بعمرانٍ وحضارات أيامها معدودة، بل تعلّق بالله الحي الباقي الذي لا يفنىٰ، القائل -وقوله حق-: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧]، واستحضِر الحياة الأبدية التي إليها العودة، واعمرْها بما ينبغي به عمرانها.

ولا شك أن استحضار هذه المعاني والاعتبار بها في نفس الإنسان يجعله يتعظ ويتقي الله ويعمل أكثر وأكثر للدار الآخرة، ولكنها لا تعني الدعوة إلىٰ الرهبانية والعزلة المذمومة كذلك، لأن هناك نصوصا أخرىٰ تدعو إلىٰ العمل في هذه الدنيا وإعمارها وأداء حقوق أهلها أيضا، فينبغي للمرء أن يعتدل في أموره دون إفراط وتفريط ليفوز بفلاح الدارين.

(١) لسان العرب لابن منظور (١/ ٣٤٧).

٧٨١

أبنيةُ التَّذكُّر

قال أبو إسماعيل الهروي رحمه الله: «أبنية التَّذكُّر ثلاثة: الانتفاعُ بالعِظة، واستبصارُ العِبرة، والظَّفرُ بثَمر الفكرة»[(١)].

بيان المفردات

التَّذكُّر: لغة: مصدر تذكّر علىٰ وزن تفعّل، وهذا الوزن يفيد التّدرّج والارتقاء شيئًا فشيئًا، يقال: ذكرت الشّيء بعد النّسيان وذكرته بلساني وبقلبي، وتذكّرته وأذكرته غيري وذكّرته[(٢)].

واصطلاحًا: «هو حضور صورة المذكور العلميَّة في القلب، واختير له بناء التفعُّل لحصوله بعد مهلةٍ وتدرّج، كالتبصُّر والتفهُّم والتعلُّم»[(٣)].

العظة: هي الوعظ، وقيل: هي ما يُتَّعظ به من الحال[(٤)].

---

(١) منازل السائرين للهروي (ص: ٢٠).

(٢) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (٢/ ٥٦٥)، لسان العرب لابن منظور (٤/ ٣٠٨- ٣٠٩)، المصباح المنير للفيومي (١/ ٢٢٣).

(٣) مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٦٩).

(٤) ينظر: شرح منازل السائرين للتلمساني (ص: ٤٠)؛ شرح منازل السائرين للمناوي (ص: ٧٦).

المعنى الإجمـالي(١)

لمنزلة التَّذكُّر فضلٌ كبير، فهي نعمةٌ عظيمة، ومِنَّةٌ جسيمة، له فضائل لا تحصىٰ، وثمرات لا تعد، وهو طريق النجاة، وسلم الوصول، ومطلب العارفين، ومطية الصالحين، وهو قرين الإنابة، ولا يكون إلا بعد التوبة، لأنها تقتضي المحاسبة التي هي اشتغال برفع الموانع، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر:١٣]، والإنابة لا تكون إلا بصفاء الفطرة الموجبة للتَّذكُّر، قال تعالىٰ: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق:٨]، والتذكر من خواص أولي الألباب كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة:٢٦٩].

وأبنية التذكر ثلاثة: «الانتفاع بالعظة»، «والاستبصار بالعبرة»، «والظفر بثمرة الفكرة».

أما الانتفاع بالعظة: هو أن تؤثِّر العظة في القلب الخوفَ والرجاء، فيتحرك للعمل طلبًا للخلاص من الخوف، ورغبة في حصول المرجوِّ، وذلك بأن يتأثر بسماع الوعد والوعيد، فينفعل من الوعد بالرجاء الباعث علىٰ الاجتهاد في العمل، ومن الوعيد بالخوف الباعث علىٰ التقوىٰ حذار من المخوف.

وأما الاستبصار بالعبرة: فهو زيادة البصيرة عما كانت عليه في مقام التفكر بقوة الاستحضار، لأنّ التذكُّر يصقل المعاني التي حصلت بالتفكر في مواقع العبر، ويقوّي العزم علىٰ السَّير؛ لأنه تجديد النظر فيما يحرّك الطلب.

---

(١) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٧٢)؛ شرح منازل السائرين للتلمساني (ص: ٤٠)؛ شرح منازل السائرين للمناوي (ص: ٧٦)؛ فصل الخطاب في الزهد والرقائق والآداب لمحمد عويضة (٥/ ١٣٢-١٣٣).

أما الظّفر بثمرة الفكرة، يعني: أنّ العقل حال التفكُّر كان قد كَلَّ بتحصيل المعاني، فلّما تخمَّرتِ المعاني في القلب، واستراح العقل وعاد فتذكَّرَ ما كان حصَّلهُ، أدرك المطلوب تمامًا، وصَحَّح ما كان قد فاته في حالة التفكر، وشرع في العمل الصالح، فحصل له بذلك ثمرة الفكرة، لأن العمل الصالح هو ثمرة الفكرة الصالحة، وبالتذكر يكمل حصول هذه الثمرة، ويتم الظَّفر بها.

٧٨٢

مرتبة التفكر والتذكّـر

قال أبو إسماعيل الهروي رحمه الله: «التذكُّر فوق التفكر؛ لأن التفكر طلب، والتذكُّرَ وجود»(١).

المعنى الإجمـالي

إن السير في الطريق إلىٰ الله تعالىٰ هو سير مُنتَظم، ينتقل السالك فيه من منزلة إلىٰ منزلة، وكل منزلة مرتكزة علىٰ التي قبلها، ومن تلك المنازل: منزلة التفكر ومنزلة التذكُّر، ولكنّ التفكر قبل التذكُّر؛ لأن التفكر طلب واستدعاء لشيء مفقود عند احتجاب القلب بالشهوات، فيجلو التفكُّرُ الغشاوةَ عن القلب، فيلْمَس التقصير ويتدارك الموقف.

وأما التذكر فهو لشيء موجود؛ لأنه يكون لِمَا حصل بالتفكر، ولكنه غاب عنه بالنسيان، فإذا تذكره وجده وظفر به، فمنزلة التذكر من التفكر منزلة حصول الشي المطلوب بعد التفتيش عنه.

قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾ [الأعراف:٢٠١]، فالتقيُّ ما إن يقارف معصية بسبب غفلة منه استغلها

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٦٨).

الشيطان لإغوائه فإنه يصحو بعد غفلته، ويتذكر بعد نسيانه، فيبصر الطريق ويعود إلىٰ الجادة.

٧٨٣

التفكر في خلق الله

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «أمرك في هذه الدار بالنظر في مكوَّناته، وسيكشف لك في تلك الدار عن كمال ذاته»(١).

المعنى الإجمالي

أمر الله الناس أن يتعرفوا عليه في هذه الدنيا من خلال آياته ودلائل قدرته التي بثها في الآفاق، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٥-٩٩]، فقد أتاح الله في هذه الدار النظر إليه بأنوار البصائر من خلال التفكر في المكوّنات التي

---

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ١٠٤).

كوّنها؛ وكما قال الشاعر:

فيا عجبًا كيف يُعصىٰ الإله ... أم كيف يجحده الجاحد

ولله في كل تحريكةٍ ... وفي كل تسكينة شاهد

وفي كل شيء له آية ... تدل علىٰ أنه الواحد[(١)].

وفي الدار الآخرة يكرم الله عباده المؤمنين الذين آمنوا به في الدنيا دون أن يروه، يكرمهم برؤيته عيانا بأبصارهم، عن جرير ﷺ قال: كنا عند النبي ﷺ، فنظر إلىٰ القمر ليلة -يعني: البدر- فقال: «إنكم سترون ربكم، كما ترون هذا القمر، لا تُضَامُّون[(٢)] في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا علىٰ صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا، ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق:٣٩]»[(٣)].

---

(١) ديوان أبي العتاهية (ص: ١٢٢).

(٢) «لا تضامون في رؤيته»: يروىٰ بالتشديد والتخفيف، فالتشديد معناه: لا ينضم بعضكم إلىٰ بعض وتزدحمون وقت النظر إليه. ومعنىٰ التخفيف «تُضامون»: لا ينالكم ضَيم في رؤيته، فيراه بعضكم دون بعض، والضيم: الظلم. النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (٣/ ١٠١).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١١٥) برقم: (٥٥٤)؛ ومسلم في صحيحه (٢/ ١١٣) برقم: (٦٣٣).

٧٨٤

صلاح الظاهر علامة على صلاح الباطن

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «ما كان ظاهرُ ذكرٍ إلا عن باطِنِ شهودٍ وفكْرٍ»[١].

المعنى الإجمالي

الذكر الظاهر الذي هو الأعمال الظاهرة لا يكون إلا عن باطن شهود الحق جلَّ شأنه، والتفكرِ في آثارِ قدرتِهِ، فإن صلاحَ الظاهرِ تابعٌ لصلاحِ الباطنِ. وإنما خُصَّ الذكرُ بالذكر من بين سائر الأعمال لأنه روحها والمقصود بالذات منها؛ قال تعالىٰ: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ [طه:١٤][٢].

فإذا كان الظاهر مشتغلًا بذكر الله تعالىٰ فهو علامة وجودِ محبة الله في الباطن، إذْ مَن أحبَّ شيئًا أكثر من ذكره، ولا تكون المحبة إلا عن ذوقٍ ومعرفةٍ، فلا يكون ظاهر ذكر إلا عن باطن شهود، فكل مَن ذكر الله فإن روحَه شهدت جمالَ الحضرة، أو تفكَّرتْ في جمال المذكور وبهائه، أو في حسن ثوابه وجزائه[٣].

ولعل مراد ابن عطاء الله بالشهود هنا الفطرة الإيمانية المغروسة في كيان

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ٣١).

(٢) شرح الحكم العطائية للشرنوبي (ص: ١٧٢).

(٣) إيقاظ الهمم لابن عجيبة (ص: ٥٣٢-٥٣٣).

الإنسان عمومًا، وإلا لناقض كلامُه هنا ما قرَّره من قبل من أن في الناس مَن تسبِق أذكارُهم أنوارَهم[١]، أي: فلا تستنير قلوبهم بنور الشهود إلا علىٰ أعقاب ما يأخذون أنفسَهم به من الذكر. والتعبير بالشهود عن الفطرة لا يستقيم إلا إن أريد به أقلُّ ما يُساوِر الإنسانَ مِن شعورٍ بوجودِ الخالِقِ وإحساسٍ بما له من سلطانٍ علىٰ حركة الكون ونظامه. فالشهود الفطري يدفع إلىٰ إعمال الفكر، وثمرة الفكر تتمثل في الذكر. والمراد بالذكر هنا كل العبادات[٢].

قال النبي ﷺ: «ألا، وإن في الجسد مُضغةً، إذا صلحتْ صلح الجسدُ كلُّه، وإذا فسدتْ فسد الجسدُ كله، ألا وهي القلب»[٣].

---

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ٨٥).

(٢) الحكم العطائية شرح وتحليل للبوطي (٥/ ٢٩٢).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٢٠) برقم: (٥٢)؛ ومسلم في صحيحه (٥/ ٥٠) برقم: (١٥٩٩).

٧٨٥

علامات العارفين

قال بعض الصالحين رحمه الله: «علامةُ العارف ثلاثة أشياء: قلبٌ مشغولٌ بالفكرة، وبدنٌ مشغول بالخدمة، وبصرٌ مشغولٌ بالعبرة»(١).

المعنى الإجمالي

هذه حكمة نقلها الفاريابي عن أحد العلماء ولم يعرِّف به، وهي تدور حول أحوال العارفين وعلاماتهم، وذكر منها ثلاثة، أحدها: اشتغال القلب بالفكرة، والفكرة المقصودة هنا التفكر في أسماء الله وصفاته وفي نعمه على العباد، والنظر إلى نفسه بالتقصير والاعتذار، مستغفرا متضرعا. قال الله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١-٢]، والخشوع هو جمع القلب والفكر أثناء العبادة على ما هو منشغل به، ومنه قوله ﷺ في بيان حقيقة الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»(٢).

والأمر الثاني: اشتغال البدن بالخدمة، والمقصود بالخدمة القيام بأوامر الله واجتناب نواهيه، مع الإكثار من الطاعة والعبادة، كقيام الليل وصيام النهار، ويدخل في الطاعات كل أنواع الإحسان التي يتفضل بها الإنسان على الآخرين، كإغاثة

(١) تهذيب خالصة الحقائق ونصاب غاية الدقائق للفاريابي (ص: ١٠٠).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٩) برقم: (٥٠)؛ ومسلم في صحيحه (١/ ٢٨) برقم: (٨).

اللهفان، ونصرة المظلوم، وقضاء الحاجات. فالخدمة البدنية منها ما يكون بينه وبين الله تعالىٰ، ومنها ما يكون بينه وبين باقي البشر.

في حديث النبي ﷺ: «كل سُلامَىٰ من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس: يعدل بين الاثنين صدقة، ويعين الرجل علىٰ دابته، فيحمل عليها أو يرفع عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة يخطوها إلىٰ الصلاة صدقة، ويميط الأذىٰ عن الطريق صدقة»(١)، وكما نلاحظ فقد جمع فيه النبي ﷺ بين العبادة المحضة، وهي الصلاة والمشي إليها، وبين الأعمال الخيرية الأخرىٰ.

والأمر الثالث: اشتغال البصر بالعبرة، والمقصود به أخذ العبرة والموعظة من كل ما يراه في الآفاق وفي نفسه، والتفكر في عجائب صنع الله الذي يدل علىٰ عظمته وقدرته، والاعتبار بما يفعل الله بأعدائه وأعداء أوليائه من الظالمين، وكيف ينتقم منهم، وينصر المظلومين المستضعفين بعد أن كانوا مضطهدين في الأرض.

قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [النمل:٦٩].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ٥٦) برقم: (٢٩٨٩)؛ ومسلم في صحيحه (٣/ ٨٣) برقم: (١٠٠٩).

باب الاتعاظ

٧٨٦

النعيم مع المعاناة

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «مع كل فرحةٍ تَرْحَةٌ، وما مُلئ بيتٌ حَبْرةً إلا مُلئ عَبْرةً»[١].

بيان المفردات

تَرْحة: من التَرَح ضد الفرح[٢].

حَبْرة: بالفتح، وهي النعمة وسعة العيش[٣].

عَبْرة: بفتح العين المعجمة بمعنى الدمعة[٤].

المعنى الإجمالي

فيها بيان طبيعة الدنيا وأمور الحياة، بأن لذتها مشوبة بالمكروهات والصعوبات، وسرورها مقرونة بالأحزان والآلام، وفيها إشارة إلى أن الإكثار من الدنيويات تجلب الهمّ والحزن، وكل فرحة وراءها محنة وألم، وكل بيت فيها مظاهر النعمة وسعة العيش وراءها بكاء ودمعة.

---

(١) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ١٣٤).

(٢) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (١/ ٣٥٧).

(٣) لسان العرب لابن منظور (٤/ ١٥٨).

(٤) المصدر السابق (٤/ ٥٣١).

وإذا تأمل المرء في هذا المعنىٰ يمكن أن يجعل حياته في خط مستقيم دون إفراط وتفريط، ويمكن أن يزيل همه وغمه عند مواجهته لمشكلة ما، ولا ييأس بوقوعه في مصيبة ما، لأنه يعرف أن هناك انفراجة قادمة بإذن الله كما ورد في قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح:٦].

والعكس أيضًا صحيح، أي لا يطير عند الفرح والسرور فإنه يتذكر المعاناة والآلام التي سبقته قبل هذه الفرحة والسعة، فيتعظ ويتواضع.

787

المؤمن بين مخافتين

قال الحسن البصري رحمه الله: «المؤمن بين المخافتين: ذنبٍ قد مضى لا يدري ما اللهُ صانعٌ فيه، وأجلٍ قد بقي لا يدري ما الله مُبتليه فيه، فرحِم اللهُ عبدًا فكَّر واعتبرَ، واستبصرَ فأبصرَ، ونهى النفسَ عن الهوى»[1].

المعنى الإجمالي

العبد يجب أن يكون في خوف دائم من ربِّه ومما يصنعه الله تعالىٰ به، فلا يأمن مكرَ الله ولا يتمنىٰ عليه الأماني. فالمؤمن يخاف ذنوبَه ويستكثر من الاستغفار والتوبة، لأنه لا يدري، هل سيغفره له أو يُنزل عليه عقوبتَه؟ وكذلك يخاف علىٰ حاله في المستقبل، لأنه لا يدري الامتحانات التي سيبتليه بها، ولا شك أن الإنسان معرَّض في كل يوم لامتحان جديد من الله، ليختبر حالَه، كما قال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك:٢]، فينبغي للإنسان ألا ينسىٰ ذلك ولو لحظة، ولا يأمن مكرَ الله تعالىٰ، وقد قال تعالىٰ: ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف:٩٩].

ثم دعا الحسن البصري بالرحمة للعبد الذي فكَّر في أحوال نفسه وأحوال

(١) آداب الحسن البصري لابن الجوزي (ص: ١٢١).

الدنيا، فأخذ العبرة لنفسه واستعد ليوم المعاد، بخلاف الإنسان الغافل الذي لا يفكر فيما له ولا عليه، ثم طلب البصيرة في أموره واستبصر في الدين، فوفَّقه الله تعالىٰ لما طلب، فأبصر بقلبه ما عمي علىٰ غيره، وعرف واجباته ومنهياته، فنهىٰ نفسَه عن اتباع الهوىٰ ورعوناتها.

قال تعالىٰ: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١]، كما أمرَ تعالىٰ بالاعتبار: ﴿ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٢﴾ ﴾ [الحشر:٢].

٧٨٨

الحكمة ضالة المؤمن

قال يزيد الرقاشي رحمه الله: «خذوا الكلمة الطيبة ممن قالها، وإن لم يعمل بها، فإن الله تعالى يقول: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾»(١).

المعنى الإجمالي

جعل الله أناسًا من عباده مفاتيح للخير مغاليق الشر؛ يعظون الناس ويذكرونهم بالله، ويقولون لهم قولًا بليغًا، والأصل أن يكون القائل للموعظة والكلمة الطيبة قدوة حسنة يقتدي به غيره؛ فيكون ما يعظُ به ويُذكِّر به يحمله ويعمل به، فيأتمر بالمعروف الذي يأمر به، وينتهي عن المنكر الذي ينهىٰ عنه، كما قال الله عن شعيب عليه السلام وهو يخاطب قومه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود:٨٨].

فيكون أثر مقامه أقوىٰ من أثر مقاله، لكن إن لم يكن فاعلًا فليس في ذلك حرجٌ أن يقبل السامعون وعظه، ويعملوا بما جاء به، فليس من الضروري ألا يدعو

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٣/٥١).

الداعي إلا إن كان عاملًا بما قال، ولو ترك كل واعظ ذلك، لما بقي أحدٌ يبلغ عن الله من الذكرىٰ التي تنفع المؤمنين. فالمؤمنون بين مبلغ لغيره، وبين مستمع للقول فيتبع أحسنه. كما قال تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾ [الزمر:١٨].

٧٨٩

العاقل من ينتفع بالموعظة

قال سفيان بن عيينة رحمه الله: «إن العاقل إذا لم ينتفع بقليل الموعظة لم يزدد على الكثير منها إلا شرًّا»(١).

المعنى الإجمالي

المؤمن عاقل يفيد من المواعظ إفادة كبيرة؛ فهي كالسياط تلذع قلبه وتوقظه من الغفلة، وتعيده من شرود، فينتفع بقليلها فضلًا عن كثيرها. ولقد كان الأمراء يستمعون إلىٰ وعظ ونصح العلماء، ويبكون علىٰ تقصيرهم وتفريطهم.

والعاقل هو من يستمع للموعظة ويفيد منها، وإن كانت قليلة، فتذكره بالله، وتزيل عنه غفلته، وتحثه علىٰ بلوغ الهداية التي يطلبها من الله تعالىٰ في كل صلاة.

ولا تنفع الموعظة إلا من كان في قلبه خوف من الله تعالىٰ، أما من ليس كذلك فلن تنفعه، بل يتجنبها، ويزداد شقاوة إلىٰ شقاوته وشرًا إلىٰ شره. قال تعالىٰ: ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴾ [الأعلىٰ: ١٠-١١].

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٧/ ٢٧٧).

٧٩٠

التفكر عند زيارة المقابر

قال حاتم الأصم رحمه الله: «من مرَّ بالمقابر فلم يتفكر لنفسه ولم يَدْعُ لهم، فقد خان نفسه وخانهم»(١).

المعنى الإجمالي

القبر أول منزلٍ من منازل الآخرة إن نجا العبد من أهواله وظلمته وفتنته فما بعده أهون وأيسر، وإن لم ينجُ منه فما بعده أشدُّ وأعسرُ. ولقد كان النبي ﷺ يعظ أصحابه رضي الله عنهم عند المقابر، ويبكي بكاءً شديدًا، ويقول لهم: «يا إخواني، لمثل هذا فليعمل العاملون، فأَعِدُّوا»(٢).

وقد شرع النبي ﷺ زيارة القبور، فقال: «نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها»(٣).

ومن آداب الزيارة الدعاء للأموات، والتفكر في حالهم، فقد كانوا من أهل الدنيا يعيشون في دنياهم ففرق بينهم وبين أقربائهم وأحبابهم هادم اللذات ومفرق

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (٢/ ٢١١) (٤/ ٤٨٦).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٧٩) برقم: (٣٤٣٣١).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٣/ ١٥٦٣)، برقم: (١٩٧٧).

الجماعات، فيعمل قبل أن يصل إلىٰ حالهم ومآلهم، فموعده للانتقال إليهم آتٍ لا محالة.

ومن بر المؤمن ووفائه بأقربائه وإخوانه وأخواته المسلمين والمسلمات الذين فارقوا الدنيا، ورجعوا إلىٰ الله مولاهم الحق، أن يدعو لهم عند دعائه، وكذلك عند زيارته للمقابر، فإن لم يدع لهم فقد خان نفسه؛ إذ لم يلتزم بهدي رسول الله ﷺ الذي كان يُعلِّم الصحابة رضي الله عنهم ماذا يقولون إذا زاروا المقابر، فقد علم السيدة عائشة رضي الله عنها عندما سألته فقال: كيف أقول لهم يا رسول الله؟ قال: «قولي: السلام علىٰ أهل الديار من المؤمنين، والمسلمين ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون»(١).

ومن زار المقابر ولم يَدْعُ لأهلها فقد خان مودتهم وأُخوَّتهم، وقصّر بواجبه نحوهم، فهو اليوم علىٰ وجه الأرض، وغدًا في جوفها يتمنىٰ دعوات إخوانه الأحياء. وقد كان من وفاء النبي ﷺ دعاؤه لمن مات من الصحابة رضي الله عنهم ويزورهم في البقيع، فيستغفر لهم؛ فقد جاءه جبريل عليه السلام قبل وفاته، فقال له: «إن ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع، فتستغفر لهم»(٢).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٣/ ٦٣) برقم: (٩٧٤).
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٣/ ٦٣) برقم: (٩٧٤).

٧٩١

الكـلام الحسـن قـوت

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «العبارات قُوتٌ لِعائلةِ المستمِعِين، وليس لك إلا ما أنت له آكِلٌ»(١).

بيـان الـمفردات

عائلة: جمع عائل: وهو الفقير، وعائل يجمع كذلك على عالة، بمعنى: الفقراء، والعالَة: الفاقة(٢).

الـمعنى الإجمـالي

عبارات المعارف واللطائف المنبثقةِ من أهلِ العلمِ والمعرفة من حيث معناها قوتٌ لأرواح المستمعين، والفقراء الطالبين زيادةَ اليقين، كما أن الأطعمة الحسية قوتٌ لأبدان المحتاجين لها، وهي أيضا تختلف باختلاف الطبائع، فكما أن الأطعمة يصلُح بعضُها لشخصٍ دون آخَر، لاختلاف الطبيعة والمزاج، وكذلك الأقوات المعنوية. وليس منهم إلا ما أنت له آكِلٌ، أي: إلا ما فهمتَ عنهم، لاختلاف المذاهب وتبايُن المطالب، فقد تُلقِي عبارةً على جماعةٍ، فيفهم كلٌّ واحدٍ

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ١١٦).

(٢) ينظر: لسان العرب لابن منظور (١١/ ٤٨٨)؛ وإيقاظ الهمم لابن عجيبة (ص: ٣١٠).

منهم ما لا يفهمه الآخَرُ، وهكذا[1].

يُشبِّه ابنُ عطاء الله الكلامَ الموجَّهَ من الحكماء الصالحين إلىٰ الناس علىٰ سبيل الموعظة والنصح بالقوت الذي تتغذىٰ وتنمو به الأجسام، فهو الآخر من فصيلة القوت، إلا أنه من النوع الذي تتغذىٰ به العقولُ والأرواحُ. وربما كانت الاستجابة لاحتياج العقل والروح إلىٰ غذائهما أهمَّ لضمانة حياة الإنسان، من الاستجابة لحاجة الجسد إلىٰ غذائه، علىٰ أن الحياة الكاملة الراشدة لا تستقيم بدون هذين الغذاءين.

ثم يلفت نظر السامع إلىٰ الأدب الذي ينبغي أن يتحلىٰ به، فيقول له: ليس لك مما تتلقاه من عبارات الموعظة والنصح إلا ما فهمتَه فتمثَّلتَه وعملتَ به، كما أن الذي يجلس علىٰ مائدة الطعام ليس له من الألوان التي أمامه إلا ما استساغه فأكله فتغذَّىٰ به[2].

وقد أشار ربنا سبحانه إلىٰ هذا المعنىٰ بقوله: ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ [البقرة:٦٠].

وفي الحديث: «مَن يرِدِ اللهُ بهِ خيرًا يُفقِّهه في الدين، وإنما أنا قاسمٌ ويُعْطي اللهُ»[3].

---

(١) ينظر: إيقاظ الهمم لابن عجيبة (ص: ٤٠٨)؛ وشرح الحكم العطائية للشرنوبي (ص: ١٢٩)؛ وتعليقات يوسف الحاج علىٰ الحكم (ص: ١١٦).

(٢) الحكم العطائية شرح وتحليل للبوطي (٤/ ٢٧٣).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٩/ ١٠١) برقم: (٧٣١٢)؛ ومسلم في صحيحه (٣/ ٩٥) برقم: (١٠٣٧).

٧٩٢

العيان أبلغ من البيان

قال ابن القيم رحمه الله: «من لم ينتفع بعينه لم ينتفع بأذنه»[(١)].

المعنى الإجمالي

إن للنظر والمشاهدة قوة في التأثير، وزيادة في اليقين تفوق قوة تأثير الخبر، فمن رأىٰ عاقبة ظالم أمام عينيه، ورأىٰ المهانة التي آل إليها أمره، وسوء خاتمته بعد العز والجاه، رسخ في نفسه أن الظلم عاقبته وخيمة، وتيقن أن عقاب الله سيلحق الظالم عاجلًا أم آجلًا، وما كان ليصل إلىٰ هذا اليقين لولا المشاهدة، ولكن من لم يصل إلىٰ هذا اليقين بالرؤية مع قوة دلالتها، فلن يفيده السماع المجرد.

وقد ورد في الحديث: «ليس الخبر كالمعاينة، إن الله عز وجل أخبر موسىٰ بما صنع قومُه في العجل، فلم يُلْقِ الألواح، فلما عاين ما صنعوا ألقىٰ الألواح فانكسرت»[(٢)]، فرؤية موسىٰ لما صنعه قومه أثَّرت فيه أكثر من تأثير الخبر. وإبراهيم عليه السلام قد سأل ربه أن يُرِيَه كيف يُحْيي الموتىٰ؛ ليزداد طمأنينة، فعِلم اليقين غير عين اليقين.

وكذلك التربية بالقدوة والبيان بالفعل أبلغ وأشد تأثيرًا من التربية بالكلام؛ فمن صحب رجلًا صالحًا، ورأىٰ من أحواله وصدقه وتعامله ولم ينتفع من ذلك

---

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ٤٤).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٦٠١) برقم: (٢٤٨٦).

كله، فلن ينتفع من أقواله، ولذلك كان النبي ﷺ يعلم أصحابه بالفعل فيقول لهم: «صلوا كما رأيتموني أصلي»(١).

وقد بلغ الصحابة رضي الله عنهم من الفضل ما بلغوا بفضل صحبتهم ورؤيتهم رسول الله ﷺ، فدرجة الصحبة لا يبلغها أحد؛ جاء في الحديث: «لا تسبوا أحدًا من أصحابي؛ فإن أحدكم لو أنفق مثلَ أُحُد ذهبًا ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نَصِيفَه»(٢). ومن رأىٰ النبي ﷺ لحظة في حياته مؤمنًا به، ومات علىٰ ذلك نال فضل الصحبة، وذلك لفضل الرؤية وميِّزتها عن السماع المجرد.

وقد قيل: من وَعَظ بقوله ضاع كلامه، ومن وَعَظ بفعله نَفَذت سِهامه. وقيل: عملُ رجلٍ في ألف رجل أبلغ من قول ألف رجل في رجل(٣).

يا ابن الكرام ألا تدنو فتبصرَ ما ... قد حدثوك فما راءٍ كمن سمعا(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٩) برقم: (٦٠٠٨).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٧/ ١٨٨) برقم: (٢٥٤١).

(٣) فيض القدير لمحمد عبد الرؤوف المناوي (١/ ٧٨).

(٤) البيت لمحمد الكفيري الدمشقي، ينظر: سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر لمحمد خليل الحسيني (٤/ ٤٣).

باب الموت وقصر الأمل

٧٩٣

حقيقة الغنى تعليق القلوب بالله تعالى

قال سعد بن عبادة[(١)] رضي الله عنه: «صلِّ صلاةَ امرئٍ مودِّعٍ يظنُّ أنْ لن يعود، وأظهِرِ اليأسَ مما في أيدي الناس فإنه الغنى»[(٢)].

بيان المفردات

مودِّع: الوداع: توديعك أخاك في المسير، والوداع: التَّرك والقِلى، وهو توديع الفراق[(٣)]. والمراد بالوداع هنا: الموت.

---

(١) سعد بن عبادة بن دُلَيْم الأنصاري الخَزرَجي، أبو ثابت، صحابي جليل وزعيم الخزرج قبل الإسلام، شهد العَقَبة مع السبعين من الأنصار وكان أحد النقباء الاثني عشر، وشهد المشاهد كلها مع النبي ﷺ إلا بدرا عند البعض، توفي سنة ١٥هـ. ينظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٣/ ٥٦٦)؛ الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر (٢/ ٥٩٤).

(٢) الجامع في السنن والآداب والمغازي والتاريخ لابن أبي زيد القيرواني (ص: ١٧٢). وذكره الحارث المحاسبي عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، وعبارته: «أظهر اليأس مما في أيدي الناس فإنه الغنى، وإياك والطمع وطلب الحاجات فإنه الفقر، وإذا صليت فصل صلاة مودع». ينظر: رسالة المسترشدين للمحاسبي (ص: ٥٥).

(٣) العين للخليل بن أحمد (٢/ ٢٢٣).

المعنى الإجمالي

روىٰ أبو أيوب الأنصاري ﷺ قال: جاء رجلٌ إلىٰ النبي ﷺ فقال: عظني وأوجز، فقال: «إذا قمتَ في صلاتك فصلِّ صلاة مودِّعٍ، ولا تَكَلَّم بكلامٍ تعتذر منه غدًا، واجمع الإياس مما في أيدي الناس»(١).

ويراد بقوله: (مودع) أي مودع لنفسه، مودع لهواه، مودع لعمره سائر إلىٰ مولاه(٢)، كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ﴾ [البقرة:٢٢٣].

وإنَّ المصلي حين يتيقن أنَّ صلاته قد تكون آخر صلاة له في الدنيا، ولا يبقىٰ إلىٰ صلاة أخرىٰ فإنه يجد ويجتهد علىٰ إتقان الصلاة وأدائها كما يحب الله ويرضىٰ(٣).

وإظهار اليأس مما في أيدي الناس يجعل العبد المؤمن غنيًّا ومتوكلًا علىٰ الله غير آبهٍ مما عند الناس من زهرة الحياة الدنيا، فإن من زهد مما عند الناس أحبه الناس، وذلك لما روىٰ سهل بن سعد الساعدي ﷺ قال: أتىٰ النبي ﷺ رجلٌ، فقال: يا رسول الله دلني علىٰ عملٍ إذا أنا عملته أحبني الله وأحبني الناس؟ فقال رسول الله ﷺ: «ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس»(٤).

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨/ ٤٨٤) برقم: (٢٣٤٩٨)؛ وابن ماجه في سننه (٢/ ١٣٩٦) برقم: (٤١٧١).

(٢) إحياء علوم الدين للغزالي (١/ ١٥٠).

(٣) ينظر: صيد الخاطر لابن الجوزي (ص: ٣٦٣).

(٤) أخرجه ابن ماجه في سننه (٢/ ١٣٧٣) برقم: (٤١٠٢).

٧٩٤

الزاهد من يعدُّ نفسه ميتًا

قال أبو الدرداء ﵁: «إذا أصبحتَ فاعْدُد نفسك من الأموات، فكأنك قد لحقت بهم»[١].

المعنى الإجمـالي

الدين الإسلامي هو الدين الذي يجمع بين الدنيا والآخرة؛ فيأمر متبعيه بالسير في الأرض؛ للسعي والكسب، وللتفكر والتأمل في خلق السماوات والأرض والأنفس.

ويأمرهم أن يتفكروا في الموت، وكأنه قد نزل بهم، فلحقوا بمن سبقهم من الموتىٰ، فيزهدون عن الدنيا، ويجعلون همهم وهمتهم أن يكونوا ممن رضي الله تعالىٰ عنهم، فإن الغفلة عن الموت تصور للعباد وكأن الموت سيتخطَّاهم إلىٰ غيرهم، وما علم الغافلون أن الموت سيأتي عليهم كما فعل بأسلافهم.

وإذا ملأ هذا الشعور قلب المؤمن فإنه -بلا شك- لا يستكثر من الدنيا، ولا يُحزِنُ الناس بأعماله السيئة، ولا يحمل أوزاره وأوزارًا مع أوزاره، بل يتخفف من الحمل، فيكون في الدنيا من الزاهدين، ويكون في الآخرة من الناجين.

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (١/ ٢٢٢).

٧٩٥

أنت ضيف ومالُك عاريّة

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «ما أحدٌ أصبح في الدنيا إلا وهو ضيف، ومالُه عاريَّة، والضيف مُرتحِل، والعاريَّة مَردودة»[(١)].

المعنى الإجمالي

فحقيقة الدنيا أنها دار غربة وبلاء، وأن ساكنيها كلهم غرباء، والغريب ضيفٌ في غربته؛ إذ لا بدَّ للضيف من شوق للعودة والارتحال إلىٰ دار إقامته، ودار الإقامة الحقيقي الآخرة؛ فهي نعم الدار للمتقين، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ [العنكبوت:٥٨]. ويقول النبي ﷺ موصيًا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «كن في الدنيا كأنك غريبٌ أو عابر سبيل»، وكان ابن عمر يقول: إذا أمسيتَ فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحتَ فلا تنتظر المساء[(٢)].

وما يملكه هذا الضيف الغريب في دار الغربة مما أنعم الله عليه، وما أعطاه من جسد ومال وبنين عارية مستردة، ولذلك لم يكن له حق التصرف في شيء مما أنعم

(١) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ١٣٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٨٩) برقم: (٦٤١٦) وأخرجه أحمد في مسنده (٤/ ٣٨٩) برقم: (٤٧٦٤) بزيادة: «واعدد نفسك في الموتىٰ».

الله إلا فيما يريد الله ويرضاه.

وفي هذا المعنى قال الشاعر:

ومـــا المـــالُ والأهلـــون إلا ودائـــعُ   ولا بـــدَّ يومًـــا أن تُـــرَدَّ الودائـــعُ(١).

وزار رابعة أصحابها فذكروا الدنيا فأقبلوا على ذمها، فقالت: اسكتوا عن ذكرها، فلولا موقعها من قلوبكم ما أكثرتم من ذكرها، ألا من أحب شيئًا أكثر من ذكره(٢).

(١) البيت للبيد بن ربيعة العامري، ينظر: الشعر والشعراء لابن قتيبة (١/ ٢٧١).
(٢) إحياء علوم الدين للغزالي (٣/ ٢٠٧).

٧٩٦

العمل للموت آجلا أو عاجلًا

قال كعب الأحبار[(١)] رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعمل عمل العبد الذي لا يرى أنه يموت إلا هرَمًا، واحذر حذَر المرء الذي يرى أنه يموت غدًا»[(٢)].

بيان المفردات

هرمًا: الهرَم: كبَرُ السنِّ، يقال: هَرِمَ الرجلُ فهو هَرِمٌ[(٣)].

المعنى الإجمالي

الأصل لدىٰ المسلم أن يعمل للدنيا بقدر بقائه فيها، وأن يعمل للآخرة بقدر بقائه فيها. والتوازن في العمل للدنيا والعمل للآخرة مطلوب؛ فوجود الأمل لدىٰ المسلم بالحياة وعطائها يجعله يبذل جهده، وكأن الموت لا يطرق بابه، ولا ينغص معيشته، فيعمل للدنيا وكأنه سيُعمَّر طويلًا، ولا يموت إلا هرمًا.

(١) كعب بن ماتع الحميري، أبو إسحاق، المشهور بكعب الأحبار، العلامة الحبر، من المخضرمين، أسلم بعد وفاة النبي ﷺ، كان يحدث الصحابة عن الكتب الإسرائيلية ويأخذ عنهم السنن، توفي سنة ٣٢هـ. ينظر: الطبقات الكبرىٰ لابن سعد (٩/ ٤٤٩)؛ سير أعلام النبلاء للذهبي (٣/ ٤٨٩).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٦/ ٣١).

(٣) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (٥/ ٢٠٥٧).

والتفكر في الموت وما فيه من شدة وكرب وغصة، وما بعده من أهوال عظام من البرزخ والحشر والنشر ومواقف يوم القيامة وانقسام الناس إلىٰ فريقين فريق في الجنة وفريق في السعير يجعل الحياة مليئة بالخوف، يجعل المسلم يعمل للآخرة وكأن الموت قد حلَّ به أو يكاد.

جاء في الأثر عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: «احْرِث لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا»[1].

(١) غريب الحديث لابن قتيبة (٢/ ٣٨٥).

٧٩٧

ترك الأماني

روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: «لا تَتَّكِل على المُنَى؛ فإنها بضائع النَّوْكَى»[١].

بيـان المفردات

المُنى: بضم الميم: جمع مُنْيَة، وهي: ما يتمناه الإنسان وتتوجه إليه إرادته، ومثله: أمنية[٢].

النوكى: جمع أنْوَك، وهو الأحمق، يقال: رجل أنوك، وقوم نَوكَى ونُوكٌ أيضًا[٣].

المعنى الإجمـالي

لا تعتمد على الهوى ولا تتكل على المنى، فليس كل ما يهواه الإنسان يملكه، ولا كل ما يتمناه يدركه، واعلم أن الاعتماد على الهوى والاتكال على المنى من شِيَم الحمقى وخصال النوكى[٤].

(١) الإعجاز والإيجاز للثعالبي (ص: ٣٧).
(٢) ينظر: تاج العروس للزبيدي (١/ ١١٤).
(٣) لسان العرب لابن منظور (١٠/ ٥٠١).
(٤) ينظر: كتاب مطلوب كل طالب من كلام علي بن أبي طالب لرشيد الدين الوطواط (ص: ٣٧).

وإنما كانت المنىٰ بضائع الحمقىٰ، لأنها تصرف عن العمل الجادِّ غالبًا، وكثيرا ما تكون من أحلام اليقظة المخدِّرة للعقل، والمفتِّرة للعزيمة(١).

ومصداق هذا الكلام في قول النبي ﷺ: «الكيِّس من دَانَ نفسه وعمِلَ لِما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنَّىٰ علىٰ الله»(٢)، أي: العاجز الأحمق هو الذي يتمنىٰ علىٰ الله الأماني ويتبع هواه، والله تعالىٰ قد ذمَّ الذين قد اغتروا بالأماني في الحياة الدنيا بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ﴾ [الحديد:١٤]، وقال سبحانه في صدد النهي عن الاتكال علىٰ المنىٰ: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان:٣٣].

---

(١) حكم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب لإبراهيم شمس الدين (ص: ٩٠-٩١).

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٢٤٦) برقم: (٢٤٥٩)؛ وأحمد في مسنده (٢٨/ ٣٥٠) برقم: (١٧١٢٣)؛ قال الترمذي: حديث حسن.

٧٩٨

قِصَر أمد الدنيا

قال سعيد بن جبير[(١)] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنما الدنيا جُمعة من جُمَع الآخرة»[(٢)].

المعنى الإجمالي

مثَّلَ اللهُ الدنيا بالزرع الذي امتلأ خضرة، حتىٰ إذا افتتن به الناس، اصفر لونه، ثم كان هشيما تذروه الرياح، قال تعالىٰ: ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴾ [الكهف:٤٥].

ومثلها في سرعة مضيها وذهابها، وانقضاء زمانها، كمثل جمعة: أي أسبوع، وفي هذا دلالة علىٰ وجوب الإفادة القصوىٰ من البقاء في الدنيا بطاعة الله، وترك التسويف والتمني بالأماني الكاذبة، فما أقصر الحياة وما أعظمَ بركتها لمن أطاع الله فيها.

---

(١) سعيد بن جبير بن هشام الوالبي الكوفي، أبو محمد الأسدي، وقيل أبو عبد الله، الإمام الحافظ المقرئ المفسر، تابعي مشهور، صاحبُ ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قُتل علىٰ يد الحجاج سنة ٩٥هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٤/ ٣٢١)؛ تقريب التهذيب لابن حجر (ص: ٢٣٤).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٤/ ٢٧٩).

٧٩٩

سُكَّان الدنيا موتى

قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: «إنا قوم من أهل الآخرة أُسْكِنّا الدنيا، أمواتٌ أبناء أموات، والعَجَب لميِّتٍ يَكتب إلى ميت يُعزِّيه عن ميت»(١).

المعنى الإجمالي

هذه الكلمات النورانية من أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز مما كتبها إلىٰ رجل، تعزية ومواساة له، فجاء كلامه كحكمة رائعة ونصيحة ذهبية، ينتفع بها مَن أُرسِل إليه ومَن يأتي بعده.

وحين يكتب العارفون الزاهدون إلىٰ غيرهم يكتبون بما حوته قلوبهم من الخير والمعرفة بالله تعالىٰ، وتصل كلماتهم إلىٰ سويداء القلوب، فتحدث هزة إيمانية قوية.

يكتب المعزون إلىٰ من أصيبوا بفقدان قريب أو صديق، فيضعون عبارات مألوفة مكرَّرة، لكنهم لا يواسون بها المصاب مواساة كاملة كما هي في هذه المقولة اللطيفة.

إن العباد كلهم كانوا من سكان الآخرة؛ إذ سكنها أبوهم آدم عليه السلام، ثم أهبطه الله

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٥/ ٢٦٦).

إلىٰ الأرض؛ ليتم الامتحان والابتلاء فيها، ثم يعودون إليها كرة ثانية، فمن الآخرة المبتدأ وإليها المنتهىٰ.

ولذا فإن المعزي للمصاب ميتٌ يعزي ميتًا في ميت، فماذا يكون بعد هذه التعزية إلا الصبر والاستسلام لقضاء الله وقدره.

٨٠٠

الموت ينغص نعيم الدنيا

قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لقد نغَّص هذا الموت على أهل الدنيا ما هم فيه من غضارة الدنيا وزهوتها»[(١)].

بيان المفردات

نَغَّصَ: نغّص الله عليه العيشَ تَنْغيصًا؛ أي: كدَّره، ونغّص علينا؛ أي: قطع علينا ما كنا نحب الاستكثار منه[(٢)].

الغضارَة: طِيبُ العيش[(٣)].

المعنى الإجمالي

إن الموت وسكراته وكربه وغصصه وآلامه تجعل العبد المؤمن منغص العيش مكدر الحال، مهما بلغت عبادته وطاعته لله فإنها لا تمنعه من كرب الموت وشدائده؛ ذلك أنَّ الموت بغصصه وآلامه لا يستثني أحدا، فكيف بحال أهل الدنيا الذين أوتوا من طيب عيشها وسعته شيئا كثيرا؟

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٥/ ٢٦٤).

(٢) ينظر: تهذيب اللغة للأزهري (٨/ ٦٢)؛ الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (٣/ ١٠٥٩).

(٣) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (٢/ ٧٧٠).

وإن غصص الموت أشدُّ من ألف ضربةٍ بالسيف وفي كل مَا خلق الله ﷻ البركَة إِلَّا فِي الْأَجَل فَإِنَّهُ مُؤَقّت لوفاء الْعدة وانقضاء الْمدَّة[1].

لكنهم مهما يكن لديهم من نعيم وهناء في العيش، وخصب وخير وفير، فإن الموت يكدر عليهم معيشتهم، ويُذهب ما لديهم من لذاذة العيش ووفرته، ذلك أن الله تعالىٰ لم يجعل الدينا دارًا للمقام والاستقرار، بل هي دار موصوفة بالكدر والضيق وكثرة الأحزان، كي لا يتعلق الناس بها، وينظرون إلىٰ الدار التي فيها المقام الأمين، والجنات والعيون.

(١) بستان الواعظين ورياض السامعين لابن الجوزي (ص: ١٤٩).

٨٠١

فائدة استحضار الموت

قال عمر بن عبد العزيز ﵀: «مَن قرَّبَ الموتَ مِن قلبِهِ استكثر ما في يديه»(١).

المعنى الإجمالي

يعطي الله عباده من رزقه وفضله شيئا كبيرا، لكن العباد لا يسأمون من دعاء الله من ذلك الخير، ومنه حبه للمال، الذي وصف الله حب الإنسان له بالشديد، وقد ذكر الله تعالىٰ ذلك فقال عز شأنه: ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ [العاديات:٨].

ويتفاضل العباد في تملُّكِ حب المال وغيره من الأشياء قلوبهم؛ فمن العباد من الجحود الكنود، ومنهم الممسك الجامع الذي لا يعطي منه شيئا خوف نقصان ما عنده أو زواله، ومنهم من عرف حق الله فأدىٰ شكره لله بقلبه ولسانه، وأدىٰ حق الله فيه لمن لهم حق معلوم.

والذي يجعل العبد المؤمن يرىٰ ما أعطاه الله كثيرا أمران، أحدهما: أنه لا يزدري نعمة الله عليه، كما في حديث النبي ﷺ: «انظروا إلىٰ من أسفل منكم،

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٥/٣١٦).

ولا تنظروا إلىٰ من هو فوقكم؛ فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله»(١).

والثاني: تذكر الموت وتقريبه من قلبه؛ لأن ذكر الموت باللسان ليس كافيًا، بل استحضار ذكره بالقلب، فالقلبُ الذاكرُ للموت قلبٌ خائفٌ وجِلٌ من الله تعالىٰ، قلبٌ لا يتعلق بالدنيا، قلبٌ يرىٰ الآخرة رأي العين، فيرىٰ نعيمها وجحيمها وهو في الدنيا، قلبٌ خاشعٌ لا يبكي علىٰ الدنيا، بل يبكي علىٰ حال صاحبه عند المثول والوقوف بين يدي الله تعالىٰ.

إن تذكر القلب للموت يجعل صاحبه قانعًا بما أعطي، مستكثرًا ما يكون في يدي صاحبه؛ وهذا هو حال صحابة رسول الله ﷺ الذين كان متاعهم من الدنيا كزاد الراكب الذي يبتغي سفرًا، فيكفيه ما يوصله إلىٰ سفره.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٢١٣) برقم: (٢٩٦٣)؛ وللبخاري (٨/ ١٠٢) برقم: (٦٤٩٠) بلفظ: «إذا نظر أحدكم إلىٰ من فُضِّل عليه في المال والخَلْق فلينظر إلىٰ من هو أسفل منه».

٨٠٢

الإكثار من ذكر الموت

قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما أكثر عبدٌ ذكرَ الموت إلا رأى ذلك في عمله، ولا طال أمل عبدٍ قطُّ إلا أساء العمل»(١).

المعنى الإجمالي

لذكر الموت فوائد على عمل العبد؛ فهو يقصر من الأمل لدى العبد، ويحثه على بذل أقصى جهده ليكون من المقربين الأبرار، ويحافظ على قلب العبد من الفساد المتمثل بالتعلق بالدنيا، ونسيان الآخرة. وتذكر الموت والإكثار من ذكره يورث العبد خوفًا من الله ومراقبةً لله؛ فيأتي بالأعمال الصالحة، ويجعل رضى الله وطاعته همه ومبتغاه. ومن نسي الموت وقع في غفلة شديدة وإعراضٍ عن العمل الصالح، وإن أتى به أتى به جسدًا من غير روحٍ.

وقد أمر النبي ﷺ بالإكثار من ذكر الموت، فقال: «أكثروا ذكر هاذم اللذات»(٢).

(١) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ٢١٨).

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/١٤١) برقم: (٢٣٠٧)، وقال: حديث حسن غريب؛ والنسائي في السنن الكبرى (٢/ ٣٧٩) برقم: (١٩٦٣)؛ وابن ماجه في سننه (٢/ ١٤٢٢) برقم: (٤٢٥٨)؛ وأحمد في مسنده (١٣/ ٣٠١) برقم: (٧٩٢٥).

إن نسيان الموت والغفلة عنه يورث ثلاثة أمور: قسوة القلب، وتسويف التوبة، وحب الدنيا التي من أحبها وتعلق قلبه بها أورثته شغلًا لا يفرغ منه أبدًا، فهي رأس كل بلية ومصدر كل سوء.[١]

وقول الشاعر:

صـاحِ[٢] شَـمِّر ولا تـزلْ ذاكـر المـو　　　تِ فنِسْـيانُه ضـلالٌ مُبـين[٣].

---

(١) فصل الخطاب في الزهد والرقائق والآداب لمحمد نصر الدين (٢/ ٦٥).

(٢) صاحِ: منادىٰ مرخم بحرف نداء محذوف، وأصله: يا صاحبي. ينظر: شرح الشواهد الشعرية في أُمَّات الكتب النحوية لمحمد شُرَّاب (٣/ ٢٢٥).

(٣) شرح الكافية الشافية لجمال الدين الطائي الجياني (١/ ٣٨٣)، ولم يذكر قائله.

٨٠٣

الاستعداد للموت

قال الحسن البصري رحمه الله: «يا ابن آدم! طَأِ الأرضَ بقدميك؛ فإنها بعد قليلٍ قبرُك، واعلم بأنك لم تَزلْ في هدْم عمرك منذ سَقطتَ من بطنِ أمِّك»[(١)].

بيان المفردات

طَأ: فعلُ أمْرٍ مِن وَطِئَ يَطَأُ، أي: داسَ برجله[(٢)].

المعنى الإجمالي

علىٰ الإنسان أن يتواضع لله، وعليه أن يعترف بفقره وفاقته إليه، فإنه مِن تراب وإلىٰ التراب، فأصله التراب حيث خلق منه أبوه آدم عليه السلام، ومصيره إلىٰ التراب حيث يواريٰ الثرىٰ بعد موته، قال تعالىٰ: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ [طه:٥٥].

فمَن حاول أن يتعالىٰ عن المشي علىٰ الأرض بقدميه، وآثر الركوب علىٰ المراكب الفارهة، وتكبّر في نفسه ولم يتواضع، فعليه أن يتذكر أصله وأن لا ينسىٰ

(١) تهذيب خالصة الحقائق ونصاب غاية الدقائق للفاريابي (ص: ١٣٧).
(٢) تاج العروس للزبيدي (١/ ٤٩١).

مصيره، وكما قيل:

لـو بُعثـرتْ للخلـق أطبـاقُ الثـرىٰ لـم يُعـرف المـولىٰ مـن العبْـدِ
مـن كـان لا يَطـأُ الـترابَ برجْلـه يـطـأ الـتراب بـنـاعـم الـخـدِّ[١].

وكيف يتكبر الإنسان ويتعالىٰ وهو كل يوم يقترب من أجله؟! فما هو إلا أيامٌ، كلما مرّ يوم نقص ذلك من عمره، فعمره في تناقصٍ منذ أن نزل من بطن أمه، لذا فإن عليه أن يبادر إلىٰ فعل الطاعات، وأن يستثمر عمره الذي سيسأل عنه يوم القيامة، جاء في الحديث: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتىٰ يسأل: عن عمره فيمَ أفناه، وعن علمه فيمَ فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيمَ أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه»[٢].

(١) مجاني الأدب في حدائق العرب لرزق الله شيخو (٣/ ٢٥) منسوبا لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه.
(٢) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٢١٧) برقم: (٢٤١٧)، وقال: حديث حسن صحيح؛.

٨٠٤

آثار ذكر الموت

قال رجاء بن حيوة[1] رَحِمَهُ اللهُ: «ما أكثر رجلٌ ذكر الموت إلا ترك الفرحَ والحسد»[2].

المعنى الإجمالي

ذكر الموت يجعل العبد يترك الفرح الذي ينسيه الهدف والغاية، قال الله تعالىٰ عما قاله قوم موسىٰ لقارون: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص:٧٦]، وعن الحسد الذي لا يؤمن صاحبه بقدر الله وحكمته ومشيئته في عطائه لخلقه، قال الله عن اليهود الذين حسدوا رسول الله ﷺ علىٰ فضله باختياره للرسالة: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ٥٤-٥٥].

---

(١) رجاء بن حيوة الكندي الشامي، وكنيته أبو المقدام، وقيل أبو بكر، تابعي، سكن فلسطين، كان من عبّاد أهل الشام وزهادها، فقيه ومحدث، سمع محمود بن الربيع ومعاوية وأبي أمامة، وروىٰ عنه ابن عون وأهل الشام، توفي سنة ١١٢هـ. ينظر: التاريخ الكبير للبخاري (٣/ ٣١٢)؛ والثقات لابن حبان (٤/ ٢٣٧).

(٢) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ٣١٦).

إنَّ كثرة ذكر الموت عصمةٌ من الأشر، وأمانٌ من الهلع[١]، وذكر الموت يُبعِدُ العبد عن التعلق بالدنيا والفرح بها، أو حسد الناس علىٰ ما آتاهم الله من فضله، وعلاج طول الأمل لن يكون إلا بكثرة ذكر الموت، والنظر في موت الأقران وطُولِ تَعَبِهِمْ فِي جَمْعِ المالِ وضياعه بعدهم، ويُعالج الْتِفَاتَ القَلبِ إلىٰ الوَلَدِ بأَنَّ خالقَهُ خَلَقَ معه رزقه، وكم من ولد ولم يَرِثْ مِن أَبيهِ مالًا وحالُهُ أَحسَنُ ممَّنْ وَرِثَ، وبأَنْ يَعلَمَ أَنَّهُ يَجْمَعُ المالَ لِوَلَدِهِ يريد أن يترك ولده بخير، وينقلب هو إلىٰ شر، وأن ولده إن كان تقيًا صالحًا فالله كافيه، وإن كان فاسقًا فيستعين بماله علىٰ المعصية وترجع مظلمته إليه[٢].

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير لابن المقفع (ص: ٢٠).

(٢) إحياء علوم الدين للغزالي (٣/ ٢٦٢).

٨٠٥

عدم نسيان الموت

قال شُمَيط بن عَجلان ﵀: «من جعل الموت نُصبَ عينيه، لم يُبالِ بضيق الدنيا ولا بسعتها»(١).

المعنى الإجمالي

من صلاح النفوس وتزكيتها أن يكون ذِكرُ الموتِ حاضرًا في فكر العبد، لا يغيب عنه. فالموت يجعل العبد المؤمن يتجافىٰ عن دار الغرور، ويعمل للدار الباقية التي لا ينفد نعيمها ولا يكدر صفاءها شيء.

إن ذاكر الموت لا يبالي ما نقص عليه أو زاد من متاع الدنيا ما ضاق منها أو اتسع؛ فهو يتكدر أن انفتحت عليه الدنيا وأقبلت، ويفرح إن هي ولتْ وأدبرت، ومما يروىٰ عن أحمد بن حنبل ﵀ قوله: «إنما هو طعام دون طعام، ولباس دون لباس، وإنها أيام قلائل»(٢). وكان يقول: «أسَرُّ أيامي إليَّ يوم أُصبح وليس عندي شيء»(٣).

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٣/ ١٢٩).
(٢) صفة الصفوة لابن الجوزي (١/ ٤٨٢).
(٣) صفة الصفوة لابن الجوزي (١/ ٤٨٢).

ونظر أحد السلف ذات يوم إلىٰ داره فأعجبه حسنها، ثم بكىٰ فقال: «والله لولا الموتُ لكنتُ بكِ مسرورًا، ولولا ما تصيرُ إليه من ضيق القبور لقرتْ بالدنيا أعيننا، ثم بكىٰ بكاء شديدًا حتىٰ ارتفع صوته»[١].

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ٤٥٢).

٨٠٦

الموت هاذم اللذات

قال عبد العزيز بن سلمان[(١)] رَحِمَهُ اللَّهُ: «عجبت ممن عرف الموت كيف تَقَرُّ في الدنيا عينه! أم كيف تطيب بها نفسه! أم كيف لا يَتصدَّع قلبه بها!»[(٢)].

بيان المفردات

تَقَرُّ: قرَّت عينه: نقيض سخنت، أقرَّ الله عينه: أي أعطاه حتى تقرَّ فلا تطمح إلى ما هو فوقه[(٣)].

يتصَدَّع: من الصدْع: وهو: الشقّ في الشيء الصلب، وصُدِّعَ الرجلُ: أصَابَه الصدَاعُ[(٤)].

(١) عبد العزيز بن سلمان، أبو محمد، الراسبي، البصري، الزاهد، المذكِّر، لُقِّب بسيد العابدين، له كرامات وأحوال، كثير البكاء، توفي سنة ١٥٠هـ. ينظر: تاريخ الإسلام للذهبي (٤/ ٦٨٣)؛ مرآة الزمان لسبط بن الجوزي (١٢/ ٢٠٨).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٦/ ٢٤٤).

(٣) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (٢/ ٧٩٠).

(٤) ينظر: المحيط في اللغة للصاحب بن عباد (١/ ٥٣).

المعنى الإجمـالي

لقد ذكر الله تعالىٰ بعض المشاهد الحقيقية التي يعالجها المحتضر عند سكرات الموت فقال تعالىٰ: ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الواقعة: ٨٣-٨٧].

وقال تعالىٰ: ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴾ [القيامة: ٢٦-٣٠].

إنَّ من عرف الموت وما ينزل بالمحتضرين من أهوال شديدة لا تطيب نفسه، ولا تقر عيناه بالدنيا، بل يخشىٰ علىٰ نفسه عند سماع آيات الموت ومفارقة الدنيا، وسماعه للمواعظ التي تذكر بالموت أن ينشق قلبه خوفًا من الله تعالىٰ، لقد سمع بعض الصالحين آيات الوعيد فغُشِي علىٰ بعضهم ومات الآخرون.

٨٠٧

شُغْل المتقين بالموت

قال محمد بن النضر الحارثي[(١)] رَحِمَهُ اللَّهُ: «شَغَل الموتُ قلوبَ المتقين عن الدنيا، فواللّٰه ما رجعوا منها إلى سرورٍ بعد معرفتهم بكَرْبِه وغُصَصِه»[(٢)].

المعنى الإجمالي

الموت في حقيقته مفارقة الروح للجسد، ومفارقة الدنيا، والانتقال منها إلىٰ الآخرة، وقد ذكر الله هذه الحقيقة لرسوله ﷺ بقوله: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر:٣٠]، وله سكرات، وصفها الله بالحق، فقال تعالىٰ: ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ [ق:١٩]، وبيَّن الله حال الكافرين إذ تتوفاهم الملائكة، فقال تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [الأنفال:٥٠].

---

(١) محمد بن النضر بن شريح، أبو عبد الرحمن، الحارثي، الكوفي، العابد، كان من الأولياء، من عباد أهل الكوفة وقرائهم، ليس له حديث يرجع إليه، إنما له الحكايات في الرقائق، توفي سنة ١٥٠هـ.
ينظر: الوافي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي (٥/ ٨٩)، والمعجم الصغير لرواة ابن جرير الطبري لأكرم الفالوجي (٢/ ٥٣٤).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٨/ ٢١٨).

وذكرها النبي ﷺ في مرض موته، فكان يقول: «لا إله إلا الله، إن للموت لسكرات»(١).

وشدة سكرات الموت كما قال سفيان الثوري رحمه الله: «بلغنا أن عِلاج مَلَك الموت أشد من ألف ضربةٍ بالسيف»(٢).

إن المؤمنين المتقين شغل الموت قلوبهم، وبات يحتل الأولوية في تفكيرهم؛ فما اكتمل لهم سرور، ولا صفت لهم معيشة؛ ذلك أنهم يدركون أن كل مخلوق خلقه الله في الأرض أو في السماء سينزل بساحته الموت يوما ما، بما يحمله من غصص وكربات، كما قال تعالىٰ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص:٨٨]، فانشغلوا بالعبادة وإعداد الزاد ليوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦/ ١٣) برقم: (٤٤٤٩)؛ ومسلم في صحيحه (٢/ ٢٠) برقم: (٤١٨).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٣/ ٥٩٥).

٨٠٨

خصال الكيِّس

قال يحيى بن معاذ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الكيِّس مَن فيه ثلاث خصال: مَن بادر بعمله، وسوَّف بأَمَله، واستعدَّ لأجَلِه»(١).

بيان المفردات

الكيِّس: العاقل، والكَيْسُ: العقل(٢).

المعنى الإجمالي

إن من علامة العقل ووفرته ثلاثة أمور:

أحدها: أن يبادر العبد المسلم بالأعمال الصالحة قبل وفاته وفوات أوانه، قال النبي ﷺ: «ما ينتظر أحدكم إلا غنىً مُطْغِيًا، أو فقرًا مُنسيًا، أو مرضًا مُفسدًا، أو هرمًا مُفَنِّدًا، أو موتًا مُجْهِزًا، أو الدجال والدجالُ شرٌّ غائبٍ يُنتظر، أو الساعة والساعة أدهىٰ وأمَرُّ»(٣).

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٥٨).

(٢) الزاهر في معاني كلمات الناس لابن الأنباري (١/ ١١١).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٥٦) برقم: (٧٩٠٦)، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه؛ والترمذي في جامعه بلفظ قريب (٤/ ١٤١) برقم: (٢٣٠٦).

والثاني: التسويف بالأمل، فلا يعطي المؤمن لنفسه مساحةً كبيرة لطول الأمل في هذه الحياة، بل يعدُّ نفسه من الأموات، ومن كان هذا شأنه فليس له سوىٰ الاستعداد لأجله وموته، وهذا هو **الأمر الثالث**: فيستعد لأجله وما هو لاقيه، وما بعده من أهوال ومواقف شداد، وهذا يدفعه إلىٰ ترك التباطؤ والتكاسل عن الطاعات والخيرات، والاستباق فيهما.

قال تعالىٰ: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٣].

وقال تعالىٰ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠٠].

٨٠٩

استشعار الموت

قال أبو حمزة الخراساني(١) رَحِمَهُ اللَّهُ: «من استشعر ذكر الموت حُبِّبَ إليه كلُّ باق، وبُغِّضَ إليه كلُّ فان»(٢).

بيان المفردات

استشعر: استشعر فلان خوفًا: أضمره، وأشْعَرْتُه فشعر؛ أي: أدْرَيْتُه فدرىٰ(٣).

المعنى الإجمالي

يجعل المؤمن ذكر الموت في قلبه ولسانه؛ حتىٰ يكون شعارا له، فيكون هذا الاستشعار رقيبًا له من التعلق بالملذات والشهوات، والتعب لأجل تحصيلهما، بل يكون استشعاره للموت وذكره له، في كل وقت، يجعله محبًا للآخرة، مبغضًا للدنيا؛ ذلك أن المؤمن يعلم أن الله تعالىٰ قد ذكر عن بقاء ودوام الآخرة، وفناء وزوال الدنيا.

---

(١) أبو حمزة الخراساني الزاهد، من كبار مشايخ الصوفية، كان أصله من نيسابور، صحب مشايخ بغداد، وهو من أقران الجنيد، من أفتىٰ المشايخ وأورعهم، توفي سنة ٢٦٠هـ. ينظر: طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٢٥٠)؛ تاريخ الإسلام للذهبي (٦/ ٢٣٧).

(٢) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٢٥٠).

(٣) كتاب الأفعال لابن القطاع الصقلي (٢/ ١٨٧)؛ ومختار الصحاح للرازي (ص: ١٦٥).

فالعاقلون يتشبثون بالباقي على الفاني، ويحبون كل باق، ويبغضون كل فان، وهذا هو ما تصير إليه العقول السليمة، والفِطَر السوية، لكن الناس أعمتهم الدنيا بزخرفها عن التفكر في المصير الأبدي، الذي تكون فيه السعادة الأبدية التي لا شقاء بعدها، أو الشقاء الأبدي الذي لا سعادة بعده.

لقد جعل الله النار مأوىٰ لكل من رضي الدنيا واطمأنوا بها، ولم يرجُوا لقاء الله؛ وذلك لغفلتهم عن الله ولقائه، وما في الآخرة من خير، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٧-٨].

٨١٠

ترك المُنى غنى

قال عيسى بن مسكين الإفريقي[(١)] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أشرفُ الغنى تركُ المنى»[(٢)].

المعنى الإجمالي

المنىٰ رأس أموال المفاليس كما يقال، وهو علامة العجز والسفه، قال ﷺ: «الكيِّسُ مَنْ دان نفسَه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتْبع نفسَه هواها وتمنىٰ علىٰ الله»[(٣)]، أي: يُذنِب ويتمنىٰ الجنة من غير الاستغفار والتوبة[(٤)].

لذلك كان الاعتماد علىٰ الواقع الحقيقي وترك الاعتماد علىٰ الخيال والتمني هو أعلىٰ وأشرف أنواع الغنىٰ، لأن المرء يملك ما يكون في يده وليس ما يتمنىٰ أن يحصل عليه، فالآمال الزائفة تلهي الإنسان عن الجد والعمل، وتدفعه نحو

(١) عيسىٰ بن مسكين بن منصور، أبو محمد، الإفريقي، شيخ المالكية بالمغرب، وكان ذا مكانة كبيرة عند أهل المغرب، سمع من سحنون وابنه جميع كتبه، وسمع من علماء المغرب والشام ومصر، وسمع منه خلق، كان من أهل الفقه والورع، ثقة صالحا، كثير الكتب في الفقه، عالم باللغة وله شعر، ولد سنة ١١٤هـ وتوفي سنة ٢٩٥هـ. ينظر: ترتيب المدارك للقاضي عياض (٤/ ٣٣١)؛ سير أعلام النبلاء للذهبي (١٣/ ٥٧٣).

(٢) ترتيب المدارك للقاضي عياض (١/ ٥٠٠)؛ الديباج المذهب للشريف الجرجاني (١/ ١٨١).

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٢٤٦) برقم: (٢٤٥٩) وابن ماجه في سننه (٥/ ٣٢٨) برقم: (٤٢٦٠).

(٤) تحفة الأحوذي للمباركفوري (٧/ ١٣٢).

التواكل والكسل.

والمقصود بالمنىٰ هو الأماني الباطلة التي تغرّ الإنسان ويتقاعس بسببها عن الجد والاجتهاد، قال تعالىٰ: ﴿ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ ﴾ [الحديد:١٤]، وليس المقصود بالمنىٰ الأماني النابعة من الشوق إلىٰ لقاء الله والحصول علىٰ موعوده، لأن هذه الأماني هي من الرجاء المحمود، وهي تدفع إلىٰ الاجتهاد في الطاعات وإلىٰ المسارعة في الخيرات.

٨١١

قصور الأمل أصل الخيرات

قال أبو عثمان الحيري رحمه الله: «أصل التَّعلُّق بالخيرات قصور الأمل»(١).

المعنى الإجمالي

إن المتدبر لكتاب الله تعالىٰ يجد به مواعظ كثيرة عن قصر الأمل، وأن تكون الرغبة فيما عند الله تعالىٰ، من ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [النساء:٧٧]، وقوله تعالىٰ فيمن لم تُحمد أفعالهم: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر:٣].

وكان النبي ﷺ يذكر أصحابه بالآخرة والعمل لها، ويزهدهم في الدنيا؛ ومما يروىٰ في ذلك أن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: مرَّ بي النبي ﷺ وأنا وأمي نُصْلِح خُصًّا(٢) لنا، فقال: «ما هذا يا عبد الله؟» قلت: خُصٌّ لنا نصلحه، فقال: «الأمر أسرع من ذلك»(٣).

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٢٤٥).

(٢) **الخص**: بيتٌ يُسقَف بخشبةٍ علىٰ هيئة الأزج، وجمعه خصاص. ينظر: العين للخليل بن أحمد (٤/ ١٣٤)؛ تهذيب اللغة للأزهري (٦/ ٢٩٢).

(٣) أخرجه أبو داود في سننه (٤/ ٥٢٩) برقم: (٥٢٣٥)؛ وابن حبان في صحيحه (٧/ ٢٦٢) برقم: (٢٩٩٦)؛ والبخاري في الأدب المفرد (ص: ١٧٥) برقم: (٣٥٤).

إن تحقيق الغايات الدنيوية تُفرِحُ وتُسِرُّ، ومع تحقق تلك الغايات والأمنيات يزداد تعلق العبد بدنياه على حساب آخرته إن لم تكن هناك تربيةٌ إيمانيةٌ مستمرةٌ، فلا يودُّ سماع ذكر الموت، وما يحيط به من سكرات وكربات، وما يعقبه من حياة برزخ وحشر ونشر ومواقف يشيب لها الولدان.

والمؤمن بالله تعالى يعلم تبدل الحال في الدنيا، وسرعة انقضائها، فيجعل همه السعي للآخرة، ويقصر أمله في الدنيا، ويعلم أن من مصادر الشرور في الدنيا طول الأمل والتشبث بها، وأن أصل كل خير أن يعلم العبد هدفه وغايته من وجوده، وعلمه برجوعه ومعاده إلى الله تعالى.

٨١٢

أثر استحضار الأجل

قال أبو الليث السمرقندي رحمه الله: «من أَبْصَر أجلَه قصُر أملُه»[(١)].

بيان المفردات

الأمل: توقع حصول الشيء، وأكثر ما يستعمل فيما يُستبعد حصوله، فمن عزم على سفر إلى بلد بعيد يقول: أمّلتُ، ولا يقول: طمِعْتُ، إلا إنْ قَرُب منها[(٢)].

المعنى الإجمالي

ميعاد أجل الإنسان من الغيب الذي استأثر الله عز وجل بعلم زمانه، فلا يعلم الإنسان متى وأين سيأتيه الأجل، لكن الإنسان يمكنه أن يُبصر الأجل ويستشرف وقوعه حين يستحضر هذه الأمور:

أولًا: كلّ إنسان له أجل ثابت محدد في علم الله لا يتقدم ولا يتأخّر، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾

(١) تهذيب خالصة الحقائق ونصاب غاية الدقائق للفاريابي (ص: ١٣٤).
(٢) تاج العروس للزبيدي (٢٨/ ٢٦).

[الأنعام: ٦٠-٦١].

ثانيًا: الإنسان لا يأمن من مجيء أجله في أي لحظة، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان:٣٤].

ثالثًا: كلما ازداد عمر الإنسان ظهرت عليه العلامات التي تدل علىٰ اقتراب أجله أكثر فأكثر، مثل الشيب والضعف وغيرهما.

وحين يستحضر الإنسان أن الأجل قادم لا محالة، وأن الدنيا لن تدوم له، فإن تذكر الموت يهدم لذّات الدنيا، واستحضار الأجل يقصّر الأمل في الازدياد من الدنيا، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي، فقال: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»، وكان ابن عمر يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك»[١].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٨٩) برقم: (٦٤١٦).

٨١٣

الدنيا دار ممرّ

قال الثعالبي[(١)] رحمه الله: «ساكن الدنيا راحل، وأنفاسه فيها مراحل»[(٢)].

بيان المفردات

المراحل: جمع مرحلة، وهي المنزل بين المنزلتين[(٣)].

المعنى الإجمالي

الدنيا دار ممرّ لا دار مقرّ، وكل من فيها فهو راحل عنها ومغادرها إن عاجلا أو آجلا، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٤-٣٥]، **وقال الشاعر:**

كل ابن أنثىٰ وإن طالت سلامته ... يومًا علىٰ آلةٍ حدْباء محمول[(٤)].

---

(١) عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، أبو منصور، الثعالبي، النيسابوري، الشاعر، العلامة، شيخ الأدب، من كتبه: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، وفقه اللغة، وكتاب المبهج، توفي سنة ٤٣٠هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٧/ ٤٣٧)، والوافي بالوفيات للصفدي (١٩/ ١٣٠).

(٢) اللطائف والظرائف للثعالبي (ص: ١٨).

(٣) تاج العروس للزبيدي (٢٩/ ٦٢).

(٤) البيت لكعب بن زهير، جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي (ص: ٦٣٨).

وعن ابن عمر ﵄ قال: «أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي، فقال: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»، وكان ابن عمر يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك»(١).

وكل لحظة تمرّ علىٰ الإنسان، وكل نفَسٍ يتنفسه فهو مرحلة جديدة من مراحل سفره من هذه الدنيا، لذلك يجب علىٰ المسلم أن يسارع في الخيرات ويبادر إلىٰ الطاعات قبل أن يضيع عمره، عن الحسن أنه قال: ليس يومٌ يأتي من أيام الدنيا إلا يتكلم ويقول: يا أيها الناس إني يوم جديد، وأنا علىٰ ما يعمل فيّ شهيد، وإني لو قد أفَلَتْ شمسي لم أرجع إليكم إلىٰ يوم القيامة. وقال أبو بكر بن عياش: أحدهم لو سقط منه درهم لظل يومَه يقول: إنا لله!! ذهب درهمي، وهو يذهب يومه؛ ولا يقول: ذهب يومي ما عملت فيه. وقالت رابعة لسفيان: إنما أنت أيام معدودة، فإذا ذهب يومك ذهب بعضك، ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكل(٢).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٨٩) برقم: (٦٤١٦).
(٢) حفظ العمر لابن الجوزي (ص: ٣٦).

٨١٤
عاقبة متاع الدنيا

قال ابن حزم رحمه الله: «كلُّ أملٍ ظفرت به فعُقبَاهُ حُزْنٌ؛ إما بذهابه عنك، وإما بذهابك عنه»(١).

المعنى الإجمالي

إن الدنيا كلها متاع، لذاتها ممزوجة بالمنغصات، وهي مع ذلك مؤقتة زائلة، لا يكاد يفرح بها الإنسان حتى تزول عنه أو يذهب هو عنها بالموت، قال تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ﴾ [الحديد:٢٠].

فالعاقل الذي يعلم حقيقة الدنيا، وأن كل متعة فيها آيلة إلى الزوال؛ إما بفقدها وذهابها، أو بذهابه هو عنها بالموت، لا يمكن أن يركن إلى الدنيا ويعمل من أجلها، ولا أن يفتتن بزخرفها وزينتها؛ وإنما يعمل للآخرة الباقية، ذات النعيم الدائم الذي لا يخالطه شيء من المنغصات، ولا يعقبه حزن، ﴿ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [التوبة:٣٨].
قال ﷺ لابن عمر رضي الله عنهما: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»(٢).

(١) الأخلاق والسيَر ومداواة النفوس لابن حزم (ص: ١٣).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٨٩) برقم: (٦٤١٦).

يقول أبو الفرج الساوي:

هـي الـدّنيا تقـول بمِـلْء فيهـا — حـذارِ حـذارِ مـن بطشـي وفتكـي
فـلا يغـرركمُ حُسـنُ ابتسـامي — فقَـولي مُضـحك والفعـل مُبكـي(١).

ويقول الحريري:

يـا خاطـب الـدنيا الدّنيـة إنهـا — شَـرَك الـرَّدَىٰ وقـرارة الأكـدار
دارٌ متـىٰ أضـحكت في يومهـا — أبكـت غـدًا تبًـا لهـا مـن دار(٢).

(١) يتيمة الدهر للثعالبي (٣/ ٤٥٨).
(٢) مقامات الحريري (ص: ٢٢٣).

٨١٥
الموتُ راحةٌ

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الموتُ راحةُ المسيء والمحسن؛ أما المسيء فينقطع عنه استمرار طغيانه، وأما المحسن فيُفضي إلى دار الجزاء على إحسانه»(١).

المعنى الإجمالي

إنَّ الله ﷻ قد كتب الموتَ علىٰ كُلِّ مخلوقٍ حيٍّ، فلا مخلوق كُتب له الخلود، يقول تعالىٰ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧].

وفي الموت نِعَمٌ عظيمةٌ لا تتأتَّىٰ للنّاس إلا به، محسنين كانوا أم مسيئين؛ منها أنّ الموت يخلِّص المؤمنَ من نكد هذه الحياة التي حُشيتْ بالغُصَص، وحُفَّتْ بالمكاره والآلام الباطنة والظاهرة، إلىٰ نعيمٍ لا ينفد، وقرَّةِ عين لا تنقطع، وسعادة لا تنتهي في ظلال وارفة، وبساتين مؤنقة، وجنات دائمة، مع خيرة الرفقاء، وأطيب الأصفياء(٢)، فالموتُ راحةٌ للمؤمن من نَصَب الدنيا وانتقالٌ إلىٰ دار الجزاء، ليجازيه الله بجوده وكرمه علىٰ إحسانه في الدنيا، وممَّا يدلُّ علىٰ استراحة

(١) التذكرة في الوعظ لابن الجوزي (ص: ١٠٧).
(٢) ينظر: الإيمان باليوم الآخر للصلابي (ص: ٤٧).

المؤمن بالموت أنَّ رسولَ الله ﷺ مُرَّ عليه بجنازة، فقال: «مُستريحٌ ومُستراحٌ منه. قالوا: يا رسول الله، ما المستريحُ والمستراحُ منه؟ قال: العبدُ المؤمنُ يستريح من نَصَب الدنيا وأذاها إلىٰ رحمة الله، والعبدُ الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب»[(١)].

والموتُ رحمةٌ للعاصي كذلك، لأنّه يقطعه عن الاستمرار في طغيانه ولهوه في الدنيا، كي لا يغرق في بحر ظلمات أعماله يوم القيامة، جاء عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال: «ما من مؤمنٍ إلا والموتُ خيرٌ له، وما من كافرٍ إلا والموتُ خيرٌ له، ومَن لم يصدِّقني؛ فإن الله يقول: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ﴾ [آل عمران:١٩٨]، ويقول: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ [آل عمران:١٧٨][(٢)].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٠٧) برقم: (٦٥١٢)؛ ومسلم في صحيحه (٣/ ٥٤) برقم: (٩٥٠).

(٢) تفسير الطبري (٧/ ٤٩٦).

٨١٦

تأخير التوبة

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يا طويلَ الأملِ في قصيرِ الأجَلِ! أما رأيتَ مُستَلَبًا وَمَا كَمَل؟! أتُؤخِّر الإنابَةَ وتُعَجِّل الزَّلَلَ؟!»[(١)].

بيان المفردات

مستَلَب: من السلب، وهو كل شيء على الإنسان من اللباس، سَلَبَه الشيءَ يسلبه سلبًا، واستلبه إياه، والاستلاب: الاختلاس، ورجل سليب: مستلَب العقل[(٢)]، والمراد بالمستلب هنا: من سُلِبت روحُه وقُبِض.

الإنابة: الرجوع إلى الله تعالى بالتوبة[(٣)].

الزلل: جمع زَلَّة، وهي استرسال الرِّجل من غير قصد، واستخدم للذنب من غير قصدٍ، تشبيهًا بزلة الرِّجْل[(٤)].

---

(١) المدهش لابن الجوزي (ص: ٣٧٠).
(٢) لسان العرب لابن منظور (١/ ٤٧١).
(٣) لسان العرب لابن منظور (١/ ٧٧٥).
(٤) المفردات للراغب الأصفهاني (ص: ٣٨١).

المعنى الإجمالي

هذا النداء من ابن الجوزي موجَّه إلىٰ الإنسان الذي وقع في الذنوب والزلات ولَمَّا يتُبْ منها، فيخاطبه قائلًا له: يا من يطيل أملَه في هذه الدنيا، مع علمك بقِصَر عمرِك فيها وقربِ الأجل، أما رأيت من قبض اللهُ روحَه ورحَل إلىٰ الآخرة؟ كان عنده آمال طويلة وأماني كثيرة، أخَّر توبتَه وأجَّل الإنابة إلىٰ الله، فهل وصل إلىٰ ما طلب وكمل له ما أراد؟ ومع رؤيتك لما حصل له ومباغتة الموت، هل تؤخِّر التوبة والإنابة وتسوِّف؟ وتُعجِّل ركوبَ المعاصي والوقوعَ في زلَّات؟

مصداق هذا الكلام في كتاب الله تعالىٰ في قوله سبحانه: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ كَلَّآ ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠].

وقال النبي ﷺ: «إن الله يَقبَل توبةَ العبدِ ما لم يُغرغِرْ»(١)، أي: ما لم تبلغ الروحُ إلىٰ الحلقوم، من الغرغرة، يعني: ما لم يتيقن بالموت، فإن التوبة بعد التيقُّن بالموت لم يُعتَدَّ بها، لقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ [النساء:١٨](٢).

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٠/ ٣٠٠) برقم: (٦١٦٠)؛ والترمذي في جامعه (٥/ ٥٠٧) برقم: (٣٥٣٧)؛ وابن ماجه في سننه (٥/ ٣٢٣) برقم: (٤٢٥٣)؛ وابن حبان في صحيحه (١/ ٤٠٩) برقم: (٥٦٦). قال الترمذي: حديث حسن غريب.

(٢) تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي للمباركفوري (٤/ ٢٦٩).

٨١٧

نسيان الأجل

قال الفاريابي ﷺ: «إذا قَوِي الأملُ نُسِي الأجل»[١].

بيان المفردات

الأَمَلُ: الرجاءُ والترقّب، وأكثر ما يستعمل الأمَل فيما يُستبعد حصوله، والجمع آمَالٌ[٢].

الأجَل: أجَلُ الشيء مدته ووقته، والأجل: الموت، وهو المقصود هنا[٣].

المعنى الإجمالي

تبين الحكمة قوة الأمل في نسيان الأجل والموت، وهي أن الإنسان يعيش بناءً على آمال يرجو تحقيقها ويترقب حدوثها، فلو لم يكن هناك أمل للمستقبل الجميل والحياة الطيبة لا يريد العيش لكثرة متاعب الحياة وكُرهه له، فيقعد ولا يعمل، ولأجل ذلك زرع فيه الأمل، كما يروىٰ عن الحسن البصري أنه قال: «لما خلق الله آدم وذُرِّيتَه، قالت الملائكة: إن الأرض لا تسعهم، فقال: إني جاعل

---

(١) تهذيب خالصة الحقائق للفاريابي (٢/ ٦٨٣).

(٢) ينظر: لسان العرب لابن منظور (٤/ ١٦٢٧)؛ والمصباح المنير للفيومي (١/ ٢٢).

(٣) ينظر: المصباح المنير للفيومي (١/ ٦)؛ وغريب الحديث لإبراهيم الحربي (٢/ ٣٩٥).

موتًا، قال: إذًا لا يُهنِئُهُم العيش، قال: إني جاعل أمَلًا»(١).

والأمل في حدوده شيء حسن وإلا يصيب المرءَ قلق وكآبة، ويقنط من أدنىٰ مصيبة تصيبه ألما وحزنا ويسوء ظنه بالله تعالىٰ، والمؤمن لا يفعل أيا منهما، حيث منع الله سبحانه عباده المسرفين عن القنوط، وبشرهم بالمغفرة، كما يقول ﷻ: ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر:٥٣]، ولكن يجب علىٰ المرء مصاحبة العمل مع الأمل، وإلا يكون فتنة وسببا لهلاكه، فكَم من شخص أجّل أموره بالأمل والتسويف ثم وجد وقته قد نفد وبقي خالي الوفاض، ولذلك قيل: غرور الأمَل يُنفِد المهَل ويُدني الأجَل، ومن وثِق بالأمنِيّة قطعتْه المنيَّة.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنَّفه (٧/ ١٩٠) برقم: (٣٥٢٢٢).

٨١٨

واجب الوقت

قال ابن القيم رحمه الله: «ما مضى من الدُّنيا أحلامٌ، وما بقي منها أمانيُّ، والوقتُ ضائعُ بينَهما»(١).

المعنى الإجمالي

الزمن ثلاثة أقسام: قسم مضىٰ وانقضىٰ، وصارت أحداثه ذكريات تروىٰ وتمرُّ في الخاطر كأنها أحلام في سرعة مضيها وانقضاء زمنها، وقسم مستقبل منتظَر بما سيحصل فيه من أحداث غيبية، وطموحات وأماني متوقعة قد تحصل وقد لا تحصل، وقسم حاضر يمضي بينهما.

فما مضىٰ من الزمن فإنه لن يعود، وكل الأحداث التي يمر بها العبد يومًا بعد يوم، وشهرًا بعد شهر وعامًا بعد عام تطوىٰ سريعًا، وكأنها أحلام.

وأما المستقبل فهو أماني يتمناها الإنسان؛ منها ما يتحقق للعبد فيكون واقعًا، ومنها ما تبقىٰ أماني حبيسة الصدور والأفكار، فيموت العبد دون أن يتحقق منها شيء.

وأما القسم الحاضر فهو الأهم والأولىٰ الذي ينبغي اغتنامه بما ينفع، فإن شغله الإنسان بالتفكير فيما مضىٰ والندم والتحسر أتعب نفسه وأضاع الحاضر كما

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ٦٤).

أضاع ما قبله، وإن شغله بكثرة التفكير بالمستقبل، والعيش في الخيال، والتمني المفرط، أو الخوف والقلق الزائد، دون جهد وسعي أتعب نفسه أيضًا، وأضاع حاضره ومستقبله.

فالواجب على الإنسان أن يعيش واقعه، ويهتم بحاضره، ويغتنم وقته الذي هو فيه بفعل ما ينفعه في مستقبله، وألا يخسره بالحزن على ما فات، والانشغال بما هو آتٍ؛ لأن ما فات لا يمكن تغييره، وما هو آتٍ لا يمكن تحديده، وليس للإنسان إلا الساعة التي هو فيها.

قال الشاعر:

إنمـــا هـــذه الحيـــاة متـــاع ... والغَبـــيُّ الغَبـــيُّ مـــن يصـــطفيها

مـــا مضـــىٰ فـــاتَ والْمُؤَمَّـــل غيـــب ... فخـــذ الســـاعة التـــي أنـــت فيهـــا[1].

---

(١) الشاعر هو أبو إسحاق الغزي. تاريخ دمشق لابن عساكر (٧/ ٥٣).

بـــاب إيثار الآخرة

٨١٩

القلب هو الكنز الحقيقي

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «من استطاع منكم أن يجعل كنزه في السماء حيث لا يأكله السوسُ ولا تناله السُّرُق فليفعل؛ فإن قلب الرجل مع كنزه»(١).

بيان المفردات

الكنز: اسم للمال إذا أحرز في وعاء ولِما يُحرز فيه، وقيل: الكنز المال المدفون، وجمعه كنوز، كَنَزَه يكنِزُه كنْزا واكْتَنزه. ويقال: كنزتُ البُرَّ في الجِراب فاكتنز(٢).

السوس: هو العُثّة التي تقع في الصوف والثياب والطعام(٣).

السُّرُق: بضم السين المهملة جمع سارق، وأما السَرَق بفتحهما فهي مصدر فعل السارق(٤)، والسرقة لغة: أخذ شيء الآخر خفيةً(٥).

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٧/ ١٠٣) برقم: (٣٤٥٢٣).
(٢) لسان العرب لابن منظور (٥/ ٤٠١).
(٣) المصدر السابق (٦/ ١٠٧).
(٤) نفس المصدر (١٠/ ١٥٥).
(٥) كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم لمحمد بن علي التهانوي (١/ ٩٤٦).

المعنى الإجمالي

تشتمل هذه الحكمة على معنىٰ عال ومقصد أصيل في حياة الإنسان ألا وهو أن العمل الصالح هو الكنز الحقيقي الذي لا يمكن أن يسرق ولا يقع فيه السوس، بل ينمو ويزداد، وأما الأموال والأشياء الدنيوية التي يُفني فيها الناس حياتهم فهي معرضة للتلف والسرقة وليست كنزا حقيقيا ولو اعتبرها الناس كذلك. فتشير الحكمة إلىٰ أن الاكتناز الحقيقي هو ما تعمله في طاعة الله وسبيله، ويصعد إلىٰ السماء كما ورد في قوله تعالىٰ:﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ [فاطر:١٠].

وقد جعل النبي ﷺ الحوقلة كنزًا من كنوز الجنة؛ ففي الحديث: أن النبي ﷺ قال لأبي موسىٰ الأشعري: «يا عبد الله بن قيس، ألا أُعَلِّمُك كلمةً هي من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله»(١).

والعمل الصالح والدعوة إلىٰ الله والتسبب في هداية الناس ونفعهم من الكنوز الحقيقية التي يفتخر بها المرء ويفيده أكثر، وذلك كما ورد في الصحيحين: «فوالله لأنْ يهدي الله بك رجلًا خيرٌ لك من أن يكون لك حُمْر النَعَم»(٢). فينبغي الحرص عليها والسعي لها؛ لأن قلب الرجل مع كنزه، فيكون قلبك معلقًا بالسماء لأن كنزك في السماء، وليس معلقًا بالأرض.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٢٥) برقم: (٦٦١٠).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ٦٠) برقم: (٣٠٠٩)؛ ومسلم في صحيحه (٤/ ١٨٧٢) برقم: (٢٤٠٦).

٨٢٠

حقيقة نعيم الدنيا وبلائها

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «كلُّ نعيمٍ دون الجنة محقورٌ، وكل بلاءٍ دون النار عافيةٌ»[١].

بيان المفردات

محقور: مفعول من فعل حَقَر، حقره فهو حقير ومحقور، أي: استصغره واستهان به ونظر إليه نظرة ازدراء[٢].

المعنى الإجمالي

كل نعمة من نِعمِ الدنيا كالمال والجاه والمناصب، بالنسبة لنعيم الجنة ليس بشيء، وكل بلاء من بلاء الدنيا، كموت أقرب الناس، وتعرضه للفقر، وعداوة الناس، وأمراض الأجساد إلىٰ آخر أنواع البلايا، إذا قُورن ببلاء النار فهو عافية وسلامة، ولو عرف الإنسان أهوال النار حق المعرفة واطلع علىٰ أحوال أهلها، لرأىٰ البلاء الذي هو فيه من بلاء الدنيا عافية وسلامة بالنسبة لبلاء النار.

---

(١) نهج البلاغة ينسب لسيدنا علي بن أبي طالب (١/ ٣٩٠)؛ الإعجاز والإيجاز للثعالبي (ص:٤٣).

(٢) معجم اللغة العربية المعاصرة لأحمد مختار عمر (١/ ٥٢٩).

قال النبي ﷺ في وصف الدنيا: «واللهِ ما الدنيا مِن أوَّلها إلىٰ آخرها في الآخرة إلَّا كما يَجعَلُ أحدُكم أُصْبُعَهُ في اليَمِّ، فَلْيَنظُرْ بما يَرجِعُ»(١).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ١٥٦) برقم: (٢٨٥٨).

٨٢١

إخراجُ حُبٍّ وإدخال آخر

قال هرم بن حيان رحمه الله: «أخرجوا من قلوبكم حب الدنيا وأدخلوا حب الآخرة»(١).

المعنى الإجمالي

أنْ يتخلىٰ العبد عن حب رُبِّيَ عليه وامتلأ قلبه بذلك الحب يعد أمرًا عسيرًا؛ فهو تخلٍّ عن المألوف إلىٰ أمر غير مألوف لم يعهده، وتخلٍّ عن أمر محبب إلىٰ النفس إلىٰ أمر ذي مرارة وقسوة عليها.

ولذا كان تعهد النفس بالتربية والتزكية يكون بالتخلي عن حب الدنيا، والتحلي بحب الله ورسوله والدار الآخرة، حتىٰ يتجلىٰ ذلك الحب في تقديم المؤمن حب الله ورسوله علىٰ ما سواهما، والتسليم والطاعة لأمرهما ونهيهما.

إن عقد الزهد خروج حب الدنيا من القلب بدخول حب الآخرة، والعمل بالزهد إخراج المحبوب من اليد في سبيل الله تعالىٰ مُعتاضًا منه ما عنده سبحانه وتعالى(٢).

ولحب العبد للآخرة وخروج الدنيا من قلبه علامات، منها: كثرة البكاء،

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٢/ ١١٩).
(٢) قوت القلوب لأبي طالب المكي (١/ ٤١٦).

والذكر لها، ودوام الشوق إليها، وبغض الدنيا من أجلها[١]، وأن يحب الله ورسوله والجهاد في سبيله؛ وقد تضمنت الآية الكريمة من سورة التوبة، ثماني محبوبات مألوفات لدىٰ الناس يسعون في الحصول عليها والوصول إليها، وقد توعَّد الله من يقدم حب هذه الأشياء علىٰ حبه وحب رسوله ﷺ والجهاد في سبيله، فقال تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة:٢٤].

(١) الزهد الكبير للبيهقي (ص: ٧١).

٨٢٢

من الحكمة إيثار الآخرة

قال هرم بن حيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما آثر الدنيا على الآخرة حكيم، ولا عصى الله كريم»[(١)].

المعنى الإجمالي

يُعرَف الحكيم بأنه من يقول القول المناسب في الوقت المناسب، وبالقدر المناسب، ويفعل الفعل المناسب في الوقت المناسب، وبالوسيلة المناسبة، ويختار الشيء المناسب علىٰ كل الأشياء التي يراها؛ فهو يعلم ما يختار، وقيمة ما يختار.

وإنَّ من الحكمة أن يؤثر العقلاء ما عند الله في الدار الآخرة، فهي خير وأولىٰ وأبقىٰ. وقد ذكر الله تعالىٰ أن الدار الآخرة هي الأولىٰ والأبقىٰ للمؤمنين المتقين، فقال تعالىٰ: ﴿ وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [القصص:٦٠]، وقال تعالىٰ: ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الشورىٰ:٣٦]، وكل هذه الآيات وغيرها تدل دلالة قطعية أن لا مجال لمقارنة المتاع الفاني والزخرف البالي بما عند الله الكريم الباقي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي (٢/ ١٢٦)؛ البصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي (٥/ ١٠٢).

ومن الكرم أن لا يعصي الإنسان ربه؛ فالعبد المسلم كريم على الله، لم يرد الله منه حين أمره بالطاعات إلا أن يُكْرِم نفسه ولا يذلها، فالطاعة عزة ومعرفة لله وحب له، والمعصية ذلة وشقاء وإهانة وإساءة للأدب مع الله تعالى؛ ولذا فإن العبد لا يجعل الله أهون الناظرين إليه.

٨٢٣

الجنة سلعة غالية

قال محمد ابن الحنفية[١] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن الله جعل الجنة ثمنًا لأنفسكم، فلا تبيعوها بغيرها»[٢].

المعنى الإجمالي

الجنة سلعة الله الغالية التي ترخص أمامها الأنفس والأموال، وتهون أمامها التضحيات الجسام؛ فالمؤمن باع نفسه وماله لله الذي وهبهما له، واللهُ اشترىٰ منه ذلك، وجعل جزاءه الجنة؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [التوبة:١١١]، وهذه هي التجارة الرابحة، قال الله تعالىٰ وهو يحضُّ عباده المؤمنين علىٰ المتاجرة معه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الصف: ١٠-١١].

---

(١) محمد الأكبر بن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي، أبو القاسم، اشتهر بنسبة أمه خولة بنت جعفر الحنفية تمييزًا عن أخويه الحسن والحسين، بطل شجاع، شارك مع أبيه علي بن أبي طالب في معارك الجمل والصفين، مات سنة ٨١هـ. ينظر: الطبقات الكبرىٰ لابن سعد (٧/ ٩٣)؛ تاريخ الطبري (٥/ ١٥٤).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٣/ ١٧٦).

وفي الحديث عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «من خاف أدلج، ومن أدلج فقد بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية ألا إنَّ سلعة الله غالية»(١).

ومعنى الحديث: «أن من خاف من شيء أدلج؛ أي: هرب في أول الليل، فإن الرجل إذا هرب في أول الليل ينجو من العدو، فإن العدو يغيرُ بعد الصبح؛ يعني: من خاف الله فليهرب من المعاصي إلى الطاعات، السِّلعة: المتاع، والغالية: الرفيعة القيمة؛ يعني: سلعةُ الله الجنةُ، وهي عزيزة لا يليق بثمنها إلا بذل النفس والمال»(٢).

والعاقل من لم يرض أن يستبدل برضا الله وجنته بدلًا، فلا يبيع الجنة ليشتري غيرها من حطام الدنيا وشهواتها الفانية، فما وراء الجنة إلا نار حامية، نسأل الله العفو والعافية.

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٢٤١) برقم: (٢٤٥٠)، وقال: حديث حسن غريب؛ والحاكم في المستدرك (٤/ ٣٤٣) برقم: (٧٨٥١)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) المفاتيح في شرح المصابيح للحسين بن محمود المُظهري (٥/ ٣٢٦).

٨٢٤

تنغيص نِعَمِ الدنيا بذكر الموت

قال مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير رحمه الله: «إن هذا الموت قد أَفسَد على أهل النعيم نعيمَهم، فاطلُبُوا نعيمًا لا موت فيه»[(١)].

المعنى الإجمالي

لا يبكي المؤمن أسفا على الدنيا ونعيمها، بل يبكي إذا توسع في النعيم، ونسي ما عهد إليه الرسول ﷺ من أن يكون زاده زاد الراحل؛ فقد روي أن سلمان الفارسي رضي الله عنه لما حضرته الوفاة جعل يبكي، فيل له: يا أبا عبد الله ما يبكيك؟ توفي رسول الله ﷺ وهو عنك راض، وترد عليه الحوض، وتلقى أصحابك، فقال سلمان: أما إني لم أبكِ جزعا من الموت ولا حرصا على الدنيا، ولكن رسول الله ﷺ عهد إلينا قال: «لِتكن بُلغة أحدكم من الدنيا مثل زاد الراكب»[(٢)].

ولما حضرت الخليفة المأمون الوفاة أمر أن يُفرش له جُلٌّ[(٣)]، وجعل يتمرغ فيه ويقول: «يا من لا يزول ملكه، ارحم من قد زال ملكه»[(٤)]. وكان المعتصم يقول

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٧/ ١٨٠) برقم: (٣٥١٤٠)؛ والزهد لأحمد بن حنبل (ص: ١٣٥) بلفظ: «إن هذا الموت قد أفسد على الناس نعيمهم فالتمسوا نعيمًا لا موت فيه».

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مسنده (١/ ٣٠٦) برقم: (٤٦٠).

(٣) **الجُلُّ**: بالضم: واحد جِلالِ الدوابّ، ينظر: مختار الصحاح للرازي (ص: ٥٩).

(٤) درر الحكم لأبي منصور الثعالبي (ص: ٣٦). ويروى هذا القول عن الرشيد حين حضرته الوفاة =

عند موته: لو علمت أن عمري هكذا قصير ما فعلت، وكان المنتصر يضطرب على نفسه عند موته فقيل له: لا بأس عليك يا أمير المؤمنين، فقال: ليس إلا هذا لقد ذهبت الدنيا، وأقبلت الآخرة.(١)

فإذا كان أهل النعيم من الخلفاء وغيرهم قد قالوا هذا؛ حتى أفسد عليهم نعيمهم وما كانوا فيه من لين العيش ورغده، وما ملكوا به من البلاد، فإن المؤمن حريص على تذكر الموت في كل أحواله؛ لأنه لن يجد نعيمًا لا يزول، وليس به منغصات ومكدرات إلا في الجنة، أما نعيم الدنيا فإن الموت مفسدُه، فمن أراد النعيم فليطلب نعيمًا لا موت فيه، ولن يكون ذلك إلا في جنات النعيم التي لا يجد فيها المؤمن نصبًا ولا وصبًا ولا حزنًا، قال الله تعالى عن ثناء أهل الجنة بما هم فيه من نعيم الجنة: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٤-٣٥].

= فأمر بحفر قبره، ثم حُمل إليه، فاطّلع فيه فبكي حتى رُحِم، ثم قال: يا من لا يزول ملكه، ارحم من زال ملكه، ينظر: التبصرة لابن الجوزي (١/ ٢١٦).

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ٤٨١).

٨٢٥

نعيم الدنيا والآخرة

قال مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير رحمه الله: «نعيم الدنيا بحذافيره في جنب نعيم الآخرة أقل من ذَرَّةٍ في جنب جبال الدنيا»[(١)].

المعنى الإجمالي

نعيم الدنيا بجانب نعيم الآخرة لا يساوي شيئًا؛ فنعيم الدنيا بكل ما فيه لا يوازي بجانب نعيم الآخرة أقل ذرة من جبل من جبال الدنيا؛ ذلك أن نعيم الآخرة لا خوف من زواله، ولا مشقة في الوصول إليه، بل يتجدد يومًا بعد آخر، في حياة دائمة سرمدية، فيجتمع للعبد النعيمان الحسي والمعنوي.

أما نعيم الدنيا فإنه لا يخلو من مكدرات ومنغصات، ومخاوفَ وأهوالٍ عظامٍ للوصول إلىٰ هذا النعيم، ونعيم الآخرة لا قلق فيه ولا خوف. ونعيم الدنيا قصيرٌ محدود، ونعيم الآخرة أبدي ويشمل النعيم الحسي والمعنوي. ونعيم الدنيا يتعرض فيه المنعَمُ عليه للحسد والغيرة والحقد، بل للقتل، ونعيم الآخرة لا يوجد في صدور أهلها غلٌّ ولا حسد، فقد نزعه الله من صدورهم كما قال تعالىٰ: ﴿ وَنَزَعْنَا

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ٩٣)، ولم نقف عليه في مصدر أقدم من كتاب ابن القيم، وكذلك يقول محقق مدارج السالكين.

مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الأعراف:٤٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر:٤٧].

وأنعم أهل الدنيا لا يرىٰ نعيم الدنيا شيئًا حين يُغْمس في عذاب الله غمسة واحدة، كما أن أبأس أهل الأرض ينسىٰ تعب الدنيا وشقاءها حين يغمس في نعيم الله في الجنة مرة واحدة؛ ففي الحديث: «يؤتىٰ بأنْعَم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيصبغ في النار صبغةً، ثم يقال: يا ابن آدم، هل رأيت خيرًا قطّ؟ هل مر بك نعيمٌ قطّ؟ فيقول: لا والله يا رب. ويؤتىٰ بأشدِّ الناس بُؤسًا في الدنيا من أهل الجنة، فيُصبَغُ صبغةً في الجنة، فيقال له: يا ابن آدم، هل رأيت بؤسًا قطّ؟ هل مَرّ بك شدةٌ قطّ؟ فيقول: لا والله يا رب، ما مَرّ بي بُؤسٌ قطّ، ولا رأيت شدةً قطّ»(١).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ١٣٥) برقم: (٢٨٠٧).

٨٢٦

قواطع لذة الدنيا

قال إبراهيم التيمي رحمه الله: «شيئان قَطَعَا عني لذة الدنيا: ذكر الموت، والوقوف بين يدي الله عز وجل»(١).

المعنى الإجمالي

مما يُذهِبُ أثرَ لذات الدنيا وسرورها تذكر الموت وغمراته، والقبر وظلمته ووحشته، وهول المطلع يوم الفزع الأكبر، والوقوف بين يدي رب العالمين للعرض والقضاء والحساب والجزاء، فإذا كان رسل الله صلوات الله عليهم أجمعين لما يسألهم الله فيقول لهم: ماذا أُجبتم، فيجيبون بقولهم: لا علم لنا، كما قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة:١٠٩]. قال مقاتل في تفسيره: «وذلك أول ما بُعثوا عند زفرة جهنم، لأن الناس إذا خرجوا من قبورهم تاهت عقولهم، فجالوا في الدنيا ثلاثين سنة ويقال أربعين سنة، ثم ينادي مناد عند صخرة بيت المقدس: يا أهل الدنيا، هاهنا موضع الحساب فيسمع النداء جميع الناس فيُقبِلون نحو الصوت فإذا اجتمعوا ببيت المقدس زفرت جهنم زفرة لا يبقىٰ ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا ظن أنه لو جاء

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٥/ ٨٨)؛ إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ٤٥١).

بعمل سبعين نبيًّا ما نجا»(١). فكيف يكون حال بقية العباد.

ومن المواقف العصيبة حين يُدني الله ﷻ عبدَه ويُقرِّره بذنوبه، قال رسول الله ﷺ: «إن الله يُدني المؤمن، فيضع عليه كنفه ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا، أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أي رب، حتىٰ إذا قرره بذنوبه، ورأىٰ في نفسه أنه هلك، قال: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيُعطىٰ كتاب حسناته، وأما الكفار والمنافقون، فيقول الأشهاد: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود:١٨](٢).

(١) تفسير مقاتل بن سليمان (١/ ٥١٤-٥١٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ١٢٨) برقم: (٢٤٤١).

٨٢٧

كفاية الدنيا بالعمل للآخرة

قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: «أيها الناس، أصلحوا سرائركم تصلُح علانيتكم، واعملوا لآخرتكم تُكْفَوا دنياكم»[١].

المعنى الإجمالي

للعبد باطن وظاهر، سرٌّ وإعلان، فلا يرىٰ منه العباد إلا ما يظهره، وأما باطنه وما يكنه صدره وما هو أخفىٰ من السر فلا يعلمه إلا علام الغيوب ﷻ، ولذلك فقد ذكر الله تعالىٰ أنه عليم بذات الصدور في أكثر من موضع من آي القرآن الكريم[٢]؛ إشارة إلىٰ ضرورة مراقبة الله تعالىٰ، ووجوب إصلاح السرائر.

وفي يوم القيامة تبلىٰ السرائر وتختبر، قال الله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق:٩]، قال قتادة: «إن هذه السرائر مختَبَرة، فأسِرُّوا خيرًا، وأعلِنُوه إن استطعتم، ولا قوة إلا بالله»[٣].

---

(١) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ٢٤٠)؛ حلية الأولياء لأبي نعيم (٥/ ٢٦٥). وهذا الشرح يتعلق بالقسم الثاني من الحكمة، وأما شرح القسم الأول فقد مر في باب الصدق وصفاء السريرة، الحكمة رقم: (١١٦).

(٢) عدد المواضع اثنا عشر موضعًا.

(٣) تفسير الطبري (٢٤/ ٣٥٩).

وإصلاح السرائر بتنقيتها من شوائب الشرك والتعلق بغير الله تعالىٰ، وإزالة ما يعلق بها من مفسدات الأعمال ومحبطاتها، من غلٍّ وحقد وحسد ورياء وكبر وعجب وغرور؛ فمن أصلح سريرته ليصبح قلبه نقيا تقيا سليما أصلح الله ظاهره وعلانيته.

والعمل للآخرة والاستعداد لها يصلح للعبد دنياه، فالله وحده الذي له الآخرة والأولىٰ، قال تعالىٰ: ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴾ [النجم:٢٥]، وهو الذي يهيء عبده لعمل الآخرة، وهو ﷻ لن يترك دنيا العبد دون صلاح؛ لأن عبده قد عمر الآخرة، فيكفيه الله ما يهمه من دنياه، ويذلل له الصعب منها والعسير من أمرها.

828

من صبر ظفر

قال طاووس بن كيسان[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حُلْوُ الآخرة مُرُّ الدنيا، ومُرُّ الدنيا حُلْوُ الآخرة»[2].

المعنى الإجمالي

البدايات في الدنيا والنهايات في الآخرة؛ فمن أحسن البدايات كوفئ بحسن النهايات، ومن كانت له بداية محرقة كانت له نهاية مشرقة؛ فحلو الآخرة مرارة الدنيا، ومرارة الدنيا حلاوة الآخرة.

إن العبد المؤمن يلتذُّ بطاعة الله تعالىٰ، ولو وجد فيها صعوبات وعقبات؛ إذ إن تلك الصعوبات والعقبات هي ما حُفَّت به الجنة من مكاره، والمعصية وإن التذَّ بها العبد لذة عابرة مؤقتة إلا أنها ماحقة لدينه وقُربِهِ من الله.

ومن أراد الآخرة لا بد أن يصبر علىٰ طاعة الله ولا بد أن يصبر عن المعاصي

(١) طاووس بن كيسان الهمداني اليماني، أبو عبد الرحمن، من كبار فقهاء التابعين ومحدثيهم، أصله من فارس، صاحب عبد الله بن عباس وسمع عن جماعة من الصحابة، عرف بالتقشف والجرأة في قول الحق، توفي سنة ١٠٦هـ. ينظر: التاريخ الكبير للبخاري (٤/ ٣٦٥)؛ تهذيب الكمال للمزي (١٣/ ٣٥٧).

(٢) المصنف لابن أبي شيبة (٢٠/ ٥)؛ حلية الأولياء لأبي نعيم (٤/ ١٢).

ولذاتها، قال تعالىٰ: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٢]، وقال ﷺ: «حجبت النار بالشهوات، وحجبت الجنة بالمكاره»(١).

فمن التمس راحته في الدينا وترك العمل الصالح فإنه يجد مرارة تلك الراحة المزعومة في الآخرة، ويُجزىٰ عذاب الهون في الآخرة؛ وذلك لذهاب طيباته في الدنيا، ومجيئه إلىٰ الآخرة بغير زاد، كما قال تعالىٰ عن الذين كفروا: ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ [الأحقاف:٢٠].

ومن صبر علىٰ الطاعات، وصبر عن المعاصي واجتنب الشهوات، ولاقىٰ من المكاره في سبيل الوصول إلىٰ الطاعات الموصلة إلىٰ رضا الرحمن إلا كانت مرارته في الدنيا حلاوة له، ورفعة في الآخرة في درجات الجنة. قال تعالىٰ عن جزائه للأبرار: ﴿ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ [الإنسان: ١١-١٢].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٠٢) برقم: (٦٤٨٧).

٨٢٩

طلب الباقي بضرر الفاني

قال عمرو بن مرة[١] رحمه الله: «من طلب الآخرة أضرَّ بالدنيا، ومن طلب الدنيا أضرَّ بالآخرة، فأَضِرُّوا بالفاني للباقي»[٢].

المعنى الإجمالي

طلبُ الدنيا والسعي الدائم نحوها يضر بالآخرة، وترك الدنيا وأحوالها والسعي الكامل نحو الآخرة يضر بدنيا العبد، والسلامة في الأمر كله أن يكون السعي للدنيا علىٰ وفق ما دعا الله إليه في القرآن الكريم؛ وذلك بالمشي في مناكبها وأطرافها، وطلب النصيب منها، وسبب الإضرار بأحدهما تَرْكُ التوازن في السعي لهما.

إن المسلم في حياته كلها يوجهها وجهة الآخرة، فكل أقواله وأفعاله وحركاته وسكناته لا بد من توافقها مع شرع الله تعالىٰ، ويرافقها الإخلاص لله؛ وبذا تكون حياة المسلم محراب عبادة لله تعالىٰ. وإن حصل تعارض بين الدنيا والآخرة فليؤثر

(١) عمرو بن مرة، أبو عبد الله، المرادي ثم الجملي الكوفي، الضرير، كان ثقة ثبتا إماما، سمع ابن أبي أوفىٰ وابن المسيب وابن أبي ليلىٰ وغيرهم، توفي سنة ١١٠هـ. ينظر: تذكرة الحفاظ للذهبي (١/ ٩١)؛ خلاصة تذهيب تهذيب الكمال للخزرجي (ص: ٢٩٣).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٥/ ٩٥).

العبد المسلم الباقي على الفاني.

ومن إيثار الباقي على الفاني أن يؤثر العبد طاعة ربه في صيام رمضان، فيدع شهواته من المأكل والمشرب والجماع وهي من المباحات في غير وقت الصيام؛ وذلك من أجل الله تعالى؛ فيؤثر الآخرة على الدنيا، والطاعة على ما تهواه نفسه، فعن النبي ﷺ أنه قال: «يقول الله ﷻ: الصوم لي وأنا أجزي به، يدع شهوته وأكله وشربه من أجلي»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٩/ ١٤٣) برقم: (٧٤٩٢).

٨٣٠ إصلاح السريرة والعمل للآخرة

قال عون بن عبد الله رحمه الله: «من عمل لآخرته كفاه الله دنياه، ومن أصلح فيما بينه وبين الله كفاه الله الناس»[(١)].

المعنى الإجمالي

هذه الكلمات الجامعة النافعة كان أهل الخير إذا التقوا يوصي بعضهم بعضا بها، وإذا غابوا كتب بعضهم إلى بعض[(٢)]، وهي تدور حول ضرورة التوجه إلى الله عز وجل بصدق وابتغاء ما عنده، وأن المؤمن إذا فعل ذلك أصلح الله أمره وكفاه مؤنته.

«من عمل لآخرته كفاه الله دنياه»: من عمل للآخرة شكر الله سعيه كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء:١٩]، فمن جعل همّه في الفوز في الآخرة يسّر الله له أموره الدنيوية، قال ﷺ: «من كانت الآخرةُ همَّه جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همَّه جعل الله فقره بين عينيه، وفرّق عليه شمله،

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٩/ ٣٠٧) برقم: (٣٦١٣٥).
(٢) المرجع السابق.

ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له»(١)، وهي راغمة: أي ذليلة حقيرة تابعة له، لا يحتاج في طلبها إلىٰ سعي كثير، بل تأتيه هينة لينة، علىٰ رغم أنفها وأنف أربابها(٢).

«ومن أصلح فيما بينه وبين الله كفاه الله الناس»: فالله ﷻ هو الضار النافع وهو القاهر فوق عباده فإذا تولىٰ العبد ورضي عنه جعله في ذمته وحماه من كل سوء ومكروه، فهمّ المؤمن أن يكون صادقا مع مولاه حتىٰ يحبه ويرضىٰ عنه، وبعد ذلك لا يهمل همّ الناس ولا يخافهم ولا يخشاهم؛ لأن الله سيكفيه شرهم، قال تعالىٰ: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر:٣٦].

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٢٥٢) برقم: (٢٤٦٥).
(٢) تحفة الأحوذي للمباركفوري (٧/ ١٤٠).

٨٣١

مثال علاقة الإنسان بالدنيا والآخرة

قال فرقد بن يعقوب السبخي[(١)] رحمه الله: «اتخذوا الدنيا ظئرًا واتخذوا الآخرة أُمًّا»[(٢)].

بيان المفردات

ظئرًا: الظئر هي المرضعة[(٣)].

المعنى الإجمالي

علىٰ المؤمن أن يتّخذ الدنيا ويتعامل معها مثل ما يتعامل الرضيع مع المرضع؛ فالرضيع إنما يحتاج من المرضع اللبن، ولا يتعلق بها تعلقه بأمه؛ لأن المرضع ليس لها عطف الأمهات، والدنيا مثل الظئر؛ فهي تعطيه لكنها لا تشفق عليه، بل تُبْعِده عن الآخرة ولا تقربه منها، ويقسو قلبه من كثرة حبه لها، ولا يرق، وهذه نتائج

(١) فرقد بن يعقوب، أبو يعقوب، السبخي، البصري، الحائك، أحد العُبَّاد الأعلام، السيد الكبير، الزاهد، روىٰ عن ابن جبير والنخعي وربعي بن حراش وجماعة، له قصص ومواعظ، توفي سنة ١٣١هـ. ينظر: الطبقات الكبرىٰ لابن سعد (٩/ ٢٤٢)؛ تاريخ الإسلام للذهبي (٣/ ٤٨٠)؛ مرآة الجنان لليافعي (١/ ٢١٦).

(٢) الزهد لابن أبي الدنيا (ص: ٧٤) برقم: (١٤٤)؛ والمجالسة وجواهر العلم للدينوري (٤/ ١٥١).

(٣) مقاييس اللغة لابن فارس (٣/ ٤٧٣).

حقيقية للدنيا. أما الآخرة فهي كالأم؛ تعطي وتحبُّ، وتقدم وليدها على نفسها بالعطاء، وتشفق على ابنها من كل ما يُعَكِّر صفو حياته، ترضعه لبنها وحبها، وتعطيه مقومات الحياة كلها، وترغب في أنها لو تستطيع أن تعطيه الدنيا كلها لفعلت.

فالعبد إذا تعامل مع الدنيا والآخرة بهذه النظرة، فإنه سيعمل للآخرة ويحبها أكثر؛ لأن الآخرة هي التي تبقى له، وهي التي ينتفع منها، وأما الدنيا فإنها مثل الظئر المستأجرة لإرضاع الطفل، ترضعه وتذهب، ولا تبقى له.

إن الفرق بين الدنيا والآخرة كالفرق بين الظئر والأم، فلا مجال للمقارنة بينهما، فالأم متفانية في حبها وعطائها لا تنتظر جزاءً أو شكورًا، والظئر تعطي وترضع الطفل من أجل أن تأخذ الأجر، ثم تذهب ولا تبقى مع الرضيع.

٨٣٢

العبد بين العاجلة والآجلة

قال شُمَيط بن عَجلان رحمه الله: «بئس العبد عبدٌ خُلِق للعاقبة فَصَدَّتْه العاجلة عن العاقبة، فزالت العاجلة وشقي بالعاقبة»[١].

بيان المفردات

العاقبة: عاقبة كل شيء آخره[٢]. ومنه سميت الآخرة عاقبة لعقبها الدنيا ومجيئها بعدها.

المعنى الإجمالي

إن العبدَ المؤمن عبدٌ لله تعالىٰ لا تسترقه الدنيا بأهوائها ومطامعها وشهواتها؛ من زوجة ودرهم ودينار وقطيفة وخميصة، والمؤمن يعلم غاية وجوده وخلقه، وأن الله ما خلقه للعاجلة وإنما للآجلة، وما صُدَّ عبد عن العاقبة ورضي بالآجلة إلا لتمكن الشيطان منه.

وقد ضرب ابن قدامة المقدسي رحمه الله مثلًا لمن يؤثر العاجل علىٰ الآجل، ولو كانت فيه مضرته وهلاكه، فقال: «فلا تغتر بغفلة الناس عن أنفسهم، أرأيت

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٣/ ١٢٩).

(٢) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (١/ ١٨٤).

لو وقفوا في الصيف في الشمس ولك بيت بارد، أكنت توافقهم أم تطلب المصلحة؟ أفتخالفهم في حر الشمس، ولا تخالفهم فيما يؤول إلىٰ النار؟ فتميل النفس إلىٰ قول الملك، ويقع التردد بين الجندين، إلىٰ أن يغلب علىٰ القلب ما هو أولىٰ به، فمن خلق للخير يسر له، ومن خلق للشر يسر له»(١).

فمن صدَّته العاجلة عن العاقبة الآجلة يشقىٰ بأمرين، الأول: أنه يخسر ما كان يؤمله في الدنيا وذلك بخروجه منها وتركه لها، والثاني: بشقائه وسوء عاقبته في العاقبة، حين يرىٰ أنه قدم علىٰ الله تعالىٰ بغير زاد ينجو به- بعد رحمة الله وفضله- من غضب الله وعقابه. يقول الله تعالىٰ: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [هود: ١٥-١٦]. ويقول تعالىٰ: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾ [الإسراء:١٨]. ويقول تعالىٰ: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورىٰ:٢٠].

(١) مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة المقدسي (ص: ١٥١).

٨٣٣

مقدار العمل للدنيا والآخرة

قال سفيان الثوري رحمه الله: «اعمل للدنيا بقدر بقائك فيها، وللآخرة بقدر بقائك فيها»[1].

المعنى الإجمالي

يبقى أثر الوصية في قلب وعقل العبد ما دامت قد لامست حاجته، وأجابت عن كثير مما يقلقه ويحيره؛ ذلك أن كثيرًا من المسلمين اليوم يقف حائرًا بين العمل للدنيا والآخرة، بل ظنَّ بعضهم أن نُصْحه بالعمل للآخرة يُرادُ منه التفرغ الكامل التام للآخرة، وألا يسعى لمصالحه وأحواله. وهذا من اللبس والخلط في الفهم، وإلا فقد كان الصحابة يَتَّجِرُون بتجارتهم، ولا تفوتهم مجالس العلم، ولا الجهاد في سبيل الله، فهم يُعطون كل أمرٍ ما يناسبه.

والسؤال الذي يحتاج إلى إجابة من المسلم هو: ما مقدار العمل للدنيا والآخرة؟ وهنا يأتي الجواب أنْ يعمل العبد لكليهما بقدر بقائه فيهما، فالتي يبقى فيها خالدًا أبدًا يكون العمل لها أكثر من العمل لما هو محدد بعُمُرٍ قد سبق كتابته.

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٧/ ٥٦).

٨٣٤

الـموازنــة بين الدنيا والآخــرة

قال سفيان الثوري رحمه الله: «خذْ من الدنيا قليلاً لبدنِك، وخذ من الآخرة كثيراً لقلبِك»(١).

المعنى الإجمــالي

الآخرة هي الدار الحقيقية الخالدة التي سينتقل إليها الإنسان ويبقىٰ فيها، والدنيا هي مرحلةُ اختبار يمرّ فيها الإنسان قبل انتقاله إلىٰ الدار الآخرة، وبناء علىٰ معرفة طبيعة كل منهما وغايتها ينبغي أن يكون الاهتمام والموازنة بينهما، قال تعالىٰ: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ [القصص:٧٧]، أي: استعمل ما وهبك الله من هذا المال الجزيل والنعمة الطائلة، في طاعة ربك والتقرب إليه بأنواع القربات، التي يحصل لك بها الثواب في الدار الآخرة. ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ [القصص:٧٧]؛ أي: مما أباح الله فيها من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمناكح، فإن لربك عليك حقا، ولنفسك عليك حقا، ولأهلك عليك حقا، ولزورك عليك حقا، فآت كل ذي حق حقه(٢).

---

(١) تهذيب خالصة الحقائق ونصاب غاية الدقائق للفاريابي (ص: ٥٧١).

(٢) تفسير ابن كثير (٦/ ٢٥٤).

فالواجب على المسلم أن يؤثر الآخرة على الدنيا، وأنْ لا ينهمك في الدنيا انهماكا كبيرا يمنعه من القيام بالطاعات وعمل الصالحات التي هي وظيفته الأولى؛ قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام:٣٢]، وقال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦-١٧]، فالمسلم ليست الدنيا أكبر همّه وغايته؛ ومما ورد من دعاء النبي ﷺ: «ولا تجعل الدنيا أكبرَ همّنا ولا مَبْلغَ عِلْمنا»(١).

فينبغي أن يأخذ المؤمن من الدنيا على مقدار الحاجة التي يستقيم بها بدنه، ولذلك فإنه يكفيه القليل من الدنيا، لكنه في المقابل يحتاج أن يبذل الكثير من وقته وجهده للآخرة من أجل إصلاح قلبه، فإن القلب يحتاج لاستذكار الآخرة باستمرار حتى يخشع ويلين، وحتى يتربى فيه الخوف من الله والخضوع لجلاله.

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٥/ ٤٨١) برقم: (٣٥٠٢).

٨٣٥

تزيين الجنة لهذه الأمة

قال الفضيل بن عياض رحمه الله: «ما حُلِّيَت الجنة لِأُمَّةٍ ما حُلِّيَت لهذه الأمة، ثم لا ترى لها عاشقًا»(١).

المعنى الإجمالي

أخبرنا الله عز وجل بأنواع النعيم الذي لا يخطر على بال في الجنة، ففي الجنة كل الطيبات، فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وهي تتزين لهم وتُحلَّىٰ وبخاصة في مواسم الطاعات، فقد ورد في الحديث أن الله عز وجل يقول للجنة في شهر رمضان: «استعدي وتزيني لعبادي أوشكوا أن يستريحوا من تعب الدنيا إلىٰ داري وكرامتي»(٢).

وتحليتها يشمل كل زينتها وإعدادها لعباد الله الصالحين؛ وقد ذكر الله الفعل «أُعِدَّتْ» للدلالة علىٰ تزيين الجنة وتهيئتها، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٣].

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٨/ ١١٤).

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٢٢٠)، وقال السيوطي: حديث حسن. ينظر: الجامع الكبير للسيوطي (١/ ٧٠١).

ولقد شوَّق النبي ﷺ الصحابة فوصف لهم الجنة، فعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ ذات يوم لأصحابه: «ألا مشمر للجنة؟ فإن الجنة لا خطر لها، هي ورب الكعبة نور يتلألأ، وريحانة تهتز، وقصر مشيد، ونهرٌ مُطَّرِد، وفاكهةٌ كثيرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحُلل كثيرة في مقام أبدًا، في حبرة ونضرة، في دار عالية سليمة بهية»، قالوا: نحن المشمِّرون لها يا رسول الله، قال: «قولوا إن شاء الله»(١).

فكيف يعرض الناس عن العمل للجنة بعد كل هذا التشويق!

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (٢/ ١٤٤٨) برقم: (٤٣٣٢)؛ وابن حبان في صحيحه (٦/ ٢٣٢) برقم: (٥١٥٥).

٨٣٦

الفرق بين السابقين واللاحقين

قال عون بن عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن من كان قبلكم كانوا يجعلون للدنيا ما فَضُل عن آخرتهم، وإنكم اليوم تجعلون لآخرتكم ما فَضُل عن دنياكم»[١].

المعنى الإجمالي

كان الأولون من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ والتابعين رَحِمَهُمُ اللَّهُ قد جعلوا أكثر همتهم وهمهم للآخرة، وما فضل للدنيا، فقد روي عن وهب بن منبه رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: مكتوبٌ في حكمة آل داوود: «حقٌّ علىٰ العاقل أن لا يغفل عن أربع ساعات من النهار: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يُحاسب فيها نفسه، وساعة يخلو فيها مع إخوانه الذين ينصحونه في نفسه ويصدُّونه عن عيوبه، وساعة يُخَلِّي بين نفسه وبين لذتها فيما يحل ويجمُل؛ فإن هذه الساعة تكون عونًا علىٰ هذه الساعة، واستجمام القلوب وفضل وبُلْغة»[٢]، وهذه الساعات كلها عونٌ علىٰ طاعة الله والعمل وجمع الهم والاستعداد للآخرة.

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٤/ ٢٤٢).

(٢) الزهد لهناد بن السري (٢/ ٥٨٠).

لكنا نجد أنفسنا في هذا الزمن -إلا من رحم الله- قد جعلنا أوقاتنا كلها للدنيا، ولم نعط الآخرة إلا شيئًا قليلًا وأقل من القليل. فنتذكر الآخرة عند مجيئنا للمساجد لأداء الصلوات، هذا لمن لا يزال يحافظ على الصلوات في أوقاتها في المسجد جماعة، أما من لا يحافظ عليها، ولا يؤديها بالكلية- وما أكثر عددهم- فلا يجدون من أنفسهم أي اهتمام للآخرة. فاللهم عفوك يا كريم.

٨٣٧

التوازن بين الدنيا والآخرة

قال عون بن عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ: «الدنيا والآخرة في القلب ككفتي الميزان؛ بقدر ما ترجح إحداهما تَخفُّ الأخرى»(١).

المعنى الإجمالي

التوازن بين عَمَلَيْ الدنيا والآخرة مما تميز به الإسلام عن غيره؛ فالمسابقة والمسارعة في طاعة الله ونيل رضاه مما أمر الله به، والسعي في الدنيا للحصول على رزق الله وبركته مما تدعو إليه الفطرة، وبينه الله في القرآن، قال تعالى: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ [القصص:٧٧]، وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾ [الملك:١٥].

لكن أن يترك العبد دنياه ويعمل للآخرة، يكون قد أضرَّ بدنياه، أو أن يترك الآخرة ويعمل للدنيا، يكون قد أضر بآخرته. فالدنيا والآخرة هما ككفتي ميزان ينبغي التوازن فيهما، لا تميل إحداهما على الأخرى فيطفف الوزن بالزيادة أو النقصان.

(١) الزهد لابن أبي الدنيا (ص: ١٣٦) برقم: (٢٨١)؛ حلية الأولياء لأبي نعيم (٤/ ٢٥١).

٨٣٨

مزاحمة الدنيا للآخرة

قال أبو سليمان الداراني رحمه الله: «إذا كانت الآخرة في القلب جاءت الدنيا تزحمها، وإذا كانت الدنيا في القلب لم تزحمها الآخرة؛ لأن الآخرة كريمة والدنيا لئيمة»[(١)].

المعنى الإجمالي

الفرق بين الدنيا والآخرة مختلفٌ جدًا؛ فهو فرقٌ بين الدنو والعلو، والرخيص والنفيس، والفاني والباقي، تتزاحمان في قلب العبد؛ فإذا كانت الآخرة وحب العمل للآخرة مستقرًا في القلب، جاءت الدنيا لتزاحم الآخرة في البقاء في القلب، ويكون هذا التزاحم بإكثار الدنيا من طلباتها على العبد، وحثه أن يقدم مطالبها وحبها على مطالب وحب الآخرة، فإن جاءت الفرائض المحددة بزمنها قالت النفس: إن في الوقت متسعًا، حتى يعتاد العبد هذا السلوك، فإذا كان العمل الذي له الأولوية من عمل الآخرة، يجعل له ما فَضُل من الوقت، وبذا تزاحم الدنيا الآخرة في الحب والعمل.

(١) الزهد لابن أبي الدنيا (ص: ٤٩) برقم (٦٦)؛ المجالسة وجواهر العلم لابن قتيبة الدينوري (٥/ ٢٤٣).

وإذا تملَّكَ حب الدنيا قلب العبد فإن الآخرة لا تزاحمها، حتىٰ يقوم العبدُ نفسُه بتزكية نفسه، وتخليتها من هذا الحب المتملك له في كافة مناحي الحياة؛ لأن الآخرة معدنها كريم، فلا تزاحم من كان أقل منها منزلة ومكانة، بل ولا تقارن بها.

٨٣٩

معرفة الدنيا طريق الآخرة

قال أبو سليمان الداراني رَحِمَهُ اللَّهُ: «من عرف الدنيا عرف الآخرة، ومن لم يعرف الدنيا لم يعرف الآخرة»[(١)].

المعنى الإجمالي

المعرفة للدنيا تعني معرفة قدرها ومكانتها عند الله تعالىٰ أولًا، ثم معرفة قدرها بجانب الآخرة، هل تفضلها، أم تساويها، أم لا تساوي شيئًا بجانبها؟ والحقُّ أنها لا تساوي بجانب الآخرة شيئًا يقاس أو يُنال؛ جاء في الحديث: «والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه «وأشار يحيىٰ[(٢)] بالسبابة» في اليَمّ، فلينظر بم ترجع»[(٣)].

إن الذي يعرف حقيقة الدينا وقدرها يعرف أن الآخرة عند الله خيرٌ وأبقىٰ، أما من لم يعرف حقيقة الدنيا فإنه يراها في عينيه وقلبه معظَّمةً، ولا يرىٰ أن شيئًا آخر يوازي قدرها أو يفوقها، وما مثل ذلك إلا كمثل الجنين في بطن أمه يرىٰ عالمًا فسيحًا، فعندما يخرج من بطن أمه يبكي يظن أنه قد انتهىٰ أمره، ثم إذا جاء إلىٰ

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٩/ ٢٦٢).

(٢) أحد رواة الحديث.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ١٥٦) برقم: (٢٨٥٨).

الدنيا رأىٰ عالمًا وكونًا كبيرًا مليئًا بمخلوقات الله في البر والبحر والجو، فإذا مات بكىٰ عليه محبوه، وظنوا أنه قد انتقل إلىٰ ضيق، وما علموا أن مثل الدنيا في الآخرة ما هو إلا كمثل الدنيا إلىٰ بطن الأم بالنسبة للجنين.

٨٤٠

هيِّئ نفسك للرحيل

قال يحيى بن معاذ رحمه الله: «اترك الدنيا قبل أن تتركك، واسْتَرْضِ ربك قبل ملاقاته، وعَمِّر بيتك الذي تسكنه قبل انتقالك إليه»[(١)].

المعنى الإجمالي

أجمع العقلاء على أن العاقل من يتقدم فعله قبل فعل غيره به، ويأتي في هذا ترك الدنيا، والتخفُّف من أعبائها وأثقالها وجواذبها، والتخلي عنها قبل أن تتخلى عن الإنسان وتتركه، ومما يتركه العبد المؤمن في دنياه الأثر الطيب والذكر الحسن؛ ليذكره الناس بعد وفاته بكل مآثره ومحاسنه ومناقبه وأفعاله الطيبة.

وطلب رضا الله تعالى قبل ملاقاته غاية الغايات من كل عبادات العبد القولية والفعلية الظاهرة والباطنة، وقد حكى الله عن كليمه موسى عليه السلام قوله: ﴿ قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ [طه:٨٤].

وتعمير العبد المؤمن لمسكنه بالطاعات والقربات، وهذا المسكن مبدؤه القبر الذي يقضي فيه حياة البرزخ وانتهاء بمقامه في الجنة التي جعلها الله لمن كان تقيًا. ومن مواقف الصالحين التي تدل على استعدادهم لتعمير مساكنهم في الآخرة:

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٥٣).

«أن رجلًا دخل علىٰ أبي ذر، فجعل يُقَلِّب بصره في بيته، فقال: يا أبا ذر ما أرىٰ في بيتك متاعًا ولا غير ذلك من الأثاث، فقال: إن لنا بيتا نوجه إليه صالح متاعنا، فقال: إنه لا بد لك من متاع ما دمت ههنا، فقال: إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه»[1].

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ٢٣٧)؛ مختصر منهاج القاصدين للمقدسي (ص: ٣٢٨).

٨٤١

عـزة النفس وذلتها

قال يحيى بن معاذ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «في اكتساب الدنيا ذلُّ النفوس، وفي اكتساب الجنة عزُّ النفوس، فيا عَجَبًا لمن يختار المذلّةَ في طلبِ ما يفنى، على العزة في طلبِ ما يبقى»(١).

بيـان الـمفردات

اكتساب: افتعال من الكسب، وهو طلب الرزق(٢).

الـمعنى الإجمـالي

تشتمل الحكمة على بيان الفرق بين اكتساب الدنيا واكتساب الجنة وما للنفس فيهما من ذل وعز، وهي أن من انشغل باكتساب الدنيا وشواغلها ونسي الآخرة فقد أذلّ نفسه، لأن النفس عزيزة شرفها الله تعالى وجعلها أهم من حطام الدنيا، ولأن الإنسان قد تكون حاجته الدنيوية في أيدي الآخرين فيعرضه ذلك إلى ذلّ السؤال والطلب. وأما الانشغال باكتساب الجنة ففيه عزة النفس لصرفها إلى

(١) تهذيب خالصة الحقائق للفاريابي (٢/ ٦٩٩)، هكذا نسبها الفاريابي والغزالي في إحياء علوم الدين إلى يحيى بن معاذ، وفي حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٣٥٧) نسبها إلى أبي علي الروذباري (ت: ٣٢٢هـ) باختلاف يسير.

(٢) لسان العرب لابن منظور (١/ ٧١٦).

ما يبقىٰ ويخلد ولإبعادها من الرديء الهين الذي لا قيمة له مقارنة بالجنة، فالعجب والحسرة لمن أساء التقويم، واختار مذلة النفس في طلب الدنيا الفانية علىٰ عزتها في طلب الجنة الباقية!

ومفهوم الحكمة وارد في عدد من النصوص، كما يقول تعالىٰ في حقيقة الدنيا وحياتها: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٦٤]، وقد ذكر الله ﷻ ميل الإنسان وإقباله إلىٰ الدنيا وما ينبغي له الاهتمام به حقيقة قائلا: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلىٰ: ١٦-١٧]، وقال النبي ﷺ: «من كانت الآخرة هَمّه جعل الله غِناه في قلبه وجمع له شَمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له»[1]، فلا ينبغي له أن يصرف جل وقتها المحدود في اكتساب الدنيا، بل يتذكر الحياة الأبدية ويعمل لكليهما حسب ما يعيش فيهما.

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥/ ٤٦٧) برقم: (٢١٥٩٠)؛ وابن ماجه في سننه (٥/ ٢٢٧) برقم: (٤١٠٥)؛ الترمذي في جامعه (٤/ ٦٤٢) برقم: (٢٤٦٥)؛ قال العراقي: أخرجه ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت بسند جيد، والترمذي من حديث أنس بسند ضعيف نحوه. تخريج أحاديث الإحياء (ص: ١٥٧٤).

٨٤٢

بيع النفس للدنيا

قال ابن حزم رحمه الله: «باذِلُ نفسه في عَرَض دنيا كبائع الياقوت بالحصى»(١).

بيان المفردات

عَرَض الدنيا: ما كان مِن مالٍ قَلَّ أو كَثُر(٢).

المعنى الإجمالي

التمسك بالدنيا والحرص عليها والتفاني في ملذاتها هو تمسك بالسراب، ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾ [الحديد:٢٠]، كل ما فيها زائل ومتعته مؤقتة، فمن هذا الذي يضحي بنفسه ويبذلها في مقابل الوهم والسراب! إن العاقل لا يرىٰ لنفسه ثمنًا إلا الجنة، الجنة التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر علىٰ قلب بشر، وموضع السوط فيها خير من الدنيا وما فيها، فمن رضي أن يستبدل الجنة بهذه الدنيا الفانية هو كمن يستبدل الياقوت النفيس بالحصىٰ الذي لا قيمة له، بل لا تناسب بين المتناهي وغير المتناهي.

(١) الأخلاق والسير ومداواة النفوس لابن حزم (ص: ١٦).

(٢) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (ص: ٣٣٣٦)؛ ولسان العرب لابن منظور (٧/ ١٧٠).

وقد بين النبي ﷺ الفرق بين الدنيا والآخرة فقال: «والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه -وأشار يحيىٰ[1] بالسبابة- في اليَمّ، فلينظر بم يرجع؟»[2].

وقال تعالىٰ: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلىٰ: ١٦-١٧]، قال عرفجة الأشج: كنا عند عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فقرأ هذه الآية، فقال: أتدرون لم آثرنا الحياة الدنيا علىٰ الآخرة؟ قلنا: لا، قال: لأن الدنيا حضرت، وعُجِّل لنا طعامها، وشرابها، ونساؤها، ولذتها، وبهجتها، وإن الآخرة غُيِّبَت، وزُوِيَت عنّا، فأحببنا العاجل، وتركنا الآجل[3].

(١) هو أحد رواة الحديث.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ١٥٦) برقم: (٢٨٥٨).

(٣) معالم التنزيل في تفسير القرآن للبغوي (٥/ ٢٤٣).

٨٤٣

شغل القلب

قال ابن القيم رحمه الله: «شغلوا قلوبهم بالدنيا، ولو شغلوها بالله والدار الآخرة لجالت في معاني كلامه وآياته المشهودة، ورجعت إلى أصحابها بغرائب الحكم وطُرَفِ الفوائد»[١].

المعنى الإجمالي

قلبُ كل إنسان ينضح بما تعلق به، فمن عَلَّق قلبَه بالدنيا وشهواتها كيف له أن يجد حلاوة الإيمان والقرب من الرحمن!

يقول الشيخ السباعي: «من تعلَّق قلبه بالدنيا لم يجد لذَّة الخلوة مع الله، ومن تعلق قلبه باللهو لم يجد لذة الأُنْس بكلام الله، ومن تعلق قلبه بالجاه لم يجد لذة التواضع بين يدي الله، ومن تعلق قلبه بالمال لم يجد لذة الإقراض لله، ومن تعلق قلبه بالشهوات لم يجد لذة الفهم عن الله، ومن تعلق قلبه بالزوجة والولد لم يجد لذة الجهاد في سبيل الله، ومن كثرت منه الآمال لم يجد في نفسه شوقًا إلى الجنة»[٢].

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ١٤٢). وأصل هذه الحكمة لابن الجوزي، ونصها: «شغلوا قلوبهم بالدنيا عن الله عز وجل، ولو تركوها لجالت في الملكوت ورجعت إليهم بطُرَف الفوائد». صفة الصفوة لابن الجوزي (٢/ ٣٥٨). واخترنا عبارة ابن القيم لزيادة وضوحها.

(٢) هكذا علمتني الحياة لمصطفى السباعي (ص: ٥٠).

أما الذي عَلَّق قلبه بالله ﷻ فإن الله يفتح له أبواب الفهم، وينوِّر قلبه بأنوار الحكمة والعلم، ويُمدُّه بفيوضات كرمه، ويُلهمه السداد والتوفيق، ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران:١٠١].

وفي الحديث: «من كانت الآخرةُ همَّه، جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شَمْله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همَّه، جعل الله فقره بين عينيه، وفرَّق عليه شمْله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدِّر له»(١).

يقول ابن القيم: «إذا أصبحَ العبدُ وأمسَىٰ وليس هَمُّه إلا الله وحده تَحَمَّلَ اللهُ سبحانه حوائجَه كلَّها، وحَمَلَ عنه كلَّ ما أهمَّهُ، وفرَّغَ قلبَه لمحبَّتِه ولسانَه لذكرِه وجوارحَه لطاعتِه»(٢).

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٢٥٢) برقم: (٢٤٦٥). وفيه يزيد الرقاشي، قال المنذري: قد وُثِّق، ولا بأس به في المتابعات، وقال البوصيري: هو ضعيف، وله شاهد من حديث الحسن. ينظر: المطالب العالية لابن حجر (١٣/ ٦٤٦).

(٢) الفوائد لابن القيم (١/ ١٢١).

٨٤٤

قدر العقود على قدر المشتري والنقود

قال ابن القيم رحمه الله: «قدْرُ السلعةِ يُعرف بقدرِ مشتريها، والثمنِ المبذولِ فيها، والمنادي عليها؛ فإذا كان المشتري عظيمًا، والثمن خطيرًا، والمنادي جليلًا كانت السلعةُ نفيسةً»(١).

بيان المفردات

السِّلعة: المتاع(٢).

المنادي: من النداء، وهو رفع الصوت وظهوره(٣)، والمقصود به هنا: هو من ينادي على السلعة يرغِّب فيها ليشتريها الناسُ.

المعنى الإجمالي

ذكر ابن القيم هذه الحكمة في سياق شرحه كلامَ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة:١١١]؛ أي: باع نفسه لله، فالمشتري هو رب العالمين سبحانه، والسلعة هي نفس المؤمن، والثمن المبذول

(١) الفوائد لابن القيم (ص: ١٠٧).
(٢) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (٣/ ١٢٣١).
(٣) المفردات للراغب الأصفهاني (ص: ٧٩٧).

له في مقابل المبيع هو الجنةُ، والمنادي الذي ينادي علىٰ أنفس المؤمنين -ولقد جعله الله تعالىٰ شهيدًا عليهم- هو نبينا الكريم ﷺ، فقد عُرِفت قيمةُ وقدر السلعة بقدر مشتريها سبحانه وبقدر الثمن المبذول فيها وهو الجنة، فالسلعة المشتراة في مثل هذا العقد سلعة غالية نفيسة.

ويُرشِد ابنُ القيم المخاطَبَ، إلىٰ المسارعة في بيع نفسه للمشتري العظيم قبل أن تتلف في يده وتفوته الفرصة، وقد علم البائعُ أن المشتري يقبل السلعةَ مع العيوب الموجودة فيها، فليُسلِّمْ وقد أمن من ردِّ سلعته إليه.

قال الله تعالىٰ في آية أخرىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾ [البقرة:٢٠٧]، فهناك عبادٌ لله مخلصون باعوا أنفسهم في مقابل مرضاة الله، فجاهدوا في سبيل الله حتىٰ قُتِلوا.

وقد أخبر أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ، أنه قال: «يا بني عبد مناف، اشتروا أنفسكم من الله، يا بني عبد المطلب، اشتروا أنفسكم من الله، يا أم الزبير بن العوام عمة رسول الله، يا فاطمة بنت محمد، اشتريا أنفسكما من الله، لا أملك لكما من الله شيئًا، سلاني من مالي ما شئتما»(١).

والشراء والاشتراء المذكوران في هذه النصوص، يحتمل أنْ يُقصَد به البيعُ: وهو أن يبيعَ الإنسانُ نفسَه لله، وهذا البيع أنواع، يدخل فيه جميع أنواع الحسنات التي يُقدِّمها العبد المسلم والمرأة المسلمة لرب العالمين، من أصغر الأعمال إلىٰ أكبرها، وأعلاه هو بيع الإنسان نفسَه لله، وفي سبيل الله، كما صرَّحت به الآية الكريمة، وأدناه هو أقل ما يمكن أن يتصدق به الإنسان، مثل شِقِّ تمرة، كما صرَّح به النبي ﷺ.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/٦) برقم: (٢٧٥٣)؛ ومسلم في صحيحه (١/ ١٣٣) برقم: (٢٠٤).

٨٤٥

المصير تابع للانتماء

قال ابن القيم ﵀: «كن من أبناء الآخرة، ولا تكن من أبناء الدنيا؛ فإن الولد يَتْبع الأم»[(١)].

المعنى الإجمالي

جعل الله تعالى الدنيا دارَ ممرٍّ لا دارَ مقرّ، لتكون مرحلة اختبارٍ استعدادًا للدار الآخرة التي هي مكان الإقامة والحياة الحقيقية الدائمة، قال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٦٤]، فمن تعلّق بالدنيا تعلُّقا شديدا مثل تعلّق الابن بأبويه كانت الدنيا له بمثابة الأم الوالدة، ومن كانت رغبته إلى الدار الآخرة كان من أبناء الآخرة.

وفي هذه الحكمة اقتبس الإمام ابن القيم ﵀ قاعدة شائعة في كتب الفقه وهي قاعدة «الولد يَتْبع الأم»، والمعنى الفقهي لهذه القاعدة هو أن الولد تابعٌ لأمه في العبودية والحريّة[(٢)]، فإذا كان حكم الأم أنها حرة كان الولد مثلها وبالعكس،

---

(١) الفوائد لابن القيم (ص: ٧٠)، وقد ورد نحو هذه العبارة في حديث شديد الضعف في المعجم الكبير للطبراني: «أيها الناس كونوا أبناء الآخرة ولا تكونوا أبناء الدنيا، فإنّ كلَّ أمّ يَتبعها ولدُها». ينظر: مجمع الزوائد للهيثمي (٢/ ١٨٩).

(٢) ينظر: شرح مختصر الطحاوي للجصاص (٧/ ٣٤٤)، والمهذب للشيرازي (٢/ ٣٩٨).

وبخصوص التعلق بالدنيا والآخرة فإن مصير الإنسان يكون تابعا لما تعلق به؛ فإذا كانت له الدنيا بمثابة الأم التي يحبها وينتمي إليها كان مصيره إليها؛ قال تعالىٰ: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [هود: ١٥-١٦]، وكذلك الحال بالنسبة لمن كان همه الآخرة، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء:١٩].

لأجل ذلك فإن المسلم ينبغي أن يكون انتماؤه وانتسابه الحقيقي للدار الآخرة، والطريق إلىٰ ذلك أن يكون هدفه في هذه الحياة هو النجاح في أداء المهمة التي خلق من أجلها، حتىٰ يكون مصيره ومنتهاه هو الفوز برحمة الله ورضوانه.

٨٤٦

بيع الجنة بجناح بعوضة

قال ابن القيم رحمه الله: «لا إله إلا الله سلعةُ الله مشتريها، وثمنُها الجنةُ، والدَّلَّالُ الرسولُ؛ تَرضى ببيعها بجزءٍ يسيرٍ مما لا يُساوي كلُّه جَناح بَعوضة؟!»(١).

بيان المفردات

الدَّلَّال: المرشد والدليل(٢).

المعنى الإجمالي

إن كلمة التوحيد هي أثمن سلعة على الإطلاق؛ وذلك لأن مشتريها هو الله عز وجل، وثمنها الجنة، فمن قالها ومات عليها حصل على ثمنها جنة عرضها السماوات والأرض، فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر،

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ٥٦). ثم ذكر بعد ذلك أبياتًا، وهي:

إذا كان شيءٌ لا يُساوي جميعُهُ ... جَناحَ بعوضٍ عند من صِرتَ عبدَهُ
ويملك جُزءٌ منهُ كُلَّكَ ما الَّذي ... يكون على ذا الحال قدرُكَ عندَهُ
وبِعتَ به نفسًا قد استامها بما ... لديه من الحُسْنىٰ وقد زال وُدُّهُ

(٢) ينظر: جمهرة اللغة لابن دريد (١/ ١١٤).

وقد ود في الحديث الصحيح: «من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة»[١].

فمَن هذا الأحمق الذي يرضىٰ أن يتنازل عن النعيم المقيم في الجنة بحفنة من حطامٍ زائل، لا يساوي عند الله جناح بعوضة، كما ورد في الحديث[٢]! وما مقدار الدنيا بالنسبة للآخرة ونعيمها؟ جاء في الحديث: «والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه -وأشار يحيىٰ بالسبابة- في اليَمّ، فلينظر بِمَ يرجع»[٣].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٤١) برقم: (٢٦).

(٢) والحديث: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقىٰ كافرًا منها شَربة ماء». أخرجه الترمذي في جامعه، (٤/ ١٥٠) برقم: (٢٥٠٦). وقال: حديث صحيح غريب.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ١٥٦) برقم: (٢٨٥٨).

٨٤٧

مقارنة بين لذات الدنيا ولذات الآخرة

قال ابن القيم رحمه الله: «لذةُ الآخرةِ أعظمُ وأدومُ، ولذةُ الدنيا أصغرُ وأقصر، وكذلك ألمُ الآخرةِ وألمُ الدنيا»[1].

المعنى الإجمالي[2]

اللَّذةُ والشهوةُ مِن حيث هي مطلوبةٌ للإنسان، يقول تعالىٰ: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ﴾ [آل عمران:١٤]، ويقول سبحانه: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [الزخرف:٧١]؛ فلا تُذَمُّ اللَّذةُ من جهة كونها لذَّةً، وإنما تُذَمُّ ويكون تركها خيرًا من نيلها إذا تضمنتْ فَواتَ لذَّةٍ أعظمَ منها وأكملَ، أو أعقَبتْ ألمًا حصوله أعظم من ألم فواتها؛ فها هنا يظهر الفرق بين العاقل الفَطِن والأحمق الجاهل؛ فمتىٰ عرف العقلُ التفاوتَ بين اللَّذَّتين والألميْن، وأنه لا نسبة لأحدهما إلىٰ الآخر؛ هانَ عليه تركُ أدنىٰ اللذتيْن لتحصيل أعلاهما، واحتمالُ أيسرِ الألميْنِ لدفع أعلاهما.

---

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ٢٩١).

(٢) ينظر: الفوائد لابن القيم (١/ ٢٩١)؛ موسوعة فقه القلوب للتويجري (١/ ١٠٢٨).

ولا ريب بأنَّ الدارَ الآخرة خيرٌ من الأولىٰ، ولذّتُها أعظم وأدومُ من لذة الدنيا، فهي أصغر وأقصر، قال تعالىٰ: ﴿ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران:١٥]، وكذلك ألم الأخرة، فهي أشدُّ وأبقىٰ من ألم الدنيا، قال تعالىٰ: ﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ [الرعد:٣٤].

والمُعوَّل في ذلك علىٰ الإيمان واليقين؛ فإذا قوي اليقينُ وباشرَ القلب آثَر الأعلىٰ علىٰ الأدنىٰ في جانب اللَّذَّة، واحتملَ الألمَ الأسهلَ علىٰ الأصعب، كمَثَل سحرة فرعون بعد أن دخل الايمان في قلوبهم تفطّنوا لذلك؛ ﴿ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [طه: ٧٢-٧٣].

٨٤٨

الاستعداد ليوم الرحيل

قال ابن القيم رحمه الله: «للعبد ربٌّ هو ملاقيه، وبيتٌ هو ساكنُهُ؛ فينبغي له أن يسترضيَ ربَّه قبل لقائه، ويُعَمِّرَ بيته قبل انتقالِهِ إليه»(١).

المعنى الإجمالي

إنَّ الله تعالىٰ جعلَ الدنيا دارَ سفر لا دارَ إقامة، قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ [النساء:٧٧]، فهي دارُ ممرّ إلىٰ دار مقرّ، ومزرعةُ أعمالٍ يتزودُ منها العبدُ بصالح الأعمال إلىٰ دار المآل، قال النبي ﷺ: «كُنْ في الدنيا كأنكَ غريبٌ أو عابرِ سبيلٍ»(٢).

فحياةُ المرءِ في الدنيا مهما طالتْ فهي زائلةٌ، والخلود والحياة الأبدية تكون في الآخرة، قال تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ﴾ [العنكبوت:٦٤]، فالكُلّ في النهاية سيموتون، ويلقون اللهَ تعالىٰ، فيجازيهم علىٰ أعمالهم، إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًا فشرّ، قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴾ [الانشقاق:٦].

فالسَّعيدُ من نظر إلىٰ الدنيا بعينِ أنها فانيةٌ وإلىٰ الآخرة أنها باقية، فتزودَ من

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ٤٤).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٨٩) برقم: (٦٤١٦).

الدنيا كزادِ الراكب، ليبلّغه إلىٰ رضوان الله تعالىٰ، ويَعْمُر بها آخرتَه التي يصير إليها في المآل والمنتهىٰ، وذلك بالسَّعي في إرضاء الله قبل أن يلقاه، فيَعمُرَ بيته قبل انتقاله إليه في الدار الآخرة، فإنها الدار القرار التي لا زوال لها، فليَجِدَّ العبدُ في عمارتها علىٰ الوجه الذي يُسرُّ به عند لقاء ربه.

وكان عثمانُ ﵁ إذا وقفَ علىٰ قبرٍ بكىٰ حتىٰ يَبُلَّ لحيتَه، فقيل له: تُذكرُ الجنةُ والنارُ فلا تبكي، وتبكي علىٰ هذا؟ فقال: إنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ القبرَ أوّلُ منازلِ الآخرة، فإن نجا منه فما بعدَه أيسرُ منه، وإن لم يَنْجُ منه فما بعدَه أشدُّ منه»، قال: وقال رسول الله ﷺ: «ما رأيتُ منظرًا إلا القبرُ أفظعُ منه»(١).

وقال يحيىٰ بن معاذ الرازي ﵀: «العقلاءُ ثلاثة: منْ تركَ الدنيا قبل أن تتركه، وبنىٰ قبرَه قبل أن يدخله، وأرضىٰ خالقه قبل أن يلقاه»(٢).

وقيل لإبراهيم بن أدهم ﵀: كيف أنت؟ فقال:

نُرقِّــعُ دُنيانــا بتمْزِيــق دِيننــا ... فَــلا دِيْنُنَــا يَبقــىٰ ولا مــا نُرَقِّــعُ
فطُــوبىٰ لِعبــدٍ آثَــر اللهَ وحــدَهُ ... وجــادَ بــدنياه لِمَــا يُتَوَقَّــعُ(٣).

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/ ٥٠٣) برقم: (٤٥٤)؛ والترمذي في جامعه (٤/ ١٤٢) برقم: (٢٣٠٨)، وقال: حسن غريب.

(٢) ينظر: إحياء علوم الدين للغزالي (٣/ ٢١٠).

(٣) ينظر: مفتاح الأفكار للتأهب لدار القرار لعبد العزيز السلمان (١/ ١٣٨).

٨٤٩

هوانُ الدنيا

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «من لاح له حال الآخرة هان عليه فراق الدنيا»[(١)].

بيان المفردات

لاحَ: لاحَ الشيء: ظَهَرَ وبدا للنَّظر، ولاح النَّجْمُ: بدا وأضاء وطلع[(٢)].

المعنى الإجمالي

قال رسولُ الله ﷺ: «قال الله تعالىٰ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة:١٧]»[(٣)]، ومنْ ظهر له كمالُ الآخرة هان عليه فِراقُ الدنيا، لأنّ الله تعالىٰ لم يجعل الدنيا مقصودةً لذاتها، بل جعلها طريقًا موصلًا إلىٰ الدار الآخرة، وأنه لم يجعلها دار إقامة ولا جزاء، بل جعلَها دارَ رحلة وبلاء، وأنه ملَّكها

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ٥٠).

(٢) ينظر: مقاييس اللغة لابن فارس (٥/ ٢٢٠)؛ معجم اللغة العربية المعاصرة للدكتور أحمد مختار (٣/ ٢٠٤٥).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١١٨) برقم: (٣٢٤٤)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ١٤٣) برقم: (٢٨٢٤).

في الغالب الكفرةَ والجهال، وحماها الأنبياء والأولياء، وقد أوضح النبي ﷺ هذا المعنىٰ بقوله: «لو كانتْ الدنيا تعدلُ عند الله جناحَ بعوضةٍ ما سقىٰ كافرًا منها شَربةَ ماء»(١).

وهذا حالُ من أيقن بما أعدَّه اللهُ لأوليائه في الآخرة من النَّعيم المقيم، فهُم في شُغل عن الدنيا ومتاعها؛ لأنهم عرفوها علىٰ حقيقتها، وذلك ما يدفعهم إلىٰ الزهد فيها، وعدم الركون إليها، واعتبارِها متاعًا زائلًا، وقد ذكرَ الله من حال هؤلاء في قوله: ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [النور:٣٧]، بل إن من أبان له نعيمُ الآخرة وتعلق قلبه بما أعدَّه الله لأوليائه في الآخرة، أصبحتْ الدنيا سجنًا له، يقول النبي ﷺ: «الدُّنيا سجنُ المؤمن، وجنةُ الكافر»(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ١٥٠) برقم: (٢٣٢٠).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٢١٠) برقم: (٢٩٥٦).

بـاب الزهد والقناعـة

٨٥٠

الدنيا حلم

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لو أن الدنيا من أولها إلى آخرها أُوتِيَها رجلٌ، ثم جاءه الموت لكان بمنزلة من رأى في منامه ما يسُرُّه ثم استيقظ، فإذا ليس في يده شيء»[(١)].

المعنى الإجمالي

وصف الله حال الدنيا بحال الهشيم الذي تذروه الرياح فقال تعالىٰ: ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴾ [الكهف:٤٥].

ويبين النبي ﷺ حجم الدنيا بجوار الآخرة بقوله: «والله ما الدنيا في الآخرة إلا كما يضع أحدكم إصبعه في اليَمِّ ثم يرفعها، فلينظر بم يرجع»[(٢)].

بل الدنيا لا تمثل شيئًا إلا كطيف الخيال، واستراحة القائل تحت ظل الشجرة كي يستأنف سيره قالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «ما لي وللدنيا! إنما مثلي ومثل الدنيا: كمثل

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ٩٢- ٩٣)، ولم نجد هذا الأثر في مصدر أقدم من كتاب ابن القيم، وروي ما بمعناه عن الحسن البصري، أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره برقم: (٥٦٣٥)؛ وابن أبي الدنيا في الزهد برقم: (٣٧٦)؛ وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٢٧٠)، ولفظه: «ما الدنيا كلها من أولها إلىٰ آخرها إلا كرجل نام نومة فرأىٰ في منامه بعض ما يحب، ثم انتبه».

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢١٩٣) برقم: (٥٥).

راكب قال في ظِلِّ شجرةٍ في يوم صائف، ثم راح وتركها»(١).

وفي ساعة الاحتضار يستحضر المحتضر دنياه كلها فكأنها بكل ما كان بها من مسرات ومحزنات، وخير وشر، تستغرق أمامه لحظات قصيرة، ومثل ذلك أيضًا كمثل نائم رأىٰ في منامه أحلامًا مفرحةً وسارةً من ملك للدنيا وزواج وأولاد وأمر ونهي، فإذا به يصحو من نومه فيجد نفسه خالي الوفاض لا يملك منها شيئًا من قليلٍ أو كثير.

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٧/ ٢٥٩) برقم: (٤٢٩٢)؛ والحاكم في المستدرك (٤/ ٣٤٥) برقم: (٧٨٥٩)؛ وأبو يعلىٰ في مسنده (٨/ ٤١٦) برقم: (٤٩٩٨)؛ وابن أبي شيبة في مصنفه (١٩/ ٢٤٩) برقم: (٣٥٤٤٤).

٨٥١

ما مضى من الدنيا

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «ما شبَّهت ما غَبرَ من الدنيا إلا بثَغْبٍ شُرِب صَفْوُه، وبَقي كَدَرُه»(١).

بيان المفردات

بثَغَب: الثَغَبُ: ما بقي من الماء في بطن الوادي، وقيل: هو بقية الماء العذب في الأرض، وقيل: هو الغدير يكون في ظلّ جبل لا تصيبه الشمس فيبرد ماؤه(٢).

المعنى الإجمالي

الناظر إلىٰ زمن الدنيا، وما مضىٰ منها، يجده قليلًا؛ وقد مضىٰ من القليل أكثره، وما بقي من القليل إلا القليل، ثم إن الذي بقي منها مليء بالأكدار والمنغصات؛ ومثَلُ ما بقي منها كمثل ما بقي من الماء الذي تجمَّع حتىٰ صفا، ثم ورد عليه الناس وشربوا منه الصافي، فما بقي منه إلا الماء الكَدِر؛ وهكذا الدنيا كلما أتىٰ زمان يكون ما بعده شرٌّ من الزمان الذي قبله، وهذا ما أخبر به رسول الله ﷺ؛

(١) غريب الحديث لأبي عبيد (٤/ ٧٩).

(٢) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (١/ ٩٣)؛ ولسان العرب لابن منظور (١/ ٢٣٩).

عن الزبير بن عدي قال: «أتينا أنس بن مالك رضي الله عنه، فشكونا إليه ما نلقىٰ من الحجاج، فقال: اصبروا؛ فإنه لا يأتي عليكم زمان إلا الذي بعده شرٌّ منه، حتىٰ تلقوا ربكم، سمعته من نبيكم صلى الله عليه وسلم»[(١)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٩/ ٤٩) برقم: (٧٠٦٨).

٨٥٢

ترك الدنيا من كرامة الأنفس

قال محمد ابن الحنفية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من كَرُمت نفسه عليه لم يكن للدنيا عنده قدْر»[(١)].

المعنى الإجمالي

سُمِّيتْ الدنيا بهذا الاسم لأنها دانية من الآخرة، أو لقرب مشتهياتها في القلب، أو لدناءتها[(٢)]. ولدناءتها عند الله فهي لا تساوي جناح بعوضة كما في الحديث: أن رسول الله ﷺ مر بالسوق داخلًا من بعض العالية، والناس كنفيه، فمر بجدي أَسَكّ ميت، فتناوله فأخذ بأذنه، ثم قال: «أيكم يحب أن هذا له بدرهم»؟ فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء، وما نصنع به؟ قال: «أتحبون أنه لكم»؟ قالوا: والله لو كان حيًّا كان عيبًا فيه؛ لأنه أسك، فكيف وهو ميت! فقال: «فوالله، للدنيا أهون على الله من هذا عليكم»[(٣)]، فمن أكرم نفسه، وأعلى قدرها، فإن الدنيا ليس لها قدر في نفسه، فيجعلها في يديه، لا في قلبه.

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي (٢/ ٣٠)؛ مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي (٩/ ٢٨٤)؛ مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٢٣/ ٩٧)، وأورده أبو حيان التوحيدي في البصائر والذخائر (١/ ١٤٤) بلفظ: «من كرمت نفسه عليه هانت الدنيا في عينيه».

(٢) بريقة محمودية في شرح طريقة محمدية لمحمد الخادمي (١/ ١٥).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٢١٠) برقم: (٢٩٥٧).

وفي الحديث أيضًا: قال ﷺ: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء»(١).

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ١٥٠) برقم: (٢٣٢٠)، وقال: حديث صحيح غريب.

٨٥٣

الدنيا ليست بدار

قال طلق بن حبيب رحمه الله: «يا ابن آدم! الدنيا ليست لك بدار، وإنك لا تكون منها بحريز، فاتق الله يا ابن آدم في السرّ المفضي به إليك»[(١)].

بيان المفردات

حَرِيز: من الحِرْز: وهو المكان الذي يحفظ فيه، والجمع أحراز، وأحرزت المتاع: جعلته في الحرز، ويقال: حرز وحريز للتأكيد[(٢)].

المعنى الإجمالي

ولقد فضَّل الله الدار الآخرة على الدار الدنيا، ووصف الدنيا بأنها متاع، وأنها دار الغرور، فقال تعالى عن الآخرة: ﴿ وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف:١٠٩]. ويقول تعالى: ﴿ وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [النحل:٣٠]. وقال عن الدنيا: ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [آل عمران:١٨٥]. وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [النساء:٧٧].

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٣/ ٦٤).

(٢) ينظر: المصباح المنير للفيومي (١/ ١٢٩).

ولم تزل الدنيا تصدع بالأحبة والإخوان، وتفجع بأهل المحبة والأخدان، وتخدع وتتقلب، وتلذع وتتلهب:

فَإِنْ أَضْحَكَتْ أَبْكَتْ وَإِنْ وَاصَلَتْ قَلَّتْ ... وَإِنْ سَالَمَتْ خَانَتْ وَإِنْ سَامَحَتْ غَلَّتْ

وَإِنْ أَفْرَحَتْ يَوْمًا فَيَوْمَانِ لِلْأَسَىٰ ... وَإِنْ مَا جَلَتْ لِلصَّبِّ يَا صَاحِ أَوْجَلَتْ

حَلَاوَتُهَا كَالصَّابِ فَاحْذَرْ مَذَاقَهَا ... إِذَا مَا حَلَتْ لِلْمَرْءِ فِي الْبَأْسِ أَوْحَلَتْ(١)

وهذه الدنيا ليست بدار فيها القرار، والحصن الحصين، والملاذ المنجي، بل هي ذو تقلب ومتاع زائل لا يدوم، والعاقل من يعمر داره ولا يعمر دارًا لا تؤويه أو تكفيه أو تنجيه، فكان لزامًا علىٰ كل ذي عقل وبصيرة أن يأوي إلىٰ الله تعالىٰ، فيتقيه ولا يعصيه، فإنه راجعٌ إلىٰ ربه وصائر إليه.

(١) غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب لشمس الدين السفاريني (٢/ ٥٥٠).

٨٥٤

حماية الله للمؤمن من الدنيا

قال هانئ بن كلثوم[(١)] رحمه الله: «مثلُ المؤمن الفقير كمثل المريض عند الطبيب العالم بدائه، تطَّلِع نفسه إلى أشياء يشتهيها لو أصابها أهلكته، كذلك يحمي الله تعالى المؤمن من الدنيا»[(٢)].

المعنى الإجمالي

حرمان المؤمن من بعض لذات الدنيا وشهواتها حِمْيَةٌ له، وإبعادٌ عما يؤذيه، ويبعده عن الله تعالىٰ، كما يبعد الطبيب المريض عن أكل بعض أنواع الطعام؛ كي لا يشتد به المرض أو يفسد بعض وظائف الجسد، مما يؤخر في تماثله للشفاء، وتعافيه مما أصابه.

وليس هذا الحرمان والإبعاد لهوان المؤمن علىٰ ربه، ولكنها محبةٌ من الله ورحمةٌ؛ فإن الدنيا إذا تملكت قلب المؤمن فإنه لا يشعر بحبه لله تعالىٰ، ولا بلذة الطاعات التي يعملها؛ ولذا فقد عاش الأنبياء والصالحون معيشة كفافٍ، فكان

---

(١) هانئ بن كلثوم بن عبد الله، الكناني، ويقال: الكندي، الفلسطيني، كان شريفا جليلا، عابدا، مجاهدا غازيا، روىٰ عن ابن عمر ومعاوية وروىٰ عنه جماعة، توفي سنة ١٠٠هـ. ينظر: تاريخ الإسلام للذهبي (٢/ ١١٨١)؛ تهذيب الكمال للمزي (٣٠/ ١٤٣).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٦/ ١١٩).

الرسول ﷺ لا يوقد نارٌ في بيته ثلاثة أَهِلَّة، فعن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت لعروة: «ابن أختي، إن كنا لننظر إلىٰ الهلال، ثم الهلال، ثلاثة أهلة في شهرين، وما أُوْقِدَت في أبيات رسول الله ﷺ نار»، فقلت يا خالة: ما كان يُعَيِّشكم؟ قالت: «الأسودان: التمر والماء، إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار، كانت لهم منائح، وكانوا يمنحون رسول الله ﷺ من ألبانهم، فيسقينا»(١).

وإذا حبس الله عن المؤمن ما يشتهيه في هذه الدنيا فإن الله سيعطيه في جنته ودار كرامته ما لم تسمع به أذن، ولم تره عين، ولم يخطر علىٰ قلب بشر، قال الله تعالىٰ: ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ [الزخرف:٧١].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ١٥٣) برقم: (٢٥٦٧).

٨٥٥

علامات إرادة اللهِ الخيرَ للعبد

قال محمد بن كعب القرظي[١] رَحِمَهُ اللهُ: «إذا أراد الله بعبد خيراً زهَّده في الدنيا، وفقَّهه في الدين، وبصَّرَه بعيوبه، ومن أوتيهن أوتي خير الدنيا والآخرة»[٢].

المعنى الإجمالي

يبحث العقلاء عن صفات تؤهلهم لخيري الدنيا والآخرة، والمتأمل لهذه المقولة يجد أن خيري الدنيا والآخرة يكون في ثلاث خصال: الزهد في الدنيا، والتفقه في الدين، والتبصر بعيوب النفس.

فأما الزهد في الدنيا؛ حتى لا يأسى العبد المؤمن على ما فاته من الدنيا، ولا يفرح ويبطر بما أعطي منها، يقول تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد:٢٣]، يقول ابن جرير

---

(١) محمد بن كعب بن حيّان بن سُليم القُرظيّ، أبو حمزة، من حلفاء الأوس، الإمام العلامة، قيل إنه ولد على عهد رسول الله ﷺ ولم يصح ذلك، روى عن ابن عباس وجابر بن عبد الله وزيد بن أرقم وغيرهم، توفي سنة ١٠٨هـ. ينظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٧/ ٤٢٠)؛ سير أعلام النبلاء للذهبي (٥/ ٦٥).

(٢) الزهد لوكيع بن الجرَّاح (ص: ٢١٧).

الطبري رحمه الله في تأويل هذه الآية: «لكيلا تحزنوا على ما فاتكم من الدنيا، فلم تدركوه منها، ولا تفرحوا بما آتاكم منها»(١).

والفقيه في الدين من ورد منهله، وأصاب من معينه الصافي، واغترف منه فإنه من خير الناس؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد:١٩]، وقال رسول الله ﷺ: «مَن يرد الله به خيرًا يفقِّهه في الدين»(٢).

والتبصر بعيوب النفس لإصلاح خللها، وإتمام نقصها، فلا خير فيمن ينظر إلى عيوب غيره، ولا يهتم بعيوب نفسه، قال الحسن البصري رحمه الله: «يا ابن آدم تبصر القذى في عين أخيك، وتدع الجذل معترضًا في عينك»(٣).

ولكي يتبصر العبد بعيوب نفسه فله أربعة طرق، وهي:

الطريق الأول: أن يجلس بين يدي شيخ يبصره بعيوب النفس مطلع على خفايا الآفات.

الطريق الثاني: أن يطلب صديقًا صدوقًا بصيرًا متدينًا فينصبه على نفسه رقيبًا ليلاحظ أحواله وأفعاله، فما كره من أخلاقه وأفعاله الظاهرة والباطنة ينبهه عليه.

الطريق الثالث: أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه؛ فإن أعين السُّخْط تُبدي المساويا، ولعل انتفاع الإنسان بعدوٍّ مُشاحن يَذكر عيوبه أكثر من انتفاعه بصديق مداهن.

(١) تفسير الطبري (٢٣/ ١٩٧).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٢٥) برقم: (٧١)؛ ومسلم في صحيحه برقم: (١٠٣٧).
(٣) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ٢٣٢).

الطريق الرابع: أن يخالط الناس، فكل ما رآه مذمومًا فيما بين الخلق فليطالب نفسه به وينسبها إليه، فإن المؤمن مرآة المؤمن فيرىٰ من عيوب غيره عيوب نفسه[١].

(١) ينظر: إحياء علوم الدين للغزالي (٣/ ٦٤-٦٥).

٨٥٦

حقيقة الدنيا

قال الحسن البصري رحمه الله: «الدنيا كلها غَمّ، فما كان منها من سرورٍ فهو رِبح»(١).

المعنى الإجمالي

شبَّه اللهُ الدنيا بكل أحوالها من بدئها إلىٰ نهايتها بالزرع، وذكر ذلك في أكثر من موضع، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَـٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس:٢٤].

والدنيا ليست مكانًا للراحة والخلود، فساعات صفائها قليلة، وغالب حالها الكدر والغم؛ فما كان منها من ساعات سرور فربح، فهي محل النقص والزوال، والآخرة محل الكمال والبقاء. وجعل الله ذلك في طبعها وحالها؛ حتىٰ يبقىٰ تعلق العبد بالله، ويقينه علىٰ وعده ورحمته ونعيمه، ولا يجعل هذه الدنيا إلا ركوبا للآخرة، وسفينة نجاة لِيَحُطّ في بَرِّ الأمان في ساحل الآخرة.

(١) أدب الدنيا والدين للماوردي (ص: ١١٠).

يقول الشاعر عن الدنيا:

جُبلتْ على كدرٍ وأنتَ تريدُها ... صَفْوًا من الآلامِ والأكدارِ
ومُكَلِّفُ الأيام ضدَّ طباعِها ... مُتَطَلِّبٌ في الماءِ جذوة نارِ[1].

(١) مرثية التهامي لولده. ينظر: غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب لشمس الدين السفاريني (٢/ ٥٥٧).

٨٥٧

زوال فرح الدنيا بذكر الموت

قال الحسن البصري رحمه الله: «فضح الموتُ الدنيا، فلم يترك فيها لذي لُبٍّ فَرحًا»(١).

المعنى الإجمالي

ذوو العقول والألباب والنُّهىٰ يدركون أن الفرح في الدنيا يكون بفضل الله وبرحمته، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨]، فيكون فرحهم مضبوطًا؛ فلا يأشرون ولا يبطرون ولا يبغون، ويعلمون أن النعيم الدنيوي الذي يؤدي بصاحبه إلىٰ الفرح والأشر إنما يدل علىٰ قلة عقل صاحبه، الذي لا يدري بأن الموت آخذٌ منه كل ما فرح به من مال وولد وجاه وسلطان.

لقد كان قارون من قوم موسىٰ، وكان من المسرفين علىٰ أنفسهم بعصيان الله، وترك الاعتراف بفضله ونعمه، وكان قومه يناصحونه ألا يبغي بماله، ولا ينسىٰ فضل الله المتفضل عليه، ولا يبالغ في فرحه فإن الله لا يحب الفرحين. قال الله تعالىٰ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص:٧٦].

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٢/ ١٤٩).

إن الموت كشف وفضح الدنيا بما فيها من زينة ولذة، فلم يترك لذي عقل وبصيرة فرحا بها، وبما جمَّعه منها؛ ذلك أن العبد يتركها ويترك ما خلفه وراء ظهره، ويأتي إلىٰ الله وحيدا فريدا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام:٩٤].

٨٥٨

معصيـــة الرغبة في الدنيا

قال بلال بن سعد رَحِمَهُ اللَّهُ: «كفى به ذنبًا أن الله يُزَهِّدُنا في الدنيا ونحن نَرْغَب فيها»(١).

المعنى الإجمـــالي

يعتقد كثيرٌ من الناس أن الذنوب ما كانت من الكبائر والفواحش، وما عدا ذلك فلا يؤاخذ به، وهذا الاعتقاد خاطئٌ؛ إذ لو كان الأمر كما يعتقدون لما كانت هناك ذنوبٌ للجوارح وذنوب للقلوب، وكلها تحتاج إلىٰ مجاهدة وترك وتوبة.

ويتناسىٰ العبد ذنوبه التي يذنبها، ولم يدرِ أنَّ من ذنوبه تهالكه علىٰ الدنيا، واستمراره في بذل جهوده كلها لها، حتىٰ يتمكن حبها من قلبه، فلا يتورع عن حرام، ولا عن مكروه، ولا يتقلل من المباحات، بل يسعىٰ لأن يأخذ كل شيء من حلِّه أو من حرمته.

وجعلت الرغبة في الدنيا وعدم الزهد عنها من الذنوب؛ لأن أصل الرَغبة في الدنيا من ضعف اليقين؛ لأن العبد لو قوي يقينه نظر بنوره إلىٰ الآجل فغاب في نظره

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٥/ ٢٢٤).

العاجل، فزهد فيما غاب وأحبّ الحاضر فآثر ما هو أعود عليه وأبقىٰ وأنفع له ولمولاه[1].

(١) قوت القلوب لأبي طالب المكي (١/ ٤٠٨).

٨٥٩

حب الحيـاة مذلـة

قال زيد بن علي بن الحسين[(١)] ﷺ: «من أحبَّ الحياة ذَلَّ»[(٢)].

المعنى الإجمـالي

كلما ازداد الإنسان حبا في الحياة زاد ذلة وهوانا عند الله وعند الناس، وكلما زهد الإنسان في الحياة ورغب فيما عند الله ﷻ زاد عزة وشجاعة وإقداما؛ فالحب مقترن بالذل، والمحبة أسست على الذلة للمحبوب، وعلى قدر محبته يكون ذله.

وحب الحياة يأتي من الغفلة ونسيان الموت والجهل بحقيقة الدنيا ومآلها، بينما الذي يفكر في الحياة وقصر مدتها وكثرة همومها، ويتذكر نعيم الجنة وما فيها مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، فإنه يزهد في الدنيا، ولا يتعلق بها، ويؤثر الآخرة عليها، وقد بين أبو حازم سلمة بن دينار سبب تعلق الناس بالدنيا وكراهتهم للموت، عندما سأله الخليفة سليمان بن عبد الملك فقال له: يا أبا حازم ما لنا نكره الموت، فقال: لأنكم عمرتم الدنيا وخربتم الآخرة، فتكرهون الخروج من العمران

(١) زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أبو الحسين، الهاشمي، العلوي، المدني، كان ذا علم وجلالة وصلاح، بايعه أهل الكوفة وخرج بهم على والي العراق، فاستشهد سنة ١٢٢هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٥/ ٣٨٩)؛ الوافي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي (٢/ ٣٥).

(٢) أنساب الأشراف للبلاذري (٣/ ٢٣٣).

إلىٰ الخراب[١].

ومن أحب شيئًا تعرَّض للذُّلّ من أجل اكتسابه والحفاظ عليه، وقد جعل النبي ﷺ التعلق بالدنيا والانشغال بها سببًا من أسباب الذلة، فقال: «إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلَّط الله عليكم ذُلًّا لا ينزعه حتىٰ ترجعوا إلىٰ دينكم»[٢].

وكتب الحسن البصري إلىٰ عمر بن عبد العزيز: «فإن الدنيا دار ظَعْن وليست بدار إقامة، وإنما أنزل آدم عليه السلام إليها عقوبة، فاحذرها يا أمير المؤمنين؛ فإن الزاد منها تركها، والغنىٰ منها فقرها؛ لها في كل حين قتيل، تُذل من أعزها، وتفقر من جمعها، هي كالسم يأكله من لا يعرفه وهو حتفه»[٣].

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٣/ ٢٣٤)؛ مسند الدارمي (١/ ٤٩٩)؛ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٦/ ٥٨٢).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (٣/ ٢٩١) برقم: (٣٤٦٢)؛ والبيهقي في السنن الكبرىٰ (١١/ ١٧٢) برقم: (١٠٨٠٥)؛ وفيه إسحاق بن أسيد، والحديث من طريقه لا يصح كما قال ابن القطان، إلا أنه أورد لهذا الحديث طريقًا كل رجاله ثقات. ينظر: بيان الوهم والإيهام لابن القطان (٥/ ٢٩٦).

(٣) الزهد لابن أبي الدنيا (ص: ٤٠)؛ حلية الأولياء لأبي نعيم (٦/ ٣١٢).

٨٦٠

سَـتْرالزُّهـد

قال أيوب السختياني ﵀: «لأن يَسترَ الرجلُ الزُّهْدَ خيرٌ له من أن يُظهِرَه»[(١)].

المعنى الإجمـالي

الزاهدون لا يظهرون زهدهم للناس، بتماوتٍ وتمارضٍ، وبلبس ثياب مرقعةٍ؛ فقد تكون هذه الثيابُ ثيابَ شهرة وصيت، ولا يظهرون عباداتهم ونسكهم للعباد، بل الزاهدون الحقيقيون هم أولئك الذين يسترون زهدهم، ولا يظهرونه للناس، فهم أولئك الذين يرفضون الدنيا، وقد جاءتهم راغمةً، وهم أولئك الذين لا يترددون علىٰ أبواب الملوك والسلاطين؛ لينالوا حظوةً ومكانةً ورفعةً، وهم أولئك الذين لا يُظهِرون تخشُّعَهم وبكاءَهم بأصواتٍ عاليةٍ أمام الناس، فإنهم ليسوا بمُغْنِين عنهم من الله شيئًا.

وفي ستر الزهد عن الناس فائدتان؛ الأولىٰ: أن إظهار الزهد للناس قد يجعل العبد بمرتبة عالية من الزهد والتنسك والتخشع، وهو لَمَّا يصلْ إلىٰ تلك المرتبة والمكانة. والثانية: أن في إخفاء العبد للزهد إخفاءً لعملٍ صالح ينبغي أن يكون خالصًا، لا يشوبه رياء أو سمعة.

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٣/٦).

٨٦١

الوثوب على الدنيا

قال سلمة بن دينار رَحِمَهُ اللَّهُ: «تراءت لهم الدنيا فوثبوا عليها»(١).

بيان المفردات

تراءت: أي: تصدَّت لهم ليروها(٢).

فوثبوا: وثب من مكانه: قفز(٣).

المعنى الإجمالي

يروىٰ أن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «مَا كُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّ فِي أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ أَحَدًا يُحِبُّ الدُّنْيَا حَتَّىٰ نَزَلَتْ: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [آل عمران:١٥٢].

فإذا كان هذا حال صحابة رسول الله ﷺ كما ذكر ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولم تكن الدنيا قد انفتحت لهم، ولم يكونوا طلابها، فما بالنا في هذا الزمان الذي أصبحت الدنيا متنافسًا كبيرًا، فهي مشوشة الأذهان، ومغيرة الطباع، ومرهقة الأبدان، مما

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٣/ ٢٣٣).
(٢) العين للخليل بن أحمد (٨/ ٣٠٨).
(٣) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (١/ ٢٣١).

جعل الناس يتناسون قراباتهم وأخوتهم ومحبتهم، وما جمعهم الله به من الدين والأخوة، فازدادت الأحقاد والضغائن فيما بينهم، وانتشرت المعاصي ما ظهر منها وما بطن. نسأل الله السلامة والعافية.

والزاهد سلمة بن دينار يتحدث عن أناس فُتِنوا بالدنيا بمجرد رؤيتها، فوثبوا عليها كما يثب الأسد على فريسته.

٨٦٢

سرور الدنيا وغمومها

قال سلمة بن دينار رحمه الله: «ما في الدنيا شيءٌ يَسُرُّك إلا وقد ألصق الله إليه شيئًا يَسوءُك»(١).

المعنى الإجمالي

جعل الله ما على الدنيا زينة لها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ [الكهف:٧]، وطبعُ الدنيا المتاعب والنكد والشقاء، فإذا رأى العبد منها ذلك، فما كان إلا من أجل أن لا يتعلق بها، وأنْ يعلم أنَّ هناك دارًا لأهل الجنة ليس فيها إلا القول الحسن والطيب كما قال تعالى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [الحج:٢٤]، والنعيم المقيم كما قال تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة:٢١].

والحياة الباقية التي ليس بها موتٌ ولا كِبَرٌ ولا هرمٌ ولا مرضٌ. عن أبي هريرة، قال: قلنا: يا رسول الله، أخبرنا عن الجنة، ما بناؤها؟ قال: «لَبِنَةٌ من ذهب، ولبنة من فضة، ملاطها المسك الأذفر، حصباؤها الياقوت واللؤلؤ، وتربتها الورس والزعفران، من يدخلها يخلد لا يموت، وينعم لا يبأس، لا يبلى شبابهم،

(١) الزهد لابن أبي الدنيا (ص:١٧٥)؛ المجالسة وجواهر العلم للدينوري (٤/ ٢٤٦)؛ حلية الأولياء لأبي نعيم (٣/ ٢٣٩).

ولا تخرق ثيابهم»(١).

أما الدنيا فسرورها موقوت، ونعيمها زائل، ولذاتها عارضة، والوصول إلىٰ سرورها لن يتم إلىٰ علىٰ مَرْكبٍ من التعب والنصب. وكل نعمة فيها يفجؤها ضدها؛ فالعافية يسلبها المرض، والغنىٰ يهدده الفقر، والحب والوصال يثلمه البغض والفراق، فما من سرور فيها إلا ويداخله أو يعقبه هم أو حزن.

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٥/ ٤٦٤) برقم: (٩٧٤٤)؛ والدارمي في سننه (٣/ ١٨٦١) برقم: (٢٨٦٣)؛ وابن حبان في صحيحه (٦/ ٢٤٦) برقم: (٥١٧٩).

٨٦٣

الشغل عن الآخرة

قال سلمة بن دينار رَحِمَهُ اللَّهُ: «يسير الدنيا يشغل عن كثير الآخرة»[(١)].

المعنى الإجمالي

كان النبي ﷺ يعلم حقيقة الدنيا وشغلها للعبد عن الآخرة، ولو كان قليلًا يسيرًا، فبيَّن ما يكفي العبدَ منها، وقد عاد ناس من أصحاب النبي ﷺ خبَّابًا، فقالوا: أبشر يا عبد الله، تَرِد علىٰ محمد ﷺ الحوضَ، فقال: كيف بهذا؟ -وأشار إلىٰ أسفل البيت وأعلاه- وقد قال لنا رسول الله ﷺ: «إنما يكفي أحدَكم من الدنيا مثلُ زادِ الراكب»[(٢)].

والعبرة ليست بالقلة أو بالكثرة، بل مما تورثه الدنيا في نفوس العباد من الشغف بها، وطلب المزيد منها، والغفلة عن ذكر الله تعالىٰ وطاعته، وضعف الهمة من السباق إلىٰ الله والتنافس في كل أبواب الخير ومجالاتها.

ولقائلٍ أن يقول: كيف يقال بأن يسير الدنيا يشغل عن الآخرة، وقد كان من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم من كانوا ذا غنىٰ ويسر؟ فيقال: إن الجمع بين ما كان عليه

(١) المصنف لابن أبي شيبة (٧/ ١٩٤)؛ والمعرفة والتاريخ للفسوي (١/ ٦٧٨)؛ والزهد لابن أبي الدنيا (ص: ١٤٠).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (١/ ٣١٧) برقم: (٤٧٥).

بعض الصحابة من غنىٰ -حتىٰ زاحم بعضهم الفقراء في العمل بوصية رسول الله في الإكثار من الأذكار- وبين الدعوة إلىٰ التقلل من الدنيا، بأن يكون تعلق المؤمن بالله والدار الآخرة، فإن أعطاه الله من نعمه فليحمد الله ويثني عليه، وألا يقصر في فعل الخيرات والإنفاق في وجوه الخير المختلفة، كما فعل الصحابة الكرام ﷺ، ومن تبعهم بإحسان.

٨٦٤

العذاب في الدنيا

قال شُمَيط بن عَجلان رحمه الله: «رجلان معذبان في الدنيا: رجل أعطي الدنيا فهو متعوب فيها ومشغول بها، وفقير زُوِيَت عنه الدنيا فنَفْسه تتقطَّع عليها حسرات»(١).

بيان المفردات

زُويت: أي صُرِفت، تقول: زَوَيْتُ الشيءَ عن فلان؛ أي: نَحَّيْته عنه(٢).

المعنى الإجمالي

العذاب نوعان: حسيٌّ ومعنويٌّ، والعذاب المعنوي أشدُّ إيلامًا من العذاب الحسي؛ إذ يمكن للعبد احتمال مرارة الحسي بالصبر والتجلد، وتذكر القيم والمبادئ التي يحملها، فتحمله على الصبر. بينما العذاب المعنوي الذي تُكوىٰ به الضمائر والأفكار يبقىٰ مع العبد حيث كان، ما لم يكن لديه إيمانٌ بالله، وذكر له يزيل عنه هذا العناء.

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٣/ ١٣٠).
(٢) غريب الحديث لأبي عبيد (١/ ٦٤).

والمعذبون في الدنيا أحد رجلين، فالأول: بذل جهده، وكدَّ وكدح حتىٰ جمع من الأموال شيئًا كثيرًا، فهو ينظر إلىٰ تعبه وجهده، وهو مشغولٌ بما جناه يجمع المزيد والمزيد، وهو خائف عليه من الفناء والضياع، فيحمل همين في آن واحد هم الجمع وهم خوف الذهاب لما جمع.

والثاني: رجلٌ لم يُعطَ من الدنيا إلا شيئًا قليلًا مما قدَّره الله له، فهو يُقلِّب بصره بين أعطيات الله للآخرين، وبين ما عنده، فتخرج من صدره زفرات وآهات، تكاد أن تشق صدره، وتذهب بفكره وعقله. وما ذلك إلا لتوغل الدنيا في قلب الرجلين، ولذا فقد كانت إحدىٰ وصايا الرسول ﷺ الرضا بما قسم الله؛ كي يكون العبد أغنىٰ الناس[(١)].

(١) ونص الحديث: «وارض بما قسم الله لك تكن أغنىٰ الناس». أخرجه أحمد في مسنده (١٣/ ٤٥٩) برقم: (٨٠٩٥).

٨٦٥

طلب ما يُطغي

قال شُمَيط بن عَجلان رَحِمَهُ اللهُ: «كل يوم ينقص من أجلك وأنت لا تحزن، وكل يوم تستوفي من رزقك، قد أعطيت ما يكفيك وأنت تطلب ما يطغيك»(١).

المعنى الإجمالي

قدَّر الله للعباد أعمالهم وأرزاقهم ومصائرهم، ويسر لهم سبل التعلم والنجاة من عذابه، وضمن الله لهم ما يقيمون به حياتهم من مأكل ومشرب ورزق، لكنه ﷻ لم يكتب لأحد عهدًا بدخوله الجنة.

وأوضح النبي ﷺ أن كل نفس لن تموت حتىٰ تستوفي أجلها ورزقها، قال ﷺ: «أيها الناس، إنه ليس من شيء يقربكم من الجنة ويبعدكم من النار إلا قد أمرتكم به، وليس شيء يقربكم من النار ويبعدكم من الجنة إلا قد نهيتكم عنه، وإن الروح الأمين نفث في روعي أنه ليس من نفس تموت حتىٰ تستوفي رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملكم استبطاء الرزق علىٰ أن تطلبوه بمعاصي الله، فإنه لا ينال ما عنده إلا بطاعته»(٢).

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٣/ ١٢٩).
(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٧٩) برقم: (٣٤٣٣٢).

وإن من المفارقات الغريبة والمريرة أن يكون العباد طالبين لما ضمنه الله، ويسعون لكسب المزيد والمزيد منه، لكنهم يرون أعمارهم تنقصها مرور الأيام، وتصرم الشهور والسنين، فلا يحزنون على هذا الانقضاء، ولا على التفريط في جنب الله تعالى، بل يصيبهم الكمد والحزن، والحسرة والألم، والهم المتتابع، إن لم يجدوا -حسب تقديرهم- ما يكفيهم، فهم يريدون غنًى مطغيًا، كما قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ [العلق: ٦-٧]، لكنهم لا ينظرون إلى المرض المفسد، والهرم المفند، والفتن العظيمة، والساعة الآتية. فإلى الله المشتكى من داء الغفلة.

٨٦٦

حلاوة الإيمان بالزهد

قال عمران القصير[(١)] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ألَا صابرٌ كريمٌ لأيامٍ قلائل، حرامٌ على قلوبكم أن تجِدُوا طعمَ الإيمان حتى تزهدوا في الدنيا»[(٢)].

المعنى الإجمالي

الدنيا أيام قلائل ثم تنقضي، والحاذق الكيس الفطن من علم أنها لا تدوم، فكان صابرًا علىٰ شدائدها محتسبًا عند الله ذلك، شاكرًا لله علىٰ ما حباه من نعمائه فيها، زاهدًا قانعًا غير طامع ولا جزع ولا هلوع علىٰ ما فيها من الزينة والمتاع.

ولن يجد العبد حلاوة الإيمان وطعمه إلا حين يزهد في الدنيا، وهذا ما كان عليه رسول الله ﷺ الذي قال عنه عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مخاطبا من كانوا عنده فقال: «لقد أصبحتم، وأمسيتم، ترغبون فيما كان رسول الله ﷺ يزهد فيه: أصبحتم ترغبون في الدنيا، وكان رسول الله ﷺ يزهد فيها، والله ما أتت علىٰ رسول الله ﷺ ليلة من دهره إلا كان الذي عليه أكثر مما له»[(٣)].

(١) عمران بن مسلم، القصير، أبو بكر، المنقري، الضبي، البصري، ثقة، الرباني، العابد، الصوفي، من صغار التابعين، يروي عنه يحيىٰ بن سعيد القطان، توفي سنة ١٥٠هـ. ينظر: حلية الأولياء لأبي نعيم (٦/ ١٧٧)؛ سير أعلام النبلاء للذهبي (٦/ ٢٢٥)؛ تاريخ الإسلام للذهبي (٣/ ٩٣٧).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٦/ ١٧٧).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩/ ٣٥١-٣٥٢) برقم: (١٧٨١٧).

٨٦٧

القناعة بالقليل وكفُّ اللسان

قال أبو عمرو الأوزاعي رحمه الله: «مَن أكثَرَ ذِكرَ الموتِ كفاه اليسيرُ، ومَن عَلِمَ أن منطقَه مِن عَمَلِه قلَّ كلامُه»[(١)].

المعنى الإجمالي

إن المنهمك في الدنيا المنكب في غرورها، يغفل قلبه -لا محالة- عن ذكر الموت فلا يذكره، وإن ذكره كرهه ونفر منه[(٢)]، بل ويكره إن ذكَّره المذكرون ووعظه الواعظون، فإن سئل عن سبب ذلك، لقال: إني أريد أن أعيش حياتي بعيدا عن كل ما ينغص عيشها، ويكدر سلامته.

ولا يعلم العبد الغافل عن ذكر الموت أن في الإكثار من ذكر الموت عصمة من الأشر، وأمانًا، بإذن الله، من الهلع[(٣)]. فإن من أكثر من ذكر الموت كفاه القليل، وقنَّعه الله باليسير؛ لأنه ينظر إلىٰ النعيم المقيم، والجزاء الأوفىٰ عند الله تعالىٰ في الدار الآخرة.

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٦/ ١٤٣). وهذا الشرح يتعلق بالقسم الأول من الحكمة، وأما شرح القسم الثاني فسيأتي في باب حفظ اللسان، الحكمة رقم: (٩٧٦).

(٢) مختصر منهاج القاصدين للمقدسي (ص: ٣٨٢).

(٣) الأدب الصغير والأدب الكبير لعبد الله بن المقفع (ص: ٢٠).

وحب الدنيا والتطلع والتمني للمزيد منها طبيعة الإنسان، وقد قال عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما على المنبر في خطبته بمكة: يا أيها الناس، إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول: «لو أن ابن آدم أعطي واديًا ملئا مِن ذهبٍ أحبَّ إليه ثانيًا، ولو أُعطِي ثانيًا أحب إليه ثالثًا، ولا يسدُّ جوفَ ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب»[1].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٩٣) برقم: (٦٤٣٨).

٨٦٨

قــدر الدنيا على قــدر صاحبها

قال سفيان الثوري رحمه الله: «إذا أردت أن تعرف قدر الدنيا فانظر عند مَن هي»(١).

المعنى الإجمـالي

يفهم البعض من الناس أنَّ عطاء الله ورزقه بتوسيعه وبسطه الرزق لأناس، لمكانة من بسط لهم الرزق، وهوان من لم يبسطه الله لهم، وما علم أن الدنيا تعطى لمن يريد ومن لا يريد، وأن الدين والخير لا يكون إلا لمن يحبه الله تعالى.

وقد أوضح الله تعالى الفهم الصحيح للعطاء والمنع، فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ [الفجر: ١٥-١٧]، يعني: أن الأمر ليس كما يتصور الإنسان، وهذا المعيار غير صحيح.

وقال تعالى عن المترفين في الدنيا المتباهين بأموالهم وأولادهم، الكافرين بما أُرسل به المرسلون: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٧/ ٢٠).

ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ [سبأ: ٣٤-٣٧].

ومن أراد معرفة قدر الدنيا فليعلم قدر آخذيها وقربهم من الله، فإن كانوا صالحين قد جمعوا بين صلاح الدنيا والدين معا فنِعْمَ ما هم فيه، وإن كانوا قد أصلحوا دنياهم، وليس لهم من الدين نصيب، فليس لهم قدرٌ ولا مكانةٌ عند الله تعالىٰ، فليحمد الله علىٰ عطائه ومنعه، وليعلم أنه لا عطاء في الدينا يعدل الإسلام والثبات عليه.

٨٦٩

السلامة في التقلّل من الدنيا

قال سفيان الثوري رحمه الله: «إنما مثل الدنيا مثل رغيف عليه عسل مر به ذباب فقطع جناحيه، وإذا مر برغيف يابس مر به سليمًا»(١).

المعنى الإجمالي

من الأمثال التي تضرب لتوضيح حقيقة الدنيا أنها كرغيفين، غُطِّيَ أحدهما بالعسل، والآخر يابس لا شيء فيه، فإذا مرَّ الذباب بالرغيف الأول المغطىٰ بالعسل، انغمس فيه، ولصق ما بالرغيف من عسل علىٰ الذباب، وينكسر أحد جناحيه، وقد ضرب الله الذباب مثلًا للآلهة التي يعبدها المشركون من دون الله؛ وذلك لعجزهم في خلقه، أو استرداد ما أخذه منهم، قال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج:٧٣].

ولكن الذباب إن مرَّ بالرغيف اليابس لم يصبه شيءٌ. وهكذا هي الدنيا من لم يلتصق بها وينغمس فيها فإنه يسلم من آذاها، ويخرج منها خفيف الحمل،

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٧/ ٥٥).

ومن التصق بها واثَّاقل إلىٰ جواذبها فإنه يصاب بداء الغفلة والغرور، ولا يستفيق إلا حين خروج روحه من جسده.

٨٧٠

الخروج من الدنيا قبل الإخراج منها

قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: «إن الحر الكريم يَخرُجُ من الدنيا قبل أن يُخرَجَ منها»(١).

المعنى الإجمالي

الحرية الحقة للعبد المؤمن أن يسعىٰ إلىٰ الله جهده، ويترك ما يشغله عنه، وهذا هو العبد الحر الكريم الذي نجا من استعباد الدنيا له، وكل ما يشغله عن الله، وأكبر شيء يشغل العباد عن الله تعالىٰ في سعيهم وسيرهم إليه تعلقهم بالدنيا ومتاعها، فتجذبهم إليها، فيصابون بالثقل الذي ذكره الله تعالىٰ في قوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [التوبة:٣٨]، ولا بد للعبد الحر الكريم من الخروج من هذه الدنيا بأجل قد كتبه الله عليه.

فإذا كان الأمر لا مفر منه فعلىٰ العبد أن يخرج من الدنيا قبل أن يخرج منها؛ فلا يبقي لها في قلبه مكانًا، وليأخذ منها زاد الراكب الذي يبلغه إلىٰ الله تعالىٰ، ويتخفف من حملها وأثقالها، وأن يرىٰ أن الموت قد أحاط به فيستعد للقاء الله ويتشوق له، قبل أن يخرج منها عند استيفاء أجله ورزقه.

---

(١) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (٢/ ٣٧٣).

٨٧١

الزهد والرغبة في الآخرة

قال الفضيل بن عياض رحمه الله: «إن رهبة العبد من الله عز وجل على قدر علمه بالله، وإن زهادته في الدنيا على قدر رغبته في الآخرة»(١).

المعنى الإجمالي

يكون زهد العبد في الدنيا بقدر رغبته في الآخرة، ومعرفته كل ما جاء عنها في كتاب الله تعالىٰ، وسنة رسول الله ﷺ، ولا تأتي الزهادة وقلة الرغبة في الدنيا إلا عند الرغبة في الدار الآخرة، وما أعده الله لعباده المؤمنين، وقد جعل الله الدار الآخرة لمن لا يريدون العلو والفساد في الأرض، كما قال تعالىٰ: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص:٨٣]، فإذا علم العبد أن الآخرة أولىٰ بالإيثار من الدنيا؛ فالدنيا عاجلة فانية، والآخرة دار القرار، يقول الله تعالىٰ: ﴿ قُلْ مَتَاعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ [النساء:٧٧]، ويقول تعالىٰ: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [الأعلىٰ: ١٦-١٧]، فإذا رسخت هذه المعرفة يقينًا في قلوبنا تغيرت إلىٰ الرغبة في الآخرة والزهد في الدنيا(٢).

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٨/ ٨٩). وهذا الشرح يتعلق بالقسم الثاني من الحكمة، وأما شرح القسم الأول فقد مر في باب الخوف والخشية، الحكمة رقم: (٥٤٤).

(٢) إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ٤٢٦- ٤٢٧).

٨٧٢

الزهد مفتاح الخير

قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللهُ: «جُعِل الشرُّ كلُّه في بيت، وجعل مفتاحه: الرغبة في الدنيا، وجعل الخير كله في بيت، وجعل مفتاحه: الزهد في الدنيا»[(١)].

المعنى الإجمالي

الشرور المتقدة في العالم في القديم والحديث سببها الرئيس التهافت على حطام الدنيا، والتنافس لأخذ نصيبها الأكبر، حتى ظهرت من المفاسد والشرور ما الله به عليم، من قطع للأرحام وفجور في الخصومات وبذل للأموال للوصول إلى الغايات السيئة، فالغاية عند الراغبين والمتنافسين من أهل الدنيا تبرر الوسيلة.

ومفتاح الخير كله هو الزهد في الدنيا؛ بالاهتداء بهدي الإسلام في نظرته للدنيا، والاكتفاء بما قسمه الله تعالى من الخير والرزق، والانتهاء عن التشبع من شهواتها ومحبوباتها التي تصرف العبد عن غايته في الحياة، من عبادة الله تعالى، والتزود للدار الآخرة.

لقد كان النبي ﷺ يزهد الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ في الدنيا، ويذكر لهم أنه لا يخشى

---

(١) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٢٦).

عليهم الفقر، ولكنه يخشىٰ عليهم التنافس في الدنيا، حين يرون زهرتها قد أينعت، وتزاحم الناس عليها، فلما بعث أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه إلىٰ البحرين، يأتي بجزيتها، وكان النبي ﷺ، هو صالح أهل البحرين، وأمَّر عليهم العلاء بن الحضرمي، فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين، فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة، فوافوا صلاة الفجر، مع رسول الله ﷺ، فلما صلىٰ رسول الله ﷺ انصرف، فتعرضوا له، فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم، ثم قال: «أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء من البحرين؟»، قالوا: أجل، يا رسول الله قال: «أبشروا، وأمِّلُوا ما يَسُرّكم، فوالله ما الفقر أخشىٰ عليكم، ولكني أخشىٰ عليكم أن تُبْسَط الدنيا عليكم كما بُسِطت علىٰ من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، فتُهْلِكَكم كما أهلكتهم»[1].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ٩٦) برقم: (٣١٥٨)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٢١٢) برقم: (٢٩٦١).

٨٧٣

حزن الدنيا وفرحها

قال الفضيل بن عياض رحمه الله: «حزنُ الدنيا يَذهب بِهَمِّ الآخرة، وفرحُ الدنيا للدنيا يذهب بحلاوة العبادة»[١].

المعنى الإجمالي

الحزن للدنيا وعليها، وحملها على الرأس طيلة الحياة لا يبقي للآخرة حبًا ولا همًا؛ إذا يتناقص هذا الهمُّ والحبُّ مع الأيام، فبقدر ما يكون البُعد عن الآخرة، والحزن على الدنيا، يكون القرب من الدنيا والبعد عن الآخرة.

ولقد كان من دعاء النبي ﷺ أن لا تكون الدنيا أكبرَ همِّه، فكان ﷺ يدعو بهذا الدعاء: «اللهم اغفر لي ما قدمت، وما أخَّرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني، اللهم ارزقني من طاعتك ما يحول بيني وبين معصيتك، وارزقني من خشيتك ما تبلغني به رحمتك، وارزقني من اليقين ما تهوِّن به علي مصائب الدنيا، وبارك في سمعي وبصري، واجعلهما الوارث مني، واجعل ثأري على من ظلمني، وانصرني على من عاداني، ولا تجعل مصيبتي في ديني، ولا تجعل الدنيا أكبر همي، ولا مبلغ علمي»[٢].

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٨/ ١٠٠).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير (٢/ ١٠٩) برقم: (٨٦٦).

والفرح في الدنيا لما أعطى الله عبده مطلوبٌ، لكن إن كان هذا الفرح لا يعطي أهمية للآخرة، ويزداد الفرح للدنيا، ولا يكون هناك فرحٌ لما يوفق الله العبد له، ويرشده من عمل الآخرة، فإن هذا الفرح يُذهبُ لذة العبادة وحلاوتها. ولذا كان من نصح قوم قارون له بأن لا يكون من الفرحين، الذين أصابتهم نشوة الفرح، فأنستهم غايتهم وسر وجودهم في الحياة، ونسوا حق الله في الموهوب من هذه الدنيا، والعمل للآخرة.

٨٧٤

سلامة القلب بترك المبالاة

قال الفضيل بن عياض رحمه الله: «لا يسلم لك قلبك حتى لا تبالي مِن كلِّ الدنيا»(١).

المعنى الإجمالي

يتدبر العباد أمرهم لسلامة أجسامهم، وإبعاد ما يضرها وينغصها ويمرضها؛ فيؤخرها عن بلوغ الأماني التي تريدها، لكنهم يغفلون عن سلامة قلوبهم وصحتها، وإزالة سقمها الذي يقعدها عن سماع الحق وقبوله، والتلقي لشرع الله تعالىٰ تلقي القبول والعمل والتسليم.

إن مما يُضعِف القلب ويمرضه ويهلكه تهالكه علىٰ الدنيا، واستغراقه في حبها والتمسك بها، فالمستغرق الهم بتدبير الدنيا لا يتيسر له القيام وإن قام فلا يتفكر في صلاته إلا في مهماته، ولا يجول إلا في وساوسه(٢).

وتعني سلامة القلب ألا يبقىٰ جزء من أجزائه، ولا شعبة من شُعَبِه ولها تعلقٌ بغير الله، فمن تعلق قلبه، أو جزءٌ منه بشيءٍ من الدنيا غير محبة الله ورسوله إلا

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٨/ ٩١)؛ وفي سير أعلام النبلاء للذهبي (٨/ ٤٣٣): «لا يسلم لك قلبك حتىٰ لا تبالي مَن أَكَلَ الدنيا».

(٢) إحياء علوم الدين للغزالي (١/ ٣٥٧).

أصابه الهمُّ والغمُّ والحزنُ.

ومما يحزن القلب ويمرضه ويبعده عن السلامة والعافية تكاثر مصائب الدنيا، فإن لم يكن للعبد يقين بالله تعالىٰ، وبالقدر خيره وشره، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، فإنه يقع في الهمِّ والنصب والغم والحزن.

إن سلامة القلب تعني كذلك ألا يبالي العبد بها إن أقبلت أو أدبرت، إن أفرحت أو أحزنت، فالعبد المؤمن لا ينصرف إليها بقلبه، بل يأخذ منها ما كتبه الله له منها بيده، ويجعل قلبه فارغا من حبها؛ فلا يحزن لفواتها، ولا يفرح ويبطر بانفتاح زهرتها، وكثرة ما فيها؛ ولذا ذكر الله تعالىٰ ذلك بعد ذكره لحقيقة الدنيا، وأمره بالمسابقة إلىٰ مغفرته وجنته ورضوانه، والصبر علىٰ مصائب الدنيا، فقال ﷻ: ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [الحديد:٢٣].

٨٧٥

ما ليس من حب الدنيا

قال سفيان بن عيينة رحمه الله: «ليس من حب الدنيا طلبك منها ما لا بد منه»[(١)].

المعنى الإجمالي

ليس ما يطلبه العبد من دنياه ليسد به خلته، ويؤمن به حاجته، ويرتفع عن إيذاء الناس وإذلالهم، من حب الدنيا، فقد جاء في كتاب الله الحث على المشي في مناكب الأرض لنيل رزق الله، فقال تعالى: ﴿فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك:١٥]، ونهى الله تعالى عن نسيان النصيب من الدنيا فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص:٧٧].

فمن ذلك: المال الذي يكفي العبد ويبعده عن حاجة الناس وذل مسألتهم، ليشتري له به طعامًا وشرابًا ودواءً، ويكون له مسكنٌ يأويه، ويتخذ له زوجةً تعفه عن الحرام، وغير ذلك مما أباحه الله لعباده. إنَّ من يحرم نفسه من المال، وينظر إلى ما في أيدي الناس أعطوه أو منعوه نافقهم، واشترى دنياهم بآخرته، والله لا يرضى لعباده المذلة والمهانة وانكسار النفس إلا له وحده.

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٧/ ٢٧٣).

لقد كان العلماء وطلاب العلم في زمن الصحابة والتابعين والصالحين يُعطَون من بيت المال، فيتفرغون للعلم طلبًا وتعليمًا، ويعطيهم الموسرون من الصالحين.

فهل ينتظر العبد المؤمن الذي يرضىٰ لنفسه العزة، ويبعدها عن المذلة والهوان أعطيات غيره؟ ولا يعمل شيئًا بحجة أن أخذ المال والمتاجرة فيه من حب الدنيا؟ هذا فهم سقيم لتعاليم الشريعة الإسلامية(١).

(١) وقد ذكر ابن الجوزي هذا الأمر في غير ما موضع من كتابه صيد الخاطر، وذلك لأهميته وخطورته.

٨٧٦

القناعة والراحة

قال الشافعي رحمه الله: «التواضع يورث المحبة، والقناعة تورث الراحة»[1].

المعنى الإجمالي

القناعة بعطاء الله بابٌ من أبواب الرضا بقسمة الله وتدبيره وتقديره؛ فالعبد القنوع لا ينظر إلىٰ من هم فوقه في الدنيا؛ ليقينه أن الدنيا ليست ميزان التفاضل في صلاح العباد وقربهم من الله تعالىٰ، بل ميزانهم الإيمان والتقوىٰ، وتُورِثُ القناعة الاطمئنان والراحة في القلب، فكم من شقي أتعب نفسه، وكدَّ ذهنه، وأربك مشاعره في نظره إلىٰ ما عند الآخرين، وما حصل له من ذلك شيء، ولو أن كل إنسان قنع بما آتاه الله لما وُجَد الاحتيال ولا المكر ولا الغش ولا الخديعة.

(١) تهذيب الأسماء واللغات للنووي (١/ ٥٦)؛ ونقل ابن قتيبة هذا المعنىٰ عن بزرجمهر بلفظ: «ثمرة القناعة الراحة، وثمرة التواضع المحبة». ينظر: عيون الأخبار لابن قتيبة (١/ ٣٧٧)؛ ونسبه ابن حبان في روضة العقلاء (ص: ٦١) إلىٰ أبي حاتم. وهذا الشرح يتعلق بالقسم الثاني من الحكمة، وأما شرح القسم الأول فقد مر في باب التواضع، رقم الحكمة: (٧١٨).

٨٧٧

الزهد في الدينا والرغبة في الآخرة

قال الشافعي رحمه الله: «كن في الدنيا زاهدًا، وفي الآخرة راغبًا، واصْدُق الله تعالى في جميع أمورك تَنْجُ بها مع الناجين غدًا»[(١)].

المعنى الإجمالي

روىٰ عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الزهد في الدنيا يريح القلب والبدن، والرغبة في الدنيا تكثر الهم والحزن، والبطالة تقسي القلب»[(٢)].

وقال أبو واقد الليثي رحمه الله: «تابعنا الأعمال في الدنيا، فلم نجد شيئًا أبلغ في عمل الآخرة من الزهد في الدنيا»[(٣)]. وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلىٰ أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه: «إنك لن تنال عمل الآخرة بشيء أفضل من الزهد في الدنيا»[(٤)].

---

(١) مناقب الشافعي للبيهقي (٢/ ١٧٦). وهذا شرح القسم الثاني من الحكمة، وأما ما شرح ما يتعلق بالقسم الأول فقد مر في باب الصدق وصفاء السريرة، الحكمة رقم: (١٢٩).

(٢) أخرجه الشهاب القضاعي في مسنده (١/ ١٨٨) برقم: (٢٧٨)؛ وأحمد في كتاب الزهد (ص: ١٢) برقم: (٥١).

(٣) الزهد لوكيع (ص: ٢١٩).

(٤) الزهد لوكيع (ص: ٢٢٠)؛ والزهد لأحمد بن حنبل (ص: ١٠١).

وقال بعض الحكماء: «الزهد في الدنيا أربعة: الأولىٰ: الثقة بالله تعالىٰ فيما وعد من أمر الدنيا بأمر الآخرة. والثانية: أن يكون مدح الخلق وذمهم عنده واحدًا. والثالثة: الإخلاص في عمله. والرابعة: أن يتجاوز عمن ظلمه، ولا يغضب علىٰ ما ملكت يمينه، ويكون حليمًا صبورًا»[1].

فيدل الحديث وهذه الآثار أن الزهد في الدنيا دليل علىٰ الرغبة في الآخرة؛ فمن زهد في الدنيا وأقل منها، وترك ما يشغله ويلهيه إلا كان مسارعا للعمل للآخرة، ومسابقا في طاعة الله لنيل رضوانه ورضاه، والفوز بجنته ودار كرامته.

(١) تنبيه الغافلين للسمرقندي (ص: ٢٠٩).

٨٧٨

الزهادُ أعقلُ الناس

قال الشافعي رحمه الله: «لو أوصى رجل بشيءٍ لأعقل الناس صُرف إلى الزُّهاد»[١].

المعنى الإجمالي

يُعرف العقلاء بأقوالهم وأفعالهم الحكيمة التي تدل على أن الله قد أعطاهم خيرا كثيرا، وقد اجتمعت الحكمة بخيرها لأولي الألباب، كما قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة:٢٦٩].

وهؤلاء الحكماء العقلاء تؤخذ وصاياهم ليُعمل بها؛ ففيها فائدة للمنصوح بما ينفعه في دينه ودنياه، بل تتناقل الأجيال وصاياهم وحكمهم زمنا بعد زمن.

وعند الوصية يستجمع الحكماء العقلاء هممهم وفكرهم وحرصهم وحبهم لمن يوصونهم. فلو سُئل أحد منهم حين وصيته، مَنْ أعقلُ الناس؟ لقال: الزهاد. وسبب منحهم هذا الوصف الرفيع للزهاد، أنهم عرفوا الله حق المعرفة، فخافوه، وقدَّروه حق قدره، وعلموا حقيقة الابتلاء في الدنيا، فجعلوها دارًا للعمل الصالح،

(١) تهذيب الأسماء واللغات للنووي (١/ ٥٥).

والتزود لسفرهم إلىٰ الله تعالىٰ، وأدركوا مغبة الغفلة وخطورتها في إشغال العبد عن الله، والدار الآخرة، فلم يكن همهم سوىٰ الاستعداد لدار القرار.

٨٧٩

بالزهد تقر الأعين

قال الشافعي رحمه الله: «من صدق الله نجا، ومن أشفق على دينه سلم من الرَّدى، ومن زَهِد في الدنيا قَرَّت عيناه بما يرى من ثواب الله تعالى غدًا»(١).

المعنى الإجمالي

الزاهد في الدنيا يعوضه الله بخير كثير، مما لم تره عين، ولم تسمع به أذنٌ، ولم يخطر على قلب بشر، ولقد كان النبي ﷺ قد عرض الله عليه مفاتيح خزائن الدنيا، وكنوز الأرض؛ ففي الحديث عن النبي ﷺ قال: «عَرَض عليّ ربي ليجعل لي بطحاء مكةَ ذهبًا، قلت: لا يا رب، ولكن أشبع يومًا وأجوع يومًا -أو قال: ثلاثًا أو نحو هذا- فإذا جُعْتُ تضرَّعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت شكرتك وحمدتك»(٢).

وكذلك كان صحابته الكرام، فهذا مصعب بن عمير رضي الله عنه الفتى المنعَّم المدلَّل المعطر، ترك كل شيء صدقًا مع الله، ورغبة عن الدنيا، فلما استشهد ما وجدوا

(١) مناقب الشافعي للبيهقي (٢/ ١٧٦). وهذا الشرح يتعلق بالزهد، وأما شرح ما يخص الصدق فقد مر في باب الصدق وصفاء السريرة، الحكمة رقم: (١٣٠).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦/ ٥٢٨) برقم: (٢٢١٩٠)؛ والترمذي في جامعه (٤/ ١٦٨) برقم: (٢٣٤٧)، وقال: حديث حسن؛ والبيهقي في شعب الإيمان (١٣/ ٤٣) برقم: (٩٩٢٥).

ما يغطي جسمه؛ عن خباب بن الأرت ﷺ قال: «هاجرنا مع النبي ﷺ نريد وجه الله، فوقع أجرنا على الله، فمِنّا من مضى لم يأخذ من أجره؛ منهم مصعب بن عمير، قتل يوم أحد وترك نَمِرة، فإذا غطَّينا رأسه بَدَت رجلاه، وإذا غطينا رجليه بدا رأسُه، فأمرنا النبي ﷺ أن نغطي رأسه ونجعل على رجليه من الإذخر، ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهدِبُها»(١).

إن من ترك شيئًا من الدنيا عوضه الله خيرًا منه، وماذا يريد العبد أن يكون عوضه جزاء الله له في جنته ودار كرامته؟ ومما قاله علي بن أبي طالب ﷺ عن الزاهدين وسبب زهدهم: «ألا وإن الزاهدين في الدنيا اتخذوا الأرض بساطًا والتراب فراشًا والماء طِيبًا؛ ألا من اشتاق إلى الجنة شاردٌ عن الشهوات، ومن أشفق من النار رجع عن الحرمات، ومن زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات؛ ألا إن لله عبادا كمن رأى أهل الجنة في الجنة مخلدين، وأهل النار في النار معذبين، شرورهم مأمونة، وقلوبهم محزونة، وأنفسهم عفيفة، وحوائجهم خفيفة، صبروا أياما لعقبى راحة طويلة»(٢).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٩٥) برقم: (٦٤٤٨).

(٢) المجالسة وجواهر العلم لأبي بكر الدينوري (٢/ ١٤٤)؛ وعيون الأخبار لابن قتيبة (٢/ ٣٨١)؛ وجامع الأحاديث للسيوطي (٢٩/ ٣٥٩).

٨٨٠

القناعة رضا

قال الشافعي رحمه الله: «من غلبت عليه شدة الشهوة لحب الدنيا لزمته العُبُودِيّة لأهلها، ومن رضي بالقُنُوع زال عنه الخُضُوع»(١).

المعنى الإجمالي

من قنع بما رزقه الله ووهبه وأعطاه عاش عزيز النفس، مكرما لها غير مهين، لا تسقطه رغباته للتنازل عما يؤمن به من قيم ومثل إسلامية عليا، ولا يستجدي ما عند الناس؛ لأنه يعلم أنهم ما يعطونه شيئًا إلا ليأخذوا مقابلًا عنه، وقد يكون هذا المقابل أغلىٰ وأعز شيء لديه، وهو دينه الذي ارتضاه الله له.

ويكون الأمر أشد ضررًا علىٰ العلماء حين تتزين لهم الدنيا، يقول ابن الجوزي رحمه الله: «فليس علىٰ العالم أضر من الدخول علىٰ السلاطين، فإنه يحسن للعالم الدنيا، ويهون عليه المنكر، وربما أراد أن ينكر فلا يصح له! فإن عدم القناعة، وغلبته نفسه في طلب فضول الدنيا، سلِّمْ عليه؛ لأنه يتعرض بأربابها»(٢). ويقول في موضع آخر: «وإن أقوامًا لم يقنعوا، وطلبوا لذيذ العيش، فأزروا بدينهم، وذلوا لغيرهم، وخصوصًا أرباب العلم؛ فإنهم ترددوا إلىٰ الأمراء فاستعبدوهم،

(١) مناقب الشافعي للبيهقي (٢/ ١٧٠).

(٢) صيد الخاطر لابن الجوزي (ص: ٣٥٤).

ورأوا المنكرات، فلم يقدروا على إنكارها، وربما مدحوا الظالم اتقاء لشره؛ فالذي نالهم من الذل وقلة الدين أضعاف ما نالوا من الدنيا»[١].

إن القنوع لا يرضىٰ بالخضوع للبشر، بل يخضع لمن يستحق الخضوع وهو الله الواهب الرازق المعطي المبدئ المعيد.

(١) صيد الخاطر لابن الجوزي (ص: ٤٩٤).

٨٨١

معنى الزهد

قال أبو سليمان الداراني رحمه الله: «الزهد: ترك ما يشغل عن الله تعالى»(١).

المعنى الإجمالي

تختلف تعريفات الزهد عند العارفين بالله تعالىٰ، في التعميم والتخصيص لتلك التعريفات، فمن تعريفاته أن الزهد في الدنيا هو الزهد في النفس، ومعناه في شهواتها ومحبوبها كله إذا كان يشغل عن الله عز وجل وراحاتها(٢).

فيكون الزهد في الترك والتخلي عن كل ما يشغل العبد عن الله، وإن كان ذلك الأمر داخلًا في باب المباحات، ومن ذلك ترك التعلق بالدنيا وبملذاتها الصارفة عن طاعة الله وذكره، وذلك بترك الانشغال والالتهاء بالأموال والأولاد عن الله وطاعته.

وإن الإكثار من الترويح عن النفس دون ضوابط يؤدي إلىٰ ترك كثير من المأمورات، مثل ذكر الله تعالىٰ، أو التكاسل عن الطاعات كالصلوات، أو التخفف من القيود الشرعية بحجة أن الوقت للترويح والتسلية.

(١) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ٢٤١).
(٢) الزهد الكبير للبيهقي (ص: ١٧٤).

٨٨٢

مكـان الزهـد

قال أبو سليمان الداراني رحمه الله: «لا تشهد لأحدٍ بالزهد؛ فإن الزهد في القلب»[1].

المعنى الإجمـالي

الشهادة لأي عبد من العباد بالزهد تعد تزكية له؛ ولا يمكن لعبد أن يمتدح نفسه فيزكيها أمام الآخرين، كما قال الله تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [النساء:٤٩]، وقال تعالىٰ: ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ [النجم:٣٢]، فإذا كان العبد لا ينبغي له أن يزكي نفسه، فكيف له أن يشهد لغيره بأمر من أمور العبادة القلبية التي لا يعلمها إلا الله وحده؟

ولما كان الزهد عبادة قلبية؛ فإنه ليس مظهرا علىٰ الجوارح يتظاهر به الزاهد، إذ ليس الزهد بلبس المرقع من الثياب، أو ترك الطعام والشراب وما أحله الله من الطيبات، إنما الزهد زهد القلوب في توجهها إلىٰ علام الغيوب سبحانه وتعالى؛ وهو الزهد الحقيقي الذي ربىٰ النبي ﷺ صحابته الكرام عليه، فقد أقبلت عليهم الدنيا، فلم تتملكهم أو تخضعهم لسلطانها، ولم تغير حالهم، فكانوا يملكونها بأيديهم،

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي (٢/ ١٨٠).

ولم تغير حال قلوبهم مع الله تعالى؛ فكان منهم الأغنياء الموسرون الذين سخروا ما يملكون لمرضاة الله ورسوله ولنشر الإسلام والدفاع عنه بالجهاد في سبيله، فكانوا راغبين فيما عند الله، ولم يقل أحد منهم عن نفسه بأنه زاهد أو شهد لغيره بذلك.

٨٨٣

مكـان القناعـة قلب المـؤمن

قال بشر بن الحارث الحافي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «القناعة مَلِكٌ لا يسكن إلا في قلب مؤمن»(١).

المعنى الإجمـالي

لأهمية القناعة في الإسلام فقد قرن بينها رسول الله ﷺ وبين الإسلام، فقال: «قد أفلح من أسلم، ورُزق كفافًا، وقنَّعه الله بما آتاه»(٢).

إن المؤمن يرضىٰ بقسمة الله له في رزقه وعطائه، فيظهر رضاه علىٰ سلوكه بالقناعة والورع والزهد، فلا يطمع إلىٰ ما عند الآخرين، ولا يتمنىٰ شيئًا يزيد قلبه حسرة وندامةً، بل يجعل أمله في رضا الله عنه، وأن يزيده من فضله، فيعيش وكأن الدنيا قد جمعت له بكل ما فيها؛ فيعيش وكأنه مَلِكٌ من الملوك، بل أعظم شأنًا منهم؛ لأن القناعة ملك لا تسكن إلا في قلوب من يناسبونها، ولا يكون لها سوىٰ المؤمنين. قال رسول الله ﷺ: «من أصبح منكم معافىٰ في جسده، آمنا في سربه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا»(٣).

(١) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ٢٩٤).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢/ ٧٣٠) برقم: (١٠٥٤).

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ١٦٧) برقم: (٢٣٤٦)، وقال: حديث حسن غريب؛ وابن ماجه في سننه (٢/ ١٣٨٧) برقم: (٤١٤١)؛ وابن حبان في صحيحه (٢/ ٤٤٦) برقم: (٦٧١).

إن من رزقه الله القناعة حتىٰ استغنىٰ بها عن خلقه، وأمده بالقوة والتأييد حتىٰ استولىٰ بها علىٰ صفات نفسه فقد أعزه وآتاه الملك عاجلا، وسيعزه في الآخرة بالتقريب، ويناديه: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠][(١)].

(١) المقصد الأسنىٰ للغزالي (ص: ٨٩).

٨٨٤

ذلُّ طالب الدنيا

قال بشر بن الحارث الحافي رحمه الله: «قل لمن طلب الدنيا: تهيَّأْ للذُّلّ»[(١)].

المعنى الإجمالي

طلب الدنيا فيما لا بد منه لإعفاف العبد نفسَه من ذُلِّ المسألة وتكفُّفِ الناس، طلبًا إجماليًا بدون إيغال في الطلب، أمر مطلوب شرعًا.

وقد أوصىٰ النبي ﷺ بالإجمال في الطلب، فقال: «أجملوا في طلب الدنيا، فإنّ كلًّا ميسَّر لِما خُلق له»[(٢)].

أما من طلب الدنيا ونسي الآخرة فقد تهيأ للذل والهوان، ومردُّ ذلك أن العزة لا تكون إلا بطاعة الله بفعل أوامره وترك منهياته، فمن ظنَّ أن العزة بغير طاعة الله، وأنها حاصلة بما يكون لديه من الدنيا فقد تعلق بهوان وذلة؛ لأنه مهما طلب من دنياه مع نسيانه لآخرته فلن يكون له حظٌّ منها إلا ما كتبه الله له، ثم لو تذكر العبد أن الدنيا ما من نعيم فيها إلا وهو مشوبٌ بكدر وتعب، وأن طالب الدنيا لا ينال منها حظًا إلا بفوت نصيب من الآخرة[(٣)] لقلَّل من تعبه وكبده ومشقته.

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٨/ ٣٥٢).

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (٣/ ٢٧٤) برقم: (٢١٤٢).

(٣) التبصرة لابن الجوزي (٢/ ١٠٢).

885

الغنى وطول الوقوف يوم القيامة

قال بشر بن الحارث الحافي رحمه الله: «من سأل الله تعالى الدنيا فإنما يسأله طول الوقوف»(١).

المعنى الإجمالي

لا يمنع الله عباده أن يسألوه ويدعوه لدنياهم وآخراهم، فهو الذي علَّمنا هذا الدعاء فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة:٢٠١]، ولكن العجب أن يبقىٰ أكثر دعاء الناس لدنياهم، ولا يجعلون لدينهم وآخرتهم إلا قليل القليل، وهذا يدل علىٰ تغلغل حب الدنيا في القلوب. ولو علم أولئك الداعون للدنيا التاركون الآخرة أنهم بكثرة إلحاحهم في الدعاء أن يكونوا مالكي الدنيا، إنما يطلبون طول الوقوف بين يدي الله للمحاسبة عما جمعوه في الدنيا، ولهذا يتأخر دخول الأغنياء عن الفقراء إلىٰ الجنة بخمسمائة عام، كما جاء في الحديث(٢).

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٨/ ٣٣٧).

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه برقم: (٢٣٥٣)؛ وابن ماجه في سننه برقم: (٤١٢٢)؛ وأحمد في مسنده برقم: (١٠٦٥٤).

٨٨٦

الدنيـا خمـر

قال يحيى بن معاذ ﵀: «الدنيا خمر الشيطان، من سَكِر منها لا يفيق إلا في معسكر الموتى نادمًا بين الخاسرين»(١).

المعنى الإجمـالي

إذا كانت الخمرُ أمَّ الكبائر -لما تُحدثه من لوث عقلي وفكري يجعل المدمن لها يقع في مصائب كبيرة لا يشعر بها إلا بعد زوال السُكْر عنه- فإنَّ الانغماس في ملذات الدنيا وشهواتها المحرمة، والعمل الدؤوب لها دون التفكير في الآخرة يماثل ثمالة المخمور من سُكْره. والصفة المشتركة بين السكران من خمرته والسكران من الدينا أنهما يسعيان وراء شهوة ولذة طارئتين، ويقعان في غفلة من أمرهما فيحدثان لذلك تصرفات مضرة بنفسيهما وبمن حولهما.

والسكران من خمرته لا يفيق إلا علىٰ خراب وفساد فعله في نفسه والآخرين من أقربائه وغيرهم، والسكران من حب الدنيا لا يصحو من سكرته وغفلته إلا وهو في معسكر الموتىٰ، قد أصبح واحدا منهم، وحينئذ لا يجد لنفسه مهربا ولا مهلة

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي (٢/ ٢٩٧).

يجد فيها فرصة للعمل الصالح، فيكون كما قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠].

٨٨٧

رفض الدنيـا وطلبهـا

قال يحيى بن معاذ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الدنيا طالبة ومطلوبة، فمن طلبها رفضته، ومن رفضها طلبته»(١).

المعنى الإجمـالي

ليس للعبد من دنياه إلا ما قدره الله له، مهما بذل من أسباب فإن الله تعالىٰ قد جعل لكل شيء قدرًا، وليس معنىٰ هذا التواكل وترك الأسباب، فإن تركها جهل عظيم، والاعتقاد بأنها وراء كل شيء دالٌّ علىٰ خلل كبير في إيمان العبد.

وكم من أناس ركضوا وراء الدنيا وجروا وراءها جريًا شديدًا، ولم يدركوا من الدنيا إلا ما كتبه الله لهم، ولربما عاشوا حياة النكد والضيق والقلق والضجر، وفي المقابل هناك فريق آخر مؤمن بالله تعالىٰ بذل جهده ووسعه، فأتتهم الدنيا راغمة، وعاشوا بخير وأمن وسلام.

ويدل علىٰ هذه المعاني قولُ رسول الله ﷺ: «من كانت الآخرةُ همَّه، جعل الله

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٥٣).

غناه في قلبه، وجمع له شَمْله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همَّه، جعل الله فقره بين عينيه، وفرَّق عليه شمْله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدِّر له»(١).

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٢٥٢) برقم: (٢٤٦٥). وفيه يزيد الرقاشي، قال المنذري: قد وُثِّق، ولا بأس به في المتابعات، وقال البوصيري: هو ضعيف، وله شاهد من حديث الحسن. ينظر: المطالب العالية لابن حجر (١٣/ ٦٤٦).

٨٨٨

إهدار قيمة الدنيا

قال يحيى بن معاذ رحمه الله: «الدنيا لا قدْرَ لها عند ربها وهي له، فما ينبغي أن يكون قدرُها عندك وليست لك»(١).

المعنى الإجمالي

لا قدر للدنيا عند صاحبها وباريها سبحانه وهو خالقها، وهي ملكه، فكيف يكون لها قدر وقيمة عند ابن آدم وهو لا يملك منها شيئا، كل ما تحت يديه منها، إنما هي عارية أعارها إياه مالكُها الحقيقي وصاحبُها المطلق تبارك وتعالى.

وفيها إشارة لطيفة إلىٰ أهمية الزهد، وحثٌّ للإنسان علىٰ ترك حب الدنيا وعدم المبالغة في جمع حطامها، فلو كانت الدنيا شيئا ذا قيمة يستحق أن يتنافس الناس عليها، لما تخلَّىٰ عنها ربُّها وأهدر قيمتَها، وأعطاها مَن يستحقها ومن لا يستحقها، لأن الشيء الثمين لا يُعطَىٰ إلا للمستحق، وعلىٰ سبيل الإكرام.

يقول النبي ﷺ في وصف حال الدنيا: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقىٰ كافرا منها شربة ماء»(٢).

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٤٣).

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه برقم: (٢٣٢٠)؛ والبزار في مسنده برقم: (٨١٧٦). قال الترمذي: هذا حديث صحيح.

وقال ﷺ: «ألا إن الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها، إلا ذكر الله، وما والاه، وعالمٌ أو متعلمٌ»(١).

وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنعام:٣٢].

(١) أخرجه الترمذي في جامعه برقم: (٢٣٢٢)؛ وابن ماجه في سننه برقم: (٤١١٢)؛ والبزار في مسنده برقم: (١٧٣٥). قال الترمذي: هذا حديث حسن.

٨٨٩

الغمّ لأجـل الدنيـا

قال يحيى بن معاذ رَحِمَهُ اللَّهُ: «جميع الدنيا من أولها إلى آخرها لا يساوي غم ساعة، فكيف تغم عمرك فيها مع قليل يصيبك منها!»[(١)].

المعنى الإجمـالي

لا ينبغي لعاقل أن يغم نفسه؛ لأن الغم لا ينفع، وكثرته تزري بالعقل[(٢)]، والغم علىٰ ما يفوت من الدنيا والهم بالحرص عليها من العقوبات[(٣)].

إن الحرص علىٰ جمع جميع ما في هذه الدنيا من أولها إلىٰ آخرها لا يصل بصاحبه إلىٰ السعادة المأمولة؛ إذ إن جامع الدنيا كشاربٍ من بحرٍ أُجاجٍ (مالح) كلما ازداد شربًا كلما ازداد ظمًا وعطشًا. والحريص علىٰ جمع الدنيا -كما يتوهم- لا يساوي في نهاية الأمر غمَّ ساعةٍ اغتمها مع كل جمع جمعه، ومع كل نقصان منها أو فوات.

---

(١) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٩٩).

(٢) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء لابن حبان (ص: ٢٠).

(٣) قوت القلوب لأبي طالب المكي (١/ ٣١٣).

فإذا كان هذا شأن جامعي الدنيا بما يصيبهم من غموم، فأنى لعاقل رشيدٍ أن يترك طمأنينة قلبه، وراحة باله، ويستعيض عن ذلك بهم وغم وقتر، مع قليل يصيب منها بعد كل هذا الغم والهم والقتر.

٨٩٠

التعلق بالدنيا

قال يحيى بن معاذ رحمه الله: «يا ابن آدم، لا يزال دينك متمزِّقًا ما دام قلبك بحب الدنيا متعلقًا»[(١)].

بيان المفردات

متمزِّقًا: التمزيق: التخريق والتقطيع، والمزق: شق الثياب، وصار الثوب مِزْقًا؛ أي: قطعًا، وثوبٌ مزيقٌ ومتمزقٌ[(٢)].

المعنى الإجمالي

إنَّ التعلق بالدنيا تعلقٌ بركن غير شديد فهي خادعة كاذبة، مَنْ تعلق بها تعلق بخيط واهٍ لا مستقر له ولا قرار. ومن الآثار التي يجنيها محبو الدنيا وتاركو الآخرة أنهم لا يدركون عظم اليوم الآخر الذي يقبلون الله بأعمالهم، فهو يومٌ ثقيلٌ كما وصفه الله تعالىٰ بقوله: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾ [الإنسان:٢٧].

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٥٢).

(٢) العين للخليل بن أحمد (٥/ ٩٤)؛ ولسان العرب لابن منظور (١٠/ ٣٤٢).

إن المتدين المتعلق بالدنيا يكون محافظا علىٰ الفرائض، وقد يؤدي بعض النوافل، لكن أثرها في حياته قليل؛ لأن قلبه المشغول بالدنيا لا يجعل للطاعات نورًا في قلبه، ولا هدوءًا في حياته، فيكون تدينه كثوب مُزِّق نسيجه؛ فهو يجري ليحوي هباءة متطايرة، تقذفها الرياح إلىٰ كل مكان، وفي كل اتجاه. فاللاهث وراء الدنيا تنقطع أنفاسه وينقضي عمره وهو يجري وراء سراب بِقِيعَةٍ.

وبقدر تعلق العبد بالدنيا وتثاقله إلىٰ الأرض بقدر ما ينتقص من دينه، ولذلك فإنَّ من الواجب علىٰ العبد المؤمن أن يعمر الدنيا بالدين، وأن تكون الدنيا مطيته للآخرة، وأن تكون دنياه في يديه لا في قلبه.

٨٩١

الركون إلى الدنيا

قال يحيى بن معاذ رحمه الله: «يا ابن آدم، ما رَكَن إلى الدنيا أحدٌ إلا لزمه عيب القلوب، ولا مَكَّن الدنيا من نفسه أحدٌ إلا وقع في بحر الذنوب»(١).

بيان المفردات

ركن إلى الدنيا: مال إليها واطمأن(٢).

المعنى الإجمالي

للقلوب آفاتها وعيوبها التي تلازمها، ومن تلك العيوب التي تغيب عن ملاحظة الناس وفطنتهم الركون والميل والسكون إلى الدنيا، لكنهم يعدون ذلك مظهرًا يدل على الحذق والذكاء للواقع، ولو يعلم الناس أن من أخذ من الدنيا قليلًا، أخذت منه مقابل ذلك أضعاف ما أخذ.

ويترتب على الركون إلى الدنيا من عيوب القلوب قلة الثقة واليقين بالله، والإفراط في الحرص عليها، والوقوع في داء الحسد والكبر والعجب والفخر والخيلاء، وغيرها من الأمراض القلبية.

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٥٢).

(٢) العين للخليل بن أحمد (٥/ ٣٥٤).

وإن من أكبر الذنوب التي يقع فيها العباد الركون والسكون إلىٰ الدنيا والإخلاد إلىٰ جواذبها التي لا تنقضي، كل ذلك موصلٌ إلىٰ الغرق المحتم في بحر الدنيا الأجاج.

وتزداد ذنوب العبد بل ربما يغرق بها كثرةً وذلك عند إصراره عليها والاستمرار عليها والغفلة عن آثارها ومصائبها.

٨٩٢

بكـاء الدنيا وضحك الآخـرة

قال إبراهيم الخواص رحمه الله: «من لم تَبكِ الدنيا عليه لم تضحكِ الآخرةُ له»(١).

المعنى الإجمالي

تبكي الدنيا علىٰ من ترك فيها أثرًا حسنًا، من بذلٍ لمعروف، وإعانةٍ لمحتاج، وإغاثةٍ لملهوف، وتعليمٍ لجاهل، وإقامةٍ لفرائض الله وأوامره، ولذا فقد ذكر الله تعالىٰ بعد إهلاكه لفرعون ومن معه أنَّ السماوات والأرض لم تبكيا عليهم، فقال تعالىٰ: ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴾ [الدخان:٢٩].

وعن سعيد بن جبير، قال: «أتىٰ ابنَ عباس رجلٌ، فقال: يا أبا عباس، أرأيت قول الله تبارك وتعالى: ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴾، فهل تبكي السماء والأرض علىٰ أحد؟ قال: نعم، إنه ليس أحد من الخلائق إلا له باب في السماء منه ينزل رزقه، وفيه يصعد عمله، فإذا مات المؤمن فأغلق بابه من السماء الذي كان يصعد فيه عمله، وينزل منه رزقه، بكىٰ عليه، وإذا فقده مصلاه من الأرض التي

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٣٢٧).

كان يصلي فيها، ويذكر الله فيها بكت عليه، وإن قوم فرعون لم يكن لهم في الأرض آثار صالحة، ولم يكن يصعد إلىٰ السماء منهم خير، قال: فلم تبك عليهم السماء والأرض»(١).

وقال بعضهم: أي: فما بكىٰ عليهم أهل السماء وأهل الأرض؛ بل سُرُّوا بذلك واستبشروا بهلاكهم؛ فيكون ذكر نفي البكاء لإثبات ضده وهو السرور والفرح، لا لعينه، وذلك جائز في اللغة أن يذكر نفي الشيء ويراد به إثبات ضده، لا عين النفي(٢).

وإذا بكت الدنيا بما فيها من بشر وأرض وسماء علىٰ من كان لله طائعًا، فإن الآخرة تفرح لمقدمه، فيرتاح العبد في قبره، ويعطيه الله من الثواب والأجر ما لا يعلمه إلا الله تعالىٰ.

(١) تفسير الطبري (٢٢/ ٣٤).
(٢) تفسير الماتريدي (٩/ ٢٠٥).

٨٩٣

حقيقـة الزهـد

قال الشبلي رحمه الله: «الزهد: تحويلُ القلبِ من الأسباب إلى ربِّ الأرباب»(١).

المعنى الإجمـالي

الزهد في الدنيا مطلوب على لسان الشرع، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه:١٣١]، والزهد كذلك مطلوب في ميزان العقل، فالعاقل يقدّم الباقي على الفاني ويؤثر النفيس على الخسيس.

والزهد في حقيقته وجوهره ليس عبارة عن مجموعة من الشكليات التي يسارع إليها من لم يفهم حقيقته فهما عميقا، مثل حرمان الجسم من الطعام أو الشراب، أو لبس الخشن من الثياب، أو التمايل في المشي وخفض الرأس الخ، وإنما الزهد في الدرجة الأولى هو عمل قلبي يدل على عدم تعلق القلب بمتاع الدنيا الفاني وقصر أمله فيها.

(١) تهذيب خالصة الحقائق ونصاب غاية الدقائق للفاريابي (ص: ١٤٠).

وهذه الحكمة تعبّر عن هذا المعنىٰ، حيث إن الزهد هو تحولٌ قلبي، حيث ينتقل القلب من الاعتماد علىٰ الأسباب إلىٰ الاتكال علىٰ مسببِّها، كما ذكر لنا القرآن عن إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٧٨-٨٢]، فالله سبحانه هو ربّ كل شيء لا حول ولا قوة إلا به.

فالزهد ليس في ترك الطعام بطريقة تضر بالجسد، ولكنه باستحضار أن الله سبحانه هو الرازق، وأن الطعام والجسد والصحة هي نعم من الله ينبغي علىٰ المسلم أن يقوم بشكرها، هذا هو الزهد الذي يبدأ في القلب، ثم ينعكس الزهد علىٰ فعل الجوارح وإلا كان زهدا كاذبا، فالقلب الزاهد يدفع صاحبه لعدم الانغماس في المباحات، ومن ذلك الصيام المشروع الذي يربي النفس علىٰ الصبر والتحمل.

٨٩٤

الحريـــة في القناعـــة

قال إبراهيم بن شيبان رحمه الله: «الشرف في التواضع، والعز في التقوى، والحرية في القناعة»(١).

المعنى الإجمـالي

حين يكثر الجشع والطمع يصبح العبد أسير أطماعه وشهواته ورغباته التي تستعبده وتسترقه حتى يكون عبدًا لها، والحرية تكمن في قناعة العبد بما أعطاه الله كما قال رسول الله ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العَرَض، ولكن الغنى غنى النفس»(٢)، وقال ﷺ: «القناعة مالٌ لا ينفد»(٣)، وقال ﷺ: «قد أفلح من هُدي إلى الإسلام، ورُزق الكفاف، وقنع به»(٤)، وقال ﷺ: «طوبى لمن هُدي إلى الإسلام، وكان عيشه

(١) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ٢٧٩)؛ ونقله ابن قتيبة الدينوري في عيون الأخبار (١/ ٣٨٠)، والجملة الأخيرة عنده: «والغنى في القناعة». وهذا الشرح يتعلق بالقسم الثالث من الحكمة، وأما شرح ما يخص التقوى فقد مر في باب التقوى والاستقامة، رقم الحكمة: (١٨٠)، وشرح ما يخص التواضع مر في باب التواضع، الحكمة رقم: (٧١٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٩٥) برقم: (٦٤٤٦)؛ ومسلم في صحيحه (٣/ ١٠٠) برقم: (١٠٥١).

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (٧/ ٨٤) برقم: (٦٩٢٢).

(٤) أخرجه ابن ماجه في سننه (٥/ ٢٥١) برقم: (٤١٣٨).

كفافا، وقَنع به»[١].

فأفادت كل هذه الأحاديث أن الغنىٰ ليس بكثرة المال، ولكنه بغنىٰ النفس، وتركها الجشع والطمع والهلع، وأن القناعة مال لوحدها؛ فمن أعطيها فقد أعطاه الله خيرًا كثيرًا، ومن حُرمها فلو حوىٰ الدنيا بما فيها فلن يزيده جمعها قناعة وكفاية، بل الخير كله في الهداية إلىٰ الإسلام، والرضا والقناعة بما قسمه الله، والزهد عما في أيدي الآخرين.

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ١٣٦) برقم: (٧١٤٤)؛ وابن حبان في صحيحه (١/ ٥٢٨) برقم: (٧٩٩)؛ والترمذي في جامعه (٤/ ١٧٠) برقم: (٢٣٤٩)؛ وأحمد في مسنده (٣٩/ ٣٦٩) برقم: (٢٣٩٤٤).

٨٩٥

القناعـة تـرك واستغنـاء

قال محمد بن خفيف رحمه الله: «القناعة: ترك التَّشوُّف إلى المفقود، والاستغناء بالموجود»[١].

بيـان المفردات

التَّشوُّف: تَشَوَّف فلانٌ للشيء: إذا طمِحَ به وتطلَّع إليه[٢].

المعنى الإجمـالي

من معاني القناعة ألا يتطاول العبد ويرتفع بنظره إلىٰ ما فقده، فما فقد لا يسترد؛ فقد يجعل النظر إلىٰ ما فقد أن يفقد أشياء أخر، لكنه لو تعامل مع حاله، ورضي بتقدير الله وقسمته لعاش في هناء وسعادة؛ ومن أمثلة ذلك من فقد بصره، لو بقي علىٰ حاله من الهم والغم والتحسر علىٰ حاله لما فعل لنفسه شيئا، لكنه حين يعلم أنه بصبره ورضاه عن قدر الله سيعوضه الله الجنة؛ فينطلق في حياته ليفيد نفسه دينا وعلما وعملا؛ وبذلك يُظهر استغناءه بما أعطاه الله من جوارح أُخرَ مكتملة، فيحمد الله علىٰ ذلك ويستغني بالموجود، لعل الله ﷻ يجعل له خيرًا وبركةً فيما

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (١/ ٢٩٥)؛ الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ٢٩٥).

(٢) ينظر: مقاييس اللغة لابن فارس (٣/ ٢٢٨)؛ ولسان العرب لابن منظور (٩/ ١٨٥).

بقي، ويعوضه خيرًا عما فقده.

وفي الحديث عن النبي ﷺ قال: «إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوَّضته منهما الجنة»، يريد عينيه(١).

إن من أصيب في ماله أوفي شيء من كسبه، وصبر على ما فقده وقنع بما بقي، فإنَّ الله يورثه في قلبه يقينًا ورضا وتسليمًا، لما أجراه الله عليه من قدره كله.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٧/ ١١٦) برقم: (٥٦٥٣).

٨٩٦

الطمع ذُلّ

قال ابن حزم رحمه الله: «لولا الطمع ما ذَلَّ أحدٌ لأحد»(١).

المعنى الإجمالي

الطمع من أعظم آفات النفس وعيوبها القادحة في عبوديتها، فهو محض تعلق بالناس واعتماد عليهم وعبودية لهم، وفي ذلك من المذلة والمهانة ما لا مزيد عليه، ولا يحل للمؤمن أن يُذلّ نفسه، فالطمع هو أصل الذلّ؛ لأن صاحب الطمع ترك ربًّا عزيزًا وتعلق بعبد حقير، والعبد إذا طمع في شيء كان عبدًا له، قال ابن عطاء الله السكندري: «ما بسقت أغصان ذُلٍّ إلا على بذر طمع»(٢).

والمؤمن الذي غُرست حقائق التوحيد في عقله، وغُذّيت بها عواطفه لا يمكن أن يطمع بما في أيدي الناس؛ لأنه يعلم أن كل شيء بيد الله، فهو وحده المعطي والمانع، وهو وحدهُ القوي وما سواه ضعيف، فكيف يترك من بيده كل شيء ليترامى ذليلًا مهينًا على أعتاب من لا يملك من أمر نفسه فضلًا عن غيره أي شيء!

---

(١) الأخلاق والسير ومداواة النفوس لابن حزم (ص: ٥٤).

(٢) الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري (ص: ٥٦).

وقد حذر النبي ﷺ من الطمع، وبين أنه سبب لفساد الدين، قال ﷺ: «ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه»(١).

قال الكنديّ: العبد حرّ ما قنع، والحرّ عبد ما طمع(٢).

أطعت مطامعي فاستعبدتني ... فلو أني قنعت لكنت حرًّا(٣).

(١) أخرجه النسائي في السنن الكبرى (١٠/ ٣٨٦) برقم: (١١٧٩٦)؛ والترمذي في جامعه (٤/ ١٨٥) برقم: (٢٣٧٦)، وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) التذكرة الحمدونية لابن حمدون (٣/ ١١٨).

(٣) البيت لأبي العتاهية، بهجة المجالس وأنس المجالس لابن عبد البر (ص: ٣٠).

٨٩٧

الزُّهـد راحـة

قال ابن عقيل رحمه الله: «ولو عَلِم العقلاءُ ما في الزُّهد من الرّاحة لكسَدتْ سوقُ الدنيا عن راغب، وتعنَّستْ بهجتُها عن خاطب»(١).

بيـان المفردات

لكسدت: كسَد الشيء: إذا لم يكن نافقًا، وكسدت السوق؛ أي: بطلت، فالكساد نقيض النَّفَاق(٢).

تعنَّست: عنَستِ البكْرُ: طالت عزوبتُها، وطال مُكْثُها في منزل أهلها بعد إدراكها سِنَّ الزَّواج دون أن تتزوَّج(٣).

المعنى الإجمالي

الزهد في الدنيا مقامٌ شريف، وهو مقام العقلاء والحكماء، قيل لابن المبارك: «مَنِ الناس؟ قال: العلماءُ. قيل: فمن الملوك؟ قال: الزاهدون»(٤)، وذلك أنَّ من

(١) الفنون لابن عقيل (١/ ٢٩٥).

(٢) ينظر: كتاب الأفعال لابن القطّاع (٣/ ٧٩).

(٣) ينظر: معجم اللغة العربية المعاصرة لأحمد مختار عمر (٢/ ١٥٦٢).

(٤) ينظر: قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد لأبي طالب المكي (١/ ٤٢٤).

عَرَفَ حقيقةَ الدنيا وزَهِدَ في متاعها أراح نفسَه من عناء التعلق بها والسعي في تحصيل ما لم يُكتب له منها، وتعلق بما عند الله من الرضوان والنعيم الدائم في الجنة، فأصبحتْ الدنيا بالنسبة له مجرد بضاعة كاسدة، لا يبالي بما جاء منها وما ذهب؛ لذلك قال عقلاءُ قوم موسىٰ لما رأوا إعجابَ أصحاب الدنيا بما في يديْ قارون، ويلكم ثوابُ الله خير، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ [القصص: ٧٩-٨٠].

وبيَّن النبيُ ﷺ حالَ من يعيش وقد ملأتْ الدنيا قلبَه، ومن يعيش وقلبُه خالٍ منها، فالأول يعيش وملامح الفقر والشقاء بين عينيه، والثاني يعيش وغناه في قلبه، فقال: «من كانت الآخرةُ همَّه، جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شَمْله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همَّه، جعل الله فقره بين عينيه، وفرَّق عليه شمْله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدِّر له»(١).

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٢٥٢) برقم: (٢٤٦٥). وفيه يزيد الرقاشي، قال المنذري: قد وُثِّق، ولا بأس به في المتابعات، وقال البوصيري: هو ضعيف، وله شاهد من حديث الحسن. ينظر: المطالب العالية لابن حجر (١٣/ ٦٤٦).

٨٩٨

علامـة الزاهد الصبر والشكر

قال الزهري[(١)] رحمه الله: «الزاهد: الذي لا يغلب الحرامُ صبرَه، ولا الحلالُ شُكرَه»[(٢)].

المعنى الإجمـالي

قال سفيان بن عيينة عن مقالة الزهريِّ هذه: «ما سمعت في الزهد قطّ شيئًا أحسن من هذا»[(٣)].

لم يزل العلماء والناصحون يعرّفون الناس بمعنىٰ الزهد الحقّ، وأنه ليس مجموعة من الشكليات أو التقشّفيّات، بل هو منهج حياة يتمثل في حياة العبد حين يغلب علىٰ قلبه التطلع إلىٰ الدار الآخرة والترفّع علىٰ حطام الدنيا، والزهد بهذا المعنىٰ له علامات تميزه وأمارات تدل عليه.

---

(١) محمد بن مسلم بن عبيد الله ابن شهاب، أبو بكر، القرشي الزهري المدني، نزيل الشام، الإمام العلم، حافظ زمانه، روىٰ عن ابن عمر وجابر وأنس، تابعي صغير، أكثر الرواية عن كبار التابعين كعروة وابن المسيب فقهاء المدينة، أخذ عنه مالك وأهل المدينة، توفي سنة ١٢٣ أو ١٢٤هـ. ينظر: تاريخ دمشق لابن عساكر (٥٥/ ٢٩٤)؛ سير أعلام النبلاء للذهبي (٥/ ٣٢٦).

(٢) البيان والتبيين للجاحظ (٢/ ١٣٠)؛ الزهد لابن أبي الدنيا (١/ ٩٢)؛ شعب الإيمان للبيهقي (١٣/ ٢٥٢) بلفظ: سئل الزهري عن الزهد؟ فقال: «من لم يغلب الحرام صبره، ولم يمنع الحلال شكره».

(٣) الزهد الكبير للبيهقي (١/ ٧٠).

فالزاهد في الحقيقة يتحلىٰ بصفة الصبر الذي يظهر في مواقف الاختبار، فالزاهد هانت الدنيا في عينه فلا هو يعظّم متاعها البخْس، ولا هو يراها باقية ستدوم لأحد، كما قال تعالىٰ: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلىٰ: ١٦-١٧]، ولذلك فهو لا يتلهّف علىٰ حطامها، ولا تشدّه مغرياتها، ويظهر هذا الصبر عندما تلوح له الشهوات والمحرمات، وتكون متاحة له ولا مانع يمنعه منها، حيث يستحضر هوان الدنيا عند الله ﷻ فلا يكبر متاعها في عينيه، ويستذكر قرب أفول شمسها وانقضاء لذاتها، وما يعقب ذلك من الحسرة عند من يغترّ بها، فيمنعه الصبر من الوقوع في المحرمات، فالمرتبة الأولىٰ للزهد هي الابتعاد عن الحرام قبل التقليل من المباحات.

ومن علامات الزهد كذلك قِصَر الأمل، وعدم تعلق القلب بمتاع الدنيا الفاني، نَعَمْ أباح الله تعالىٰ للإنسان الطيبات من الرزق وأنعم بها علىٰ عباده المؤمنين كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف:٣٢]، لكن الزاهد لا يغيب عنه أنّ هذه الطيبات هي نِعَمٌ من الله يجب عليه أن يشكرها ولا يكفرها، قال تعالىٰ: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾، فالزاهد في الدنيا الراغب في الآخرة لا تلهيه المباحات عن شكر الله سبحانه، بل تكون المباحات في يديه، لكنها لا تغلب علىٰ قلبه.

٨٩٩

الطمع عبودية

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «أنت حرٌّ مما أنت عنه آيس، وعبدٌ لما أنت له طامع»[١].

بيان المفردات

آيِسٌ: يائس، وأَيِس لغة في يأِس[٢].

المعنى الإجمالي

حين يتلهف الإنسان على الحصول على متاع الدنيا، ويجري وراءها جريا حثيثا حتى تستغرق همه وتفكيره، ويطمع في الحصول على هذا المتاع الزائف بكل طريقة ووسيلة، حين ذلك يصبح عبدا لهذه الأشياء التي طمع فيها؛ قال رسول الله ﷺ: «تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة[٣]»[٤]، فقد عدّ الحديث من طمع في الدينار والدرهم والثياب عبدا لها.

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ٧٤).

(٢) لسان العرب لابن منظور (٦/ ١٩).

(٣) **الخميصة**: هي ثوب خَزٍّ أو صوف معلَّم، وكانت من لباس الناس قديمًا. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (٢/ ٨١).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ٣٤) برقم: (٢٨٨٧).

أما المسلم الذي يعلم أن الله وحده هو مالك الملك، وأنه سبحانه هو المعطي والمانع، والضار والنافع، ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ [فاطر:٢]، المسلم الذي علم أن مفاتيح كل شيء بيد الله وحده، وأن المخلوقين لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، هذا المسلم حرٌّ من عبودية الدنيا ومتاعها؛ لأنه قد يأس من الدنيا وأهلها، وتوجه إلىٰ الله مالك الملك بقلبه وجوارحه.

فاليأس مما في أيدي الناس هو باب الحرية، كما أن الطمع فيما عندهم هو باب الذل والعبودية.

٩٠٠

التزهيد في الدنيا

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «إنما جَعَلَها مَحَلًّا لِلْأَغيارِ، ومَعدِنًا للأكدارِ؛ تزْهيدًا لك فيها»(١).

بيان المفردات

الأغيار: جمع غَير، والمراد بها ما يعرض للحياة الدنيا ويطرأ عليها من الأمور الخارجة عن كُنهِها، فهي بذلك مغايرة لها، مختلفة عن حقيقتها، فتدخل فيها الأمراضُ والعاهات، ومختلف بواعث الخوف والقلق، وكل ما قد يُفاجَأُ به الإنسانُ من أسباب الهمومِ والأحزانِ(٢).

الأكدار: جمع كدر، يقال: كدُرَ الماءُ كُدرَةً وكدورةً، ضدُّ صَفَا، والمراد به تغيُّر اللون أو الحال، وكدر العيشُ: نغِص ولم تتم هناءتُه(٣).

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ١٥٠).
(٢) الحكم العطائية شرح وتحليل للبوطي (٥/ ٩٣).
(٣) كتاب الأفعال لابن القطَّاع الصقلي (٣/ ٩١).

المعنى الإجمالي

إنه ﷻ إنما جعل الدنيا محلًا للأغيار كالأمراض والمِحَن، ومعدنًا للأكدار التي تُكدِّر الإنسانَ، لِيُزهِّدَك فيها، فورود الأكدار من جملة النعم عليك، لكونها تُزهِّدك في الدنيا قبل أن يصِلَ ضررُها إليك(١).

ولعل ابن عطاء الله يشير في هذه الحكمة إلىٰ أمر، وهو: أن المتوقع لمن يرىٰ مظاهر الحياة الدنيا وما تعُجُّ به مِن مُغرِيات ومُنسِيات ومُلهِيات، أن لا يُواجِهه منها إلا ما يسرُّه ويُرضِيه، ولكنه ما يلبث أن يجد ما هو مغاير لتوقعاته منها، مما يُكدِّر عليه صفاء مغرياتها وجمال ملهياتها. ولعل سائلًا يسأل: ما الحكمة في ذلك؟ ما الحكمة في ألا يترك اللهُ لعبدِه في الدنيا نعمةً تصفو عن المنغِّصات، وألا يُكرِمه بلذة تخلو عن المكدرات(٢)؟

الجواب علىٰ هذا السؤال بيَّنه ابن عطاء الله في الحكمة التي قال فيها: «إنما جعلَ الدارَ الآخرةَ محلًا لجزاء عباده المؤمنين، لأن هذه الدار لا تسَعُ ما يريد أن يُعطِيَهم، ولأنه أجلَّ أقدارَهم عن أن يُجازِيَهم في دارٍ لا بقاءَ لها»(٣). والمراد بالجزاء هنا: ما قد وعدَ اللهُ به عبادَه الصالحين من النعيم المقيم في جنات خُلدِهِ، مما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر علىٰ قلبِ بشرٍ. وهذا الجزاء الذي وصف اللهُ بعضًا يسيرًا منه في محكَم تبيانه، شاء ﷻ أن يؤجِّل ميقاتَه إلىٰ يوم القيامة(٤).

---

(١) شرح الحكم العطائية للشرنوبي (ص: ١٥٠).

(٢) ينظر: الحكم العطائية شرح وتحليل للبوطي (٥/ ٩٣).

(٣) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ٦٤).

(٤) الحكم العطائية شرح وتحليل للبوطي (٢/ ٤٢١).

والخلاصة: أن الله تعالىٰ وسم الدنيا بهذه الأوصاف: من كونها محلا للأغيار والأحزان، ومعدنًا لوجود الأكدار والفتن، تزهيدًا للإنسان فيها، فيُقبِل بكليته عليه، ويتوجه بهمته إليه، أو ليُعرِض عن الدنيا ويُقبِل علىٰ الآخرة[١].

(١) إيقاظ الهمم لابن عجيبة (ص: ٤٨٢).

٩٠١

الممنوع مرغوب

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «كلُّ مقدورٍ عليه مزهودٌ فيه، وكلُّ ممنوعٍ عنه مرغوبٌ فيه»[1].

المعنى الإجمالي

وسّع الله سبحانه للإنسان دائرة المباح، وسخر له ما في السماوات وما في الأرض؛ قال تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [إبراهيم: ٣٢-٣٤]، فكل ما يحتاج إليه الإنسان من مشرب ومطعم وملبس وحاجات بدنية ونفسية واجتماعية متوفر ومتاح في دائرة هذا المباح.

وفي مقابل ذلك حرم الله بعض الأشياء أو الأمور التي تنافي مصلحة الإنسان، مثل تحريم الخمر ولحم الخنزير، وتحريم القتل والزنا والربا، والحكمة من تحريم هذه الأشياء ظاهرة واضحة عند من هداه الله ووفقه، وقد يخفىٰ وجه الحكم أحيانا لكن المسلم يعرف أن الله سبحانه إنما حرم علىٰ الإنسان كل خبيث وكل ما يضرّ

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ١٢٠).

بمصلحته؛ قال تعالىٰ: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف:١٥٧].

لكن مِنْ أخلاق العامة المنتشرة أنهم يتركون الحلال الطيب الكثير السهل تناوله، ويذهبون إلىٰ الممنوع المحرم، فبعض الناس يترك باب الكسب الحلال ويذهب إلىٰ السرقة، وبعضهم يترك الزواج ويروح إلىٰ الزنا، وبعضهم يترك أنواع الأشربة والأطعمة المباحة مما لذّ وطاب ثم بدلا منها يشرب الخمرة المسكرة المذهبة للعقول.

والسبب الباعث إلىٰ هذا غلبة اتباع الهوىٰ، وتوهم الإنسان أن في الحرام فائدة ونفعا محجوب عنه ولا يرتاح باله حتىٰ يصل إليه ويجربه، لكن ينبغي علىٰ المسلم أن يعلم أن هذه الدنيا دار اختبار، وأنه يجب التسليم لأمر الله ومخالفة الهوىٰ، فقد جعل الله تعالىٰ في طريق الجنة صعوبات، وفي طريق النار شهوات؛ من أجل معرفة من يؤثر اللهَ وأمره علىٰ هوىٰ نفسه ومشتهياتها؛ قال رسول الله ﷺ: «حُفّت الجنة بالمكاره، وحُفّت النار بالشهوات»(١).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ١٤٢) برقم: (٢٨٢٣).

٩٠٢

قدر الحزن على قدر الفرح

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «لِيَقِلَّ ما تَفرَحُ به، يَقِلَّ ما تَحزَنُ عليه»[١].

المعنى الإجمالي

لِيكُنْ الشيءُ الذي تفرح به من المال والجاه قليلًا حتى يقِلَّ حزنُك عليه عند فقدِهِ، فإن المفروح به هو المحزون عليه، إنْ قليلًا فقليلٌ، وإنْ كثيرًا فكثيرٌ[٢].

النعم على نوعين، منها ما يستوجب فقدُه الحزنَ لا محالة، وذلك كنعمة العافية، والكفاية من العيش، ونعمة الأمن وطمأنينة البال. فهذه النعم وأمثالها لا ينطبق عليها هذا القانون الذي ذكره ابن عطاء الله، لأن زوالها مقرون بالحزن في كل الأحوال، وهي من الأمور الضرورية للإنسان، أو مما يحتاج إليه في الحياة.

والنوع الثاني من النعم الدنيوية: ما لا يستوجب فقدُه في بادئ الأمر شيئا من الحزن؛ بمعنى أن الإنسان لا يحزن لعدم وجودها، ولكن إذا تنعَّم بها ووجد لذَّتَها، ثم حُرِمها وسُلِبتْ منه، فعند ذلك يحزن لفقدها وزوالها. كالإنسان الذي أكرمه الله بالكفاية من العيش، ثم تملَّك مزرعةً يُمتِّع بها نفسَه وأهلَه، أو اشتغل

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ٣١).

(٢) شرح الحكم العطائية للشرنوبي (ص: ١٤٩).

بتجارةٍ تُربِحه مزيدًا من المال، أو منتجًا في ضاحية ونحو ذلك. فغياب هذه المشتهيات عنه في بادئ الأمر ليس من شأنه أن يُورِثَه حزنًا، لأنها ليست مما يدخل في حدود الكفاية، وليس من الضروريات. وهذا النوع من النعم، هو مقصود ابن عطاء الله. فسبيل ضمان التخلص من ألَم الحرمان منها: عدم الطمع فيها والاستغناء عنها(١).

والدليل على ما قرَّره ابن عطاء الله في هذه الحكمة واضح في صعيد الواقع، يتكرر كل يوم، وفي جميع المجتمعات: لو ننظر إلى الطبقة المتميزة بثرواتها الكبيرة أو التي تتبوأ المراكزَ العالية، إنها أكثر الناس تعرُّضًا للغموم والأكدار، ومِن ثَمَّ فهي أكثرهم تعرُّضًا لأمراض القلب والأعصاب ونحوها(٢).

(١) الحكم العطائية شرح وتحليل للبوطي (٥/ ٧٣).

(٢) الحكم العطائية شرح وتحليل للبوطي (٥/ ٧٤).

٩٠٣

الطمع يجلب الذلّ

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «ما بَسَقَتْ أغصانُ ذلٍّ إلا على بَذْرِ طمع»[(١)].

بيان المفردات

بسَق الشيء: تم طوله[(٢)].

البَذْر: كل حب يزرع في الأرض والنبات أول ما يبدو[(٣)].

المعنى الإجمالي

العزة لا تكون إلا لمن أعزه الله ﷻ؛ قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ [فاطر:١٠]، فالله سبحانه هو العزيز، ومن افتقر إليه، وتذلل بين يديه، حصل على العزة والشرف، وارتفع مقامه في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون:٨]، فاعتزاز المسلم بربه من مقتضيات الإيمان بأن الله وحده هو النافع الضار الخافض الرافع المعز المذل، ولا يجوز للمسلم أن يذل

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ٧٤).

(٢) لسان العرب لابن منظور (١٠/ ٢٠).

(٣) المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية بالقاهرة (١/ ٤٥).

نفسه، وذلك لشرفه ومكانته عند الله تعالىٰ.

وفي هذه الحكمة يشبه الإمام ابن عطاء الطمع بما في أيدي الناس، والتماس العزة من عندهم، يشبهه بالبذرة التي ينبت عنها شجرة من الذل والخيبة، باسقة السيقان متعددة الأغصان؛ فمهما تعلق الإنسان بأصحاب الأموال والقوة لن يجني إلا الذل والمهانة، فلا مكرم لمن أهانه الله ولا معز لمن أذله الله، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ﴾ [الحج:١٨]، فالطمع هو بوابة الذل للناس، والمؤمن يجب أن يصون نفسه عن ذلك.

٩٠٤

عمل القلب الزاهد والقلب الراغب

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «ما قَلَّ عَمَلٌ بَرَزَ مِن قلبٍ زاهدٍ، ولا كَثُرَ عملٌ بَرَزَ مِن قلبٍ راغبٍ»[١].

المعنى الإجمالي

إن العمل الصادر من الزاهد في الدنيا كثيرٌ في المعنىٰ وإن كان قليلًا في الصورة؛ لسلامتِهِ من الآفاتِ القادحةِ في قبولِهِ من الرياء، والتصنُّعِ للناس، وطلبِ الأعراضِ الدنيوية، بخلاف الصادرِ من الراغبِ فيها، فإنه علىٰ العكس من ذلك[٢].

فإذا أقبل الزاهد إلىٰ الله تعالىٰ بعبادة أو طاعة ما، فإنها مهما كانت قليلةً وصغيرةً لا ترتفع إلىٰ الله إلا وهي كثيرة وكبيرة. إن ركعتين يركعهما الذي صفا قلبُه من الانشغال بما سوىٰ الله، تنقلانه من دنيا الناس إلىٰ شهود الله عَزَّ وَجَلَّ[٣].

---

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ٣١).

(٢) شرح الحكم العطائية للشرنوبي (ص: ٥٣).

(٣) الحكم العطائية شرح وتحليل للبوطي (٢/ ١٧٥).

قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليصلي، ولعله أن لا يكون له من صلاته إلا عشرها، وتسعها، أو ثمنها، أو سبعها»(١).

وقال ﷺ: « عملٌ قليل في سُنّة خيرٌ من كثيرٍ في بدعة»(٢).

(١) أخرجه أبو داود في سننه (١/ ٢٩٠) برقم: (٧٩٦)؛ والنسائي في سننه (١/ ٣١٦) برقم: (٦١٤)؛ وأحمد في مسنده (٨/ ٤١٦٦) برقم: (١٨٦١٣)؛ وابن حبان في صحيحه (٥/ ٢١٠) برقم: (١٨٨٩).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١١/ ٢٩١) برقم: (٢٠٥٦٨)؛ والبيهقي في شعب الإيمان (١٢/ ٨٠) برقم: (٩٠٧٨).

٩٠٥

الفرق بين الزُّهد والوَرَع

قال ابن تيمية رحمه الله: «الزُّهدُ: تركُ ما لا ينفع في الآخرة، والورعُ: تركُ ما يُخاف ضرره في الآخرة»[(١)].

بيان المفردات

الوَرَعُ: هو في الأصل الكف عن المحارم والتحرج منه، ثم اسْتعِير للكفِّ عن الحلالِ المباح[(٢)].

المعنى الإجمالي[(٣)]

الزُّهد أبلغُ من الوَرَع، وأشرفُ منه، والوَرَع داخل في ضمن الزهد، وإن كانا يشتركان في ترك المحرمات عمومًا والمكروهات والمشتبهات، وفعل الطاعات في الواجبات والمستحبات وأشياء أخرىٰ، لكنَّ الزُّهد أبلغُ من الورع وأرقىٰ منه.

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٢١٩)؛ وينظر: مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية (١٠/ ٥١٦).

(٢) ينظر: العين للخليل بن أحمد (٢/ ٢٤٢)؛ الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (٣/ ١٢٩٦)؛ أساس البلاغة للزمخشري (٢/ ٣٢٩)؛ لسان العرب لابن منظور (٨/ ٣٨٨)؛ تاج العروس للزبيدي (٢٢/ ٣١٤).

(٣) ينظر: تفسير العثيمين (١/ ٩٠)؛ فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام لابن عثيمين (٦/ ٣٠٢)؛ تيسير العلام شرح عمدة الأحكام لعبد الله البسام (ص: ٧٠٩)؛ مقال بعنوان (الفهم الصحيح للورع والزهد في موقع طريق الاسلام).

ومن أجود ما قيل في الفرق بين الزُّهد والوَرَع ما ذكره ابنُ القيم عن شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ بقوله: «الزُّهدُ تركُ ما لا ينفع في الآخرة، والورعُ تركُ ما يُخاف ضرره في الآخرة»، وبالتأمل في هذين التعريفيْن يظهر بأنَّ مقامَ الزهد أعلىٰ من مقام الوَرَع، لأن الزاهد لا تراه إلا محاسبًا لنفسه، شحيحًا بوقته؛ لا يضيع عمره في شيء لا يقرِّبه إلىٰ الله ﷻ ولا ينفعه في الآخرة؛ وإنِّما ينظر إلىٰ ما يقوله ويفعله؛ فإن كان ممّا ينفعه عند الله ﷻ أخذ به وعلّق همَّته به، وإن كان لا يرجو نفعه في الآخرة زَهِد فيه وتركه ولو لم يكن منه ضررٌ في الآخرة، ولا يعني هذا أن الزاهد لا يتمتَّع بالمباحات، بل إنه يتمتّع بها من غير توسُّع، وينوي بها التقوِّىٰ علىٰ طاعة الله ﷻ، وبهذا تنفعه في الآخرة.

أما الوَرَع فصاحبُه يتجنَّب ما يخاف ضرره في الآخرة؛ فإذا خلا من الضرر فقد يأخذ به ولو لم ينتفع به في الآخرة، أي أنَّه يتجنَّب الحرام وشبهه ويفعل الواجب وشبهه، وما سوىٰ ذلك فهو متوسِّع فيه تركًا أو فعلًا من دون استحضار نية التعبد بذلك، وهذا مقامٌ رفيع لكنه دون مقام الزهد، وبذلك نستطيع القول بأنَّ كُلَّ زاهد فهو وَرِع، وليس كُلُّ وَرِع زاهد.

٩٠٦

الدنيا جيفة

قال ابن القيّم رحمه الله: «الدنيا جِيفة، والأسد لا يَقَع على الجِيَف»(١).

بيان المفردات

الجيفة: الجُثّة الميتة المُنتنة(٢).

المعنى الإجمالي

الدنيا لأجل ما فيها من المظاهر البرّاقة الخادعة، وبسبب إلهائها عن تذكر الآخرة والسعي للنجاة فيها، كل ذلك يجعل مكانتها وضيعةً خسيسة عند الله تعالىٰ، فهي تشبه الجثّة الميتة المتحلّلة المتعفّنة التي خرجت منها الروائح الكريهة واجتمع عليها الدود، قال ﷺ: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقىٰ كافرا منها شربة ماء»(٣).

فينبغي أن لا تكون الدنيا هي غاية أمل المسلم، ومحطّ تطلعه واهتمامه، لأن المسلم له مكانة رفيعة عند الله تعالىٰ، حيث كرَّمه وأنعم عليه وسخر له ما في

(١) الفوائد لابن القيم (ص: ٧٠).

(٢) لسان العرب لابن منظور (٩/ ٣٨).

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ١٥٠) برقم: (٢٣٢٠)، وقال: حديث صحيح غريب.

السماوات وما في الأرض، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء:٧٠]، فالمكانة الرفيعة للإنسان تقتضي أن لا ينزل إلى مرتبة الدنيا الوضيعة، كما هو الحال في الطعام الذي يأكله الأسد؛ حيث إنه ينتقي طعامه من الحيوانات التي تكون في منطقة صيده، ويتجنب الحيوانات الصغيرة والجثث المنتنة لأنها لا تناسب مكانته العالية الرفيعة.

والمقصود من هذه الحكمة أنْ تكون همة المؤمن عالية مرتفعة، وأن يكون سعيه ابتغاء مرضاة الله، لأن الآخرة هي التي تليق بمقام المؤمن الحقيقي الذي ارتضاه له ربه ﷻ، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء:١٩].

وليس المقصود هو ترك الطيبات من الرزق التي أحلها الله لعباده، ولكن المقصود هو أن تكون الدنيا وسيلة لا غاية، وأن يبقى المسلم مستحضرا أن الدنيا مرحلة مؤقّتة في طريقه لداره الحقيقية.

٩٠٧

امتلاء المعدة يورث الكسل

قال لقمان[(١)] لابنه ﷺ: «يا بني، إذا امتلأت المِعدة نامت الفكرة، وخرست الحكمة، وقعدتِ الأعضاء عن العبادة»[(٢)].

المعنى الإجمالي

الطعام من النعم التي أنعمها الله علىٰ عباده، وتناوله حاجة فطرية للإنسان لا غنىٰ له عنها، لكن تناوله يجب أن لا يكون مفرطا فيه، قال رسول الله ﷺ: «ما ملأ آدميٌّ وعاءً شرا من بطنٍ، بحسْب ابنِ آدم أُكُلاتٌ يُقِمْنَ صُلبه، فإن كان لا محالة فثلثٌ لطعامه، وثلثٌ لشرابه، وثلثٌ لنفَسه»[(٣)]، جعل البطن أولا وعاء كالأوعية التي تتخذ ظروفا لحوائج البيت؛ توهينا لشأنه، ثم جعله شر الأوعية؛ لأنها استعملت فيما هي له، والبطن خلق لأن يتقوم به الصُّلب بالطعام وامتلاؤه يفضي

(١) لقمان بن عنقا بن سرون، الحكيم، اختلف في نبوته والراجح أنه كان رجلا صالحا حكيما، وكان عبدا حبشيا نجارا، قيل: أصله من سودان مصر، وقد ذكره الله تعالىٰ في القرآن وحكىٰ من كلامه، كان في زمن داود ﷺ، ودفن بفلسطين. ينظر: البداية والنهاية لابن كثير (٣/ ٨)؛ وسلم الوصول لحاجي خليفة (٣/ ٤١).

(٢) تهذيب خالصة الحقائق ونصاب غاية الدقائق للفاريابي (ص: ٢١٥).

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ١٨٨) برقم: (٢٣٨٠)، وقال: حديث حسن صحيح؛ وابن ماجه في سننه (٤/ ٤٤٨) برقم: (٣٣٤٩).

إلىٰ الفساد في الدين والدنيا فيكون شرا منها[١].

فالإكثار من تناول الطعام لدرجة الشبع كل مرة مذموم؛ يؤثر في تفكير الإنسان وعقله، فالعقل السليم في الجسم السليم كما يقال، والجسم السليم لا يكون إلا بالغذاء المتوازن، وكذلك فإن من يرخىٰ العنان لشهوة الطعام لتقوده فإن همه يصبح في المأكل والمشرب وفي تتبّع ألوان الأطعمة المختلفة، وفي هذه الحال لا يستطيع أن ينطق بالحِكَم؛ لأن الحِكَم لا تخرج إلا من لسان مَن ارتقت همته إلىٰ معالي الأمور والقيم الرفيعة.

كما أن امتلاء المعدة من الطعام يؤدي إلىٰ الكسل والتراخي والتثاقل، لأن كثرة الطعام تضر بصحة الإنسان وتولد عنده المزيد من النهم كل مرة، لذلك كانت عبادة الصيام من أنفع العبادات التي ترد المسلم إلىٰ الجادة السليمة وتعينه علىٰ عدم الإفراط في تناول الطعام.

(١) مرقاة المفاتيح لعلي القاري (٨/ ٣٢٥١).

٩٠٨

فضيلة القناعة والطاعة والزهد

قال محمد بن صالح رَحِمَهُ اللَّهُ: «الحريص فقيرٌ وإن ملكَ الدنيا، والقانع غنيٌّ وإن بات طاويًا، والطامع ذليلٌ وإن كان ملِكًا، والمطيع مُطاعٌ وإن كان مملوكًا، والمعجَب ممقوتٌ وإن كان أريبًا، والزاهد مَهيبٌ وإن كان غريبًا»(١).

بيان المفردات

طاويًا: أي: جائعًا، من الطَّوّ، وهو الجوع(٢).

أريب: أرُب الرجلُ فهو أريب أي: صار ذا فطنة(٣).

مَهيب: رجلٌ مَهيبٌ أي: يهابه الناس(٤).

المعنى الإجمالي

لا فائدة لظاهر حال الإنسان إذا كان باطنه علىٰ خلاف ذلك، فالعبرة إنما هي فيما يكون في قلب الإنسان، وليس فيما يحيط به من الظروف والملابسات.

---

(١) تهذيب خالصة الحقائق ونصاب غاية الدقائق للفاريابي (ص: ١٤٣).

(٢) تاج العروس للزبيدي (٣٨/ ٥١٧).

(٣) لسان العرب لابن منظور (١/ ٢١٠).

(٤) لسان العرب لابن منظور (١/ ٧٨٩).

فالحريص علىٰ متاع الدنيا هو فقيرٌ في حقيقة الأمر ولو كان لديه ممتلكات كثيرة في الظاهر؛ لأن الغِنىٰ الحقيقي هو غنىٰ القلب، جاء في الحديث: «إنما الغِنىٰ غِنىٰ القلب، والفقرُ فقرُ القلب»(١)، كذلك الحال فيمن رُزق كفافا وقنّعه الله بما آتاه هو غنيّ في الحقيقة وإن كان جائعا، فقد روي في الحديث: «وارض بما قسم الله لك تكن أغنىٰ الناس»(٢).

ومن غلبت عليه صفة الطمع والجَشع، وأحب أن يحوز كل شيء، فهو ذليل في حقيقة الأمر؛ لأن لديه الاستعداد أن يهين نفسه ويذلّها في سبيل الحصول علىٰ ما يريد، وهذا الذلّ لا يفارقه حتىٰ ولو كان غير محتاج إلىٰ أحد من الناس بأن كان ملكا أو ذا منصب عال، وبالعكس فإن من أطاع الله تعالىٰ فقد تمسّك بأسباب العزة؛ قال تعالىٰ: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ [فاطر:١٠]، فمن اعتزّ بالله عزّ، ومن اعتزّ بالعباد ذلّ، فمن أطاع الله تعالىٰ واَلْتَمَسَ رضاه فهو العزيز حتىٰ ولو كان عبدا مملوكا لا يملك شيئا.

والمعجَبُ بنفسه المغترُّ بها مذمومٌ وممقوت حتىٰ ولو كان أريبا صاحبَ عقلٍ وفطنة؛ لأن إعجابه بنفسه يدفعه إلىٰ مخالفةِ ما يقتضيه العقل، حيث يدور في فلَك تحقيق ذاته وإثبات شخصيته علىٰ حساب الإنصاف والموضوعية في التفكير، ولهذا السبب لا يحظىٰ بالمهابة والاحترام في أعين الناس، أما الزاهد في الدنيا الراغب في الآخرة فهمّه متوجّه لنيل مرضاة الله سبحانه، ولذلك يلقي الله ﷻ له المهابة في قلوب الناس حتىٰ لو كان في الظاهر مغمورا غير معروف.

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٢/ ٤٦٠) برقم: (٦٨٥)؛ والحاكم في مستدركه (٤/ ٣٢٧) برقم: (٨٠٢٤).

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ١٤٠) برقم: (٢٣٠٥)؛ وابن ماجه في سننه (٥/ ٢٩٩) برقم: (٤٢١٧).

باب الحرص على الحلال

٩٠٩

الصلاح في تحرّي الحلال

قال سفيان الثوري ﵀: «انظر درهمك من أين هو؟ وصلِّ في الصفِّ الأخير»[(١)].

المعنى الإجمالي

لا يكتفي الصالحون بالنظر والمحاسبة لأنفسهم في عباداتهم، بل ينظرون إلىٰ أموالهم التي اكتسبوها، ما هو مصدرها؛ لأن أخذ المال من حله وحرمته، أو أخذه دون المعرفة لمصدره، يوقع العبد المسلم في الحرام، فإنْ توقَّ العبد الحرام والشبهات في ماله، فلا يضره أن يصلي في الصف الأخير، وليس معنىٰ ذلك الترغيب في التكاسل عن الصلاة، بل أن يكون العبد ورعًا ومُتحرِّيًا لكسبه بأن يكون حلالًا، وسعيه لأكل الطيبات.

أما عن فضل الصف الأول والحث علىٰ الاستهام والاستباق عليه، فقد قال رسول الله ﷺ: «إن الله وملائكته يصلون علىٰ الصف الأول»[(٢)]. وقال: «لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول، ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٧/ ٦٨).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (١/ ٣٣٢) برقم: (٣٨٠٣)؛ وابن خزيمة في صحيحه برقم: (١٥٥١)؛ وابن حبان في صحيحه برقم: (٢١٥٧).

لاستهموا، ولـو يعلمـون مـا في التهجيـر لاسـتبقوا إليـه، ولـو يعلمـون مـا في العتمـة والصبح، لأتوهما ولو حبْوًا»(١).

ومما يدل علىٰ الورع في كل ما يدخل جوف العبد من مأكل ومشرب ما رواه البُخَارِيّ فِي صَحِيحه أَنه كَانَ لأَبي بكر رضي الله عنه غُلَام يَأْخُذ مِنْهُ الْخراج فجَاء يَوْمًا بشيء فَأكل مِنْهُ ثمَّ ضحك غُلَامه فقال مَالك؟ فقال أَتَدْرِي من أين هذا؟ قال: لَا، قال إِنِّي كنت تَكَهَّنْتُ لإِنْسَانٍ فِي الْجَاهِلِيَّة، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْم جَاءَنِي بِمَا جعل لي، فَوضع أَبُو بكر يَده فِي فِيهِ واستقاء مَا كَانَ أكل(٢).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٢٦) برقم: (٦١٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٣٨٤٢). ينظر: الفروسية لابن القيم (ص: ٢٠٨).

٩١٠

مثال النحلة

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كُنْ في الدنيا كالنَّحلة: إنْ أكلتْ أكلتْ طيبًا، وإنْ أطعمتْ أطعمتْ طيبًا، وإنْ سقطتْ على شيء لم تَكسِرْه ولم تَخدِشْه»(١).

المعنى الإجمالي

يقول النبيّ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنَّ مَثَلَ الْمُؤْمِنِ لَكَمَثَلِ النَّحْلَةِ أَكَلَتْ طَيِّبًا، وَوَضَعَتْ طَيِّبًا، وَوَقَعَتْ عَلَىٰ عُودٍ فَلَمْ تَكْسِرْ وَلَمْ تُفْسِدْ»(٢).

في هذا الحديث تشبيه للمؤمنِ بالنَّحلة، فتكون كُلُّ الصفات المحمودة في النَّحلة موجودةً في المؤمن، ووجه المشابهة بينهما حِذْقُ النَّحل وفِطْنَتُه، وَقِلَّةُ أذاهُ، وكثرةُ منفعته، وقُنوعُه وسَعْيُه في الليل، وتَنزُّهُه عن الأقذار، وطِيب أكلِه، وأنَّهُ لَا يأكلُ من كَسْب غَيْرِهِ، ونُحُولُهُ وطاعتُه لأمِيرِه(٣).

فشبَّه المؤمنَ في نقائه وصفائه بنقاء وصفاء هذا الذي تضعه النَّحلةُ من العسل، في طِيبِ معدنه، وحُسنِ صفاته وأخلاقه، والنحلة، لا تأكل إلا طيّبًا، تمصُ رحيقَ الأزهار، مُنزهة عن الأقذار والأوساخ، حَذِقَةٌ فَطِنَة، تعرف أين تنزل، وماذا تمص،

---

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ١٧٠).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ١٣٧٠) برقم: (٦٦٢٥)، و(٣/ ١٤٤٤) برقم: (٦٩٩١).

(٣) ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (٥/ ٢٩).

وماذا تحتاج لإنتاج ذلك العسل، لا تضع إلا طيِّبًا، نَفْعُه للناس، قال تعالىٰ: ﴿ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ [النحل:٦٩]، فهو مفيد للآخرين، وهكذا المؤمن كالنَّحلةِ، مفيدٌ للآخرين، يُعلِّمهم، يقوِّمهم، ينصحهم، يعينهم، يغيثهم، يحملُ معهم، يشترك معهم، ويتعاون علىٰ البر والتقوىٰ.

المؤمنُ طَيِّبٌ لا يأكل إلا طيّبًا، فلا يأكل من حرامٍ ولا من شُبهة، بل يتحرّىٰ الحلالَ المحض، كما يتحرّىٰ النّحلُ الزّهرَ الذي يقع عليه، ﴿ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ [المائدة:٨٨]، وهو يأكل من كَسْبه، لا من كَسْب غيره، وهو جادٌّ غير كسول، يعمل ويكدُّ بجهد ونشاط، ويسعىٰ بالليل والنهار، يقنع باليسير، ويطيع الأمير، وينفع الناس بما عنده.

المؤمنُ يأخذُ من العلم المفيد والمسائل النافعة ما يعمل به هو وما ينقله للناس، وهكذا يساهم في إصلاح أحوالهم، فهو لا يقع إلا علىٰ طيّب، لا يقع علىٰ أوساخ وقاذورات، فلا يقع في أعراض الناس، ولا يغتاب، ولا ينشغل بعورات الآخرين، بل يسترها، «يَا مَعْشَرَ مَنْ أَسْلَمَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يُفْضِ الْإِيمَانُ إِلَىٰ قَلْبِهِ لَا تُؤْذُوا الْمُسْلِمِينَ وَلَا تُعَيِّرُوهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ؛ فَإِنَّهُ مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ رَحْلِهِ»(١).

المؤمنُ لا يفسد، أينما حَلَّ وارتحل لا يؤذي أحدًا، لا يكسر المشاعرَ ولا ممتلكات الآخرين، لا يَعتدي لا حسًا ولا معنىٰ، ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٣/ ٧٥) برقم: (٥٧٦٣)؛ والترمذي في جامعه (٣/ ٥٥٤) برقم: (٢٠٣٢).

﴿يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ [الفرقان:٦٣]، كالنَّحلِ لا يكاد يؤذي إلا من آذاه، ولا يكسرُ العودَ الذي يسقط عليه[١].

إنَّ المؤمنَ إنْ صاحبتَه نفعك، وإن شاورتَه نفعك، وإن جالستَه نفعك وكُلُّ شأنه منافع، ولله دَرُّ القائل:

أيـا طالـبَ المـذهب المُجتبى ... تَعَلَّـم مـن النحلـة المـذهبا
إذا أكلـتْ أكلـتْ طَيِّبًـا ... وإن أطعمـتْ أطعمـتْ طَيِّبًـا[٢]

(١) ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (٥/ ٢٩).

(٢) ينظر: مقال بعنوان: (ثابت كالنخلة، نافع كالنحلة) https://almunajjid.com/speeches/lessons/784.

باب الورع

٩١١

بلوغ درجة المتقين

قال الحسن البصري رحمه الله: «ما زالت التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيراً من الحلال مخافة الحرام»(١).

المعنى الإجمالي

التقوىٰ مرتبة عالية من المجاهدة للنفس باتقاء المحرمات والشبهات، فالمتقون لله تعالىٰ يحاسبون أنفسهم محاسبة دقيقة في دقائق الأمور وعظائمها، فلا يتركون لأنفسهم أن ترتع فيما حرم الله تعالىٰ، أو فيما نهىٰ عن الاقتراب منه؛ فمن قَرُب من حمىٰ الله ومحارمه يكاد يقع فيها.

لذلك، فإن المتقين يتداركون أنفسهم فيحملونها علىٰ الجد والمجاهدة، ولا يقبلون منها أن تأخذ الكثير من المباح وما لا بأس به؛ مخافة أن يقعوا فيما به بأس. ومثال ذلك أن من يتساهل في محاسبة نفسه في كسبه وسعيه من الحلال قد يقع في شبهة الربا أو في صورة من صوره دون أن يعلم. وقد قال رسول الله ﷺ: «لا يبلغ العبدُ أن يكون من المتقين حتىٰ يدعَ ما لا بأس به، حذرًا مما به بأس»(٢).

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي (١/ ٤٠١).

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٢٤٢) برقم: (٧٩٩٤).

وقال سهل بن عبد الله رحمه الله: «الأعمال لا تصح إلا بترك كثير من الحلال مخافة أن يخرجهم إلىٰ غيره»(١).

ومما يدخل في التورع عن بعض الأشياء المباحة مخافة الوقوع في الحرام: التحدث في شؤون الآخرين الذي قد يجر المتحدث إلىٰ الغيبة أو النميمة، والتورع عن إتيان المباحات حتىٰ لا تنشط الشهواتُ.(٢)

(١) قوت القلوب لأبي طالب المكي (١/ ٣١٨).

(٢) ينظر: إحياء علوم الدين للغزالي (١/ ١٩).

٩١٢

كلام أهل الورع

قال يونس بن عبيد[١] رحمه الله: «إنك تكاد تعرف ورع الرجل في كلامه إذا تكلم»[٢].

المعنى الإجمالي

الوَرِعُ من الرجال من يجعل وَرَعَه في حياته كلها؛ فحياته كلها لله، فهو في عبادة دائمة، واتصال بالله تعالىٰ لا يعرف الانقطاع، لكن لما جعل الناس الالتزام بالدين في الأمور التعبدية الظاهرة -وهي ما يعرف بأركان الإسلام- أصبحت حياة الناس في تناقض واضطراب؛ فترىٰ المسلم يؤدي تلك العبادات والشعائر، لكنه لا يهتم بمنطقه وكلامه.

ومن صور الورع: الإقلال من الكلام، والاقتصار علىٰ ما يعني العبد ويفيده في دينه ودنياه، والإكثار في الكلام يوقع العبد في الإكثار من الغلط، والإكثار منه يؤدي إلىٰ الدخول في المحرم.

(١) يونس بن عبيد بن دينار العبدي، أبو عبد الله، البصري، الإمام، القدوة، الحجة، من صغار التابعين وفضلائهم، رأىٰ أنس بن مالك، وكان من سادات أهل زمانه علما وفضلا وحفظا وإتقانا وسنة وبغضا لأهل البدع، توفي سنة ١٣٩هـ. ينظر: الثقات لابن حبان (٧/ ٦٤٧)، سير أعلام النبلاء للذهبي (٦/ ٢٨٨).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٣/ ٢٠).

والإكثار من الكلام في غير فائدة يوقع العبد في معاصي كثيرة، منها الكذب، والغيبة والنميمة، وشهادة الزور، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات، والقول على الله بغير علم. يقول تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:٣٣]، وهذه كلها من كبائر وعظائم الذنوب، التي لا ينقذ العبد منها إلا توبته إلى الله تعالى، ولن تتأتى توبته إلا بورعه وتثبته في كلامه كله.

٩١٣

معنى الورع

قال يونس بن عبيد رحمه الله: «الورعُ: الخروجُ من كل شبهة، ومحاسبة النفس في كل طرفة»(١).

المعنى الإجمالي

يُعرَّفُ الورع بأنه «اجتناب الشبهات خوفًا من الوقوع في المحرمات»(٢). والورع يعتمد على شفافية صادقة من العبد فهو يرى المنكرات وإن دقَّتْ عند بعض المسلمين من الكبائر الموبقات. عن أنس رضي الله عنه قال: «إنكم لتعملون أعمالًا هي أدق في أعينكم من الشعر، إن كنا لنعدها على عهد النبي ﷺ الموبقات»(٣).

إن الوَرِع بعيدٌ عن الشبهات لا تستهويه شهوة نفس، أو إغواء شياطين الإنس والجن، فهو دائم اللوذ والاعتصام بالله تعالى، يحاسب نفسه على كل صغيرة وكبيرة من الأقوال والأفعال، بل وخواطر النفس وخلجات التفكير.

(١) الزهد الكبير للبيهقي (ص: ٣١٦)؛ الرسالة القشيرية (١/ ٢٣٥)؛ وزاد في مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٢٤): «ومحاسبة النفس في كل طرفة عين».

(٢) التعريفات للجرجاني (ص: ٢٥٢).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٠٣) برقم: (٦٤٩٢).

وإنَّ الشبهات التي تتوارد علىٰ النفس كثيرة؛ فمنها شُبه الاعتقاد، وشُبه العبادة، وشُبه العادات والمعاملات، وقد جعل الإسلام لكل شبهةٍ ما يناسبها في صدِّ الشبهات، فبالمعرفة والتفقه في الدين والوقوف علىٰ ما أحله الله وما حرمه يجد العبد ما يبعده عن الشبهات، وخير معين علىٰ ذلك -بعد عون الله وتوفيقه- أن يتورع العبد عن كل ما حرمه الله، وأن يقلل من المباحات مخافة الوقوع في الحرام، وأن يحاسب نفسه محاسبة الشريك الشحيح الضنين بماله لشريكه في كل دقِّ الأمور وجلها في سرها وعلانيتها.

٩١٤

يُسْرُ الورع

قال حسان بن أبي سنان[1] رحمه الله: «ما أيسر الورع؛ إذا شككت في شيء فاتركه»[2].

المعنى الإجمالي

الإسلام يسيرٌ على من يسَّره الله عليه، فإذا كانت إرادة العبد متوافرةً، فإن عمله للصالحات يكون ميسورًا ومقدورًا عليه.

والورع سهل على من يسره الله عليه، ويأتي على ثلاثة أنواع: واجب: وهو الإحجام عن المحارم وذلك للناس كافة، وندب: وهو الوقوف عن الشبهات وذلك للأوساط، وفضيلة: وهو الكف عن كثير من المباحات والاقتصار على أقل الضرورات، وذلك للمتقين من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين[3].

(١) حسان بن أبي سنان، أبو عبد الله، البصري، العابد، من أتباع التابعين، يروي عن أهل البصرة الحكايات والرقائق، كان يشبَّه بأبي ذر الغفاري في زهده وتقشفه، توفي سنة ١٥١هـ. ينظر: مشاهير علماء الأمصار لابن حبان (ص٢٤٠)، وإكمال تهذيب الكمال لعلاء الدين مغلطاي (٤/ ٦٢)، ومرآة الزمان لسبط بن الجوزي (١٢/ ٢٣٠).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٣/ ١١٦). وذكر البخاري هذه العبارة بصيغة أخرى، وهي: «ما رأيت شيئًا أهون من الورع: دع ما يريبك إلى ما لا يريبك». ينظر: صحيح البخاري (٣/ ٥٣).

(٣) الذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب الأصفهاني (ص: ٢٢٧).

ومن الوصايا النبوية التي تعد أصلًا في باب الورع، ما روي عن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما قال: حفظت من رسول الله ﷺ: «دع ما يريبك إلىٰ ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينة، وإن الكذب ريبة»[1].

ويعني هذا الحديث: دع ما تشك فيه ولا تتيقن إباحته، وخذ ما لا شك فيه ولا التباس، فإن شك في شيء فالأولىٰ تركه، حتىٰ يعتاد العبد علىٰ الورع في قليل الشيء وكثيره.

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٢٤٩) برقم: (٢٥١٨).

٩١٥

حال أهل الورع

قال يوسف بن أسباط رحمه الله: «لي أربعون سنة ما حاك في صدري شيء إلا تركته»[(١)].

بيان المفردات

حاك: حكَّ وحاك بمعنىٰ واحد، وحكَّ الأمر في الصدر: اشتبه، قال أبو عبيد: حكَّ في نفسي الشيء: إذا لم تكن منشرح الصدر به، وكان في قلبك منه شيء[(٢)].

المعنى الإجمالي

ورد في الحديث: أن النبي ﷺ قال لوابصة بن معبد: «جئت تسألني عن البر والإثم؟»، فقال: نعم، فجمع أنامله فجعل ينكُت بهن في صدري، ويقول: «يا وابصة، استفت قلبك، واستفت نفسك -ثلاث مرات- البر: ما اطمأنت إليه النفس، والإثم: ما حاك في النفس وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفْتَوْك»[(٣)].

واستفتاء القلب يعني الوقوف علىٰ ما يطمئن إليه، وهذا لن يكون لكل

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (٢/ ١١٨).
(٢) ينظر: الأفعال لابن القوطية (ص: ٣٨)؛ وتهذيب اللغة للأزهري (٥/ ٨٤).
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩/ ٥٣٣) برقم: (١٨٠٠٦)؛ والدارمي في مسنده (٣/ ١٦٤٩) برقم (٢٥٧٥).

القلوب، بل للقلوب الحية المتجردة المشرقة المستنيرة بنور الله، المحتكمة إلىٰ شرع الله وهداه، ويعطي الله الصالحين فِراسة ويقظة إيمانية، يستطيعون بها أن يدفعوا ما اضطرب واختلج في صدورهم من الأمور، فيميزون الخير من الشر، بل يميزون بين خير الخيرين وشر الشرين.

وهذا هو الورع، أن يترك الإنسان الشبهات خوفًا من الوقوع في الحرام، ومصداقه حديث النبي ﷺ: «دع ما يريبك إلىٰ ما لا يَريبُك»[(١)].

وقال حسان بن أبي سنان: «ما رأيت شيئًا أهون من الورع، دع ما يريبك إلىٰ ما لا يريبك»[(٢)].

«ورهن أحمد بن حنبل رحمه الله سَطْلًا[(٣)] له عند بقَّال بمكة حرمها الله تعالىٰ، فلما أراد فِكاكَه أخرج البقّال إليه سطلين، وقال: خذ أيهما لك، فقال أحمد: أشكل علي سطلي فهو لك والدراهم لك، فقال البقّال: سطلك هذا، وأنا أردت أن أُجربك، فقال: لا آخذه، ومضىٰ وترك السطل عنده»[(٤)].

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٢٨٦) برقم: (٢٥١٨)، وقال: حديث صحيح.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه تعليقًا (٣/ ٥٣).

(٣) السطل: الدَّلْو أو شبهها، والسَّبْطَل مثله. ينظر: مختار الصحاح (ص:١٤٧).

(٤) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ٢٣٧).

٩١٦

خطورة المبالغة في المباحات

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «من أعطى نفسَه نَهْمتها من الحلال وقع في الحرام»[(١)].

بيان المفردات

النَّهْمة: الحاجة أو بلوغ الهمّة والشهوة في الشيء[(٢)].

المعنى الإجمالي

نِعَمُ الله على الإنسان لا تُعَدّ ولا تُحصى من الطيّب الحلال من المطعم والمشرب والملبس والمسكن والزينة وغير ذلك، وقد أباح الله للإنسان هذه الطيبات، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء:٣٢].

ويجب على المسلم وهو يتنعّم بهذه المباحات أن لا ينسى وظيفته الأصلية التي هي عبادة الله وطاعة أمره، ولا ينغمس في مُتَع الدنيا انغماسا ينسيه آخرته وغايته التي جاء إلى الدنيا من أجلها، قال تعالى: ﴿ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [لقمان:٣٣]، فالمسلم يأخذ من المباحات

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ١٢٩).

(٢) لسان العرب لابن منظور (١٢/ ٥٩٣).

والحلال بقدر الوسط الذي يعينه على أداء غايته من الحياة ولا يصده عن طاعة الله، قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف:٤٦].

أما إذا فتح الإنسان المجال لنفسه لتحصل على كل ما تريد وتتمتع بكل ما تشتهيه؛ كان ذلك سببا للغفلة عن ذكر الله وعبادته؛ حيث يصبح همّ الإنسان وقلبه متعلقا بالدنيا ونعيمها، ويغفل عن واجب اللحظة التي هو فيها حيث لا تساعده نفسه على ترك ما هو مشتغل فيه من الانغماس في أمور الدنيا، فالقلب إذا غفل وتعلق بالدنيا فإن ذلك بلا شك يدفع دفعا حثيثا نحو الوقوع في المعاصي في نهاية المطاف، فالمسلم ينبغي أن يترك أشياء من المباحات من أجل تربية نفسه ومن أجل أن تكون له ذخرا في الآخرة؛ قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف:٢٠] ذُكر أن عمر بن الخطاب كان يقول: «لو شئتُ كنتُ أطيبكم طعامًا، وألْيَنكم لباسًا، ولكني أَسْتبقي طيّباتي»(١).

فالانشغال بالمباحات انشغالًا متواصلًا، والانغماس فيها انغماسًا كثيرًا، يدفع الإنسان إلى الوقوع في الحرام من وجوه كثيرة: منها الانشغال عن ذكر الله وعن الصلاة باللهو واللعب، ومنها الوقوع في الإسراف ومجاوزة حد الاعتدال، ومنها انعدام أو ضعف الشعور بالفقراء والمحتاجين من إخوانه المسلمين، ومنها أنها تؤدي إلى الوقوع في الشبهات ثم في الحرام المحض.

(١) تفسير الطبري (٢٢/ ١٢٠).

باب حب الخير والإنفاق

٩١٧

التعود على الخير

قال عمرو بن قيس[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا سمعت بالخير فاعمل به ولو مرة واحدة»[2].

المعنى الإجمالي

إذا سمعتَ أيها الإنسان بالأمر الحسن والخير الذي يمكن للإنسان أن يقوم به، سواء كان أمرًا دينيًا أو أخرويًا، فإن كانت منفعته أخروية فبادِرْ إليه وقم به، ولو مرة واحدة في حياتك.

فكم من محروم يرىٰ أبواب الخير مشرعة فلا يلِجها، ويسمع نداءات الله لأهل الإيمان في القرآن متكررة، وحض الرسول ﷺ للعباد في أفعال الخير في سنته حاضرة، لكنه لا يتأثر لذلك ولا يسارع في الخيرات.

فينبغي للإنسان في أبواب الخير أن يلتزم أمرين، الأول: أن يستمر العبد في فعل

(١) عمرو بن قيس بن ثور، أبو ثور، السكوني، الكندي، الإمام الكبير، شيخ أهل حمص، ولد سنة ٤٠هـ، لقي سبعين من الصحابة وحدث عن بعضهم، وعنه جماعة، ولي إمرة الغزو لعمر بن عبد العزيز، توفي سنة ١٤٠هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٥/ ٣٢٢)؛ مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (١٩/ ٢٨٠).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٥/ ١٠٢).

الخير ولو كان قليلًا؛ فأحب الأعمال إلىٰ الله أدومها وإن قلَّ. والثاني: أن يأتيَ بالخير الذي سمع به ولو مرة واحدة؛ إذ تعدد أفعال الخير خيرٌ للعبد في الأجر وتعدده وتعديه من اقتصاره علىٰ مسالك وعبادات محددة.

٩١٨

الكثرة والقلّة في الخير والشر

قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: «كثير الخير قليل، وقليل الشرّ كثير»(١).

المعنى الإجمالي

مقياس الأشياء ليس فقط بكميتها أو بعددها، وإنما هناك عوامل أخرىٰ تقاس بها الأشياء، ومن هذه العوامل: درجة الجودة في هذه الأشياء والأثر والنتيجة المترتبة عليها.

فعمل الخير هو طيب مبارك في الأصل سواء كان قليلا أو كثيرا، لكن فيما يتعلق بالعمل الصالح الذي يقدمه العبد بين يدي ربه، فهذا مهما كان كثيرا فهو قليل من عدة جهات:

أولًا: هذا العمل لا يدري العبد ما الذي رافقه الإخلاص فيه حتىٰ يكون مقبولا، فليس الأمر بكثرة العمل فقط وإنما بحسنه وصحته، قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك:٢].

ثانيًا: العبد يحتاج دائما للاستكثار من العمل الصالح، لأن الذنوب كثيرة لا يسلم منها الإنسان، فيحتاج إلىٰ كثير وكثير من العمل الصالح حتىٰ

(١) تهذيب خالصة الحقائق ونصاب غاية الدقائق للفاريابي (ص: ٣٢٥).

يثقل ميزان حسناته.

ثالثًا: وكذلك فإن العبد إذا نظر إلىٰ نعم الله ﷻ وفضله عليه، ونظر إلىٰ ما ينبغي أن يقوم به العبد تجاه ربه، فإن أي عمل يعمله فهو قليل.

وأما الشر فهو وإن كان في الأصل كما قيل: بعض الشرّ أهون من بعض، لكنه بالنسبة للذنوب والمعاصي كثير حتىٰ ولو كان قليلًا:

لأن المعصية تجلب المعصية، وتورث قسوة القلب، ومع الوقت يستمرئها ولا يستطيع التوبة منها.

ولأن الإنسان محاسب علىٰ كل شر يعمله حتىٰ ولو كان بمقدار الذرة، قال تعالىٰ: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

ولأن هذه المعصية قد تكون سببا في ترجيح كفة السيئات علىٰ الحسنات، قال تعالىٰ: ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾ [القارعة: ٦-١١].

٩١٩

استقراض الله من عباده

قال يحيى بن معاذ رحمه الله: «عجبت لمن يصحب الخلق والخالق يستصحبه، وعجبت لمن يمنع والله يستقرضه»(١).

المعنى الإجمالي

من الضعف الإيماني ألا يرضى العبد بما حضَّ الله ودعا إليه من الإنفاق في سبيله. وكيف لا يكون الإنفاق والإقراض لله من أعظم الأعمال النافعة المتعدية النفع للآخرين؛ فقد دعا الله إلى القرض الحسن فقال تعالى: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة:٢٤٥]، وجعل الله جزاء الإنفاق أضعافًا مضاعفة من الأجور، فقال تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:٢٦١].

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبي (٦/ ٢٣١). وهذا الشرح متعلق بالجزء الثاني من الحكمة، وأما شرح القسم الأول فقد مر في باب الأنس بالله، الحكمة رقم: (٥٢٢).

ولما علم السلف الصالح من صحابة رسول الله ﷺ والتابعين أنَّ ما عند الله خير لهم، أنفذوا أوامره ونواهيه؛ فإن طلب منهم قرضًا قدَّموه راضية به قلوبهم سخية به أيديهم. ومن ذلك ما كان يقدمه الصحابة الكرام في الإنفاق في سبيل الله للفقراء والمساكين، وتجهيز المجاهدين والغازين في سبيل الله.

٩٢٠

شؤم البخل

قال ابن القيم رحمه الله: «البخيلُ فقيرٌ لا يُؤْجَرُ على فقره»[١].

بيان المفردات

البُخْل: لغةً: البُخْلُ والبَخْلُ والبَخَلُ ضِدُّ الكَرَمِ والجُودِ، يقال: بَخِلَ يَبْخَل بَخَلًا وبُخْلًا بكذا: أي ضنَّ بما عنده ولم يَجُدْ، ويقال: هو رجلٌ بخيلٌ وجمعُه بُخلاء، ورجلٌ باخلٌ وجمعُه بِخال، والبَخَّال: الشَّديد البُخْل[٢]. واصطلاحًا: «إمساك المقتنيات عما لا يحق حبسها عنه»[٣].

المعنى الإجمالي

المالُ عصبُ الحياة، اختبر اللهُ به بني آدم، فمَن أدَّىٰ حقَّه نال مِن الله البشارة، ومَن منَع حقَّ الله فيه كان عليه خسارة، والبخيلُ يمنع نفسه من التنعُّم بنعمة المال ظانًّا أنه سيُخلِّده في الأرض، وهو لا يعلم أنه سيتركه للأهل والخِّلان، ويُعذَّب به

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ٢٩١).

(٢) ينظر: جمهرة اللغة لابن دريد (١/ ٢٩٢)؛ تهذيب اللغة للأزهري (٧/ ١٨٠)؛ مختار الصحاح للرازي (ص: ٣٠)؛ المصباح المنير للفيومي (١/ ٣٨)؛ المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية بالقاهرة (١/ ٤١).

(٣) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصبهاني (ص: ١٠٩).

يوم القيامة(١)، قال تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [التوبة:٣٥].

والبخلُ خُلقٌ ذميمٌ ذمَّه الله ﷻ في كتابه الكريم، وتوعَّد أصحابَه بوعيدٍ شديد، وعقوبات تلحقهم في الدنيا والآخرة، يقول الله تعالىٰ: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [آل عمران:١٨٠]، ولشناعة البُخْل تعوذّ منه النبي ﷺ بقوله: «اللهم إني أعوذُ بك من الهَمِّ والحَزَنِ، والعَجز والكَسَل، والبُخْل والجُبْن وضلع الدين وغلبة الرجال»(٢).

ويبيّن ابنُ القيم ﷺ بأنَّ البخيلَ الذي يعطيه الله ﷻ من ماله ثم لا ينفق علىٰ نفسه وعلىٰ أهله وأولاده وعلىٰ الفقراء والمساكين، ويريد أن يحافظ عليه، فهو فقير، ولكنّه لا يُؤْجر علىٰ فقره، بل الفقير أفضل منه؛ لأنه يؤجر علىٰ فقره، إذ أن الله ﷻ قد ابتلاه بالفقر، وقد صبر علىٰ هذا الابتلاء، فيثيبه الله علىٰ صبره(٣)، يقول النبي ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»(٤).

يقول علي ﷺ: «عجبتُ للبخيل يستعجل الفقر الذي منه هرب، ويفوته الغنىٰ الذي إيّاه طلب، فيعيش في الدنيا عيش الفقراء، ويحاسب في الآخرة حساب الأغنياء»(٥).

---

(١) ينظر: https://www.alukah.net/sharia/0/96294.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ٢٣) برقم: (٢٨٢٣).
(٣) ينظر: دروس الشيخ محمد إسماعيل المقدم (٢٥/ ١٠).
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٢٢٧) برقم: (٢٩٩٩).
(٥) الشكوىٰ والعتاب للثعالبي (ص: ١٥٨)؛ ربيع الأبرار ونصوص الأخيار لجار الله الزمخشري (٣/ ٤٢٢).

٩٢١

الشَّـرَه مـانع من الخـير

قال ابن القيّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «لو قدَّمْتَ لقْمةً وجدتَّها، ولكن يؤذيك الشَّرَه»[(١)].

بيـان المفردات

الشَّرَه: أسوأ الحرص، وهو غلبة الحرص، يقال: شَرِه فلانٌ إلىٰ الطعام يشْـرَه شَـرَها إذا اشتد حِرْصُه عليه[(٢)].

المعنى الإجمـالي

ما يقدمه الإنسان من خير ويتصدَّق به يجِد ثوابَه عند الله، قال تعالىٰ: ﴿ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ﴾ [المزمل:٢٠]، وعن عائشة أنهم ذبحوا شاة، فقال النبي ﷺ: «ما بقي منها؟» قالت: ما بقي منها إلا كتفها، قال: «بقي كلُّها غير كتفها»[(٣)].

وحتىٰ لو كان ما يقدمه الإنسان قليلا وصغيرا فله أجره عليه، حتىٰ لو كان لقمة واحدة يقدمها في سبيل الله، فالإنسان بحاجة لكل حسنة يوم القيامة،

(١) الفوائد لابن القيم (ص: ٨٨).

(٢) لسان العرب لابن منظور (١٣/ ٥٠٦).

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٢٥٤) برقم: (٢٤٧٠)؛ وأحمد في مسنده (١١/ ٥٨٥٨) برقم: (٢٤٨٧٧).

يوم لا يجد إلا ما قدّم، قال ﷺ: «ليقفن أحدكم بين يدي الله، ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان يترجم له، ثم ليقولن له: أَلَمْ أُوتِكَ مالا؟ فليقولن: بلىٰ، ثم ليقولن: ألم أُرسِلْ إليك رسولا؟ فليقولن: بلىٰ، فينظر عن يمينه فلا يرىٰ إلا النار، ثم ينظر عن شماله فلا يرىٰ إلا النار، فليتقين أحدكم النار ولو بشق تمرة، فإن لم يجد فبكلمة طيبة»(١).

ولكن المانع الذي يمنع الإنسان من عمل الخير، ويسبب له الأذىٰ والضرر والتصرف علىٰ خلاف ما تقتضيه مصلحته، هو الشَّرَه والحرص المستحكم في قلب الإنسان، حيث يدفع الشرهُ الإنسانَ لأن يستكثر من الدنيا وحطامها، حتىٰ لا يتبقىٰ لآخرته مقدار لقمة واحدة لكي يقدمها من أجل مرضاة الله.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ١٠٨) برقم: (١٤١٣)؛ ومسلم في صحيحه (٣/ ٨٦) برقم: (١٠١٦).

٩٢٢

إمساك المال وإنفاقه

قال بعض الصالحين رحمه الله: «أنت للمال إذا أمسكته، فإذا أنفقته فالمال لك»(١).

بيان المفردات

الإمساك: المراد به هنا البخل(٢).

المعنى الإجمالي

المال مالُ الله آتاه الله للإنسان وجعله مستخلفا عليه، قال تعالى: ﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمۡ ﴾ [النور:٣٣]، وقال تعالى: ﴿ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴾ [الحديد:٧]، فالواجب على المسلم أن يستعمل المال بالوجوه التي شرعها الله له، وأن لا يتمسّك به تمسّكا شديدا يجعله يفقد التوازن المطلوب في إنفاقه.

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة (٣/ ٢٠٢).
(٢) العين للخليل بن أحمد (٥/ ٣١٨).

وقد جاءت أدلة كثيرة في الحث على الإنفاق والتحذير من الإمساك، قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴾ [الليل: ٥-١١]، وقال ﷺ: «ما مِن يومٍ يصبح العبادُ فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقا خلَفا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسِكا تلَفا»(١).

فإذا أنفق الإنسان ماله على الحقوق والأبواب المشروعة كان هذا المال نافعا له وجالبا لمصلحته، وأما إذا بخل به وأمسك عن إنفاقه فسيكون عبدا لهذا المال، لأنه يحرص على جمعه ويقوم على خدمته والحفاظ عليه، قال رسول الله ﷺ: «تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة(٢)»(٣).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ١١٥) برقم: (١٤٤٢)؛ ومسلم في صحيحه (٣/ ٨٣) برقم: (١٠١٠).

(٢) **الخميصة**: هي ثوب خز أو صوف معلَّم. وقيل: لا تسمى خميصة إلا أن تكون سوداء معلَّمة، أي: ذات أعلام وكانت من لباس الناس قديما، وجمعها الخمائص. النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (٢/ ٨١).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ٣٤) برقم: (٢٨٨٦).

بـــاب الثناء الحسن

٩٢٣

عنوان صحيفة المؤمن

قال عبد الله بن مسعود ﵁: «عنوان صحيفة المؤمن يوم القيامة الثناء الحسن»[١].

المعنى الإجمالي

مما يبقى للعبد بعد وفاته الثناء الحسن، الذي سماه الله في القرآن الكريم لسانَ صدقٍ، قال الله تعالى عن أنبيائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم الصلاة والسلام: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم:٥٠]، يعني: ثناء حسنًا رفيعا، يثني عليهم جميع أهل الأديان بعدهم[٢]. يقول الطبري: «وإنما وصف جلَّ ثناؤه اللسان الذي جعل لهم بالعلو؛ لأن جميع أهل الملل تحسن الثناء عليهم، والعرب تقول: قد جاءني لسان فلان، تعني ثناءه أو ذمه»[٣].

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٨/ ٢٣٥).

(٢) ينظر: تفسير مقاتل بن سليمان (٢/ ٦٣٠)؛ والتفسير المنير للزحيلي (١٦/ ١٠٣).

(٣) تفسير الطبري (١٨/ ٢٠٨)

وقال عن دعاء نبيه إبراهيم ﷺ: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ [الشعراء:٨٤]، وقد ظهر الثناء الحسن لإبراهيم ﷺ في الأمم التي جاءت بعده، فأعطاه الله ﷻ ذلك، فكل أهل الأديان يتولونه ويثنون عليه[1].

(١) تفسير الثعلبي (٧/ ١٧٠).

٩٢٤

ثنــاء الأرض والسماء

قال كعب الأحبار ﵀: «ما استقر لعبد ثناء في الأرض حتى يستقر في السماء»[(١)].

المعنى الإجمـالي

ارتباط ثناء الناس واستقراره للعبد في الأرض بما يكون له عند الله في السماء؛ فالمحبة والثناء من الناس لا تكون إلا برضا الله، وجعْلِ قلوب الناس تميل إليه، ألم يقل الله تعالىٰ مخاطبًا نبيه موسىٰ ﵇: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه:٣٩]، أي: حبَّبتك إلىٰ عبادي وخلقي، فحبَّبه إلىٰ آسيا امرأة فرعون، حتىٰ تبنته وربَّته وغذَّته، وإلىٰ فرعون حتىٰ كفَّ عنه عناده وشرَّه، وقد قيل: إنما قيل: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ لأنه حببه إلىٰ كل من رآه[(٢)].

وروىٰ أبو هريرة ﵁ عن النبي ﷺ قال: «إن الله ﷻ إذا أحب عبدا دعا جبريل ، فقال : يا جبريل! إني أحب فلانا فأحبه ! فيحبه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يحب فلانا! فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض،

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٥/ ٣٦٦).
(٢) تفسير الطبري (١٨/ ٣٠٣).

وإن الله ﷻ إذا أبغض عبدا دعا جبريل، فقال: يا جبريل! إني أبغض فلانا فأبغضه! فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلانا فأبغضوه! فيبغضه أهل السماء، ثم توضع له البغضاء في الأرض»(١).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١١١) برقم: (٣٢٠٩)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٤٠) برقم: (٢٦٣٧).

باب البر وحسن الخلق

٩٢٥

الدعاء مع البر

قال أبو ذر الغفاري[(١)] رضي الله عنه: «يكفي من الدعاء مع البر ما يكفي الملح من الطعام»[(٢)].

المعنى الإجمالي

يشمل البر على كل الطاعات القلبية والقولية والفعلية واجتناب كل معصية فيها، والتخلق بأخلاق وسلوك المؤمنين، والابتعاد عن أخلاق الأشرار والفجار، والاجتهاد على الالتزام بشرع الله دون زيادة أو نقصان أو ابتداع أو نكران.

إن العبد إن كان ذا بر ومعروف وخير فإنه يكفيه من الدعاء قليله؛ فليس الدعاء بكثرته وتنميق ألفاظه المسجوعة، لكنه بحضور العقل والقلب فيه، وتحري الحلال الطيب في المأكل والمشرب، والتضرع بين يدي الله تعالى، والإتيان بجوامع الكلم التي كان النبي ﷺ يدعو بها. وأن يبتعد عن الاعتداء في الدعاء لقوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ [الأعراف:٥٥].

---

(١) أبو ذر جندب بن جنادة الغفاري، أحد السابقين الأولين، أسلم في أول المبعث ثم رجع إلى بلاده ثم هاجر إلى المدينة، وكان رأسا في العلم والزهد والجهاد وصدق اللهجة والإخلاص، انقطع في آخر أيامه بالربذة سنوات حتى توفي سنة ٣٢هـ. ينظر: تذكرة الحفاظ للذهبي (١/ ١٨)؛ وتاريخ الإسلام للذهبي (٢/ ٢١٨).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (١/ ١٦٤).

إن العبد يرجو رحمة الله باليسير من البر كما يرجوه بالكثير من البر سواء، ويخاف سخط الله باليسير من الذنوب، كما يخاف سخطه بالكثير من الذنوب سواء، ولا يكون حسن الرغبة في كثير من الحسنات إلا كان في القليل كذلك[١].

والدعاء مع البر وكثرة الأعمال الصالحة والمداومة عليها، يكفي منه القليل الذي يصلح به حال العبد وأسرته ومجتمعه وأمته، فإن الله لن يرد سائلًا علم قدر الله تعالىٰ، فدعاه بأسمائه وصفاته، ووضع حاجته بين يدي علام الغيوب.

(١) آداب النفوس للحارث المحاسبي (ص: ١٥٨).

٩٢٦

البر والأخلاق

قال عبد الله بن عمر[(١)] رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «إن البر شيءٌ هيِّن: وجهٌ طليقٌ وكلام لين»[(٢)].

المعنى الإجمالي

البرُّ اسمٌ جامعٌ لكل معاني الخير والإيمان، وليس مقالًا يكتب في كتاب، أو فلسفة لا يصل إليها إلا من يملكها، ولكن البر شيء هين سهل لا عسر فيه، لمن يسره الله عليه؛ فمن عبادات ومعاملات، إلىٰ إشراقة الوجه ولين كلام، فالكل في المسمىٰ الإسلامي برٌّ يؤجَرُ عليه المسلم.

وقد ورد في الحديث عن النواس بن سمعان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه قال: سألتُ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن البر والإثم؟ قال: «البرُّ حسن الخلق، والإثم ما حاك في نفسك، وكرهت أن يطلع عليه الناس».[(٣)]

(١) عبد الله بن عمر بن الخطاب القُرَشِيّ العدوي، أبو عبد الرحمن، صحابي مشهور، أسلم بمكة مع أبيه وهو صغير، هاجر إلىٰ المدينة ولم يشهد بدرا وأُحُدا لصغر سنه، وهو من المكثرين في الرواية والفتوىٰ من الصحابة، توفي سنة ٧٣هـ. ينظر: الطبقات الكبرىٰ لابن سعد (٤/ ١٣٣)؛ وأسد الغابة لابن الأثير (٣/ ٣٣٦).

(٢) الصمت وآداب اللسان لابن أبي الدنيا (ص: ١٨٠).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٦) برقم: (٢٥٥٣).

ويؤجر المرء المسلم علىٰ سهولته ولين تعامله، وهو بطلاقة وجهه وتبسمه في وجه أخيه المسلم يقدم معروفًا من المعروفات، وصدقة من الصدقات، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «كل معروف صدقة، وإن من المعروف أن تلقىٰ أخاك بوجه طَلق، وأن تُفرِغ من دلوك في إناء أخيك»(١).

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تبسمك في وجه أخيك صدقة»(٢).

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٣/ ٥١٥) برقم: (٢١٠٩)؛ وأحمد في مسنده (٢٣/ ١٦١) برقم: (١٤٨٧٧).

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه (٣/ ٥٠٦) برقم: (١٩٥٦)؛ وابن حبان في صحيحه (٢/ ٢٢١) برقم: (٤٧٤).

٩٢٧

أثر الكلمة

قال أبو عِنَبَة الخَولاني[(١)] رَحِمَهُ اللَّهُ: «رُبَّ كلمةٍ خيرٌ مِن إعطاءِ المالِ»[(٢)].

المعنى الإجمالي

قال تعالىٰ: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ [الإسراء:٥٣].

وجاء في الحديث عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قوله ﷺ: «الكلمة الطيبة صدقة»[(٣)].

وفي الآية الكريمة أمر من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لنبيه ﷺ أن يرشد المؤمنين إلىٰ انتقاء الكلمة الطيبة، والمقالة التي هي أحسن من غيرها، وفي الحديث الشريف بيان من النبي ﷺ لفضل الكلمة الطيبة وثوابها، فهي كلمة ينطق بها قائلها فتعد له صدقة يثاب عليها، كما يثاب علىٰ ما ينفقه من مال؛ وذلك لما للكلام من أثر عظيم، فبه يتعارف الناس

(١) مشهور بكنيته، اختلف في اسمه، قيل: عبد الله بن عنبة، وقيل: عمارة، أبو عِنَبَة الخولاني، الصحابي، المعمَّر، شهد اليرموك، وصاحب معاذ بن جبل، وسكن حمص، توفي سنة ٩٠هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٣/ ٤٣٣)، وتذهيب تهذيب الكمال للذهبي (١٠/ ٣٥٢)؛ وتاريخ الإسلام للذهبي (٢/ ١٠٣٠).

(٢) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (١/ ٢٣٥).

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ١٨٧) برقم: (٢٧٠٧)؛ ومسلم في صحيحه (٣/ ٨٣) برقم: (١٠٠٩).

ويتقاربون، وبه يتحاجون ويتفاضلون، ولولاه لما ظهرت ثمرات العقول والمدارك، ولما تزايدت العلوم والمعارف، ولما ترقىٰ الإنسان في درجات أنواع الكمالات، ولما امتاز عن بقية الحيوانات(١).

ورُبَّ كلمة خير جبرت خاطرًا، وأورثت ودًّا، وأنارت دربًا، ورُبَّ كلمة سوء كسرت قلبا، وأورثت بغضا، وأوقدت حربا.

ومن جميل الكلام المبين لهذه الحكمة قول أبي عمير الصوري رحمه الله: «كلمة حكمة لك من أخيك خير لك من مال يعطيك؛ لأن المال يطغيك، والكلمة تهديك»(٢).

(١) ينظر: تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير (ص: ١١٣).
(٢) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (١/ ٢٣٦).

٩٢٨

الموعظة الحسنة

قال سفيان الثوري رحمه الله: «المؤمن إذا وَعَظ لم يُعَنِّف، وإذا وُعِظ لم يَأْنَف»(١).

بيان المفردات

وعظ: الوعظ: التخويف، والاسم: العظة. قال الخليل: هو التذكير بالخير فيما يرق له قلبه، والوعظ والعظة والموعظةُ: تذكرتك الإنسان بما يلين قلبه من ثواب وعقاب(٢).

المعنى الإجمالي

إن من الأخلاق الحسنة التي حث عليها الإسلام ورغَّب فيها القول الحسن في التعامل العام بين الناس جميعا، وفي الدعوة إلى الله، وفي مجادلة أهل الباطل.

ومن الأدلة القرآنية على ذلك قول الله تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنًا﴾ [البقرة:٨٣]، وقوله تعالى ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [النحل:١٢٥].

(١) الأمثال والحكم للماوردي (ص: ٢٦٣).

(٢) ينظر: مجمل اللغة لابن فارس (٢/ ٩٣١)؛ والمحكم والمحيط الأعظم لابن سيده (٢/ ٣٣٣).

والوعظ القائم على خشونة اللفظ وفظاظته، وضعف تقدير الداعية لذلك، يورث بين الداعية والمدعوين وحشة وانقطاعًا في التواصل الجيد القائم على حسن اختيار الألفاظ والتراكيب.

ومما يذكر في القول اللين والموعظة الحسنة أن الله تعالى أمر نبييه موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام أن يقولا لفرعون قولًا لينًا؛ لعله يهتدي ويخشى الله تعالى.

٩٢٩

مكانـــة الأدب من العلم

قال عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «نحن إلى قليلٍ من الأدب أحوج مِنّا إلى كثيرٍ من العلم»[١].

المعنى الإجمـــالي

إن العلم محبوب للنفس، كما قال النبي ﷺ: «منهومان لا يشبعان: طالب علم، وطالب دنيا»[٢] بخلاف الأدب؛ فإنه ضدّ هوىٰ النفس غالبًا، ومن ثم سميت عقوبة العبد علىٰ الأدب تأديبًا وأدبًا، ثم الأدب لا يتيسر من جهة النفس حتىٰ يعاشر أهل الأدب، ويخالطهم، ويذل لهم، ويغتنم صحبتهم قبل فوات أحيانهم، وتغيب أعيانهم»[٣].

والأدب في الإسلام هو السلوك الإنساني المتسم برفعة الأخلاق المنبثقة من الشرع الإسلامي، المتفقة مع فطرة النفس البشرية السوية، والعرف المجتمعي الصحيح الذي لم يتلوث بلوثات الأفكار الضالة، والسلوكيات الواردة.

(١) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (٢/ ٤٤٧).

(٢) أخرجه الدارمي في مسنده (١/ ٣٥٧) برقم: (٣٤٦)؛ والبزار في مسنده (١١/ ١٤٨) برقم: (٤٨٨٠)؛ وابن أبي شيبة في مصنفه (١٣/ ٣٣٧) برقم: (٢٦٦٤٢)؛ وأخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ٧٦) برقم: (١١٠٩٥).

(٣) حسن التنبيه لما ورد في التشبيه لنجم الدين الغزي (٢/ ٣٤٨).

وليس الأدب مخصوصًا بفئة المتعلمين فحسب، بل هو لكل أفراد المجتمع، وإنما خُصَّ المتعلمون بالذكر لسيرهم سير القدوات وحاملي مشاعل الخير والصلاح.

لقد أجمع المربون -قديمًا وحديثًا- علىٰ أن يكون الأدبُ مقدَّمًا علىٰ طلب العلم؛ وذلك أن المتعلم إن لم يتحلَّ بما يصلح حاله من الأدب والخلق فإن علمه لا يكون واضحَ الأثرِ في أدائه العملي، وسلوكه الفردي والمجتمعي، بل يضر ولا ينفع، ويُفسد ولا يُصلح، ويفرق ويشتت، ولا يُجمِّع ولا يُوحِّد.

ولذلك فقد اتفق العلماء الأقدمون والمحدثون علىٰ وضع أخلاقٍ وصفات يتميز بها طالب العلم عن غيره؛ منها أن يكون طلبه للعلم خالصًا لله وابتغاء مرضاته، وأن يغتنم لحظاته وساعاته وأيامه وشهوره وسني عمره في طلب العلم وتعليمه، وأن يقلل من منامه وطعامه وخلطته بالآخرين، وأن يصاحب من كان صالحًا، ديِّناَ، تقيًا، ورعًا، ذكيًا، كثير الخير، قليل الشر، وأن يأخذ نفسه بالورع بتحري الحلال واجتناب الحرام في مطعمه ومشربه وملبسه ومسكنه(١).

(١) ينظر: طالب العلم بين أمانة التحمل ومسؤولية الأداء لمحمد بن خليفة التميمي (ص: ٢٢-٢٤).

٩٣٠

وجود النقص في غيرك لا يجعلك مميَّزًا

قال عبد الرزاق القاشاني ﵀: «افتخر بفضيلة نفسك، لا بنقيصة غيرك»[1].

المعنى الإجمالي

إن قيمة كل إنسان هي ما يحسنه، والموفق هو من يسعىٰ في تزكية نفسه، وتنمية مواهبه، ليترقىٰ في مراتب الفضل، والإنسان إنما يفتخر بما يملك من فضائل، وما يحصّله من معارف، فالرفعة والمجد كل المجد إنما هو لأهل العلم. ونُسب إلىٰ علي قوله:

ما الفخر إلاّ لأهل العلم إنهمُ ... علىٰ الهدىٰ لمن استهدىٰ أدِلَّاءُ
وقدْر كلِّ امرئٍ ما كان يُحسنه ... والجاهلون لأهل العلم أعداءُ[2]

والشخص الذي يرىٰ صورة نفسه صغيرة تجده غالبًا يُضَخِّم عيوب الآخرين، ويزدري أهل العلم والفضل، بل إن عينه لا تقع إلا علىٰ هفواتهم ونقائصهم؛ ليستر عيب نفسه ونقصها، فكأنه يواسي نفسه إن رأىٰ نقائص الآخرين وعيوبهم.

(١) آداب الطريقة وأسرار الحقيقة للشيخ عبد الرزاق القاشاني (ص: ١٠٤).
(٢) زهر الأكَم في الأمثال والحِكَم للحسن بن مسعود اليوسي (١/ ٢٦٤).

والانشغال بعيوب الناس يؤدي إلى الوقوع في أعراضهم وغيبتهم، وإلى ازدرائهم واحتقارهم، وهذا هو الكبر الذي أخبر عنه النبي ﷺ بقوله: «الْكِبْرُ بَطَر الحق وغَمْطُ الناس»[١].

ولا يحل للمسلم أن ينظر إلى أخيه نظرة احتقار وإهانة، بل يغض طرفه عن نقائصه، ويشغل باله في إصلاح نفسه، فإن النبي ﷺ حذّر من احتقار المسلم لأخيه فقال: «بحَسْب امرئٍ من الشرِّ أن يحقِر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام؛ دمه وماله وعرضه»[٢].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٦٥) برقم: (٩١). ومعنى: **بطر الحق**: دفعه وردُّه، ومعنى: **غمْط الناس**: احتقارهم. ينظر: رياض الصالحين للنووي (ص: ٢٠٢).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ١٠) برقم: (٢٥٦٤).

٩٣١

الاعتدال في الأخلاق

قال ابن القيم رحمه الله: «للأخلاق حدٌّ متى جاوزتْه صارت عُدوانًا، ومتى قصَّرتْ عنه كان نقصًا ومهانةً»[(١)].

بيان المفردات

الأخلاق: جمع الخُلق بضم اللام وسكونها، الطبع والسجية، وفي الاصطلاح هي: صفة مستقرة في النفس -فطرية أو مكتسبة- ذات آثار في السلوك محمودة أو مذمومة[(٢)].

الحدّ: أصله حَددٌ، وهو الفصل بين الشيئين لئلا يختلط أحدهما بالآخر، أو لئلا يتعدىٰ أحدهما علىٰ الآخر، وجمعه حدود، ومُنتَهىٰ كل شيء: حَدّه[(٣)].

العدوان: الظلم وتجاوز الحد، يقال: عَدَا عليه يَعْدُو عَدْوًا وعُدُوًّا وعُدْوَانًا: ظلم وتجاوز الحدّ[(٤)].

المهانة: الذل والضعف، مَفْعَلة من الهَوانِ، ومِيمها زائدةٌ[(٥)].

(١) الفوائد لابن القيم (ص: ٢٠٣).

(٢) لسان العرب لابن منظور (١٠/ ٨٦)؛ الأخلاق الإسلامية وأسُسها لعبد الرحمن حبنكة الميداني (ص: ١٠).

(٣) لسان العرب لابن منظور (٣/ ١٤٠).

(٤) المصباح المنير للفيومي (٢/ ٣٩٧).

(٥) لسان العرب لابن منظور (١٣/ ٤٣٨).

المعنى الإجمالي

الحكمة تشير إلىٰ أهمية الاعتدال والبعد عن الإفراط والتفريط في كل شيء حتىٰ في الأخلاق، لأن الأخلاق الحسنة كالشجاعة والغضب والحياء وغيرها إذا جاوزت عن الحد تصير مذمومة، كذلك إذا نقصت عن القدر المطلوب تعدّ نقصا وضعفا، مثلا الشجاعة في حدودها صفة مطلوبة، ولكن إذا زادت عن الحد فهي تهوُّر، وإن نقصت فجبن وضعف، وهكذا الغضب صفة محمودة إذا كانت في حدودها يعرف متىٰ يغضب ومتىٰ يمسك وبأي قدر، ولكن عند تجاوز الحد يكون تعديا وجهلا، وعند النقص يكون ضعفا وذلة، وهكذا الحياء صفة حميدة، ولكن إن زادت حيث تُمْسكه عن العمل أو عن مواجهة الناس صارت عقبة في طريق النجاح، وإن نقصت صارت جرأة مذمومة تدفعه لارتكاب الخطأ.

والاعتدال كله خير، ومن مظاهره في القرآن الكريم قوله تعالىٰ: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [المائدة:٨]، وفي السنة ما روي عن أبي هريرة ﷺ يقول: «أحبِب حبيبك هونًا ما عسىٰ أن يكون بغيضك يومًا ما، وأبغض بغيضك هونًا ما عسىٰ أن يكون حبيبك يومًا ما»[١].

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٣٦٠) برقم: (١٩٩٧)، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه بهذا الإسناد إلا من هذا الوجه، والصحيح عن علي موقوف قوله؛ وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (١/ ٤٤٧) برقم: (١٣٢١)؛ والطبراني في الأوسط (٣/ ٣٥٧) برقم: (٣٣٩٥)، وفي رفعه ضعف.

باب الرفق والرحمة بالخلق

٩٣٢

الشفقة على الخلق

روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: «ارحمُوا الفقراءَ لقلَّةِ صبرِهم، وارحموا الأغنياءَ لقلة شكرِهم، وارحموا الجميعَ لقلة معرفتهم»(١).

المعنى الإجمالي

هذه حكمة جليلة من سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه في بيان أحوال الناس، ذكر فيها أكثر ما يتصف به كل طائفة من الناس على اختلاف أحوالهم، وما الذي ينبغي أن يعذرهم فيه غيرهم، فقال في وصف الفقراء: ارحموا الفقراء لقلة صبرهم، لأن الفقراء يغلب عليهم الضجر والخوف وعدم التأني في الأمور، وذلك لتراكم الحاجات عليهم وعدم قدرتهم على القيام بها، فإذا بدر من أحدهم أمرٌ من قلة صبرٍ، ينبغي أن يُعذروا في ذلك ويُعطَف على حالهم.

أما الأغنياء، فأكثر أوصاف الأغنياء هو قلة الشكر لله تعالى وقصورهم في القيام بالطاعة، لأن كثرة الغنى تُنسِي الخالقَ ويورث الغفلةَ، فأغلب الأغنياء مقصرون في أداء شكر نِعَم الله، ويستحقون الرحمة والشفقة من الآخرين في ذلك.

---

(١) ذكره أبو سعد الخركوشي في تهذيب الأسرار في أصول التصوف (ص: ٣٧)؛ وينظر: تهذيب خالصة الحقائق ونصاب غاية الدقائق للفاريابي (ص: ٩٦).

وجميع الناس مصابون بالجهل، فالإنسان مهما كثر علمه تغيب عنه أشياء، فالعالم أيضا يحتاج إلىٰ الرحمة فيما لم يعلمه، وأكثر الناس ليسوا علماء، بل يعيشون في جهل وضلال، وهذا يجعلهم محتاجين إلىٰ الرحمة واللطف في التعامل معهم، لأن الجاهل معذور، والله أعلم.

٩٣٣

الاطلاع على أسرار العباد

قال ابن عطاء الله السكندري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَن اطَّلَعَ على أسرارِ العبادِ ولَم يتخلَّقْ بالرحمةِ الإلهيةِ، كان اطلاعُه فتنةً عليه، وسببًا لِجَرِّ الوبالِ إليه»(١).

المعنى الإجمالي

الاطلاع علىٰ أسرار الناس قبل التمكن من خُلُق الرحمة والشفقة والنصيحة لكل مسلم يكون فتنة عظيمة وبلية ومصيبة لصاحب تلك الأسرار، وربما قد يعتقد بذلك المزية علىٰ الناس، فيدخله الكبرُ والعجبُ، وهما أصل المعاصي، فكان اطلاعه حينئذ علىٰ أسرار العباد سببًا في جرِّ هذا الوبال، أي: العقوبةِ إليه، وهو التكبر علىٰ الناس واعتقاد المزية عليهم، وهو سبب البعد عن الله سبحانه، بخلاف ما إذا تمكَّن في معرفة الله تعالىٰ وتخلَّق بأخلاقه، وتحقَّق بمعاني صفاتِه وأسمائه، فإنه يكون علىٰ خُلُق الرحمن، فإذا اطلع علىٰ معاصي العباد ومساويهم رحمهم وحلم عليهم(٢).

قال رسول الله ﷺ: «الخَلْقُ عيالُ اللهِ، وأقربُهم إلىٰ الله أنفعُهم لعياله»(٣).

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ١٢).

(٢) إيقاظ الهمم لابن عجيبة (ص: ٣٦٠).

(٣) أخرجه البزار في مسنده (١٣/ ٣٣٢) برقم: (٦٩٤٧)؛ وأبو يعلىٰ في مسنده (٦/ ٦٥) برقم: (٣٣١٥).

وقال ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمنُ، ارحَمُوا مَن في الأرضِ يرحمكم مَن في السماء»(١).

وهذه الحكمة تأتي كالتعليل للحكمة الأخرىٰ، وهي قول ابن عطاء الله ﵀: «ربما أطْلَعَك علىٰ غيبِ ملكوتِهِ، وحَجبَ عنك الاستشرافَ علىٰ أسرارِ عبادِهِ»(٢). لأن للسائل أنْ يسأل: ما الحكمة التي اقتضتْ أن يحجبَ اللهُ عن الإنسان -مهما كان شأنه وعلتْ مرتبتُه- أسرارَ عباده وخفايا أحوالهم؟ والجواب عليه -من خلال هذه الحكمة- أن الإنسان يجب أن يلتزم جانبَ الأدب مع الناس جميعًا، فيُحسِن الظنَّ بهم ما وسعه ذلك، ويحمل ما يراه من تصرفاتهم علىٰ محمل الخير، فإن اطلع علىٰ أسرارهم البشرية التي تتحكم بها -في الغالب- الغرائزُ والرغباتُ والأهواءُ النفسيةُ، فلا بد أن يحمله ذلك علىٰ التخلِّي عن واجب الأدب معهم وحسن الظن بهم، ما لم يتخلق بأخلاق الله تعالىٰ ويتحكم به سلطان الرحمة الإلهية، بحيث ينظر إليهم وإلىٰ ما بدا من خفيِّ شؤونهم وأحوالهم بالعين التي ينظر بها اللهُ إليهم وإلىٰ خفيِّ أحوالهم(٣).

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٤/ ٤٤٠) برقم: (٤٩٤١)؛ والترمذي في جامعه (٣/ ٤٨٣) برقم: (١٩٢٤).

(٢) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ٦٧).

(٣) ينظر: الحكم العطائية شرح وتحليل للبوطي (٤/ ١٠٢).

باب الصحبة الصالحة

٩٣٤

مجالسة التوابين

قال عمر بن الخطاب ﷺ: «جالسوا التوابين؛ فإنهم أرَقُّ شيءٍ أفئدة»[(١)].

بيان المفردات

أفئدة: جمع فؤاد، والفؤاد: القلب، وقيل: الفؤاد: وسط القلب، وقيل: غشاء القلب والقلب حبَّتُه وسُوَيْداؤه[(٢)].

المعنى الإجمالي

إن التوبة تصفي القلب وتُرَقِّقه، ويزداد صفاؤه مع تدبر كلام الله تعالىٰ والتأمل في خلق الله، وفي النعم التي أسبغها علىٰ عباده، فيستشعر العبد فضل الله عليه، ويتوب إليه من تقصيره، ويندم علىٰ زلاته وتفريطه.

«ومن علامة صدق التوبة رقة القلب وغزارة الدمع»[(٣)]، ومصاحبة ومجالسة من تابوا إلىٰ الله ترقق القلوب؛ لأن التوابين قد أخلصوا توبتهم لله، ووجَّهوا قلوبهم

(١) الزهد لوكيع بن الجراح (ص: ٥٤٤).

(٢) ينظر: لسان العرب لابن منظور (٣/ ٣٢٩).

(٣) قوت القلوب لأبي طالب المكي (١/ ٣٠٦).

إليه، فأصبحوا بعد توبتهم كمن لا ذنب له[1]، والمرء علىٰ دين خليله، ومن أطال صحبة قوم أخذ من طباعهم.

والتوابون الذين يُقصَدُون في المجالسة هم ذوو العزائم القوية، والقلوب الرحيمة الخاشعة، والعيون الدامعة، الذين يكثرون التوبة ولا يصدهم الشيطان ووساوسه عن الرجوع إلىٰ الله كلما وقعوا في الذنب، وكيف لا يجالَسون وقد أحبهم الله تعالىٰ، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢].

(١) يشهد لهذا قول النبي ﷺ: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»، أخرجه ابن ماجه في سننه (٥/ ٣٢٠) برقم: (٤٢٥٠)؛ والبيهقي في سننه (١٠/ ١٥٤) برقم: (٢٠٦٢٦)؛ والطبراني في المعجم الكبير (١٠/ ١٥٠) برقم: (١٠٢٨١).

٩٣٥

الفقهاء قادة

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «المتقون سادةٌ، والفقهاءُ قادةٌ، ومجالستُهم زيادة»[(١)].

بيان المفردات

المتقون: مِن التقوىٰ، وهي: الحذر وجَعْلُ النفس في وقاية مما تخاف، والتقيُّ هو: الذي وقىٰ نفسه من العذاب والمعاصي بالعمل الصالح[(٢)]. وقال ذو النون المصري: «التقيُّ: من لا يُدَنِّس ظاهره بالمعارضات، ولا باطنه بالعُلالات، ويكون واقفًا مع الله موقف الاتفاق»[(٣)].

الفقهاء: جمع فقيه، والفقيه هو: الزاهد في الدنيا، الراغب في الآخرة، البصير بدينه، المداوم علىٰ عبادة ربه، الوَرِعُ الكافّ عن أعراض المسلمين، العفيف عن أموالهم، الناصح لجماعتهم[(٤)].

(١) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ١٣٣)؛ المعجم الكبير للطبراني (٩/ ١٠٥)؛ حلية الأولياء لأبي نعيم (١/ ١٣٣).

(٢) ينظر: لسان العرب لابن منظور (١٥/ ٤٠٣)؛ كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم للتهانوي (١/ ٥٠١).

(٣) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ٢٢٩).

(٤) هذا تعريف الحسن البصري. ينظر: قوت القلوب في معاملة المحبوب لأبي طالب المكي (١/ ٢٦٣).

المعنى الإجمـالي

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله، من أكرم الناس؟ قال: «أتقاهم»(١). فالأتقياء هم السادة؛ لأنهم أكرم الناس عند الله، وأما العلماء فهم القادة، وهم أئمة الهدىٰ وهداة الناس، وبهم يقتدي المتقون ويقتفون آثارهم؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان:٧٤]، ففضَّل العلماء علىٰ المتقين وجعلهم أئمة لهم، والناس حيث ينزل البلاء وتشتد عليهم الخطوب يلجؤون إلىٰ الفقهاء، وقد أمر الله الناس عند اشتباه الأمر عليهم أن يلجؤوا للعلماء، فقال: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣].

يروي أهل السير، أن عطاء بن أبي رباح دخل علىٰ عبد الملك بن مروان وهو جالس علىٰ سريره بمكة، وحوله الأشراف، فلما بصر به قام إليه، فسلم عليه وأجلسه معه علىٰ السرير، وقعد بين يديه، وقال له: يا أبا محمد، حاجتك؟ فأوصاه بالحرم وبأولاد المهاجرين والأنصار، وأوصاه بتفقد أحوال المسلمين، ثم نهض، فقام إليه عبد الملك، وقال: إنما سألتنا حوائج الناس، فما حاجتك؟ فقال: ما لي إلىٰ مخلوق حاجة، ثم خرج، فقال عبد الملك: هذا وأبيك الشرف وهذا وأبيك السؤدد(٢).

وإن في صحبة العلماء ومجالستهم زيادة في العلم، وتزكية للنفس، وإحياءً للقلب، قال ابن مسعود: «ثلاث من كن فيه ملأ الله قلبه إيمانًا: صحبة الفقيه، وتلاوة القرآن، والصيام»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١٧٨) برقم: (٣٤٩٠).

(٢) ينظر: تاريخ دمشق لابن عساكر (٤٠/ ٣٨٦).

(٣) بهجة المجالس وأُنْس المجالِس لابن عبد البر (ص: ١٩٩).

وقال عمر بن عبد العزيز: «لأن يكون لي مجلس من عبيد الله -يعني: ابن عبد الله بن عتبة- أحب إلي من الدنيا»[١].

(١) طبقات الفقهاء لأبي إسحاق الشيرازي (ص: ٦٠).

٩٣٦

زينـة المساجـد

قال خُلَيد بن عبد الله ﷺ: «إن لكل شيء زينة، وإن زينة المساجد المتعاونون على ذكر الله»[(١)].

المعنى الإجمـالي

جعل الله ما على الأرض زينة لها، فقال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف:٧]، وقال سبحانه: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ ﴾ [يونس:٢٤].

وتزين المساجد بزينتين: زينةٍ حسيةٍ وزينةٍ معنويةٍ، فأما الزينةُ الحسية فلا بأس بها، ويكره المبالغة فيها، حتى لا تكون مقصدًا وهدفًا في ذاتها، وأما الزينة المعنوية فهي المقصودة، ويراد بها عُمَّار المساجد، وهم المؤمنون التالون لكتاب الله تعالى، المكثرون من صلاتهم وذكرهم من تسبيح وتحميد وتهليل وتكبير.

إن العبد المسلم يجد له في المساجد نصيرًا ومعينًا على طاعة الله، وهؤلاء المعينون للعبد على الطاعة هم من وصفهم الله بالرجال، فقال تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٢/ ٢٣٣).

أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴾ [النور: ٣٦-٣٧].

ويجد العبد في المسجد من يؤنسه، ويثبته على صراط الله، ويرغبه في الخير؛ فيجد أخا ناصحا، ويتعلم آية محكمة، ويفهم تفسيرها، ويقف على أحكامها، ويزداد إيمانا إلى إيمانه. وهذه هي زينة المساجد الحقيقية أن يجد المصلون فيها راحتهم، ويتعاونون فيها على طاعة الله، والمسارعة في فعل الخيرات والاستباق إليها.

٩٣٧

لا وَصْلَ يوم القيامة إلا ما كان لله

قال أبو عمران الجوني[(١)] رحمه الله: «إذا كان يوم القيامة انقطع كل وصلٍ ليس وصلاً في الله عز وجل»[(٢)].

المعنى الإجمالي

الأُخوَّة في الله وصلٌ يتعبد به المتعبدون، ويتقربون بها إلى الله تعالى؛ فما كانت الأخوة والوصال إلا لله، وفيه. وقد حرص نبينا ﷺ منذ قدومه المدينة المنورة على وضع وشيجة الأخوة العقدية القائمة على الإيمان والمحبة، وهي لا تقضي على وشيجة ورابطة الدم.

وارتبط مفهوم الأخوة بالإيمان فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات:١٠]، وفي يوم القيامة يتبرأ المتبوعون من أتباعهم، والمستكبرون من المستضعفين، وإبليس من أتباعه أجمعين، وتبقى أخوة المؤمنين المتقين في يوم الدين قائمة لم تنفصم عراها؛ لأنها لم تقم إلا على الإيمان بالله؛ إذ لا إيمان

(١) عبد الملك بن الحبيب أبو عمران الجوني، الإمام، الثقة، روى عن جماعة من الصحابة، وحدث عنه كبار التابعين، توفي سنة ١٢٣هـ وقيل: سنة ١٢٨هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٥/ ٢٥٥)؛ وتاريخ الإسلام للذهبي (٣/ ٥٧٦).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٢/ ٣١٣).

بلا أخوَّة، كما أنه لا أخوة بدون إيمان، قال تعالىٰ: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف:٦٧].

وقد ذكر الله تعالىٰ مجيء الظالمين يوم القيامة فرادىٰ كما خلقهم أول مرة، ليس معهم مما خولهم الله ومنحهم من النعم شيء، فقد تركوا كل شيء وراء ظهورهم، وأقبلوا علىٰ الله كما خلقهم، وتقطع ما كان بينهم من وصل، قال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [الأنعام:٩٤]، يعني تواصلهم الذي كان بينهم في الدنيا، ذهب ذلك اليوم، فلا تواصل بينهم ولا تواد ولا تناصر، وقد كانوا في الدنيا يتواصلون ويتناصرون، فاضمحل ذلك كله في الآخرة، فلا أحد منهم ينصر صاحبه، ولا يواصله(١).

وكل ما عُبد وأُحِب من دون الله تنقطع تلك العبادة والمحبة في يوم القيامة، بل يكون الكفر بهم ولعن بعضهم بعضا؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [العنكبوت:٢٥].

(١) تفسير الطبري (١١/ ٥٤٨).

٩٣٨

محاذير الصحبة

قال شقيق البلخي رحمه الله: «اصحب الناس كما تصحب النار؛ خذ منفعتها واحذر أن تحرقك»[(١)].

المعنى الإجمالي

يكون الصاحب مع صاحبه في التعامل معه كمن يأخذ جذوة (قطعة) نار لتنير له طريقه، أو ليشعر بدفئها في أيامه الشاتية الباردة، ويحذر من تقلباتها وحرقها له، فتكون مضرتها أكثر من نفعها.

الصحبة التي تدوم بين الناس قامت على أمرين؛ الأول: أن تكون لله تعالى خالصة من كل الشوائب التي تحولها من الصدق إلى الكذب والتلون والنفاق، والثاني: أن تكون في حدودها بأن لا يتجاوز الصاحب خصوصيات صاحبه، فهناك من الأسرار ما لا يريد الصاحب من صاحبه أن يكشفها، أو أن يسأل عنها.

فالناس عندهم مواضع لا يسمحون لأحد الاقتراب منها؛ وهي خصوصياتهم الشخصية؛ من أسرار، وسوابق لا يريدون لأحد من الناس الاطلاع عليها.

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٨/ ٧٧).

٩٣٩

حياة القلوب وقسوتها بسبب الناس

قال بشر بن الحارث الحافي رَحِمَهُ اللهُ: «بحَسْبك أن قومًا موتى تحيا القلوب بذكرهم، وأن قومًا أحياء تقسو القلوب برؤيتهم»(١).

المعنى الإجمالي

ليس العبادُ سواءً؛ فمنهم من يُذَكِّرُون بالله والدار الآخرة عند رؤيتهم، والحديث عنهم، في حياتهم، وبعد مماتهم؛ لما يحملونه من صفاء القلوب ورقتها وخشيتها وإنابتها. فالصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ حين يرون رسول الله ﷺ، ويسمعون كلامه ووعظه، يزداد إيمانهم وشوقهم إلى الله تعالى. والتابعون إن رأوا الصحابة رأوا جيلًا ربانيًا ربَّاه النبي ﷺ على الإسلام، فيزداد حبهم لله ورسوله.

وممن يذكرون بالله تعالى برؤيتهم أولياء الله وأصفياؤه، من العلماء الربانيين؛ فهذا ابن القيم يحكي عن حاله وحال زملائه ممن تتلمذوا على شيخ الإسلام ابن تيمية، فيقول: «كنا إذا اشتدَّ بنا الخوف وساءت منا الظنون وضاقت بنا الأرض أتيناه، فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله وينقلب انشراحًا وقوة ويقينًا وطمأنينة. فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها

(١) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٥٠).

في دار العمل، فآتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها»[١].

ولقد وصف ابن الجوزي حال أولئك القوم فقال: «رحل القوم وبقيت الآثار في الآثار، سَلُوا طلول التعبد عنهم، فقالت: خلت الديار»[٢].

ومن العباد من إذا رُؤوا زال الإيمان، وجاءت الوحشة لتحل محل السكينة والأمن، والسخط محل الرضا، والقسوة للقلوب محل اللين والخشية والخشوع، وهؤلاء هم أهل الدنيا، حتىٰ لو كانوا من المقربين، ما لم يكونوا من أهل الله وأوليائه ومحبيه.

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب لابن القيم (ص: ٤٨).
(٢) التبصرة لابن الجوزي (١/ ٤٠١).

٩٤٠

إجلال الصالحين

قال أحمد بن حنبل رحمه الله: «لا ينبغي أن يُذكر الصالحون فيُتَّكأ»[١].

المعنى الإجمالي

السياق الذي ورد فيه هذا القول عن الإمام أحمد هو ما رواه عنه أبو زرعة قال: سمعت أحمد بن حنبل، وذكر عنده إبراهيم بن طهمان، وكان متكئا من علة، فاستوىٰ جالسا، وقال: لا ينبغي أن يذكر الصالحون فيتكأ.

إن من تعظيم شعائر الله تعظيم أهل الفضل والعلم والصلاح، ولا يَعرف الفضلَ لأهل الفضل إلا ذوو الفضل، وما تزال الأمة بخير ما عرفت قدر علمائها ورفعتهم إلىٰ مكانتهم التي يستحقونها، وكيف لا نُجِلُّ من رفع الله قدرهم في كتابه فقال: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ﴾ [المجادلة:١١]، وجعل النبي ﷺ إنكار حق العالم منافيا للإسلام، فقال: «ليس منا من لم يُجِلَّ كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقه»[٢].

وكان السلف يعظمون أهل العلم وأهل الصلاح، فهذا ابن عباس رضي الله عنهما يأخذ

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٧/ ١٣).

(٢) أخرجه أحمد مسنده (١٠/ ٥٣٧٥) برقم: (٢٣١٩٧)؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣/ ٣٦٥)؛ وقال ابن حجر: وصححه عبد الحق، أي: الإشبيلي. ينظر: إتحاف المهرة لابن حجر (٦/ ٤٣١).

بركاب زيد بن ثابت ﵁، فقال له: تَنحَّ يا ابن عم رسول الله ﷺ، فقال: «إنا هكذا نفعل بكبرائنا وعلمائنا»[١]. وهو ما دفع الإمام أحمد إلىٰ أن يُعدِّل جلسته عندما ذُكر أمامه أحد العلماء الصالحين، وهذا من الأدب الرفيع، فمع أن ابن طهمان لم يكن موجودا، إلا أن الأدب مع الكبار لا يقتصر علىٰ وجودهم، بل حتىٰ مع ذكر سيرتهم.

وقد ورد مثل هذا عن كثير من العلماء مع شيوخهم، يقول الربيع بن سليمان: «والله ما اجترأت أن أشرب والشافعي ينظر إليّ هيبة له»[٢]، وقال الشافعي ﵁: «قدمت المدينة فرأيت من مالك بن أنس ما رأيت من هيبته وإجلاله للعلم، فازددت لذلك، حتىٰ ربما كنت أكون في مجلسه فأريد أن أصفح الورقة فأصفحها صفحًا رقيقا، هيبه له؛ لئلا يسمع وقعها»[٣].

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٤٢٣) برقم: (٥٨٣٦)، وقال: صحيح علىٰ شرط مسلم، ولم يخرجاه.

(٢) أحكام القرآن للشافعي جمع البيهقي (١/ ١١).

(٣) مناقب الشافعي للبيهقي (٢/ ١٤٤).

٩٤١

مجالسة الأولياء

قال ذو النون المصري رَحِمَهُ اللهُ: «لا تُجالِسوا أهلَ الولايةِ والصفاءِ إلا على الطهارة والنقاء»[١].

بيان المفردات

الصفاء: الخلوّ من الكدَر[٢].

النقاء: نَقِي الشيءُ يَنقىٰ نَقاوة ونَقاءً فهو نقيّ أي: نظيف[٣].

المعنى الإجمالي

علىٰ المسلم أن يحرص علىٰ مجالسة الصالحين وأهل ولاية الله وطاعته، قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة:١١٩]؛ لأن في مجالستهم تذكير بالله وزيادة في الإيمان، حيث إن قلوب هؤلاء الصالحين تكون رقيقة رقراقة خاشعة، قال الله في وصف المؤمنين: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ

(١) تهذيب خالصة الحقائق ونصاب غاية الدقائق للفاريابي (ص: ٣٩٦).

(٢) المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية بالقاهرة (١/ ٥١٧).

(٣) لسان العرب لابن منظور (١٨/ ٣٣٨).

يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ [الأنفال: ٢-٣]، وقال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ [الحج: ٣٤-٣٥].

وحين يقوم المسلم بمجالسة الصالحين ينبغي أن يصفّيَ نيّته ويخلص القصد في الاستفادة والاقتداء بهم، لأن هذا هو الهدف المقصود من مجالستهم وزيارتهم، أما إذا كان للإنسان مآرب أخرىٰ ولم تكن نيته صافية؛ كأنْ يتطلّع بقلبه إلىٰ مكانة دينية أو دنيوية، فحينئذ يقل مقدار الفائدة أو ينعدم.

كذلك فإن أولياء الله يمتلكون قدرا عاليا من الفراسة بطبائع الناس وحقيقة أعمالهم، لأن قلوبهم صافية شفافة ينكشف لها قلب من يجالسها ويخالطها، ومهما حاول جليسهم أن يمثّل عليهم شخصية أخرىٰ ويظهر نفسه بمظهر مخالف لحقيقته فإن ذلك لا ينطلي عليهم؛ لما حباهم الله به من رقة في قلوبهم.

٩٤٢

الأخوة الصادقة

قال يحيى بن معاذ رحمه الله: «أخوك من عرَّفك العيوب، وصديقك من حذَّرك الذنوب»(١).

المعنى الإجمالي

لا يقف العبد على عيوبه كاملة؛ فإن من العيوب ما يعرفه الأخ القريب، وهذا أثر من آثار الصحبة الصالحة التي تهدي إلى العبد عيوبه، ليس تشفيًا منه، ولا حقدًا وانتقامًا، ولكن محبة له، ورغبة في إصلاح ما لم يعرفه عن نفسه. ولذلك أثرت العبارة المشهورة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «رحم الله امرًا أهدى إليَّ عيوبي».(٢)

إن من صفات الأخ الصادق أن يحب الخير لأخيه، بل ويحب له ما يحب لنفسه؛ ومن ذلك أن يبادر الأخ المسلم بالنصح الخالص المقرون بالشفقة والرفق لأخيه المسلم؛ فيُعرِّفه بعيوبه، وإذا سمع الأخ عيوبه من أخيه فلا يضجر أو يحزن لمعرفة أخيه بعيوبه؛ فإن من أحبك وصدقك نصحك وعرَّفك بما فيك من الخير والشر، والصلاح والفساد.

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي (٢/ ٢٩٥).
(٢) ينظر: مسند الدارمي (١/ ٥٠٦) برقم: (٦٧٥)؛ ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزي (٥/ ٣٨٩).

ويُحذِّر الصديق صديقه من ذنوبه؛ فما سمِّي صديقًا إلا لصدقه وأمانته، فمن كان صادقًا في صداقته وصحبته فليمسك بيد أخيه وصديقه ليصلا إلىٰ الله بأمان، فإن رأىٰ أحدهما من الآخر ذنبًا حذَّره منه، فإن الذنوب أشد خطرا علىٰ الصديق من أي مصيبة أخرىٰ.

٩٤٣

أثر الصحبة

قال مَمْشاد الدينوري رحمه الله: «صحبة أهل الصلاح تُورِث في القلب الصلاح، وصحبة أهل الفساد تُورِث فيه الفساد»(١).

المعنى الإجمالي

جليس السوء يؤثر في قرينه وصاحبه في فساد قلبه بالمعاصي والذنوب والبعد عن الله تعالىٰ، وفساد سلوكه وعقله وعلمه، فهذه هي الرائحة السيئة التي يجدها الصاحب من صاحبه السيء، ويلمسها منه الآخرون، وكل هذا تنفر منه النفوس وتبغضه.

ولأهمية الصحبة في الإسلام ذكر الله تعالىٰ في القرآن رجلًا خسر الخير المتمثل في الإسلام بسبب صديقه وخليله، الذي كان مانعًا من موانع هدايته(٢)، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ

(١) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٢٤٤)؛ وصفة الصفوة لابن الجوزي (٢/ ٢٨٣).

(٢) هو عقبة بن أبي معيط، كان قد دعا رسول الله ﷺ إلىٰ طعام، فلم يجبه رسول الله ﷺ حتىٰ يشهد شهادة الإسلام، ففعل، ولما علم به أُبيٌّ بن خلف أقسم أن لا يأتي إليه حتىٰ يتبرأ من رسول الله ﷺ ويتفل في وجهه، ففعل عقبة ذلك، فأنزل الله هذه الآيات. ينظر: تفسير مقاتل (٣/ ٢٣٢).

ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩]. وضرب النبي ﷺ مثلًا للجليس الصالح وجليس السوء بحامل المسك ونافخ الكير، فعن أبي موسىٰ، عن النبي ﷺ أنه قال: «مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يُحْذِيَك[1]، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد ريحا خبيثة»[2].

ويعني هذا المثل النبوي أن الجليس الصالح يؤثر في صاحبه بزكاء قلبه وروحه بالإيمان والعمل الصالح والقرب من الله تعالىٰ، وكذا الإفادة من أخلاقه الرفيعة الملتزمة بهدي الإسلام، وإفادة الصاحب من سلوك صاحبه وعقله وعلمه. فهذه هي الرائحة الطيبة التي يجدها العبد في نفسه، ويجدها الآخرون منه، وكل ذلك محبب للنفوس.

وليست الصحبة وأثرها الصالح أو السيء تخص الأبناء في صغرهم أو شبابهم، بل هي مؤثرة علىٰ العبد وقلبه في كل مراحل حياته؛ فقد يسلم للعبد قلبه عند صحبته للصالحين وأهل العلم والفضل في صغره وشبابه، وحين يصاحب غيرهم فإنه ينتكس وتختم له الخاتمة السيئة بسبب من صحبهم ووصلهم.

(١) **يُحذِيَك**: أي يعطيك. ينظر: شرح صحيح مسلم للنووي (١٦/ ١٣٧).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٧/ ٩٦) برقم: (٥٥٣)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٣٧) برقم: (٢٦٢٨).

٩٤٤

أثر المجالسة

قال ابن الجوزي ﵀: «مجالسة العُقَلَاء تزيد فِي الْعقل، ومجالسة الْجَاهِلين تزيد فِي الْجَهْل، ومخالطة المسَاكِين تُذْهب الكِبْر»(١).

بيان المفردات

العقلاء: جمع عاقل، أي: حسن التمييز، صحيح العقل والتدبير، وضده الجاهل(٢).

المساكين: جمع مسكين، وهو من أسكنه الفقر، ويأتي بمعنى الضعف، وبمعنى التواضع(٣).

المعنى الإجمالي

جاء في الحديث عن أبي هريرة ﵁، قال: قال رسول الله ﷺ: «الرجل على دين خليله؛ فلينظر أحدكم من يُخالل»(٤).

(١) التذكرة في الوعظ لابن الجوزي (ص: ١٤٥).

(٢) الأضداد لابن الأنباري (ص: ٣٧٥).

(٣) الغريبين في القرآن والحديث للهروي (٣/ ٩١٢).

(٤) أخرجه الحاكم في مستدركه (٤/ ١٧١) برقم: (٧٤١٢)؛ وأبو داود في سننه (٤/ ٤٠٧) برقم: (٤٨٣٣)؛ والترمذي في جامعه (٤/ ١٨٧) برقم: (٢٣٧٨).

وابن الجوزي ﷀ يلفت نظرنا بهذه الحكمة إلىٰ سلوك مهم في تنمية العقل وتحسين الخلق، ألا وهو المجالسة والمخالطة؛ لما فيها من الأثر الكبير، فالطبع يسرق من الطبع من حيث لا يدري.

فالعقل هو أول خصال الخير للمرء، ومن أفضل ما وهب الله للإنسان وفضله به علىٰ سائر المخلوقات؛ لأنه بعقله يميز الخير من الشر، وبالعقل يحاسب نفسه، ويعمِّر قلبه، ويعمل لما ينفعه في دنياه وآخرته، لهذا أشار ﷀ إلىٰ أهمية الحفاظ عليه وتنميته بمجالسة العقلاء وتجنب الجاهلين؛ فالعاقل يزداد نماء عقله بالتقرب من أشكاله والتباعد عن أضداده[(١)].

والكبر من أخطر أمراض النفس البشرية، لهذا أشار ﷀ إلىٰ معالجته بمخالطة المساكين المتواضعين، وقد كان النبي ﷺ يوصي أصحابه بحب المساكين والدنو منهم[(٢)]، وأم المؤمنين زينب بنت خزيمة ﵂ كانت تكنىٰ بأم المساكين؛ لكثرة عطفها عليهم وإطعامها لهم[(٣)]، كذلك كان جعفر بن أبي طالب ﵁ يحب المساكين ويجلس إليهم ويحدثهم ويحدثونه[(٤)]، وكان رسول الله ﷺ يُكَنِّيه أبا المساكين، فمن لوازم رجحان العقل مجانبة الكبر، ولزوم التواضع، وإنما يكتسب ذلك بمخالطة المساكين والمتواضعين.

(١) ينظر: روضة العقلاء ونزهة الفضلاء لابن حبان البستي (ص: ٢٥).
(٢) ينظر: الزهد لهناد بن السري (٢/ ٤٩٢).
(٣) ينظر: جلاء الأفهام في فضل الصلاة علىٰ محمد خير الأنام لابن القيم (ص: ٢٩٠).
(٤) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ١٥٣).

٩٤٥

خطورة الرضى عن النفس

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «لأَنْ تَصحب جاهلاً لا يرضى عن نفسه خيرٌ من أن تصحب عالمًا يرضى عن نفسه»(١).

المعنى الإجمالي

يتأثر المرء بأحوال أصحابه؛ فالأصحاب الصالحون المتقون يستفيد منهم الصلاح والتقوى، والأصحاب الفاسقون الغافلون يجرونه نحو الفسق والغفلة، قال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ [الكهف:٢٨]، أي: اجلس مع الذين يذكرون الله ويهللونه ويحمدونه ويسبحونه ويكبرونه ويسألونه بكرة وعشيا من عباد الله، سواء كانوا فقراء أو أغنياء أو أقوياء أو ضعفاء، ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا﴾ أي: شُغل عن الدين وعبادة ربه بالدنيا ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ أي: أعمالُه وأفعالُه سفَهٌ وتفريطٌ وضياعٌ، ولا تكن مطيعًا له ولا محبا لطريقته(٢).

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ٤١).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (٥/ ١٥٢-١٥٤).

وأفضل من يصاحبه المسلم هو العالم العامل بعلمه؛ فيستفيد المسلم من علمه المعرفة بدينه وبحق الله عليه، ويستفيد من حاله الأخلاق والأدب والتقوىٰ، قال ﷺ: «المرء علىٰ دين خليله فلينظر أحدكم من يُخالِل»[(١)]، ومن أفضل ما يستفيده المرء من صحبة العالم أنه يدله علىٰ أهمية محاسبة نفسه ومراقبتها، ومعرفة طريقة الوقوف علىٰ عيوبها ومساوئها من أجل علاجها والتخلص منها، حيث يرىٰ المرء من هذا الصاحب دوام التوبة والاستغفار، وكثرة اتهام نفسه بالتقصير في جنب الله، فيتأثر بحاله ويتهم نفسه كذلك، ويلجأ إلىٰ التوبة والاستغفار، ويبادر إلىٰ إصلاح حاله.

أما إذا كان هذا العالم راضيًا عن نفسه، ومبرّرا لكل أفعاله، ويعتقد أنه لا يخطئ ولا يقصر؛ فإن هذا ليس عالمًا في الحقيقة، وصحبته شرّ محض لا فائدة منها؛ فإنه يدعو إلىٰ العجب والغرور، وترك التوبة والاستغفار، وإهمال الزلات والعيوب، والغفلة عن مراقبة النفس ومحاسبتها، بل إن صحبة الجاهل الذي لا يرضىٰ عن نفسه ويعترف بذنبه خير من صحة هذا العالم الذي يرضىٰ عن نفسه؛ فهذا الجاهل علىٰ الأقل يقود إلىٰ التوبة والاستغفار، وهما أول طريق النجاة، أما من يرضىٰ عن نفسه فهو يقود إلىٰ التمادي والغرور والاجتراء علىٰ الذنوب شيئًا فشيئًا.

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٤/ ٤٠٧) برقم: (٤٨٣٣)؛ والترمذي في جامعه (٤/ ١٨٧) برقم: (٢٣٧٨).

٩٤٦

شروط الصاحب

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «لا تصحب من لا يُنْهِضُك حاله، ولا يَدُلُّك على الله مقالُه»[(١)].

المعنى الإجمالي

يتأثر الإنسان بمن يصاحبه إيجابا أو سلبا، قال ﷺ: «إنما مثل الجليس الصالح، والجليس السوء كحامل المسك، ونافخ الكِير؛ فحامل المسك إما أن يُحْذِيَك[(٢)]، وإما أن تَبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحا طيبة، ونافخ الكِير إما أن يَحرق ثيابك، وإما أن تجد ريحا خبيثة»[(٣)]، فصاحب الإنسان إما أن يدفعه نحو الخير، وإما أن يسوقه نحو الشرّ.

والصحبة التي تكون على غير تقوى من الله سوف تنقلب إلى عداوة يوم القيامة؛ قال تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف:٦٧]، ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ ﴾: جمع خليل، وهو الصاحب الملازم، قيل: إنه مشتق

---

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ٧٢).

(٢) **يُحْذِيَك**: يُعْطِيَك. المنهاج شرح صحيح مسلم للنووي (١٦/ ١٣٧).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ٦٣) برقم: (٢١٠١)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٣٧) برقم: (٢٦٢٨).

من التخلل؛ لأنه كالمتخلّل لصاحبه والممتزج به(١)، وسبب انقطاع الصلات بين المتصاحبين وانقلابها إلىٰ عداوة هو أن هذه الصحبة كانت قائمة علىٰ المصلحة والشهوة، فإذا انقطعت المصالح انقطعت معها الصلات.

إذن فالصاحب المطلوب هو الصاحب الصالح؛ قال تعالىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨].

وهذا الصاحب هو الذي يعين صاحبه علىٰ التقرّب إلىٰ الله بأحواله وأقواله؛ فحين يرىٰ الإنسان حال صاحبه الصالح الطيب، وهمته ونشاطه في العبادة، وصبره عن المعاصي والشهوات، وثباته علىٰ الحق، فإن ذلك يؤدي إلىٰ نهوضه من الغفلة والكسل، وانطلاقه في أداء الطاعات والمواظبة عليها، وكذلك فإن الصاحب الصالح هو الذي يذكّر كلامه بالله، فإذا تكلّم تكلّم بخير، وكلامه يدور حول ذكر الله وشكره والدعوة إليه.

(١) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٥/ ٢٥٢).

باب النصرة والوقوف مع الحق

٩٤٧

ثقل الحق

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «الحقُّ ثقيل مَرِيءٌ، والباطل خفيفٌ وَبيءٌ»[(١)].

بيان المفردات

المَرِيء: في أصله مَخرج الطعام والشراب المتصل بالحلقوم، ومَرُؤَ الطعامُ مَراءة فهو مريء أي هَنِيء خفيف، والمراد هنا حميد العاقبة[(٢)].

الوَبِيء: من الوباء على وزن فعيل: العليل، يقال: أرض وبيئة أي كثيرة الوباء، واستَوبَأَ الأَرضَ أي استوخَمَها ووجَدها وَبِئةً، وماءٌ وبيء أي غير مريء، والمراد هنا: الوخيم الذي لا تحمد عاقبته[(٣)].

المعنى الإجمالي

هذه الحكمة تبين صفة الحق والباطل وعاقبتهما، وأن الحق ثقيل التحمل والمسؤولية، كما ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل:٥]،

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (١/ ١٣٤).

(٢) لسان العرب لابن منظور (١/ ١٥٥)؛ القاموس المحيط للفيروز آبادي (١/ ٥٢).

(٣) تهذيب اللغة للأزهري (١٥/ ٢٧٨)؛ لسان العرب لابن منظور (١/ ١٨٩ – ١٩٠).

فيأتي بمسؤوليات وتضحيات لقبوله والثبات عليه والدفاع عنه، ولكنه سهل التقبل لموافقته الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها، وحميد العاقبة في الدنيا والآخرة؛ حيث باتباعه يجد الناس غايته المرضية ورضا الرحمن، فالحق مع كونه ثقيلا هو محبوب وسهل على النفس السوية.

بخلاف الباطل؛ فإنه بظاهره خفيف لموافقته الشهوة والأهواء، والبعد به عن المشاكل الدنيوية في كثير من الأوقات، فتنقاد له النفس وتستسلم بسهولة، ولكن عاقبته وخيمة ونتائجه لا تحمد، ولكن أصحاب الهمم الفاترة والنفوس الضعيفة يميلون إليه لخفته الظاهرة ولموافقته للهوى وإغرائه للنفس، حيث الجنة حفّت بالمكاره والنار حفّت بالشهوات، فلا تنهض له النفس بالتصدي ولكنه سمج مرذول عند صاحب الفطرة السليمة؛ لمعرفته بوباله وما يترتب عليه من النتائج غير المرضية.

ويلاحظ أنه لا يلزم من كون الحق ثقيلًا أن يكون كلُّ ثقيل حقا، ولا من كون الباطل خفيفًا أن يكون كل خفيف باطلا، بل يعتمد ذلك على ما يوافق الشرع الحنيف وما يخالف تعاليمه الواضحة.

٩٤٨

من نصرة الله للمؤمن

قال سعيد بن المسيب رحمه الله: «كفى بالمؤمن نُصْرةً من الله عز وجل أن يرى عدوه يعمل بمعصية الله»[(١)].

المعنى الإجمالي

من أسباب نصرة الله لعباده المؤمنين المستضعفين وتأييدهم وتمكينهم أن يكونوا ممن ينصرون الله بأداء الطاعات، واجتناب المعاصي والمنكرات، قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ [محمد:٧]، ومن الأسباب كذلك الثبات وذكر الله تعالىٰ، وترك التنازع بين المؤمنين؛ لأن التنازع يفشل المؤمنين ويُذهب ريحهم ووحدة صفهم؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٤٥-٤٦].

ومن نصرة الله لعباده المؤمنين أن يميزهم عن عدوهم بأن يكونوا أهل خير وبر وتقوىٰ، وعمل صالح فيه نفعٌ كبيرٌ لهم ولأمتهم، وأن يكون عدوهم منغمسًا في معصية الله؛ يحارب الله بكل ما يقدر عليه، وبما يحصل عليه من وسائل وإمكانات.

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٢/ ١٦٤).

وهذا التوفيق للمؤمنين للطاعات وحرمان أعدائهم منها هو نصرة لهم وتأييد من الله تعالىٰ، تكفيهم عما سواه من النصر المادي الذي قد يراه المؤمن بعينيه أولًا.

إن العدو بمعاصيه ومجاهرته بها، واستمراره عليها، يقرب ويعجل بالنصرة الربانية لأولياء الله تعالىٰ من عباده المؤمنين، لكن بعد أن يكون عباد الله المؤمنين قد أخذوا بكل ما يؤهلهم لأن يكونوا حقيقين بوعد الله تعالىٰ؛ فيأخذون بكل أسباب ومؤهلات النصر والتمكين؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [الأنفال:٤٦]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧].

٩٤٩

التمسك بالحق وإن قلَّ سالكوه

قال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «عليك بطريق الحق ولا تستوحش لقلة السالكين، وإياك وطريق الباطل ولا تغتر بكثرة الهالكين»(١).

المعنى الإجمالي

إن طريق الحق موحش؛ لأن سالكيه قلة، بينما أتباع الباطل كثير، وبما أن النفوس مجبولة على الاستيحاش من التفرد والأُنس بالرفيق، نبه الله على أن الرفيق في طريق الحق هم صفوة الخلق، فقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء:٦٩]، فالقلة والكثرة ليست معيارًا للحق، فقد قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ [الأنعام:١١٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦].

وفي الحديث عن القاسم بن مُخَوَّل البهزي ثم السلمي أنه قال: قلتُ: يا رسول الله أوصني، قال: «أقم الصلاة، وآتِ الزكاة، وصم رمضان، وحج البيت،

(١) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٤٦).

وبر والديك، وصل رحمك، وأمر بالمعروف، وانه عن المنكر، وزُلْ مع الحق حيث زال»(١).

ومما يؤثر عن إبراهيم بن أدهم رحمه الله أنه قال: «لا يَقِلُّ مع الحق فريدٌ، ولا يقوىٰ مع الباطل عديدٌ»(٢)، وسبب عزوف الناس عن الحق ثقله عليهم وسهولة الباطل وزخرفة الشيطان له، قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: «إن الحق ثقيلٌ، وهو مع ثقله مريءٌ، وإن الباطل خفيفٌ، وهو مع خفته وبيءٌ، وترك الخطيئة أيسر -أو قال: خيرٌ- من طلب التوبة ورُبَّ شهوة ساعةٍ أورثت حزنًا طويلًا»(٣).

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٣/ ١٩٦) برقم: (٥٨٨٢)؛ والحاكم في مستدركه (٤/ ١٣٤) برقم: (٧٣٦٩)؛ والطبراني في المعجم الكبير (٢٠/ ٣٢٢) برقم: (١٨٩٤٢).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٨/ ١٦).

(٣) الزهد والرقائق لابن المبارك (ص: ٢٩١).

٩٥٠

الوقوف مع الحق

قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «الظَّرْف: الوقوف مع الحق كما وقف»[(١)].

المعنى الإجمالي

الوقوف مع الحق سبيل العبد المسلم المستمسك بالمبادئ والقيم الإسلامية؛ ذلك أن النبي ﷺ جعل حياته كلها للوقوف مع الحق ونصرته، ونصرة المستضعفين من الرجال والنساء والولدان.

إن الوقوف مع الحق والبقاء معه إلىٰ أن يسلم العبد روحه لله تعالىٰ موقف عظيم، يدور معه المؤمن حيث دار؛ فلا تلوُّن ولا نفاق ولا مداراة ولا مداهنة، فقد حسم الله جدل ما أراده الكافرون من عبادة آلهتهم سنة، وعبادة الله سنة أخرىٰ[(٢)]، فقال لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١-٦].

---

(١) مناقب الشافعي للبيهقي (٢/ ١٦٢).

(٢) ينظر: أسباب نزول القرآن للواحدي (ص: ٤٩٦).

وقد أمر الله رسوله ﷺ أن يقول للناس جميعا -لكل من يتشكك في دين الإسلام، ويرغب في مخالفته- قولًا صريحًا لا لبس فيه ولا غموض بأنه مستسمك بالحق الذي أوحاه الله إليه، فقال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس:١٠٤].

إن البقاء مع الحق لا يثبت عليه ويستمسك به إلا من وفقه الله بالإيمان والتقوى، وربط على قلبه بالثقة واليقين بالله تعالى، فلا يتزعزع ثباته، ولا يضطرب يقينه.

٩٥١

من يعادي الحق يموت كمدًا

قال ابن حزم رحمه الله: «لقد طال همُّ من غاظه الحق»[١].

المعنى الإجمالي

لقد قضىٰ الله ﷻ أن الباطل مهما علا وظهر، وأذلَّ وقهر، فإن الحق سيُزهِقه ويُزيله، ولا يمكن له أن يستمر، قال تعالىٰ: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء:٨١]

وأهل الباطل يبذلون ما يستطيعون في سبيل القضاء علىٰ الحق وإخفات جذوته والصد عنه، وينفقون علىٰ ذلك أموالًا طائلة، ولكن هذا لا يكون، وقد بين الله أن ما ينفقونه من أموال سيكون عليهم حسرة وندامة، ولن يجدوا لذلك سبيلًا، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال:٣٦].

سوف يطول هم وغم من يناصر الباطل ويحارب الحق؛ لأن العاقبة للحق وأهله، فكم بذل التتار والصليبيون لمحاربة الإسلام، وكم أنفق وبذل كفار قريش لمحاربة المسلمين في بدر والخندق وغيرها! فكانت النتيجة الخيبة والخسران والهزيمة.

---

(١) الأخلاق والسير في مداواة النفوس لابن حزم (ص: ٦١).

٩٥٢

الحق ساطع ونوره يُبدّد الباطل

قال ابن غانم المقدسي رحمه الله: «كيف يُنسَخ الضِّياء بالضباب؟ أم كيف يُغني السَّرابُ عن الشراب؟»(١).

بيـان المفردات

السراب: هو الذي يجري على وجه الأرض كأنه الماء، ويكون نصف النهار(٢).

المعنى الإجمـالي

إن أشعة نور الحق الساطع لا يمكن أن تُحجب بضباب الشبهات والباطل، فوهج نور الحق يبدد كل ظلام، ويرفع الحجب عن زيف الشبهات فتبدو واضحة البطلان، فكيف لضباب الشبهات أن يستر مصدر النور، أو يعكِّر صفوه! إن الشمس لا تُحجب بالغربال، ونور الله يبدد كل ظلام. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ [النساء:١٧٤].

ويمكن أن يقال مثل هذا فيمن قوي إيمانه ويقينه، واستنار قلبه بالهداية،

---

(١) حل الرموز لابن غانم المقدسي (ص: ١٧٧).

(٢) ينظر: تهذيب اللغة للأزهري (١٢/ ٢٨٩).

وانشرح صدره بنور الله، وعظُم رصيده من أعمال البرّ، فلن يؤثر فيه ضباب الذنوب وغيومها؛ فإن من كَثُرت حسناته وعظُمت تضاءلت أمامها كل معصية؛ فإن المعصية خبَث، والماء إذا بلغ قلتين لم يحمل الخبث، ومصداق هذا ما قاله رسول الله ﷺ لعثمان عندما جهز جيش العُسرة، قال عبد الرحمن بن سمُرة: جاء عثمان إلىٰ النبي ﷺ بألف دينار، فنثرها في حِجره، قال: فرأيت النبي ﷺ يُقَلِّبها في حِجْره، ويقول: «ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم»، مرتين(١).

وكذلك قوله ﷺ لعمر رضي الله عنه -عندما أرسل حاطبٌ إلىٰ قريش رسالةً يُعلِمُهم فيها بتجهُّز المسلمين لفتح مكة-: «إنه قد شهد بدرًا، وما يُدريك لعل الله أن يكون قد اطَّلع علىٰ أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»(٢).

والناس ظمأىٰ إلىٰ نور الحق والهداية، وإلىٰ شريعة رب العالمين؛ لأنهم مفطورون علىٰ الإيمان بالله، بعد أن أشهدهم الله ﷻ علىٰ الإيمان به، وأقروا له بذلك وهم في عالم الذَّرّ، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف:١٧٢]، فلا يغني عن شريعة الله أي تشريع أرضي، ولا يملأ الخِوَاء الروحي الذي يعيشه أغلب الناس إلا وحيُ الله ﷻ، وهل يَروي الظمآنَ السرابُ؟ أم هل يغنيه عن الشراب؟

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٦/ ٧٠) برقم: (٣٧٠١)، وقال: حديث حسن غريب.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ٥٩) برقم: (٣٠٠٧).

٩٥٣

كيد الشيطان ضعيف

قال ابن القيم رحمه الله: «تالله ما عَدا عليك العدوُّ إلَّا بعد أن تولَّى عنك الوليُّ؛ فلا تظنَّ أن الشيطان غلب، ولكن الحافظ أعرض»[(١)].

المعنى الإجمالي

إذا كان العبد ملازمًا لطاعة الله عز وجل، حريصًا على التزام حدوده، كان الله معه بالرعاية والحفظ والمعونة، ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧]، وجاء في الحديث: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك»[(٢)]، وكلما زاد قرب الإنسان من ربه، وأكثر من النوافل والقربات كلما زادت عناية الله بعبده، وابتعد عنه الشيطان فلم يستطع إغواءه، جاء في الحديث: «وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها»[(٣)].

ولكن إذا أعرض الإنسان عن شرع ربه، ولازم المعاصي، وغفل عن الله، فإن

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ٩٧).

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٢٨٤) برقم: (٢٥١٦)، وقال: حسن صحيح.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٠٥) برقم: (٦٥٠٢).

الله يتخلىٰ عنه، ويتسلط عليه الشيطان، ويصبح صيدًا سهلًا له؛ لأن الله خلىٰ بينه وبين الشيطان فتمكّن منه.

ولذلك من أراد أن تعود له معونة ربه وحمايته وحفظه ورعايته عليه أن يلجأ إليه بصدق، ويُقبل علىٰ طاعته، ويعرض عن المعاصي، فسيجد عند ذلك توفيق الله، وإعراض الشيطان.

٩٥٤

مَن أعرض عن الحق وقع في الباطل

قال ابن القيم رحمه الله: «مَن أعرضَ عن شيءٍ مِن الحَقِّ وَجَحَدَهُ، وقع في باطلٍ مُقابلٍ لما أعرضَ عنهُ»[١].

المعنى الإجمالي

من سنن الله سبحانه أنه جعل أمام العبد طريقين متناقضين لا ثالث لهما، ولا يمكن اجتماعهما، وليس بينهما واسطة؛ طريق الحق وطريق الباطل، فمن اتبع الحق نجا من الباطل، ومن أعرض عن شيء من الحق ضل عنه إلىٰ باطل يقابله، شاء أم أبىٰ.

ودليل ذلك قوله تعالىٰ ذكره: ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ [يونس:٣٢]. قال النسفي في تفسيره: «أي لا واسطة بين الحق والضلال، فمن تخطىٰ الحق وقع في الضلال»[٢].

وقد شرح ابن القيم رحمه الله كلامه فقال: «حتىٰ في الأعمال، مَن رغب عن العمل لوجه الله وحدَه ابتلاه الله بالعمل لوجوه الخلق، فرغب عن العمل لِمَن ضرُّه ونفعُه

(١) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٢٥٢).

(٢) مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي (٢/ ٢٠).

وموتُه وحياتُه ونشورُه وسعادتُه بيده، فابتلي بالعمل لمن لا يملك له شيئًا من ذلك. وكذلك مَن رغِبَ عن إنفاق ماله لله وفي طاعته، ابتُلِيَ بإنفاقه لغير الله، وهو راغمٌ. وكذلك مَن رغِبَ عن التَّعب لله ابتُلِيَ بالتَّعب في خدمة الخلق، ولا بدّ. وكذلك مَن رغِبَ عن الهدي بالوحي ابتُلِيَ بكُناسةِ الآراء وزُبالةِ الأذهان ووسَخِ الأفكار.

فليتأمَّلْ من يريد نصحَ نفسه وسعادتَها وفلاحَها هذا الموضعَ في نفسه وفي غيره. والله المستعان»[1].

وليسأل الله سبحانه الهداية إلىٰ الحق كما ورد في المأثور: «اللهم أرنا الحق حقًّا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلًا ووفقنا لاجتنابه، ولا تجعله ملْتَبِسًا علينا فنضل، واجعلنا للمتقين إمامًا»[2].

(١) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٢٥٢).
(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/ ٥٧١).

٩٥٥

نور الحق يُبهِر أهل الضلال

قال ابن القيّم رحمه الله: «نور الحق أضْوَأُ من الشمس، فيَحِقّ لخفافيش البصائر أن تَعْشى عنه»[(١)].

بيـــان الـمفردات

الخفافيش: جمع خُفّاش وهو الوطواط الذي يطير بالليل[(٢)].

تعشى عنه: تعمىٰ عن رؤيته، فالأعشىٰ هو الذي لا يُبصر بالليل ويبصر بالنهار[(٣)].

الـمعنى الإجمـــالي

آيات الله عز وجل الكونية التي تدل علىٰ وحدانيته وقدرته ظاهرة في كل شيء، فالله سبحانه هو الحقّ المبين، وهذا أكثر وضوحا من ضوء الشمس في وضح النهار، وما الشمس نفسها ولا النهار نفسه إلا آيات من آيات الله سبحانه وتعالى، فالله عز وجل هو نور السماوات والأرض، وهو الظاهر الذي نرىٰ آثار قدرته في سائر مخلوقاته.

فمَن كان لا يرىٰ هذه الآيات والدلائل المتتابعة بعين بصيرته فهو أعْشىٰ

(١) الفوائد لابن القيم (ص: ٧٧).

(٢) تاج العروس للزبيدي (١٧/ ١٩١).

(٣) مختار الصحاح للرازي (١/ ١٨٣).

البصيرة، يشبه الخُفّاش الذي لا يستطيع أن يرىٰ في النهار لأنه لا يتحمل الضوء القوي بسبب الضعف الذي في عينيه، وفي التشبيه بالخفاش إشارة إلىٰ استغراق أمثال هؤلاء في ظلام الجهل والغفلة، إذا تعلق الأمر بالضلالات والجهالات فهم يتحركون ويقومون ويقعدون في هذا الظلام، أما إذا كان الحديث عن الله وذكره فينفرون ويهربون ولا يستطيعون، قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾ [الزمر:٤٥].

والمقصود من الحكمة أن الحق واضح جليّ لا يحتاج في إدراكه إلىٰ كثيرٍ من التفكير أو التأمّل، ولكن بعض الناس لا يدركون ذلك بسبب العمىٰ الموجود في بصائرهم.

باب الابتلاء

٩٥٦

مراحل الوصول إلى الله تعالى

قال يحيى بن معاذ رحمه الله: «سَبَحُوا في بحار البلايا حتى جاوَزُوها إلى العطايا، ثم سبحوا في بحار العطايا حتى جاوزوها إلى رب البرايا»[١].

المعنى الإجمالي

تتحدث هذه الحكمة عن أحوال العارفين وعباد الله الصادقين مع ربهم، المتوكلين عليه في كل أمر، مطمئنة قلوبهم رضا بما قضىٰ الله لهم وعليهم، فكان نتيجة هذا الإيمان والتوكل والرضا عطاءً غير مجذوذ من الله تعالىٰ؛ يتمثل في الأنس بالله والتلذُّذ بمناجاته وسعادة القلب، ثم انتقلوا من هذه الحالة إلىٰ الوصول إلىٰ الله، وهو وصول علمٍ ومعرفةٍ وولايةٍ، ولكن كيف ساروا في دربهم حتىٰ وصلوا إلىٰ هذه المرتبة؟ يبيِّن ذلك يحيىٰ بن معاذ رحمه الله، قائلا: «سبحوا في بحار البلايا»، أي: انغمسوا في بحار من البلاء والشدة في مرحلة الامتحان الإلهي والابتلاء الرباني، فصبروا بصدق وتقبلوا بالرضا، وصبَّرهم الله تعالىٰ، حتىٰ جاوزوها إلىٰ المرحلة التالية، وهي مرحلة العطاء والإنعام، وقضاء الحاجات، والتلذُّذ بالطاعات، ثم جاوزوها أيضا إلىٰ المرحلة التالية، وهي حضرة المعرفة والمشاهدة والقرب الإلهي، حيث علَّقوا قلوبهم بربِّهم سبحانه وقطعوا أملَهم عن نعمة سوىٰ نعمة

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٤٠).

المشاهدة، فلا يهمُّهم من نعيم الدنيا والآخرة إلا نعمة رضا الرحمن والنظر إلىٰ وجهه الكريم، فبالمجاهدة وصلوا إلىٰ المشاهدة.

وهذه الحكمة تشير إلىٰ لزوم قطع المراحل وتجاوز الصعاب، حتىٰ يصل العبد إلىٰ مقام القرب الإلهي والأنس الرحماني، وهذا هو مقام الإحسان الذي بيَّنه النبي ﷺ بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»(١).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٩) برقم: (٥٠)؛ ومسلم في صحيحه (١/ ٢٨) برقم: (٨).

٩٥٧

الجنة طريقها التقوى

قال يحيى بن معاذ رحمه الله: «قَسَم الدنيا على البلوى، والجنة على التقوى»(١).

بيان المفردات

قَسَمَ: القَسْم مصدر قسمتُ الشيء فانقسم؛ فهو تمييز الأنصباء(٢).

المعنى الإجمالي

الله يدبر الأمر كله، ويختار لعباده ما يشاء من أمور دينهم ودنياهم؛ ولقد اختار الله الدنيا لتكون دار بلاء وابتلاء؛ ليعلم الله الصادقين من المدَّعين، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد:٣١]، وخلق الموت والحياة من أجل الابتلاء، فقال تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [الملك:٢].

وقد قسم الله الدنيا علىٰ الناس، وفضل بعضهم علىٰ بعض في الرزق، وذلك لا ليدل علىٰ مكانتهم عند الله تعالىٰ -بل يعطي الدنيا لمن يحب ومن لا يحب،

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٦٧).

(٢) ينظر: العين للخليل بن أحمد (٥/ ٨٦)؛ ومطالع الأنوار علىٰ صحاح الآثار لابن قرقول (٥/ ٣٩٦).

للمسلم والكافر والبر والفاجر- وإنما جعل ذلك التفاضل ابتلاء واختبارًا لعباده.

وأما الجنة فقد أعدّها الله وجعلها لعباده المؤمنين المتقين، فقال تعالى: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٣]، وميزهم بها على حسب درجة تقواهم وقربهم منه.

٩٥٨

العفو أحب الأشياء إلى الله

قال يحيى بن معاذ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لولا أن العفو من أحب الأشياء إليه لَما ابتلى بالذنب أكرم الخلق عليه»[(١)].

بيان المفردات

العفو: أبلغ من المغفرة؛ لأن الغفران يُنبئ عن السَّتْر، والعَفو يُنبِئ عن المحو، والمحوُ أبلغ من السَّتْر؛ لأن الستر للشيء قد يحصل مع إبقاء أصله، بخلاف المحو؛ فإنه إزالته جملة ورأسًا[(٢)].

المعنى الإجمالي

إن الله تعالىٰ يحب العفو عن عباده، كما ورد أن عائشة قالت للنبي ﷺ: أرأيت إن وافقت ليلة القدر ما أقول؟ قال: تقولين: «اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني»[(٣)]، وقال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الشورىٰ:٢٥].

---

(١) الزهد والرقائق للخطيب البغدادي (ص: ١٣٣)؛ صفة الصفوة لابن الجوزي (٢/ ٢٩٣).

(٢) ينظر: معجم الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري (ص: ٣٦٤).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣/ ٢٧٧) برقم: (٢٦٢١٤)؛ والترمذي في جامعه (٥/ ٤٩٠) برقم: (٣٥١٣)، وقال: حسن صحيح؛ والنسائي في السنن الكبرىٰ (٧/ ١٤٦) برقم: (٧٦٦٥).

والتوبة هي غاية كمال كل آدمي، وإنما كان كمال أبيهم آدم بها، فكم بين حاله وقد قيل له: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ [طه: ١١٨-١١٩]، وبين قوله: ﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ [طه:١٢٢]؟ فالحالُ الأوَّلُ حالُ أكلٍ وشربٍ وتمتُّع، والحالُ الأخرىٰ حالُ اجتباءٍ واصطفاءٍ وهداية، فيا بُعْدَ ما بينهما!

والمقصودُ أنه سبحانه لمحبَّته التَّوبةَ وفرحه بها يقضي علىٰ عبده بالذَّنب، ثمَّ إن كان ممَّن سبقت له الحسنىٰ قضىٰ له بالتَّوبة. ولقد ضرب لنا النبي ﷺ أروع مثل في بيان فرحة الله ﷻ بتوبة عبده، فقال: «لله أشد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان علىٰ راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه، فأَيِس منها، فأتىٰ شجرة فاضطجع في ظلها قد أَيِس من راحلته، فبينا هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح»(١).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٩٣) برقم: (٢٧٤٧).

٩٥٩

المصيبة على قدر الفضيلة

قال ابن ظفر الصقلي[(١)] رحمه الله: «على قَدْرِ فَضْلِ المرْءِ تأتي خُطوبُهُ»[(٢)].

بيان المفردات

الخطوب: جمع خَطْب، وهو: أمر عظيم أو يسير يكثر فيه الجدال والتخاطب.

خطوب الدهر وخطوب الزمن: نوازله. أصله بمعنى الحال والشأن؛ قال تعالى: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ [الحجر:٥٧]، أو سبب الأمر؛ قال تعالى: ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ ﴾ [يوسف:٥١][(٣)].

---

(١) محمد بن أبي محمد بن محمد بن ظفر، أبو عبد الله، الصقلي، حجة الدين، أحد الأدباء الفضلاء، سكن حماة ونشأ بمكة، له نظم وفضائل، من كتبه: خير البشر ﷺ، وسلوان المطاع، وشرح المقامات، توفي سنة ٥٦٥هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٠/ ٥٢٢)؛ والوافي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي (١/ ١٢٥).

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان (٤/ ٣٩٧)؛ إنباه الرواة للقفطي (٣/ ٧٦)؛ خريدة القصر وجريدة العصر لعماد الدين الأصفهاني (٢/ ٥١٢).

(٣) ينظر: مختار الصحاح للرازي (ص: ٩٢)؛ تاج العروس للزبيدي (٢/ ٣٧٠)؛ معجم اللغة العربية المعاصرة لأحمد مختار عمر (١/ ٦٦٠)؛ المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية بالقاهرة (ص: ٢٤٣).

المعنى الإجمـالي

يقصد فيه أن الخطوب والمصائب تأتي الإنسان علىٰ قدر فضله وصلاحه، فلا ينبغي أن يأخذه الضجر والحزن لما يصيبه، لأن الله تعالىٰ يريد أن يُعلي من شأنه ويرفع من قدره.

فالإنسان يُبتلَىٰ علىٰ قدر فضله وقيمته عند الله ﷻ، كلما كان قدر العبد عند الله أعلىٰ، وصلاحه أكثر، وكان قلبه سليمًا من الأدران، وأفعاله خالصة لله، كان معرَّضًا للبلايا والمحن.

فكلما كان إيمان الإنسان قويًا زِيد في بلائه، وإذا كان في إيمانه ضعفٌ خُفِّف عنه.

عن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: قلتُ: يا رسول الله، أيُّ الناس أشد بلاءً؟ قال: «الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلَىٰ الرجلُ علىٰ حَسبِ دِينِه، فإنْ كان دينه صلبًا اشتدَّ بلاؤه، وإن كان في دينه رقَّةٌ ابتُلِي علىٰ حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتىٰ يتركَه يمشي علىٰ الأرض وما عليه خطيئةٌ»(١).

ولا يعني هذا أن يدعو الإنسانُ علىٰ نفسه بالبلايا والمحن حتىٰ يترقىٰ في الدرجات، بل المطلوب منه أن يسأل الله وقاية نفسه بالأدعية والأذكار، وسؤالِ اللهِ العافيةَ والسلامةَ، لكن الناس يُبتلَون علىٰ قدر إيمانهم؛ قال النبي ﷺ: «من يرد اللهُ به خيرًا يُصِبْ منه»(٢). ومعناه: أن الله تعالىٰ يُنزِل به من المصائب ما يكون سببًا لِحطِّ سيئاته أو لرفع درجاته(٣).

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه برقم: (٢٣٩٨)؛ وابن ماجه في سننه برقم: (٤٠٢٣)؛ وأحمد في مسنده برقم: (١٤٩٩)؛ وابن حبان في صحيحه برقم: (٢٩٠٠). قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٧/ ١١٥) برقم: (٥٦٤٥).

(٣) شرح كتاب الفوائد لابن القيم، شرح صوتي للشيخ خالد المصلح، الدرس ١٨. رابط: https://almosleh.com/ar/98677

٩٦٠

البلايا كواشف

قال ابن الجوزي رحمه الله: «البلايا تُظْهِر جواهر الرجال»(١).

المعنى الإجمالي

لا تستطيع أن تعلم حقائق الأشياء إلا عند اختبارها، وفتنة المعادن تُخرِج خَبَثَها وتُبْقي ثمينَها، وكذلك الرجال لا تعلم حقائقهم إلا في مواطن البلايا والمشكلات، فلَطالَما ظهر بعضهم بوجه غير الوجه الذي تعرفه به إذا مر به بلاء، ولَطالَما تغيّرت الوجوه ونكصت الخطوات على الأعقاب في المحن والشدائد، فالناس يُخْفون عوراتِهم ويُغَطّونها جُهْدَهم، ولا يتحقق الاطلاع على نقاء السريرة وجوهر الإنسان إلا بعد نزول البلايا والمحن.

قال ﷺ: «الناس معادن كمعادن الفضة والذهب»(٢)، ولا يظهر المعدِن الأصليُّ من الزائف إلا بعد عرضه على النار؛ وكذلك الناس لا يَظهرون على حقيقتهم، ولا ينكشف طيب معدنهم إلا عند الشدائد والمحن، وقليل هم الذين يحافظون على بريق معدنهم وقت نزول البلاء، فقد تعرف إنسانًا لفتراتٍ طويلة،

(١) المدهش لابن الجوزي (ص: ٤٧٠).
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٤١) برقم: (٢٦٣٨).

ولا يظهر منه إلا كل خير، فإذا ما مرت الشدائد ظهرت صفاته وبانت علاماته، فلكأنّما تَكَشَّف بعد اختفاء، وتعرَّىٰ بعد غِطاء!

فالفتن كواشف وممحِّصات، تُبَيِّن كذبَّ المدعي وتُظهِر حقيقةَ الصادق، قال تعالىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٍۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ [الحج:١١].

والذي يُظهِر الصلاحَ والتُّقىٰ والصدقَ والأمانةَ وهو علىٰ غير ذلك، فهو كَلَابِسِ ثَوبَي زور، كما في الحديث: «الْمُتَشَبِّعُ بما لم يُعْطَ كلابِسِ ثَوبَي زُور»[(١)].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٧/ ٣٥) برقم: (٥٢١٩).

٩٦١

حقيقة البلاء والنعمة

قال الفاريابي رحمه الله عن بعض أهل المعرفة: «كلُّ بلاءٍ يُقرِّبك إلى الله فهو نعمة، وكل نعمةٍ تُبعِدك من الله فهو بليَّة»[(١)].

بيان المفردات

البَليّة: بمعنىٰ الامتحان والاختبار، ونظيره البِلْوةُ والبِلْيَة والبلوىٰ والبَلاءُ، جمعه البَلايا[(٢)].

المعنى الإجمالي

تشتمل هذه الحكمة علىٰ أصل متين في البلاء والنعم، وهو أن الابتلاءات والنعم لا تحدد بظواهر الأمور فقط، بل هناك معان أخرىٰ ينبغي علىٰ المؤمن النظر إليها وفهمها، لأن البلاء لا يكون بالمصائب فقط بل يكون أحيانا بالنعم والسخاء والرخاء، فكل بلاء يقرّب العبد إلىٰ الله ويذكّره به ويدفعه للدعاء والاستغفار والصبر فهو في مآله نعمة ولو كان ظاهره شدة، لأن الله عز وجل أخبر العبد سابقا أنه

(١) تهذيب خالصة الحقائق للفاريابي (١/ ٤٦٢).
(٢) لسان العرب لابن منظور (١٤/ ٨٣-٨٤).

سيبتليه وبَشّره إذا صبر عليه قائلا: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة:١٥٥].

وكذلك النعم أيضًا ليست كظاهرها، بل أحيانا تكون سببًا للبلاء والنقمة، فكل نعمة تبعد العبد من الله فهي بلاء، لأن الأصل أن يشكر العبد ويتوجه إلىٰ خالقه أكثر عند تنعمه بالنعم واستمتاعه بها، ولكنه إن لم يشكر الله ولم يصرفها في سبيل طاعاته فمآله بَليّة، لما يترتب عليه من الحساب والعذاب، حيث يُسأل عن كل شيء أُنعِم به وصرفه فيما لا خير فيه، وذلك كما ورد في قوله تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [التكاثر:٨]، وقال النبي ﷺ: «لا تزول قدما عبدٍ يوم القيامة حتىٰ يُسأل عن عمره فيمَ أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه»(١).

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٢١٧) برقم: (٢٤١٧)، وقال: حديث حسن صحيح.

٩٦٢

قبول الطاعة

قال ابن عطاء الله السكندري ﵀: «ربما فتح لك باب الطاعة وما فتح لك باب القبول، وربما قضى عليك بالذنب فكان سببًا في الوصول»(١).

المعنى الإجمالي

إن الطاعة ربما قارنتْها آفاتٌ قادحةٌ في الإخلاص فيها؛ كالعُجب، أو احتقار مَن لم يفعلها، فلا يُفتح لها بابُ القبول. وربما قارن الذنبَ شدةُ الندم واستصغارُ النفس، فيكون سببًا للوصول إلىٰ مرضاة الله تعالىٰ(٢).

وبيان ذلك: أنه ليس كل طاعةٍ تكون سبيلًا إلىٰ مثوبة الله ورضوانه، وليس كل معصيةٍ تكون سبيلًا إلىٰ سخط الله وعقابه -مع قبح المعصية في ذاتها- إنما العبرة بالحال التي يكون عليها الطائع والقصد الذي يكون في نفسه عند طاعته، وبالحال التي يكون عليها العاصي والشعور الساري في كيانه أثناء معصيته.

وتفصيل القول في هذا الأمر: أنَّ كلًّا من الطاعة والمعصية له مظهر وشكل، وله سرٌّ أو معنىٰ به يكتسب جوهره وذاتيته، وليست العبرة فيما يتقرب به الإنسان

---

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ٦٦).

(٢) تعليقات الشيخ يوسف الحاج أحمد علىٰ الحكم (ص: ٦٦).

إلىٰ الله من الطاعات بصورها وأشكالها، وإنما العبرة بحقائقها وأسرارها(١).

أما كيف تكون المعصية سببا للوصول، مع أن ظاهر الحال يوجب أن تكون سببا للحرمان؟ فالجواب: أن هذا يختلف باختلاف حال الإنسان عندما يُقدم علىٰ المعصية. وبيان ذلك: أن العاصي إن كان قد أقدم علىٰ المعصية استهانة بشرع الله وأمره، أو استكبارا علىٰ الله، فهي تحجبه عن الله وتقطع عنه الأمل في رحمته. وإن كان قد انجرف إلىٰ المعصية بدافع من تغلُّبِ أهوائه وخداع النفس والشيطان له، ثم استيقظت فيه مشاعر الإيمان بالله، واهتاجت في نفسه فطرة عبوديته لله، فثارت في نفسه عاصفة الندامة والأسىٰ، خوفًا وخجلًا من الله مما أقدم عليه، ففي هذه الحالة تكون المعصية قد فتحت له باب الوصول إلىٰ الله تعالىٰ. فالحال التي يتلبس بها العاصي عند إقدامه علىٰ المعصية ذات تأثيرٍ كبيرٍ علىٰ العاصي(٢).

وقد استقىٰ ابن عطاء الله هذه الحكمة مما قرَّره الشرع؛ أما مستند الجزء الأول من الحكمة: فقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [البقرة:١٢٧]. فسيدنا إبراهيم وابنه سيدنا إسماعيل عليهما السلام لم يكتفوا بمجرد القيام بما أمرهم به ربهم، بل عرفوا أن الله إذا لم يقبل منهم عملهم فلا قيمة له، لأنه سبحانه ربما فتح لهم باب العمل ولم يفتح باب القبول، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة:٥].

وأما مستند الجزء الثاني من الحكمة: فقوله تعالىٰ في وصف المتقين: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران:١٣٥].

(١) الحكم العطائية شرح وتحليل للبوطي (٤/ ١٤٠).
(٢) الحكم العطائية شرح وتحليل للبوطي (٤/ ١٤١).

فالقرآن الكريم يقرِّر أنْ لا قيمة للعبادة إن لم تتحقق جذوة الإخلاص لله وحده فيها، وأن لا أثرَ للمعصية إذا ساقتْه إلىٰ ذُلِّ العبودية لله ﷻ؛ ومن أوضح الآيات القرآنية دلالةً علىٰ هذا المعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان:٧٠].

ومن السنة النبوية قوله ﷺ في حديث خلق الإنسان: «إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتىٰ ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتىٰ ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»(١).

وليس المقصود هنا التهوين من أمر المعصية، لكن مراد ابن عطاء الله أن الإنسان إن كان قد يتلبس بالمعصية، فلا ينبغي له أن يقطع أمله عن الله ورحمته؛ بل ما يبعثه الندم والأسىٰ والخجل والخوف مما ارتكبه قد يسوقه إلىٰ باب رحمة الله ويبعث فيه الآمال إلىٰ عفو الله وصفحه بالتوبة والإنابة إليه، فلا يستسلم لوساوس إبليس، ولا يقطع رجاءه من الله. كما أن فيه إشارةً أن من رأىٰ من قد ابتُلي بالمعصية لا ينبغي له أن يستحقره أو يُهينَه، لأنه ربما يفتح الله له باب التوبة فيسجد بين يديه ويبكي عما أقدم عليه، فيكون ذلك سببا لوصوله إلىٰ الله والعودة إليه.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١٣٣) برقم: (٣٣٣٢)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٤٤) برقم: (٢٦٤٣). ينظر: الحكم العطائية شرح وتحليل للبوطي (٣/ ١٤٣-١٤٤).

٩٦٣

طُرُق الإقبال على الله تعالى

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «مَن لم يُقبِل على الله بمُلاطَفات الإحسان، قِيْدَ إليه بسَلاسِلِ الامتحان»(١).

المعنى الإجمـالي

من لم يُقبِل علىٰ الله تعالىٰ بسبب ملاطفاتٍ هي الإحسان، قاده الله إليه بالامتحانات الشبيهة بالسلاسل. فالنفوس الكريمة تُقبل علىٰ الله لإحسانه، والنفوس اللئيمة لا ترجع إليه إلا ببلائه وامتحانه. ومراد الرب من العبد رجوعه إليه طوعًا أو كرهًا(٢).

قسَّم ابن عطاء الله العبادَ في هذه الحكمة إلى **قسمين:**

القسم الأول: قوم بسَطَ اللهُ عليهم النِعمَ وصرف عنهم البلايا والنِقَم، وزرقهم الصحة وأمدَّهم بالأموال والعافية، فأدُّوا حقها وقاموا بشكرها، وهؤلاء قِلَّة، قال تعالىٰ عنهم: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ:١٣].

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ١١٧).
(٢) شرح الحكم العطائية للشرنوبي (ص: ٦٤).

والقسم الثاني: قومٌ أمدَّهم اللهُ بالنعم، وصرف عنهم النقمَ، فشغلهم ذلك عن النهوض إليه وأداء شكرها، فسلب ذلك عنهم وضربهم بالبلايا والمحن، فأقبلوا علىٰ الله بسلاسل الامتحان[(١)]. وهم داخلون في قول النبي ﷺ: «عجب الله من قومٍ يدخلون الجنة في السلاسل»[(٢)]. وواضح أن سلاسل هذه الابتلاءات من أجلِّ النعم الباطنة، وإن كانت فيما يبدو من النقم والمصائب.

ونعم الله التي يُكرِم بها عبادَه قسمان: ظاهرة وباطنة؛ فالظاهرة: هي التي عبَّر عنها ابن عطاء الله بـ «لطائف الإحسان»، والباطنة: المصائب والابتلاءات التي تتسرَّب إلىٰ الإنسان في جسده أو ماله أو في تسليط بعض الظَّلَمَة عليه، فتكون سببًا في الرجوع إلىٰ الله بعد الشرود عنه، وفي الالتجاء إليه والاستغفار بين يديه بعد الإعراض عن أوامره والانغماس في مظاهر اللهو والانحراف.

والتحقيق أن هذين القسمين من النعم كلاهما ابتلاء وامتحان من الله ﷻ، كما لا يخفىٰ[(٣)].

---

(١) إيقاظ الهمم لابن عجيبة (ص: ١٦٦).

(٢) أخرجه البخاري في (٤/ ٦٠) صحيحه برقم: (٣٠١٠).

(٣) الحكم العطائية شرح وتحليل للبوطي (٢/ ٣٤٧).

٩٦٤

الانكسار بسبب الذنب خير

قال ابن القيم رحمه الله: «إذا أراد اللهُ بالعبدِ خيراً ألقاه في ذنبٍ كسرَه به»[١].

المعنى الإجمالي

إنَّ مِن صورِ تربية الله للعبد: أنْ يتركَه لضَعفه ونَفْسه الأمارة بالسُّوء، ولا يعصمَه من الوقوعِ في الذنب، حتىٰ تقع منه بعضُ الذنوب، يقول النبي ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ»[٢].

والله تعالىٰ له حِكمٌ بالغة في تقدير الغفلةِ والذنبِ علىٰ بعض عباده أحيانًا، ذلك لأنَّ دوامَ الطاعات قد توجب لصاحبها العُجب والكِبْر، لأنَّ العبدَ قد يفعل الحسنات والطاعات، فلا يزال يَمُنُّ بها علىٰ ربِّه، ويتكبرُ بها، ويرىٰ نفسَه، ويُعجب بها، ويستطيل بها، فيورثه ذلك مِن العُجب، والفَخر، والاستطالة ما يكون سببَ هلاكه، يقول النبي ﷺ: «لَوْ لَمْ تَكُونُوا تُذْنِبُونَ لَخَشِيتُ عَلَيْكُمْ مَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْهُ:

(١) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٤٦٤).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٩٤) برقم: (٢٧٤٩).

الْعُجْبَ»[١]، وقال الحسن البصري رحمه الله: «لو أن الرجل كلما قال أصاب، وكلما عمل أحسن أوشك أن يُجَنَّ من العُجب»[٢].

فإذا أراد الله العبد خيرًا ألقاه في ذنب يكسره به، لأنَّه إذا وقع في المعصية اهتزَّتْ ثقتُه بنفسه وعرفَ حقيقتَه، فيعترفُ بذنوبه وتقصيره في حق مولاه، فلا ينسىٰ ذنوبه ولا يزال متخوفًا منها حتىٰ يدخل الجنة، فالمقصودُ من زَلل المؤمن ندمُه، ومن تفريط أسفه ومن اعوجاجه تقويمُه، ومن تأخره تقديمُه، ومن زلقه في هوة الهوىٰ أن يؤخذ بيده فينجىٰ إلىٰ نجوة النجاة، وما أحسن قول الشاعر حيث قال:

قرة عيني لا بد لي منك وإن ... أوحش بيني وبينك الزَّلَلُ
قرة عيني أنا الغريق فخذ ... كَفَّ غريقٍ عليك يتَّكِلِ[٣]

---

(١) أخرجه البزار في مسنده (١٣/ ٣٢٦) برقم: (٦٩٣٦). قال العراقي: أخرجه البزار وابن حبان في الضعفاء والبيهقي في الشعب، من حديث أنس، وفيه سلام بن أبي الصهباء؛ قال البخاري: منكر الحديث، وقال أحمد: حسن، ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي سعيد بسند ضعيف جدًّا. ينظر: تخريج أحاديث الإحياء لزين الدين العراقي (ص: ١٢٨٦)

(٢) الحيوان للجاحظ (٥/ ٣١١)؛ ربيع الأبرار ونصوص الأخيار للزمخشري (٤/ ١٧٩).

(٣) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٤١٢)؛ لطائف المعارف لابن رجب (ص: ٢١-٢٢)؛ حطم صنمك لمجدي الهلالي (ص: ٦٤).

٩٦٥

المحن توصل الصادق إلى المقصود

قال ابن القيم رحمه الله: «القواطع مِحَنٌ يتبيَّن بها الصَّادق من الكاذب؛ فإذا خضتها انقلبت أعوانًا لك تُوصلك إلى المقصود»[(١)].

بيـان المفردات

القواطع: هي كل ما يقطع طريق السائر.

المحن: جمع مِحنة، وهي ما يمتحن بها الإنسان من الشدائد[(٢)].

المعنى الإجمـالي

مصداق هذه الحكمة ما جاء في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ١-٢].

والمعنى أن الناس لا يُتركون دون ابتلاء واختبار لأجل قولهم: «آمنا»، بل إذا قالوا: آمنا امتُحنوا واختُبروا بأنواع الابتلاء حتى يتبين الصادقون من الكاذبين[(٣)]، وقد جاء في الحديث عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم، قال: يا

---

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ٦٠).

(٢) ينظر: تاج العروس للزبيدي (٣٦/ ١٥٣).

(٣) ينظر: أضواء البيان للأمين الشنقيطي (٦/ ٥٠٩).

رسول الله من أشد الناس بلاء؟ قال ﷺ: «الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، ويبتلىٰ العبد علىٰ حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتىٰ يدعه يمشي علىٰ الأرض وما عليه خطيئة»(١).

فالعبد تعترضه مصائب وعوائق، هي في الحقيقة اختبار وتمحيص له، تبيِّن مدىٰ صدقه في السير إلىٰ الله، وبحسب دين العبد تكون شدة البلاء عليه، فمن تخطىٰ البلاء بالصبر والرضا والإصرار علىٰ إكمال الطريق انقلب ذلك البلاء أجرا له، وزاده قوة وعزيمة، وهانت عليه الشدائد، وكشفت له الحقائق، ونزل عليه التوفيق الإلهي، فيبلغ بذلك مطلوبه.

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٢٠٣) برقم: (٢٣٩٨)، وقال: حديث حسن صحيح؛ وابن حبان في صحيحه (٧/ ١٦٠) برقم: (٢٩٠٠).

٩٦٦

ليس كُلُّ نزولٍ سقوطًا

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَرِحَ إبليسُ بنزول آدمَ من الجنة، وما عَلِمَ أنَّ هبوطَ الغائص في اللُّجَّة خلْفَ الدُّرِّ صعودٌ»[١].

بيان المفردات

الغائص: مأخوذ من قولهم: غاصَ في الماء يغوصُ غَوْصًا، والغَوْصُ: النُّزولُ تَحت المَاء، وقيل: هو مَوضِع يخرج منه اللُّؤلؤُ، ويُقَال للَّذي يغوصُ على الأصداف في البحر فيستخرجها: غائصٌ وغَوَّاصٌ، وجمعه غاصَةٌ وغَوّاصُون[٢].

اللُّجَّة: بضم اللام، جمعُها لُجَجٌ ولُجٌّ ولَجاجٌ، واللُّجَّة من الشيء: مُعظَمُه، وخَصَّه بعضُهم بمُعظم البحرِ، ولُجُّ البَحْرِ: الماءُ الكثيرُ الَّذي لَا يُرَىٰ طَرفاه، وقيل: هي ترددُ أمواج البحر[٣].

الدُرَّةُ: اللُؤلؤةُ، وخصَّها البعضُ بالعظيمة، والجمع دُرٌّ، ودُرَّاتٌ، ودُرَرٌ[٤].

---

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ٥١).

(٢) ينظر: تهذيب اللغة للأزهري (٨/ ١٤٧)؛ لسان العرب لابن منظور (٧/ ٦٢).

(٣) ينظر: مختار الصحاح للرازي (ص: ٢٨٠)؛ لسان العرب لابن منظور (٢/ ٣٥٥)؛ تاج العروس للزبيدي (٦/ ١٨٠).

(٤) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (٢/ ٦٥٦)؛ مختار الصحاح للرازي (ص: =

المعنى الإجمالي

لمّا جرىٰ ما جرىٰ مِن إغواء إبليس لآدمَ وحواء عليهما السلام بالأكل من الشجرة، فَرِح إبليسُ بنزولهما من الجنة، ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة:٣٦]، وظنَّ بأنَّ الله تعالىٰ أهبطهما إلىٰ الأرض بغضًا وعقوبةً، ولم يعلم بأنَّ الله توّابٌ غفور، يغفرُ الزَّلةَ ويقيل العثرةَ ويتوب علىٰ عبده إذا تاب إليه من ذنبه، ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٣]، فألهم اللهُ آدمَ عليه السلام حين اعترف بذنبه وعاد عليه بالمغفرة(١)، ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:٣٧].

وشبَّه ابنُ القيم رحمه الله حالَ أبينا آدم لمّا نزل من الجنة إلىٰ الأرض بالغوّاص الذي ينزل إلىٰ قاع البحر باحثًا عن اللؤلؤة العظيمة، بحيث لا يمكن اعتبارَ هذا النزول إلا صعودًا، لأن الغائصَ كُلّما غطس وحاز الجوهرَ كُلّما صعد مقامه في الدنيا، كما هو الحالُ في نزول آدم، فلم يظفر الشيطان من ذلك بشيء، لأن هذا النزول كان سببًا لعلوّ آدم وارتفاعه، فالله تعالىٰ خلقَه خليفةً له في الأرض، وأجرىٰ له تدريبًا علىٰ مهمته بالأمر الإلهي والنهي الإلهي، وأخبرَه بعداوة الشيطان له ولذريّته، وحذّره أن يتبع خطواتِه، وقد انتهتْ هذه التجربة بنزول آدم من الجنة إلىٰ الأرض ليباشر مهمَّته كخليفةٍ لله في أرضه، علىٰ أنْ يظلَّ علىٰ ذِكْر من تجربته مع الشيطان، وقد سخَّر الله له كُلَّ شيء في الوجود يخدمه ويعمل من أجله(٢).

= ١٠٣)؛ لسان العرب لابن منظور (٤/ ٢٨٢)؛ القاموس المحيط للفيروز آبادي (ص: ٣٩١).

(١) ينظر: الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للواحدي (ص: ١٠٠).

(٢) ينظر: تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٩١٩).

ففرقٌ بين نزول آدم ونزول إبليس؛ آدمُ عليه السلام نزلَ إلىٰ الأرض، وقد تاب إلىٰ ربّه ﷻ، فتاب عليه وهداه، وأنزله إلىٰ دار الدنيا، نبيًا مكرمًا، مغفورًا له، يبقىٰ في دار الدنيا إلىٰ أجله الذي أجّله الله له، ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة:٣٠]، وبين نزولِ إبليسَ مُعاندًا مستكبرًا مستحقًّا الخسرانَ المبين، ﴿ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴾ [الإسراء:٦٣][1].

(١) ينظر: موقع الإسلام سؤال وجواب (١/ ٤٦٣).

٩٦٧

التربيةُ والعلاجُ بالذَّنب

قال ابن القيم رحمه الله: «لولا تقديرُ الذَّنب، هلكَ ابنُ آدمَ من العُجْبِ»[١].

المعنى الإجمالي

إنَّ من أهمِّ صُور العلاج الربّاني لتخليص العبدِ من داءِ الإعجاب بالنفس ورؤيتها بعين التعظيم هو أن يُخلِّي الرَّبُ سبحانه بينه وبين الذَّنب، فيتركه لضعفه ونَفْسه الأمارة بالسُّوء، دون عصمة منه، فيقع في الذَّنب، فتهتزُّ ثقتُه بنفسه ويعرف حقيقَته[٢]، ذلك لأنَّ العبدَ قد يفعل الحسنةَ فلا يزال يمُنُّ بها على ربِّه، ويتكبّر بها، ويرى نفسَه، ويُعجب بها، ويستطيل بها، ويقول: فعلتُ، وفعلتُ، فيورثه ذلك من العُجب، والكبر، والفخر، والاستطالة ما يكون سبب هلاكه[٣]، فإذا أراد الله بهذا العبد خيرًا ابتلاه بذنب يَكْسِرُه به، ويُعرِّفُه قدرَه، ويُنكِّسُ به رأسَه، ويُصَغِّرُ به نَفْسَه عنده، ويستخرجُ منه داءَ العُجْب والكِبر والمنّة عليه وعلى عباده، فيكون هذا الذنب بمنزلة شُرب الدواء ليُستخرج به الداء العُضال[٤].

---

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ٩٤).

(٢) ينظر: حطم صنمك وكن عند نفسك صغيرًا لمجدي الهلالي (ص: ٦٣).

(٣) ينظر: الوابل الصيب لابن القيم (١/ ١٠).

(٤) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٤٦٢-٤٦٤)؛ الوابل الصيب لابن القيم (١/ ١٠).

وما أكثر ما يكون الإنسان بعد المعصية خيرًا منه قبلها، وفي كثير من الأحيان يخطئ الإنسانُ ويقع في معصية، ثم يجد من قلبه انكسارًا بين يدي الله، وتوبةً إليه، حتىٰ إنّ ذنبه يكون دائمًا بين عينيْه يندم عليه ويستغفر منه، فالله بحكمته قد يبتلي الإنسانَ بالذَّنب ليُصلِح حاله، وما حصل الاجتباءُ لآدم ﷺ إلا بعد المعصية والتوبة منها، قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه:١٢٢]، أي: بعد أن أذنب وتاب اجتباه ربُّه، فتاب عليه وهداه(١)، ومن هنا يتضح لنا قولُ جعفر بن محمد رحمه الله: «عَلِمَ اللهُ ﷻ أنَّ الذَّنبَ خيرٌ للمؤمن من العُجْب، ولولا ذلك لما ابتلي مؤمنٌ بذنب»(٢).

(١) ينظر: موقع الإسلام سؤال وجواب (٧/ ٣٤٤).

(٢) ينظر: الآداب الشرعية والمنح المرعية لابن مفلح (٢/ ٢٠٩).

٩٦٨

مصائب الدنيا ترفع الدرجات

قال إبراهيم المغربي[١] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لولا مصائب الدنيا لقَدِمْنا على الله مفاليس»[٢].

بيان المفردات

مفاليس: جمع مُفْلِس، أصل الفلْس من قولهم: أفلس الرجل إفلاسًا فهو مفلس: إذا قلّ ماله أو لم يبق له مال، ومعناه: صارت دراهمه فلوسًا[٣]. والمقصود بالمفاليس هنا: ليس لنا حسنات.

المعنى الإجمالي

مصائب الدنيا كفارات للذنوب والسيئات، بل هي أُولىٰ محطات تكفير الذنوب للعبد، حتىٰ فسَّر المفسرون العذاب الأدنىٰ من قوله تعالىٰ: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم

(١) الشيخ إبراهيم المغربي، صحب الشيخ شمس الدين ابن اللبَّان وخدمه وانتفع به وسمع الحديث عليه، وعلىٰ أبي الفتح الميدومي، كان رجلًا صالحًا خيِّرا، كان مقيمًا بتربة أم آنوك بالصحراء في مصر. توفي يوم عيد الأضحىٰ سنة ٧٧٩هـ. ينظر: الذيل علىٰ ذيل العبر لزين الدين العراقي (٢/ ٤٧٠).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ١٦٤).

(٣) ينظر: جمهرة اللغة لابن دريد (٢/ ٨٤٧)؛ النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (٣/ ٤٧٠).

مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [السجدة:٢١] بأنه مصائب الدنيا في الأنفس والأموال(١).

وقد تكاثرت النصوص الدالة علىٰ أن المصائب يحصل بها للعبد تكفير السيئات ومغفرة الذنوب ورفعة الدرجات، من ذلك قوله ﷺ: «ما يُصيب المسلم من نَصَبٍ ولا وَصَبٍ ولا هَمٍّ ولا حَزَنٍ ولا أذىٰ ولا غَمٍّ، حتىٰ الشوكة يشاكُها إلا كفَّر الله بها من خطاياه»(٢).

وفي حديث آخر، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: دخلت علىٰ رسول الله ﷺ وهو يُوعَك، فمَسَستُه بيدي فقلت: يا رسول الله، إنك تُوعَك وَعْكًا شديدًا، فقال رسول الله ﷺ: «أجل إني أُوعك كما يُوعَك رجلان منكم»، فقلت: ذلك أن لك أجرين؟ فقال رسول الله ﷺ: «أجل»، ثم قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يصيبه أذىٰ؛ مرضٌ فما سواه إلا حطَّ الله له سيئاته كما تحطُّ الشجرة ورقها»(٣).

يقول ابن القيم: «لولا مِحَن الدُّنيا ومصائبها لأصاب العبدَ من أدواء الكِبْر والعُجْب والفَرعنة وقسوة القلب ما هو سبب هلاكه عاجلًا وآجلًا، فمن رحمة أرحم الرَّاحمين أن يتفقَّده في الأحيان بأنواعٍ من أدوية المصائب، تكون حِمْيةً له من هذه الأدواء، وحفظًا لصحَّة عبوديَّته، واستفراغًا للموادِّ الفاسدة الرَّديَّة المهلكة منه»(٤).

(١) تفسير الطبري (٢٠/ ١٨٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٧/ ١١٤) برقم: (٥٦٤١).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٧/ ١١٨) برقم: (٥٦٦٠).

(٤) زاد المعاد لابن القيم (٤/ ٢٨٠).

باب الإنصاف والعدل

٩٦٩

عندما يحكم القلب يعمى البصر

قال الجاحظ رحمه الله: «إذا كان الحُبُّ يُعْمي عن المَساوِئ فالبُغْضُ يُعْمي عن المَحاسِنِ»(١).

المعنى الإجمالي

إن حقائق الأمور والأشخاص لا يمكن أن تُعرف إلا من قِبل عالِم حكيمٍ مُعتدل المزاج، الذي ينطلق في حكمه من تجرّد تامّ عن التأثر بالعواطف وظواهر الأمور، أما الذي يحكم بمقتضى حبه للشخص فإن حكمه لن يكون صحيحًا؛ لأن الحب يُعمي بصر المحب عن ملاحظة عيوب محبوبه ونقائصه، وكما أن الحب يُعمي عن إبصار المساوئ، فإن البغض يعمي عن ملاحظة المحاسن، فالذي يحكم على الشخص وهو مبغض له، فحكمه سيكون جائرًا في حقه؛ إذ المبغض لا تظهر أمامه إلا المساوئ والنقائص.

فكل واحد منهما يتبع في حكمه الهوى، ويتكلم بما يجده في نفسه تجاه الشخص المحكوم عليه، وغالبًا ما يكون حكمه منافيًا للعدل والإنصاف، وقد أمرنا الله ﷻ بالعدل ونهى عن البغي واتباع الهوى، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ

(١) البيان والتبيين للجاحظ (١/ ٩٣).

وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ﴾ [النحل:٩٠]، وقال أيضًا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ﴾ [النساء:١٣٥].

قال عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر:

فلستُ بِراءٍ عيبَ ذي الوُدِّ كلَّه ... ولا بعضَ ما فيه إذا كنتُ راضيًا
وعين الرّضا عن كلّ عيبٍ كَلِيْلَةٌ ... ولكنّ عينَ السُّخْطِ تُبدي الْمَساوِيا[1].

وقال روح أبو همّام:

وعين السُّخْط تُبصر كلَّ عيبٍ ... وعين أخي الرّضا عن ذاك تعمى[2].

(١) الحيوان للجاحظ (٣/ ٢٣٦).
(٢) المرجع السابق.

٩٧٠

طريقة العقلاء في معاملة الناس

قال الفاريابي رحمه الله: «العاقل مَن إذا أبغَضَ أنصف، وإذا أحبَّ ألْطَفَ»(١).

المعنى الإجمالي

هذه الحكمة تتحدث عن أوصاف العقلاء وأخلاق النبلاء، وتخبرنا عن طريقة عِلْيَةِ القوم في التعامل مع المشكلات وإدارة الأزمات، ومعناها التفصيلي: أن العاقل الذي يحتكم إلىٰ عقله عند حصول مشكلة أو خصومة مع شخص، لا يتصرف بشكل عاطفي ولا يستمع لأمر الشيطان، فإذا أغضبَه إنسانٌ لا يدفعه غضبه إلىٰ الانتقام منه ونصب العداء له، بل يُنصِفه من نفسه ويمتنع عن الظلم، وكذلك إذا حصلت بينه وبين إنسان مودة وألفة، يدفعه عقلُه إلىٰ التلطف معه والاحترام له، بخلاف الإنسان الانفعالي الذي إذا أغضبه شخص تصرَّف تصرُّفَ الحمقىٰ وقاطعه مقاطعة تامة، وإذا أحب إنسانًا أحسن إليه وبالغ في إكرامه، وكذا بخلاف الإنسان المنافق غير الصادق مع الناس، إذا احتاج إلىٰ إنسان عامله معاملة الملوك، وإن لم يجد عنده ضالته ناصَبَه العَداء ومكرَ به مَكْر السوء.

(١) تهذيب خالصة الحقائق ونصاب غاية الدقائق للفاريابي (ص: ٤٢).

قال الله تعالىٰ: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الشورىٰ:٤٠].

وقال النبي ﷺ: «إنَّ مِن أكمَلِ المؤمنين إيمانًا أحسَنُهم خُلُقًا، وأَلطَفُهم بِأهلِهِ»(١).

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٣٥٩) برقم: (٢٦١٢)؛ والنسائي في الكبرىٰ (٨/ ٢٥٦) برقم: (٩١٠٩)؛ وأحمد في مسنده (١١/ ٥٨٥٠) برقم: (٢٤٨٤١).

٩٧١

مقابلة العصيان بالطاعة

قال ابن تيمية رحمه الله: «ما جزيتَ مَن عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه»(١).

المعنى الإجمالي

تشتمل الحكمة على بيان معنى عظيم في الشرع ألا وهو مراعاة العدل والإنصاف في جميع الأمور، ولزوم الطاعة في كل التصرفات حتى عند المخالفة لأحد ممن أساء إليك أو اختلف معك، فإن الإنصاف عزيز والإحسان مطلوب، ولا بد من رعايته فيمن عصى الله فيك ألا تقابله بمعصية أخرى فتقع في الإثم والجور.

وهذا يظهر في عدم تجاوز حدود الله ﷻ في الجزاء والعقاب لهؤلاء الناس، أو في بيان ضررهم وكيفية النظر إليهم، فينبغي أن لا يظلم كما ظلموا ولا ينظر إليهم بنظرة دنيئة، بل يعدل ويحسن ويحاول أن يلتمس لهم مخرجًا وعذرًا إن أمكن، فقد أمر الله سبحانه للمؤمنين أن يكونوا قوّامين وأن يعدلوا في أمورهم قائلا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٣/ ٢٤٦).

أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة:٨].

والأحسن في الإساءة والاختلاف الشخصي التسامح والعفو، وأما لو أراد أن يعاقب المسيء فذاك يكون على قدر إساءته، كما يقول تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾ [النحل:١٢٦].

وقد ذكر هذه الحكمة الإمام ابن تيمية في سياق الحديث عن خصومه فقال: «هذا وأنا في سعة صدرٍ لمن يخالفني، فإنه وإن تعدّىٰ حدود الله فيَّ بتكفير أو تفسيق أو افتراء أو عصبية جاهلية؛ فأنا لا أتعدىٰ حدود الله فيه، بل أضبط ما أقوله وأفعله وأزِنُه بميزان العدل»(١).

(١) المصدر السابق (٣/ ٢٤٥).

٩٧٢

أهمية العدل

قال ابن القيم ﵀: «ما قامَ الوجودُ إلا بالعَدْلِ»(١).

بيان المفردات

العدل: ضد الجَور، وهو ما قام في النفوس أنه مستقيم، وقيل: هو الأمر المتوسط بين الإفراط والتفريط(٢).

المعنى الإجمالي

يرىٰ المتأمل في خلق الله سبحانه وفعله وأمره أن كل ذلك قائم علىٰ قانون العدل والإنصاف، وإنزال كل شيء منزلته، وإعطاء كل ذي حق حقه، دون أن يطغىٰ شيء علىٰ شيء، أو يأخذ أحد دور أحد، فالشمس مثلا جعلها علىٰ قدر مُعيَّن، وبُعد مُعيَّن عن الأرض، بحيث لا تحرقها بشدَّة القرب أو تجمدها بشدَّة البعد، كذلك القمر والكواكب، جعل لكل منها فلكا تسبح فيه، ضمن حساب رباني مقدَّر علىٰ أحسن أسلوب وأدقِّ ترتيب، كما أخبرنا ﷻ فقال: ﴿ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٩٨).

(٢) تاج العروس للزبيدي (٢٩/ ٤٤٣).

تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾ [يس:٤٠]. وهكذا سائر المخلوقات، كلها مخلوقة بقدر محدد، ومأمورة بأوامر معينة تضمن الصلاح لها ولغيرها.

فالعدل أهم أساس في قيام الوجود وبقائه وصلاحه، وهو رأسُ الفضائل كلِّها، يندرج تحته فضيلةُ القوةِ العقلية المَلَكية من الحكمة المتوسطة بين الحَرمَزة[١] والبَلادة، وفضيلةُ القوةِ الشهوية البهيمية من العِفة المتوسّطة بين الخلاعة والخمود، وفضيلةُ القوة الغضبية السبعية من الشجاعة المتوسطة بين التهوُّرِ والجُبن[٢].

وليس العدل بين الراعي ورعيته فقط، وإنما بين العبد وربه بإيثار حقه تعالىٰ علىٰ حق نفسه، وتقديم رضاه علىٰ هواه، واجتناب للزواجر وامتثال للأوامر، وبين العبد ونفسه بمنعها مما فيه هلاكها، كذلك بينه وبين سائر الخلق ببذل النصيحة وترك الخيانة، والصبر علىٰ أذاهم، وعدم الإساءة إليهم، والإنصاف من نفسه لهم بكل وجه[٣].

---

(١) **الحَرْمَزَة**: الذكاء. ينظر: تاج العروس للزبيدي (١٥/ ١٠٤).

(٢) إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (١/ ١٧٢).

(٣) ينظر: أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ١٥٣).

باب حفظ اللسان

٩٧٣

دور اللسان في هلاك الإنسان

قال حسان بن سعد(١) رحمه الله: «إنّ تَلَفَ الإنسانِ مِن طَرَفِ اللسان»(٢).

بيان المفردات

التَّلَف: عَطب وهلاك في كل شيء، تَلِفَ يَتْلَفُ تَلَفًا فهو تَلِفٌ: هلك(٣).

الطرَف: بالتحريك؛ الناحية من النواحي والطائفة من الشي، والجمع أطْرافٌ(٤).

المعنى الإجمالي

تشتمل الحكمة على بيان خطورة اللسان وجلبه المشكلات على صاحبه إن لم يحافظ عليه، حيث يجد المرء نفسه واقعا في ورطة لم يتوقعها ولا يسهل الخلاص منها، وسببها هو لسانه، وهذه المصيبة قد تكون مصيبة دنيوية أو أخروية،

---

(١) حسان بن سعد، هو الذي بنى منارة بني أسيد بالبصرة، وكان شريفا يلي الأعمال، عامِل الحجاجِ على البحرين، لم تذكر المصادر له ترجمة ولا تاريخ وفاته، وأشار بعض المصنفين إلى الأبيات التي قيلت فيه وفي ابنه محمد. ينظر: الشعر والشعراء لابن قتيبة (٢/ ٦٢٨)؛ أنساب الأشراف للبلاذري (١٣/ ٩١).

(٢) تهذيب خالصة الحقائق للفاريابي (١/ ٤٨٦).

(٣) تهذيب اللغة للأزهري (١٤/ ٢٠٢).

(٤) لسان العرب لابن منظور (٩/ ٢١٦).

فيتسبب في هلاكه وضرره وإيذاء نفسه وغيره، فيجب علىٰ الإنسان أن يراقب لسانه ويحافظ عليه ليأمن علىٰ نفسه وعلىٰ غيره، كما جاء في تكملة هذه الحكمة بأنه ما من يوم إلا قال اللسان للجسد: «كيف أصبحت؟ فقال الجسد: بخير إن تركتني!».

وورد مثل هذه المعاني في عدد من النصوص والآثار التي هي واضحة في تسبب اللسان لهلاك الإنسان، كما في قوله ﷺ عندما سأله معاذ بن جبل عن عمل يدخله الجنة ويبعده عن النار، فعدّ أشياء وزاد أشياء ثم قال في نهايته: «ألا أخبرك بملاكِ ذلك كله»؟ قلت: بلىٰ يا نبي الله، فأخذ بلسانه قال: «كُفّ عليك هذا»، فقلت: يا نبي الله، وإنا لمَؤاخَذون بما نتكلم به؟ فقال: «ثكلتْك أمك يا معاذ، وهل يكبّ الناس في النار علىٰ وجوههم أو علىٰ مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم؟!»[1].

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٥/ ١٢) برقم: (٢٦١٦)، وقال: حديث حسن صحيح.

٩٧٤

الكلام من العمل

قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ: «من لم يَعُدَّ كلامه من عمله كَثُرَت خطاياه»(١).

المعنى الإجمالي

إن كل عمل يقوم به الإنسان سواء كان اعتقادًا بالقلب أو قولًا باللسان أو عملًا بالجوارح مسجّل عليه ومحاسب عنه؛ مصداق ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف:٨٠]، وقوله تعالىٰ: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق:١٨]، فالإنسان كما يحاسب علىٰ أعماله يحاسب علىٰ أقواله؛ فإن القول هو عمل اللسان.

بل إن خطر اللسان أشد من خطر بقية الجوارح؛ إذ هو السبب الأبرز في دخول النار؛ وذلك لأن الناس يستخفّون بما ينطقون، ولا يُلقون له بالًا، ثم إن الكلام سهل لا يوجد فيه مشقة، وهذا ما أشار إليه النبي ﷺ حين قال لمعاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟» قلت: بلىٰ يا نبي الله، فأخذ بلسانه وقال: «كُفَّ عليك هذا»، فقلت: يا نبي الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به! فقال: «ثكِلَتك أمك

(١) الطبقات الكبرىٰ لابن سعد (٧/ ٣٦٢).

يا معاذ، وهل يَكُبُّ الناسَ في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائدُ ألسنتهم!»[(١)].

ومما يدعو الناس إلى الاستهانة بما يتكلمون أنهم لا يعدون كلامهم من عملهم الذي يحاسبون عليه، فيُرخون الزمام لألسنتهم، ولا يبالون بما ينطقون، مع أن الكلمة الواحدة قد تودي بصاحبها إلى النار، وهو ما أشار إليه النبي ﷺ في الحديث، قال: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يُلقي لها بالًا يرفع الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يُلقي لها بالًا يهوي بها في جهنم»[(٢)].

ومن لم يَعُدّ كثرةَ كلامه سببًا لذنوبه فإنه لا يتحرَّجُ عن أي قول، سواءٌ أكان القول حقًّا أم باطلًا، والكيِّسُ من عدَّ كلامه ووزنه بميزان الشرع قبل أن يتفوَّه بأي كلمةٍ منه، فهو يحاسب نفسه ويعاتبها ماذا أردت بكلمتي؟ والفاجر يمضي قدمًا لا يحاسب نفسه[(٣)].

فإن علم صلاحه وخيره لدينه ودنياه، قال قوله، وإلا صمت عن ذلك، قال رسول الله ﷺ: «ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت»[(٤)].

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٣٦٢) برقم: (٢٢١٦)، وقال: حسن صحيح.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٠١) برقم: (٦٤٧٨).

(٣) إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ٤٠٥)؛ إغاثة اللهفان لابن القيم (١/ ١٣٢).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١١) برقم: (٦٠١٨)، وفي (٨/ ١٠٠) برقم: (٦٤٧٥)؛ ومسلم في صحيحه (١/ ٦٨) برقم: (٤٧).

٩٧٥

كثرة الكلام وقلة الورع

قال عبد الله ابن أبي زكريا[(١)] رَحِمَهُ اللَّهُ: «من كَثُرَ كلامه كَثُرَ سَقَطُه، ومَن كَثُرَ سَقَطُه قَلَّ وَرَعُه، ومَن قَلَّ وَرَعُه أمات اللهُ قلبَه»[(٢)].

بيـان المفردات

سقط: يدل على الوقوع، سقط الشيء يسقُط سقوطًا، والسَّقَط: رديء المتاع، والسقاط والسَّقْط: الخطأ من القول والفعل[(٣)].

المعنى الإجمـالي

كثرة الكلام من مفسدات الأعمال، ومهلكة من المهلكات التي تتوارد على العبد، حتى لا تبقي على دينه، فإذا كان الورعُ يُعرفُ بقلة كلامه واحتراسه من اللغو، فإنَّ المكثرين من الكلام تكثر سقطاتهم وزلاتهم.

(١) عبد الله ابن أبي زكريا، أبو يحيى، الخزاعي، الشامي، واسم أبيه إياس، كان ثقة، قليل الحديث، صاحبَ غزو، فقيه عابد، من أهل دمشق، توفي سنة ١١٧هـ. ينظر: تهذيب التهذيب لابن حجر (٥/ ٢١٨)؛ مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (١٢/ ٤٢).

(٢) الزهد لابن أبي الدنيا (ص: ٣٨)؛ حلية الأولياء لأبي نعيم (٥/ ١٤٩).

(٣) مقاييس اللغة لابن فارس (٣/ ٨٦).

فإذا كثرت السقطات والزلات والأخطاء قلَّ الورع، فيتجرأ العبد على قول الكلام دون محاسبة أو احتراس مما يقوله، وحين يقلُّ الورع في قلب عبد فإن قلبه يتعرض للهلاك والموت، وموت القلب من أعظم المصائب؛ «وأي مصيبة أعظم من موت القلب الذي هو دليل على غضب الرب سبحانه؟ فإن الذي مات قلبه لا يخشع، ولا فيه المواعظ قط تنجع، وإذا تليت عليه آيات ربه أصر مستكبرًا كأن لم يسمع»(١).

وقد أرشدنا ﷺ أن نقول حين نقوم من مجالسنا تكفيرًا لخطأ القول والفعل: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ أشهد أَن لَا إِلَه إِلَّا أَنْت أستغفرك وَأَتُوب إِلَيْك»(٢).

---

(١) نشر طي التعريف في فضل حملة العلم الشريف لجمال الدين الحبيشي الوصابي (ص: ٤٦).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (٧/ ٢٢٤) برقم: (٤٨٥٩)؛ والترمذي في جامعه (٥/ ٤٣١) برقم: (٣٤٣٣)؛ والنسائي في السنن الكبرى (٩/ ١٥٣) برقم: (١٠١٥٧)؛ وأحمد في مسنده (١٤/ ٤١٦) برقم: (٨٨١٨)؛ والدارمي في مسنده (٢/ ٨٧٥) برقم: (٢٦٨٦).

٩٧٦

الورع في المنطق

قال أبو عمرو الأوزاعي رحمه الله: «مَن أكثر ذِكر الموت كفاه اليسير، ومَن علِم أن منطقه من عمله قلَّ كلامه»[(١)].

المعنى الإجمالي

إنَّ حب الكلام والاستئثار به دون الآخرين غريزة في الإنسان، ما لم يهذب إيمانه طبعه؛ فإن الإيمان لا يعتد بالأقوال التي يطلقها العبد جزافًا دون أن يكون لها أثر في حياته العملية، فمن علم أن الله سيحاسبه عن كل ما فعله في حياته، كما قال تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣]، فإنه يقلل من كلامه، فلا يقول قولا ما لم يكن له من عمله شاهد وبرهان.

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٦/ ١٤٣). وهذا الشرح يتعلق بالقسم الثاني من الحكمة، وأما شرح القسم الأول فقد مر في باب الزهد والقناعة، الحكمة رقم: (٨٦٧).

٩٧٧

خطـر الغيبـة

قال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الغيبة أشد من الدَّيْن، الدَّيْن يُقضى، والغيبة لا تُقضى»(١).

المعنى الإجمـالي

من أكثر ما يقلق العباد الديون؛ فهي-كما قيل-: همٌّ بالليل، وذلٌّ بالنهار، وغلبة الدَّين جالبة للهم والغم، إلا أن صاحب الدَّين إذا استعان بالله وجَدَّ واجتهد في سبيل الخلاص من الدَّين فإنّ الله يُعِينه علىٰ قضائه، فالدَّين مهما كان كبيرًا فهو في النهاية داخل ضمن طاقة العبد في التخلص منه، أما الغيبة فإنه لا يمكن قضاؤها إلا بالتحلل من صاحبها وطلب العفو منه.

ومما جاء عن النهي عن الغيبة وتحريمها قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات:١٢]، وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ أنه قال له: ما الغيبة يا رسول الله؟ قال: «ذكرك أخاك بما يكره» قال: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول يا رسول الله؟ قال: «إن كان في أخيك ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فقد بهته»(٢).

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٧/ ٢٧٥).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٠١) برقم: (٢٥٨٩).

ولما عُرج بالرسول ﷺ إلىٰ السماوات العلىٰ رأىٰ عذاب من يأكلون لحوم الناس، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما عرج بي ربي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس، يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم»(١).

إن الديون تقضىٰ؛ فإما أن يقضيها المدين، أو يقضيها ورثته بعد موته، لكن الغيبة إن لم يتحلل صاحبها ممن اغتابهم ووقع في أعراضهم، فإن عقوبتها ليس من الدينار والدرهم، ولكن من الحسنات، حتىٰ إذا فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه للآخرين، أُخِذ من سيئاتهم ثم طرحت عليه ثم طرح في النار.

ويدل علىٰ ذلك حديث رسول الله ﷺ عن المفلس، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: أتدرون ما المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ، ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا فيُعطىٰ هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضىٰ ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحتْ عليه ثم طرح في النار»(٢).

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢١/ ٥٣) برقم: (١٣٣٤٠)؛ وأبو داود في سننه (٤/ ٢٦٩) برقم: (٤٨٧٨).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ١٨) برقم: (٢٥٨١).

٩٧٨

اللسان المنضبط في المدح والقدح

قال معروف الكرخي رحمه الله: «احفظ لسانك من المدح كما تحفظه من الذَّمّ»(١).

المعنى الإجمالي

حفظ اللسان من المنجيات؛ فإنَّ اللسان إما أن يأتي بخير فيغنم، أو بشرٍّ فيغرم، وقد بين الله في القرآن الكريم أن أقوال الإنسان كلها محصية عليه، فقال تعالى: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق:١٨]، وقد علَّمنا النبي ﷺ ضرورة اتقاء المدح، فقال: «من كان منكم مادحًا أخاه لا محالة فليقل: أَحْسَب فلانًا والله حسيبه، ولا أُزكي على الله أحدًا، أحسبه كذا وكذا، إن كان يعلم ذلك منه»(٢).

والمكثر من المدح لا يؤمَن منه أن يذم من مدحهم إن تغيرت الموازين، يقول وهب بن منبه رحمه الله: «من مدحك بما ليس فيك فلا تأمن أن يذمك بما ليس فيك»(٣).

وينبغي على العبد المسلم أن يتساوى عنده المدح والذم، وأن ينضبط في مدحه وذمه، فلا يبالغ في مدحه إن رضي عن الممدوح، ولا يذم آخر إن كان ساخطًا

(١) شعب الإيمان للبيهقي (٤/ ٢٧٠)؛ الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ٣٣٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ١٧٦) برقم: (٢٦٦٢)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٢٢٧) برقم: (٣٠٠٠).

(٣) تنبيه الغافلين بأحاديث سيد المرسلين للسمرقندي (ص: ١٧٤)

عليه، فهذه من عيوب النفس التي ينبغي على العبد أن يهذبها منها، فمن عيوب النفس أنها إذا رضيت مدحت الراضي عنه فوق الحد، وإذا غضبت ذمته وتجاوزت الحد. ومداواتها رياضة النفس على الصدق والحق حتى لا تتعدى في مدح من رضي عنه، ولا في ذم من سخط عليه، فإن أكثر ذلك من قلة المبالاة بالأوامر والنواهي، وفي الحديث عن المقداد قال: أمرنا النبي ﷺ أن نَحْثِيَ في وجوه المدَّاحين التراب»(١).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٢٢٨) برقم: (٣٠٠٢).

٩٧٩

الكلام فيما لا يعني

قال معروف الكرخي رحمه الله: «كلام العبد فيما لا يعنيه خذلان من الله عز وجل»[(١)].

بيـان المفردات

خذلان: خذله وخذل عنه يخذله خَذْلًا وخِذلانًا: ترك نُصرته وعونه[(٢)].

المعنى الإجمـالي

إن من الآفات التي ابتلي فيها كثير من العباد فضول الكلام، وهو مذموم «وهذا يتناول الخوض فيما لا يعني والزيادة فيما يعني علىٰ قدر الحاجة، فإن من يعنيه أمرٌ يمكنه أن يذكره بكلام مختصر»[(٣)].

وفضول الكلام والقول فيما لا يعني يقسي القلب، ويبعده عن التلذذ بالعبادة، وتذوق حلاوة المناجاة لله تعالىٰ، وإشغاله بغير الله يبعده عن هدفه وغايته التي يبغي الوصول إليها.

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٨/ ٣٦١).
(٢) لسان العرب لابن منظور (١١/ ٢٠٢).
(٣) إحياء علوم الدين للغزالي (٣/ ١١٤).

فلا خير فيما يقوله العبد إلا فيما رجحت مصلحته، وعمَّت فائدته، وانتشر خيره لقائله والآخرين، وقد ذكر الله تعالىٰ أين يكون الخير في الكلام فقال تعالىٰ: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:١١٤].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من حُسْن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»(١). وهذا الحديث من جوامع الكلم التي تميز بها النبي ﷺ، فقد كان كلامه واضحًا مفيدًا، وهو جامع لمعان جمة من الخير.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (٢/ ١٣١٥) برقم: (٣٩٧٦).

٩٨٠

صلاح القلب بحفظ اللسان

قال أحمد بن عاصم الأنطاكي رحمه الله: «إذا طلبتَ صلاح قلبك فاستعن عليه بحفظ لسانك»[١].

المعنى الإجمـالي

للسان علاقةٌ بالقلب، فاللسان يصبُّ ما فيه على القلب، من خيرٍ أو شرٍّ، فإن كان اللسان مستقيمًا استقام القلب وأضاء وأشرق، وإن كان القلب معوجًا اعوج القلب وأظلم وانتكس. قال رسول الله ﷺ: «لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه، ولا يدخل الجنة رجل لا يأمن جاره بوائقه»[٢].

ولذا حرَّم الإسلام الغيبة والنميمة، والكذب وشهادة الزور، والقول بغير علم، والسخرية، والهمز واللمز، فاللسان قد يصلح أمرًا، ويفسد أمورًا، ويجمع بين متخاصمين، أو يفرق بين متحابين متصافين.

(١) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ٧٣)؛ طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ١٢٠).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠/ ٣٤٣) برقم: (١٣٠٤٧)؛ والشهاب القضاعي في مسنده (٢/ ٦٢) برقم: (٨٨٧).

فإن أراد العبد إصلاح قلبه وصفاءه من كل المفسدات والمكدرات فعليه بإصلاح لسانه؛ وبداية إصلاحه تكون بِترك الكلام فيما لا يعنيه، وحفظه من اللغو وفضول الكلام.

٩٨١

مخالفة النفس في الصمت والكلام

قال بشر بن الحارث الحافي: «إذا أعجبك الكلام فاصمت، وإذا أعجبك الصمت فتكلم»(١).

المعنى الإجمالي

إن مخالفة هوىٰ النفس وشهواتها هو طريق الوصول إلىٰ رضا الله ﷻ، واتباع شهواتها يورد الإنسان المهالك، ولذلك كانت عناية السلف شديدة بمجاهدة نفوسهم وقهرها وفطمها عن شهواتها، ولكن هناك شهوات خفية تعمىٰ عن دركها العقول النافذة، كأن يرىٰ الرجل نفسه مخلصا لله وقد أبطن شهوة التصنع للخلق، فيحبط بذلك ثواب طاعته وهو يظن أنه عند الله من المقربين.

ومن الشهوات الخفية شهوة الاستمتاع بمدح الناس وثنائهم، فإذا أطلق الناس ألسنتهم بالثناء علىٰ الرجل، ونظروا إليه بعين التوقير، وقاموا له في المحافل، وملك قلوبهم بحديثه، أصابت نفسه لذة من أعظم اللذات وشهوة من أغلب الشهوات، فيصبح أكبر همه أن يحافظ علىٰ إعجاب ورضا الناس بتزويق الكلام واختيار أوقات الكلام والصمت بما يحافظ به علىٰ جمهوره، فلا يتكلم إلا بعد أن يعلم أن

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٨/ ٣٤٧).

قوله سيرضي مستمعيه، ويصمت إن علم أن في كلامه ما يجعل الناس ينفضّون عنه وإن كان كلامه حقا.

والحرص علىٰ رضا الناس في الكلام والصمت هو من الحرص علىٰ الجاه، وهو من أشد الأدواء فتكا بالعلماء، ولا يكاد يسلم منه إلا من رحم الله، وهو مفسد للدين، قال ﷺ: «ما ذئبان جائعان أُرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء علىٰ المال والشرف لدينه»(١).

ولذلك فضل كثير من العلماء الصمت علىٰ الكلام إن لم يكن في الكلام خير؛ كذكر الله وتلاوة القرآن وقول الحق، والإصلاح بين الناس؛ لأن أغلب السلامة في الصمت، وقد جاء في الحديث: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت»(٢). وعندما سأل معاذ النبي ﷺ عن عمل يدخله الجنة ويباعده من النار، أمره بالقيام بأركان الإسلام، ثم دله علىٰ أبواب الخير، وأخبره برأس الأمر وعموده وذروة سنامه، ثم قال له: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟» قلت: بلىٰ يا نبي الله، فأخذ بلسانه قال: «كفَّ عليك هذا»، فقلت: يا نبي الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: «ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار علىٰ وجوههم أو علىٰ مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم»(٣).

(١) أخرجه النسائي في الكبرىٰ (١٠/ ٣٨٦) برقم: (١١٧٩٦)؛ والترمذي في جامعه (٤/ ١٨٥) برقم: (٢٣٧٦) وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه (٧/ ٢٦) برقم: (٥١٨٥)؛ ومسلم في صحيحه (١/ ٤٩) برقم: (٤٧).

(٣) أخرجه النسائي في الكبرىٰ (٣/ ١٣٥) برقم: (٢٥٤٥)؛ والترمذي في جامعه (٤/ ٣٦٢) برقم: (٢٦١٦)؛ وابن ماجه في سننه (١/ ٥٢) برقم: (٧٢).

٩٨٢

خطر اللسان وأهمية حفظه

قال الفاريابي رحمه الله: «اللسان مِقراضُ الأعراض، ومعراضُ الأغراض»[١].

بيان المفردات

المِقراض: واحد المقاريض، وهو المقصّ الذي يقْرض ويقطع به الثوب وغيره، يقال: لِسان فلَان مقراض الْأَعْرَاض[٢].

الأعراض: جمع عِرْض بالكسر، وهو حَسَب المرء، وقيل: نفْسه، وقيل: خليقته المحمودة، وما يمدح به ويُذم، وفلان نقي العِرض؛ أي: بريء من أن يشتم أو يعاب[٣].

المِعراض: سهم يُرمىٰ به، بلا ريشٍ ولا نَصْل، يمضي عَرْضا فيصيب بعَرض العُود لا بحَدِّه[٤].

الأغراض: جمع غَرَض، وهو الهدف الذي يُنصب فيرمىٰ فيه، ويأتي بمعنىٰ: القصد والحاجة[٥].

(١) تهذيب خالصة الحقائق للفاريابي (١/ ٤٨١).
(٢) ينظر: لسان العرب لابن منظور (٧/ ٢١٦)؛ المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية بالقاهرة (٢/ ٧٢٧).
(٣) ينظر: لسان العرب لابن منظور (٧/ ١٧٠).
(٤) المصدر السابق (٧/ ١٨٠).
(٥) لسان العرب لابن منظور (٧/ ١٩٦)؛ الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (٤/ ١٦٠٧).

المعنى الإجمالي

تبين هذه الحكمة مدىٰ خطورة اللسان، فهو إن يستخدم في الخير فحسن، وإلا فخطورته كالمقص والسهم الحاد يقطع ويقرض أعراض الناس، وجراحته لا تقل عن جراحة السيف والسِنان بل أشدّ، لأن جراحة الآلات القاطعة كثيرا ما تبرأ دون العكس، قال الشاعر:

وقد يُرجىٰ لجرح السيف برءٌ ولا برءٌ لما جَرح اللسان[١]

ووردت في الشرع نصوص كثيرة لمراقبة اللسان والحفاظ عليه نظرا لأهميته وخطورته، وجعل كمال الإيمان متعلقا بحسن استخدامه كما جاء في قوله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت»[٢]، وضمن الرسول ﷺ الجنة لمن يحفظ ما بين لَحييه وما بين رِجليه[٣]، أي اللسان والفرج، وحرّم انتهاك أعراض الناس قائلًا: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا»[٤]. فيجب علىٰ المرء أن يحافظ علىٰ لسانه ولا يؤذي به الآخر بغير حق، وليعرف أن كلامه مسجَّل عليه، وفيه يقول تعالىٰ: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق:١٨].

واللسان معراض الأغراض أيضا، وهو أن اللسان كما يكون شرا علىٰ صاحبه عند الوقوع في أعراض الناس، كذلك يكون خيرا علىٰ صاحبه عند حسن استخدامه

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه (٢/ ٢٨٠)، ونسبه إلىٰ يعقوب الحمدوني.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١١) برقم: (٦٠١٨)؛ ومسلم في صحيحه (١/ ٦٨) برقم: (٤٧).

(٣) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٠) برقم: (٦٤٧٤)، ولفظه: «مَن يضمن لي ما بين لَحييه وما بين رِجليه أضمن له الجنة».

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ١٧٦) رقم: (١٧٣٩)؛ ومسلم في صحيحه (٣/ ١٣٠٦) رقم: (١٦٧٩).

ويصيب هدفه بنجاح، فكم من حاجةٍ قُضيت بلسان طيب وكلمات جميلة صدرت من صاحبها.

ويحتمل معنىً آخر، وهو أن اللسان يؤذي الأعراض كالمعراض، حيث الرمي به يؤذي الهدف بعَرْضه بكدمة مؤلمة وإن لم يجرحه ولا يخرج الدم به، كذلك اللسان سهم يؤذي بحَدّه ويؤذي بعَرضه، وفي المعراض ورد حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه يقول سألتُ رسول الله ﷺ عن صيد المعراض: «فقال: إذا أصبتَ بحدّه فكل، وإذا أصبت بعَرضه فقتل فإنه وقيذ، فلا تأكل»[١].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٧/ ٨٨) برقم: (٥٤٨٦).

باب العقل والحكمة

٩٨٣

صفات العاقل

قال وهب بن مُنَبِّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في حكمة آل داود عَلَيْهِ السَّلَامُ «حقٌّ على العاقل أن يكونَ عارفًا بزمانِه، حافظًا للسانه، مُقبلًا على شأنه»(١).

بيان المفردات

مُقبِلًا: اسم فاعل من أقبَل يُقبل، نقيض أدبَر، يأتي بمعنىٰ القدوم والقبول(٢)، والمراد هنا الاشتغال بأمور نفسه.

المعنى الإجمالي

تبين الحكمة الصفات الضرورية التي ينبغي أن يتصف بها العاقل، فيكون عارفا بزمانه، لأن من لا يعرف زمانه ووقته لا يمكن أن يتصرف في قضاياه بما يقتضيه العقل والحكمة، ولكلّ عصر خصائصه وضروراته ومتطلّباته، وهي تتغير انطلاقا من متغيرات كثيرة، والعاقل يفهم هذه التغيرات ويعرف الثوابت ويحسن التصرف بناء علىٰ الأولويات والحالات، فقد وردَ عن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه

(١) العقل وفضله لابن أبي الدنيا (ص: ٣٨).

(٢) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (٥/ ١٧٩٧)؛ لسان العرب لابن منظور (١١/ ٥٣٩ - ٥٤٠).

قال: «ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشرّ ولكنه الذي يعرف خير الشّرين»(١). والعاقل يحفظ لسانه، فلا يطلقه في كل صغيرة وكبيرة، لأن من كثر كلامه كثر سقطه ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه، وذلك ليس من العقل والحكمة. والعاقل يكون مهتما بشأنه مقبلا عليه معرضا عما لا يعنيه، لأن من اشتغل بما لا يعنيه اشتغل بقيلٍ وقالٍ، وتشتَّت ذهنه بما لا يفيد.

وكل هذه المعاني واردة في عموم نصوص الشريعة، فالنبي ﷺ أمر إنزال الناس منازلهم وخطابهم على قدر عقولهم، وجعل حفظ اللسان أحد أسباب النجاة؛ كما في حديث عقبة بن عامر يقول: «قلت: يا رسول الله، ما النجاة؟ قال: املِكْ عليك لسانك ولْيَسعك بيتُك، وابْكِ على خطيئتك»(٢)، وأما ترك ما لا يعنيه فهو من حسن الإسلام؛ كما قال ﷺ: «مِن حسن إسلام المرء تركه ما لا يَعنيه»(٣).

وربط الله تعالى فلاح المؤمنين بعدد من الأمور، منها: الإعراض عن اللغو وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال، كما جاء في الآية الكريمة: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ﴾ [المؤمنون:٣]. ويلاحظ أن إقبال العاقل على شؤونه لا يعني العزلة المذمومة والأنانية وترك هموم الأمة والمجتمع، فذاك ليس من شأن المسلم ولا العاقل.

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة (١/ ٣٩٤).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦/ ٥٧١) برقم: (٢٢٢٣٥)؛ والترمذي في جامعه (٤/ ٢٠٨) برقم: (٢٤٠٦)، وقال: حديث حسن.

(٣) أخرجه مالك في الموطأ (٥/ ١٣٢٨) برقم: (٣٣٥٢)؛ والترمذي في جامعه (٤/ ٥٥٨) برقم: (٢٣١٨)، وقال: حديث غريب، والمرسل أصح.

٩٨٤

النظر في العواقب

قال سلمة بن دينار رحمه الله: «النظر في العواقب تلقيح العقول»[(١)].

المعنى الإجمالي

الذي يفكر في عواقب ما يأتي من الأعمال وما يذر، يقوم بتلقيح عقله من خلال توارد الأفكار وتقليبها وإدارتها، فيثمر له هذا التلقيح حسن التصرف في الأمور ودقة التخطيط لها، فكأن عقل الإنسان يكون عقيما خاملا إن لم يتفكر في عواقب ما يقوم به من تصرفات، فما إن يقلب الأفكار في رأسه ويلقي بنظره إلىٰ المستقبل حتىٰ يتفتح ذهنه عن روائع الأفكار التي يهتدي بها إلىٰ الصواب.

والعقل إنما فضل علىٰ الحس بالنظر في العواقب، فإن الحس لا يرىٰ إلا الحاضر، والعقل يلاحظ الآخرة ويعمل علىٰ ما يتصور أن يقع، فلا ينبغي للعاقل أن يغفل عن تلمح العواقب، فمن تكاسل في طلب العلم مثلا وآثر عاجل الراحة، فإنه ينال من الحسرات الدائمة أضعاف ما يناله من لذة البطالة، ومن كان يجهل بعض العلم واستحىٰ من السؤال لكبر سنه ولئلا يرىٰ بعين الجهل، فإنه يلقىٰ من الفضيحة إن سئل عن ذلك أضعاف ما آثر من الحياء.

(١) المستقصىٰ في أمثال العرب للزمخشري (١/ ٣٥٣)؛ تاريخ الإسلام للذهبي (٨/ ٤٤٢).

فالأمور لا يمكن أن تحكم عليها ببداياتها، بل بنهاياتها؛ لأن الشيء ربما يكون خيرا في أوله، ولكن يكون شرا في آخره، ولذلك لابد للإنسان من أن يتدبر أمره في كل ما يريد القيام به قبل أن يبدأ بالعمل، ليعرف مداخل الأمور ومخارجها، ومصادر الأمور ومواردها، وليعرف النتائج السلبية أو الإيجابية الناجمة عن القيام بهذا العمل أو ذاك.

فانظر بعقلك إن العين كاذبة ... واسمع بحسِّك إن السمع خوَّان
ولا تقل: كل ذي عين له نظرٌ ... إن الرعاة ترىٰ ما لا يرىٰ الضان(١)

وقد نبهنا القرآن إلىٰ عدم الاغترار بالشيء إذا كان ظاهره خيرا، كما لا ننبذ الشي إذا كان ظاهره شرا، فالعبرة في النتائج والنهايات، قال تعالىٰ: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢١٦].

(١) البيتان لأبي جعفر الأعمىٰ الطليطلي، ينظر: قلائد العقيان في محاسن الرؤساء والقضاة والكتاب والأدباء والأعيان للفتح بن خاقان (ص: ٢٧٥).

٩٨٥

خير الدنيا والآخرة

قال الحكم بن أبان[١] رحمه الله: «خيرُ ما أُوتيِ العبدُ في الدنيا الحكمةُ، وخيرُ ما أوتي العبدُ في الآخرة الرحمةُ»[٢].

المعنى الإجمالي

هذه الحكمة تتحدث عن الهدف الأصلي الذي يريد أن يصل إليه الإنسان، لأن العبرة ليست بكثرة المعلومات ولا بالعلوم التي نتجت عن تلك المعلومات، بل العبرة بالحكمة التي تخرِّجها تلك العلوم، فهي الغاية الأخيرة، وخير ما أعطي العبد في الدنيا.

وأهمية هذه الحكمة تظهر جليا في هذا العصر الذي كثرت فيه المعلومات جدا، وقلَّ العلم، أما الحكمة فلا تكاد توجَد، لندرتها، فالإنسان الذي أكرمه الله بالحكمة في الدنيا لقد وصل إلىٰ غايته بأقصر طريق، لأنه وقف علىٰ الأسرار

---

(١) الحكم بن أبان، أبو عيسىٰ العدني، سمع عكرمة وطاوسا وجماعة، وروىٰ عنه معمر وابن عيينة وجماعة، توفي سنة ١٥٤، وقيل: ١٥٥هـ. ينظر: التاريخ الكبير للبخاري (٣/ ٢٤١)؛ الكمال في أسماء الرجال للمزي (٤/ ٢٥٤).

(٢) تهذيب خالصة الحقائق ونصاب غاية الدقائق للفاريابي (ص: ٦٧). وذكره أبو بكر الأزدي في المجتبىٰ (ص: ٤٦) بدون نسبةٍ إلىٰ قائل، ولفظه: «إن أفضل ما أعطي العبد في الدنيا الحكمة وفي الآخرة الرحمة».

الكونية والدقائق العلمية، وكلما كان العبد مطيعًا لربه، مخلصًا في عمله، جرت الحكمة على لسانه، وقد أُعطي النبي ﷺ جوامع الكلم، وهي الحكَم التي قصر لفظها وكثر معناها. قال الله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩].

أما خير ما يعطى العبد في الآخرة، فهي رحمة الله التي تسع عباده المؤمنين، وتكون سببا لمغفرة ذنوبهم ورفعة درجاتهم، وبدون الرحمة الإلهية لا يدخل أحد الجنة، كما قال ﷺ: «لن يُدخِل أحدًا منكم عملُه الجنة»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله منه بفضل ورحمة»[1].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٧/ ١٢١) برقم: (٥٦٧٣)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ١٤٠) برقم: (٢٨١٦).

٩٨٦

غذاء العقول والشهوات

قال محمد بن الهروي[(١)] ﷺ: «الحكمة غذاء العقول، والشهوة غذاء الأهواء»[(٢)].

المعنى الإجمالي

تتحدث هذه الحكمة عن غذاء العقل والروح وعما يفسدهما، وذلك على طريقة مفهوم المخالفة والإشارة. إن العقول تتغذىٰ وتنمو بالحكمة والعلم، ومن خلال الاختلاط بأهل العلم والجلوس معهم، بينما اشتغال الإنسان بالبطالة واختلاطه بالسفهاء، وترك التعلم، والتقاط الشبهات العقلية، كل ذلك يفسد عقلَه ويُمِيت فكرَه. وأما الأهواء والرغبات، فإنها تتغذىٰ بالشهوات وإشباع النفس بها، ويؤدي ذلك إلىٰ فساد النفس وخرابها.

ومثلها ما نقله الفاريابي عن بعضهم قوله: «الحكمةُ قوتُ العقولِ، كما أن المطاعم قوتُ الأجساد، فإذا فقدتِ العقولُ قُوتَها من الحكمة، ماتتْ موتَ

(١) لم نقف علىٰ ترجمة له في كتب السير، ورد ذكره في أسانيد الأحاديث الضعيفة، يروي عن سفيان الثوري، قال عنه ابن عراق: مجهول، يحتمل أن تكون وفاته في أواخر القرن الثاني الهجري. ينظر: تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة لابن عراق (١/ ٢٣٥)؛ تلخيص كتاب الموضوعات للذهبي (ص: ٤٩).

(٢) تهذيب خالصة الحقائق ونصاب غاية الدقائق للفاريابي (ص: ٦٣).

الأجساد عند فَوْتِ الأقواتِ»[١].

قال الله تعالىٰ في وصف كتابه العظيم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧]. وقال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت:٤٤].

وقال تعالىٰ في وصف فوائد الذكر: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨].

وقال النبي ﷺ: «الكلمة الحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحقُّ بها»[٢].

(١) تهذيب خالصة الحقائق ونصاب غاية الدقائق للفاريابي (ص: ٦٦).

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٤١٧) برقم: (٢٦٨٧)، وقال: حديث غريب؛ وابن ماجه في سننه (٥/ ٢٦٩) برقم: (٤١٦٩).

٩٨٧

الدور العملي للعقل

قال سفيان بن عيينة رحمه الله: «ليس العاقل الذي يعرف الخير والشر، ولكن العاقل الذي يعرف الخير فيتَّبِعُه، ويَعرف الشرّ فيَتَجنَّبُه»[1].

المعنى الإجمالي

إن العاقل الحقيقي هو الذي إذا رأىٰ الحقَّ والخير وعرفه بعقله اتبعه، وكذلك إذا رأىٰ الباطل والشرَّ تركَه واجتنبه، أما مجرد قدرة الإنسان علىٰ التمييز بين الخير والشر، ومعرفته الحقَّ من الباطل بدون أن ينضم إلىٰ ذلك العملُ والتطبيقُ فليس في العقل في شيء.

موضوع هذه الحكمة بيان دور العقل ووظيفته في الإنسان، وأن دوره ليس نظريًا، بل تطبيقي عملي؛ فالعقل الذي لم يجعل صاحبَه يتبعُه لا فائدة منه، وصاحبه لا يسمىٰ عاقلًا.

لقد وبَّخ اللهُ تعالىٰ المشركين الذين تركوا الحق بعد أن تبيَّن لهم، ولم يتبعوا الرسولَ ﷺ بعد أن تيقَّنوا صِدقَ دعوته، ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الروم: ٢٨-٢٩]، فالله بيَّن

(١) العقل وفضله لابن أبي الدنيا (ص: ٥١).

الحقائق للذين يعقلون، فمن ترك الحقَّ بعد معرفته واتبع هواه، زال عنه وصف العقل والعلم، فليس العلم والعقل بمجرد معرفة الحقائق، بل الاعتبار باتباعها، كما وصف الذين لا يستجيبون للحق بعد أن تبين لهم واتبعوا أهواءهم بالضلال والظلم، فقال: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص:٥٠]، والعاقل بعيد عن الضلال والظلم، لأن العقل يخالف الضلال، والله أعلم.

٩٨٨

نعمة العقل

قال الشافعي رحمه الله: «العاقل من عَقَلَه عَقْلُه عن كل مذموم»[(١)].

بيان المفردات

العقل: نقيض الجهل، وسمي عقل الإنسان عقلًا؛ لأنه يعقله -أي يمنعه- من التورط في الهلكة، كما يَعقِل العِقالُ البعيرَ عن ركوب رأسه[(٢)].

المعنى الإجمالي

جعل الإسلام العقل من شروط التكليف ليكون العبد مسؤولًا عن أفعاله وتصرفاته، فإن افتقده العبد ارتفع عنه التكليف؛ قال ﷺ: «رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتىٰ يستيقظ، وعن الصغير حتىٰ يحتلم، وعن المجنون حتىٰ يعقل»[(٣)].

ولأهمية العقل فقد جعله الله تعالىٰ أحب شيء إليه؛ كما روىٰ الحسن

(١) مناقب الشافعي للبيهقي (٢/ ١٨٧).

(٢) ينظر: تهذيب اللغة للأزهري (١/ ١٦٠).

(٣) أخرجه أبو داود في سننه (٤/ ٢٤٥) برقم: (٤٤٠٣)؛ والدارمي في سننه (٣/ ١٤٧٧) برقم: (٢٣٤٢)؛ وابن ماجه في سننه (١/ ٦٥٨) برقم: (٢٠٤١)؛ والبخاري في صحيحه تعليقًا وموقوفًا علىٰ علي بن أبي طالب (٨/ ١٦٥).

البصري ﷺ أثرًا يرفعه، قال: «لمَّا خلق الله العقل، قال له: أقبِل، فأقبل، ثم قال له: أدبر، فأدبر، قال: ما خلقتُ خلقًا أحب إليَّ منك، بك آخذ وبك أعطي»[(١)].

إن من علامات العقل حسن التدبير ووضع الأشياء مواضعها من القول والفعل، وتصديق ذلك إيثار الأكثر على الأقل[(٢)]، فلا يكون العاقل عاقلًا حتى يكون عقله مانعًا له عن الرذائل؛ إذ العقل السليم ذو الفطرة الصالحة لا يتخالف مع الشرع بأي حال من الأحوال. والعقل يحجز صاحبه عن كل موبقة مبعثها هوى النفس، أو تزيين الشيطان، أو فساد في الأقوال أو الأفعال، وكل أمر مذموم مستقبح الخصال من الأقوال والأفعال.

---

(١) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ٢٥٩)؛ الطبراني في الأوسط (٧/ ١٩٠) برقم: (٧٢٤١) وفي الكبير (٨/ ٢٨٣) برقم: (٨٠٨٦).

(٢) آداب النفوس للحارث المحاسبي (ص: ١٥٢).

٩٨٩

أحب العباد إلى الله

قال ذو النون المصري ﵀: «إنَّ أحبَّ عباد الله إلى الله ﷻ أعقلُهم عنه»[(١)].

المعنى الإجمالي

العاقل من سار في طريق الله ومحبته ورضوانه، فيعقل عن الله أمره ونهيه، فلا يُقَدِّمُ بين يدي الله ورسوله أمرًا، بل ينظر في كل ما أمرا به أو نهيا عنه، فيتبع المأمورات، وينتهي عن المنكرات والمحذورات، ولا يعقل العاقل عن الله شيئًا إلا إن كان ذا قلب حي، كما قال تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يس:٧٠]، «أي: مؤمنًا، ويقال: عاقلًا»[(٢)]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧] «أي: استمَعَ كتاب الله وهو شاهدُ القلب والفهم، ليس بغافلٍ ولا ساهٍ»[(٣)].

يقول ابن القيم: «فصاحب القلب يجمع بين قلبه وبين معاني القرآن، فيجدها كأنها قد كتبت فيه؛ فهو يقرؤها عن ظهر قلب. ومن الناس من لا يكون تام

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي (٢/ ٤٤٥).
(٢) غريب القرآن لابن قتيبة (ص: ٣٦٨).
(٣) غريب القرآن لابن قتيبة (ص: ٤١٩).

الاستعداد واعي القلب كامل الحياة، فيحتاج إلىٰ شاهد يميز له بين الحق والباطل، ولم تبلغ حياة قلبه ونوره وزكاء فطرته مبلغ صاحب القلب الحي الواعي؛ فطريق حصول هدايته: أن يُفرِّغ سمعه للكلام، وقلبه لتأمله والتفكر فيه وتعقل معانيه، فيعلم حينئذ أنه الحق»[١].

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ٥).

٩٩٠

أهمية العقل

قال يحيى بن معاذ رحمه الله: «مِن كان عقلُه أقلَّ مِن عِلمِهِ لا ينتفع بكثرة روايتِهِ»(١).

المعنى الإجمالي

تشير هذه الحكمة إلى أهمية العقل بالنسبة للمشتغل بالعلم تعلُّمًا وتعليمًا، لأن العقل آلة الفهم والإدراك، ووظيفته استنباط المعاني واستنتاج النتائج من أجل حَلِّ المشكلات وتخزين المعلومات، فإذا كثرت معلومات الإنسان وصغر عقله بحيث ضَعُفَ عن إدراك معاني العلوم وربط الأفكار بعضها ببعض، فإنه لا ينتفع بما عنده؛ لأن العلم ليس بكثرة المعلومات، وإنما بحُسن الفهم والقدرة على الاستنباط.

قال الحسن البصري رحمه الله: «من لم يكن له عقل يسوسه، لم ينتفع بكثرة روايات الرجال»(٢).

وفيه تلميح بأولئك حملة الكتب ورواة الآثار الذين إذا سئلوا عن حكم شرعي

(١) تهذيب خالصة الحقائق ونصاب غاية الدقائق للفاريابي (ص: ٣٨).
(٢) كتاب العقل وفضله لابن أبي الدنيا (ص: ٣٠).

لا يستطيعون استنباطَه مما عندهم من الأخبار والآثار، فلم يعد هذا الجمع عليهم بالفائدة إذ قصرتْ عقولهم عن الانتفاع بها.

قال النبي ﷺ: «مَن يردِ اللهُ به خيرًا يُفقِّهْه في الدين»[١]، أي: يؤتيه فهمًا في الدين.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ٨٥) برقم: (٣١١٦)؛ ومسلم في صحيحه (٣/ ٩٤) برقم: (١٠٣٧).

٩٩١

طريق العلم والحكمة

قال يحيى بن معاذ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يعطى العلم بالتعليم، وتعطى الحكمة بحفظ حرمات الصالحين»[(١)].

المعنى الإجمالي

لا تُعطىٰ النتائج والثمار الطيبة عادةً إلا ببذل الأسباب والسعي في تحصيلها؛ فقد أمر الله بالمشي في مناكب الأرض، فقال تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾ [الملك:١٥]، وقال المنادي الذي نادىٰ مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ: ﴿ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ [مريم:٢٥]، وهي امرأة ضعيفة نُفَساء، لكن الأخذ بالأسباب وعدم التهاون بها أمر شرعي.

فإذا كانت كل أحوال العبد الدينية والدنيوية لا بد للسعي فيها، وعدم تركها لتتحقق بنفسها دون بذل للجهد الموصل إليها فإن العلم مطلب عظيم، لا يعطي ثماره وفائدته لمن رضي بالراحة والكسل.

إن العلم لا يُكتسب إلا بالتعلم والجلوس إلىٰ العلماء والسفر إليهم لسؤالهم عما أُبهم من مسائله وعلومه، والسلف الصالح من التابعين وتابعيهم لم يمنعهم كِبَرُ

(١) جواهر التصوف ليحيىٰ بن معاذ الرازي (ص: ٢٦).

السن أو وجود ما يحتاجونه من العلم عند من هم أقلَّ منهم مكانة أو أصغر سنًا من طلبه، فإن العلم ليس له محددات تحدده من السن والمكانة ووفرة المال أو قلتها.

وفي الحديث: «إنما العلم بالتعلم»(١).

إنَّ منْ يُريد الوصول إلىٰ مراده فإنه يبذل الأسباب التي تعينه علىٰ الوصول؛ فمن أراد العلم فليتعلم، ومن أراد الصبر فليتصبر، ومن أراد الحكمة فليجالس الصالحين في مجالسهم؛ فبمجالستهم تنتقىٰ أطايب الكلام كما تنتقىٰ أطايب الثمار، فيحفظ لهم حرمتهم ويصون أعراضهم عند مجالستهم؛ فهم يعلمونه آداب المجالس، وآداب الحديث، والعلم والعمل، ثم هو يذود عنهم ويدفع عن أعراضهم في غيبتهم، فقد روىٰ أبو الدرداء ﵁ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «من ذَبَّ عن عِرض أخيه كان له حجابًا من النار»(٢).

ومن يتعود علىٰ حفظ حرمات الصالحين، فإنه ينال الحكمة ببركة هذه الطاعة، وهي حفظ الحرمات.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه تعليقًا (١/ ٢٤)؛ والبزار في مسنده (٥/ ٤٢٣) برقم: (٢٠٥٥)؛ والطبراني في المعجم الأوسط (٣/ ١١٨) برقم: (٢٦٦٣).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (١/ ٤٤) برقم: (٢٨). قال العراقي: رواه أحمد والطبراني وإسناد أحمد حسن. ينظر: مجمع الزوائد لزين العراقي (٨/ ٩٥).

٩٩٢

وظيفة العقل

قال ابن عطاء الأدمي ﷺ: «العقل آلة للعبودية، لا للإشراف على الربوبية»(١).

المعنى الإجمالي

العقل آلة تُدرِك الأمورَ التي من شأنها تكميل قوانين العبودية، وليست للإشراف علىٰ معاني الربوبية(٢).

إن وظيفة العقل أن يعرف به الإنسان ربه ويعرف حقيقة نفسه وأنه عبدٌ عليه أن يخضع لخالقه ﷻ، لا للاعتراض علىٰ مقام الربوبية، لأن العقل آلة أُعطِيناها للاهتداء إلىٰ الله تعالىٰ ولتدبر آياته، وليس للعكس، كاعتراض الملاحدة علىٰ وجود الخالق؛ لأن العقل عاجز، والعاجز لا يدل إلا علىٰ عاجز مثله، تعالىٰ الله عن ذلك علوًا كبيرًا. وبالجملة فالعقل للتمييز بين الشيئين، وهذا إنما يصح في العبودية، لا في الربوبية، ويؤيد هذا التفسير قول ابن سينا: «العقل آلة أعطيت لدرك العبودية،

---

(١) التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذي (ص٦٩)؛ تهذيب خالصة الحقائق ونصاب غاية الدقائق للفاريابي (ص: ٣٧).

(٢) الإشارات الكلامية في الحكم العطائية لمهند العبدلي (ص: ٦٧).

لا للتصرف في أمر الربوبية»[١].

ومصداق الجزء الأول من الحكمة في آيات كثيرة يذكر الله تعالىٰ فيها براهين وجوده وقدرته، ويحثُّ العباد علىٰ العبودية والإذعان له، ثم يعقب علىٰ ذلك بقوله: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٧٣] وبقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٤٤].

والدليل علىٰ الجزء الثاني قوله ﷺ: «لا يزال الناس يتساءلون، حتىٰ يقال هذا: خلَقَ اللهُ الخلقَ، فمن خلقَ اللهَ؟ فمَن وجد من ذلك شيئًا، فليقلْ: آمنتُ بالله»، وفي رواية: «فإذا بلَغَه فلْيستعِذْ بالله ولْينتَهِ»[٢].

---

(١) ينظر: التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذي (ص: ٦٩)؛ شرح التعرف لمذهب أهل التصوف لعلاء الدين القونوي (ص: ٢٢٦).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١٢٣) برقم: (٣٢٧٦)؛ ومسلم في صحيحه (١/ ٨٣) برقم: (١٣٤).

٩٩٣

بريق الفتن خدّاع

قال ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «نُوَّارُ الفتنة لا يَعْقِد»[١].

بيان المفردات

نُوَّارُ: هو زهر الأشجار[٢].

لا يَعْقِد: تقول: عَقَد الزهر؛ أي: تحول من زهر إلى ثمر[٣].

المعنى الإجمالي

إن للفتنة مظهرًا خادعًا في مبدئه، حتى يستحسن الناسُ صورتَها، ويعقدوا الآمال عليها، ولكن سُرعان ما تموت وتتلاشى، مثل الزهرة التي تموت قبل أن تتفتح وتُعطي ثمرتها، فمن طبائع الفتن: أنها تتزين للناس في مباديها، حتى تُغْرِيهم بملابستها والتورط فيها، ومن عادة الفتنة أنها تُوْهِم بأنّ لها محاسن وفيها منافع، فإذا احتدمت ذهب ذلك الوهج، واتضح أنه وهم خدّاع، ومن ثمَّ قال أهل الحكمة: الفتنة يدركها العلماء في أولها، ولا يدركها الجاهلون إلا في آخرها.

---

(١) الأخلاق والسير ومداواة النفوس لابن حزم (ص: ٣٣).

(٢) ينظر: تهذيب اللغة للأزهري (١٥/ ١٧١).

(٣) ينظر: تكملة المعاجم العربية لرينهات بيتر آن دوزي (٧/ ٢٥٢).

قال ابن عيينة، عن خلف بن حوشب: كانوا يستحبون أن يتمثلوا بهذه الأبيات عند الفتن:

الحرب أول ما تكونُ فَتيّةً ... تَسْعىٰ بزينتها لكلِّ جهُولِ

حتىٰ إذا اشتعلت وشَبَّ ضِرامُها ... ولَّتْ عجوزًا غيرَ ذاتِ حَليلِ

شمطاءَ يُنكَرُ لونُها وتغيَّرت ... مكروهةً للشمِّ والتقبيلِ[١].

وهذه الحكمة قالها ابن حزم الذي عاصر فتنة البربر في الأندلس، ورأىٰ بنفسه كيف أن الناس يعقدون علىٰ كل ثائر وثورة وشرارة فتنة جديدة آمالًا كبيرة في الإصلاح والتغيير، ولكن سرعان ما تتحول الآمال إلىٰ مآسٍ وأحزانٍ، وضحايا وتدمير.

فالفتن تذهب بعقول الرجال وتستخفهم، عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: «ما الخمر صِرْفًا بأَذْهَب بعقول الرجال من الفتنة»[٢].

(١) الأبيات لامرئ القيس، وقد أورد كلام ابن عيينة الإمام البخاري في صحيحه، وأورد هذه الأبيات، ينظر: صحيح البخاري (٩/ ٥٤).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (١/ ٢٧٤).

٩٩٤

علامة العقل والحكمة

قال أبو الطيب المراغي رحمه الله: «للعقل دلالة، وللحكمة إشارة، وللمعرفة شهادة»(١).

المعنى الإجمالي

الأسباب مرتبطة بمسبباتها، والصفات مرتبطة بعلاماتها وبآثارها، فمن اتصف بصفة معينة ظهرت عليه علاماتها وآثارها.

فاتصاف الإنسان بالعقل لا بد أن تظهر دلالته على تفكيره وتصرفاته، فيطلب ما يجلب مصلحته، ويتجنب ما يجلب المفسدة، وإذا لم يسع الإنسان إلى تحقيق مصلحته فلا يصحّ وصفه بصفة العقل، ولذلك يعترف الكفار يوم القيامة بأنهم لم يكونوا يعقلون حين لم يستجيبوا لنداء الإيمان، قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك:١٠].

والاتصاف بالحكمة لا بد أن يكون له إشارة تدل عليه، فالحكمة مصدرٌ من الإحكام وهو الإتقان في قول أو فعل، وأصل الحكمة ما يمتنع به من السفه، فقيل للعلم حكمة لأنه يمتنع به، وبه يعلم الامتناع من السفه وهو كل فعل قبيح،

(١) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ٢١).

وكذا القرآن والعقل والفهم(١)، فإذا اتصف الإنسان بالحكمة فلا بد أن تظهر إشارتها عليه، لأن من آتاه الله الحكمة على خير عظيم حُرِم منه كثير من الناس، قال تعالىٰ: ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة:٢٦٩].

والمعرفة لها علامة وشهادة تدل علىٰ حصولها، فإن الإنسان إذا تحقق بالمعرفة الصحيحة، وعرف أن كل شيء يدل علىٰ الخالق سبحانه، صارت معرفته دليلا وشاهدا علىٰ أن صفاء العبادات لا يكون إلا بصفاء التوحيد، وأن العمل لا يستقيم حتىٰ يكون خالصا مخلصا لله تعالىٰ وحده لا شريك له، قال تعالىٰ: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران:١٨].

---

(١) تفسير القرطبي (٣/ ٣٣٠).

٩٩٥

الفرق بين العلم والحكمة

قال الفاريابي ﷺ: «العلمُ يُعرَف به أوائلُ الأمورِ، والحكمةُ يعرف بها عواقبُ الأمورِ»[١].

المعنى الإجمالي

هذه الحكمة تؤكِّد ما تقدم في شرح حكمة: «خير ما أوتي العبد في الدنيا الحكمة»[٢]، أن الحكمة هي الغاية الأخيرة من طلب العلوم وجمع المعارف، فالعلم والمعرفة هي البدايات التي يعرف بها الإنسان بداية كل شيء، وهي الوسيلة التي توصله إلىٰ الحكمة المقصودة، وأما الحكمة فهي المقصود والمراد، وبها يعرف الإنسان عواقب الأمور ونهاية كل شيء.

العلم يعلِّم الإنسان كيف تكون الأمور وماذا عليه أن يعمل، والحكمة تخبره عن نتائج هذا العمل وما يترتب علىٰ القيام به، والإنسان لا يكون حكيمًا إلا إذا عرف العواقب والنتائج، وكانت عنده النظرة البعيدة، ومجرد معرفته الأشياء والعلم بكيفية استخدامها لا يجعله حكيمًا.

(١) تهذيب خالصة الحقائق ونصاب غاية الدقائق للفاريابي (ص: ٦٨).

(٢) رقم الحكمة (٩٨٥)، وقد تقدم شرحها.

وقد ورد في القرآن الكريم في مواطن عدة التفريق بين العلم بالشيء والحكمة فيه، ومنه قوله تعالىٰ عن سيدنا داود عليه السلام: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٥١]، وقال سبحانه: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص:٢٠]، فمعرفة الحُكْم والقضاء وتدبير شؤن الرعية لا يغني عن الحكمة، لذلك آتاه الله الحكمةَ مع تعليمه إياه ما يحتاجه في شؤون السياسة والملك.

وقد تطلَق الحكمةُ بمعنىٰ العلم، وتستعمل بمعنىٰ معرفة الأشياء والموجودات، فتكون مرادفة للعلم، ويقال للعالم: الحكيم وصاحب الحكمة[1].

(١) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن للراغب (ص: ٢٤٩)؛ والصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (٥/ ١٩٠١).

٩٩٦

العمــل بالحكمــة

قال الفاريابي رحمه الله: «ليس الحكيم مَن نطق بالحكمة، إنما الحكيم مَن عمِل بها»(١).

المعنى الإجمــالي

موضوع هذه الحكمة قاعدة أساسية في حياة الإنسان، ومعيار القبول فيما يفعل، وهي أن العبرة بما عمل وليس بما قال، كذلك تظهر أهمية الحكمة في النتائج المترتبة على العمل بها، وهو المقصود والغاية، فلا يسمى حكيمًا من تكلم بالحكمة وتفوَّه بما قاله الحكماء، بل الحكيم الحقيقي من عمل بالحكمة وظهرت آثارها في أفعاله.

قال الله تعالى في توبيخ الناس الذين يقولون شيئا ولا يعملون به: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢-٣]، كما أنه تعالى نفى وصف العقل عن الذين يأمرون بشيء ثم أنفسهم لا يقومون به: ﴿ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [البقرة:٤٤].

(١) تهذيب خالصة الحقائق ونصاب غاية الدقائق للفاريابي (ص: ٦٨).

٩٩٧

التفكر علامــة العاقل

قال لقمان لابنه: «كنْ عاقلاً أخرسَ، ولا تكنْ جاهلاً أفصح، واعلم أنَّ لكل شيءٍ علامةً، وعلامة العاقل التفكُّرُ ولزومُ الصمتِ»(١).

المعنى الإجمــالي

في هذه الحكمة يقدِّم لقمان الحكيم لابنه نصيحةً عن أحوال العقلاء وصفات الحكماء، ويرشده إلىٰ الإقبال علىٰ الصمت والتفكر، فالعاقل هو الساكت الذي يفكر في الكون ويستنبط المعاني، إن سكت فللعبرة، وإن نطق فبالحكمة، وهذا أفضل من حال الجاهل الذي يتكلم بما لا ينفع، وإن صمت فعند الضرورة، وليس للعبرة، ثم وجَّهه لقمان إلىٰ التحلي بصفة العاقل، وذكر علامة عقل الرجل، فقال: إن لكل شيء دليلًا يدل عليه، ودليل العاقل التفكُّر، ودليل التفكُّرُ طول الصمت.

وهذه الحكمة اللقمانية قد ذكرها الله تعالىٰ في كتابه العزيز علىٰ لسان صاحبها لقمان الحكيم في قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴾ [لقمان:١٩]، وفيه توجيه للمؤمنين أن يتحلَّوْا بهذه الخصلة، فالعاقل لا يرفع صوتَه بالتشغيب، ولا يتكلم إلا بخير، ويكون صمته مصاحبًا للعبرة والفكرة.

(١) تهذيب خالصة الحقائق ونصاب غاية الدقائق للفاريابي (ص: ٤٤).

٩٩٨

حقيقة الحكمة

قال بعض الصالحين رَحِمَهُ اللَّهُ: «الحكمة إماتة الشهواتِ، وقطعُ أسبابِ الشبهاتِ»[(١)].

المعنى الإجمالي

لا يُعرف قائلُ هذه الحكمة، وقد نسبها الفاريابي إلىٰ حكيم وأبهمه، ومعناها يدور حول تفسير المراد من الحكمة وبيان أحوال الحكماء، كيف نعرف الحكيمَ من غير الحكيم؟ وما هي آثار الحكمة التي تظهر علىٰ الحكيم؟ وتكمن حقيقة الحكمة في محاسبة النفس ومراقبة العقل والقلب، والذي يحاسب نفسَه يجد أن نفسَه تميل إلىٰ الشهوات، وإذا استجاب الإنسان لنداء نفسه يموت القلب بالوحشة والظلمة، فعلىٰ الإنسان أن يتغلب علىٰ شهوات النفس حتىٰ تنقاد لتعاليم الشرع والمروءة، فالإماتة كناية عن ضعفها، وإلا فالغرائز لا تمكن إزالتها بالكلية. ولا يكفي قطع الشهوات من القلب إذا كان في عقله شبهة عقائدية أو فكرية، وهنا تكمن أهمية مراقبة العقل، والإنسان معرَّض للشبهات في كل مكان وزمان، فمداخل الشبهات كثيرة وأسبابها عديدة، وعلىٰ الإنسان العاقل أن يعرف أسباب تلك الشبهات ويقطعَها، فإذا فعل العبد هذين الأمرين: إضعاف الشهوات وقطع

(١) تهذيب خالصة الحقائق ونصاب غاية الدقائق للفاريابي (ص: ٦٢).

أسباب الشبهات، يكون في أمره حكيمًا وفي سعيه رشيدًا، ومن أهمل نفسَه وتركها في الحرية، فقد خالف الحكمة والعقل.

روي مرفوعا إلىٰ النبي ﷺ أنه قال: «رأس الحكمة مخافة الله ﷻ»(١).

وقال ﷺ: «ثلاث مُهلِكات: شُحٌّ مطاع، وهَوًىٰ مُتبَع، وإعجابُ المرءِ بنفسه من الخيلاء. وثلاث مُنجِيات: العدل في الرضا والغضب، والقصد في الغنىٰ والفاقة، ومخافة الله في السر والعلانية»(٢).

---

(١) روي ذلك من حديث عقبة بن عامر في خطبة النبي ﷺ بتبوك، والرواية الصحيحة موقوفة علىٰ عبد الله بن مسعود، أخرجها البيهقي في شعب الإيمان (١/ ٤٧٠) برقم: (٧٤٣).

(٢) أخرجه البزار في مسنده (١٣/ ١١٤) برقم: (٦٤٩١)؛ والطبراني في الأوسط (٥/ ٣٢٨) برقم: (٥٤٥٢)؛ والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٤٧١) برقم: (٧٤٥).

٩٩٩

صفات العقلاء

قال بعض الصالحين رحمه الله: «العاقل مَن أقبلَ على شأنه، وداری أهلَ زمانِه، وعرف حقَّ إخوانه، وكان الصدق على لسانه»(١).

المعنى الإجمالي

تتحدث هذه الحكمة عن صفات العاقل، إضافة إلىٰ الأوصاف التي مرَّ ذكرُها في الحكم السابقة.

العاقل الحقيقي هو الذي أقبل علىٰ شأنه بالكلية وترك شؤون الآخرين، فالذي ينشغل بالآخرين ويُضيِّع واجباته لم يعقل، قال النبي ﷺ: «مِن حُسنِ إسلامِ المرء تركُه ما لا يعنيه»(٢)، والذي يتدخل في شؤون الآخرين ويغفل عن شؤونه، لم يُحسِنْ إسلامَه.

وكذلك من صفات العقلاء: مداراة الخلق، فمن اختلط بالناس لا بد أن ينال الأذىٰ، ولا يستطيع الإنسان حلَّ جميع المشكلات والخصومات، فإن اشتغل بتأديب من آذاه تعِبَ وضيَّع أوقاتَه، ولا يجني من وراء ذلك ثمرة، فالعاقل الخبير بالحياة يداري أكثرَ أهلِ عصرِه ويُصلِح مشكلاتهم وعيوبَهم بأحسن الأخلاق.

(١) تهذيب خالصة الحقائق ونصاب غاية الدقائق للفاريابي (ص: ٤٣).

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ١٤٨) برقم: (٢٣١٧)؛ وابن ماجه في سننه (٥/ ١١٨) برقم: (٣٩٧٦).

قالت السيدة عائشة ﵂: استأذن رجلٌ علىٰ رسولِ الله ﷺ، فقال: «ائذنوا له، بئس أخو العشيرة أو ابن العشيرة» فلما دخل أَلانَ له الكلام، قلتُ: يا رسول الله! قلتَ الذي قلتَ ثم أَلنْتَ له الكلام؟ فقال: «أي عائشة! إنَّ شرَّ الناس مَن ترَكَه الناسُ أو وَدَعَه الناسُ اتقاءَ فُحشِه»[1]، وفيه أن النبي ﷺ كان يداري بعض الناس المعروفين بالشر أو يُتوقَّع من جانبهم السوءُ، اتقاءَ شرِّه.

ومن صفات العاقل: معرفة حقوق إخوانه ومراعاتها، وقد عمّق النبي ﷺ معنىٰ الأخوة، وأولاها العناية بما قرره ﷺ من حقوقِ المسلم علىٰ أخيه المسلم، فقال:«حقُّ المسلم علىٰ المسلم ستٌّ»، قيل: ما هُنَّ يا رسولَ الله؟ قال: «إذا لقيتَه فسلِّمْ عليه، وإذا دعاك فأَجِبْه، وإذا استنْصَحَك فانصَحْ له، وإذا عطس وحمد اللهَ فشَمِّتْه، وإذا مرِضَ فعُدْه، وإذا مات فاتَّبِعْه»[2].

ومن أهمِّ صفات العاقل: الصدق في القول والعمل، وقد أثنىٰ الله ﷻ علىٰ الصادقين وأمر المؤمنين بصحبتِهِم، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة:١١٩].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٧) برقم: (٦٠٥٤)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٢١) برقم: (٢٥٩١).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ٧١) برقم: (١٢٤٠)؛ ومسلم في صحيحه (٧/ ٣) برقم: (٢١٦٢).

١٠٠٠
ميزة العقل وضرر الجهل

قال بعض الصالحين رحمه الله: «لا غنى كالعقل، ولا فقرَ كالجهل، ولا ميراثَ كالأدب، ولا ظَهيرَ كالمشاورة»(١).

بيان المفردات

الظهير: المعين، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم:٤](٢).

المعنى الإجمالي

الغنىٰ في ظاهر الأمر بحسب ما تعارف عليه الناس هو أن يملك الإنسان أنواع الأموال المختلفة، لكن في حقيقة الأمر فإن رجحان العقل وسلامة التفكير هي أعلىٰ أنواع الغنىٰ، فالعقل هي نعمة كبيرة وكنز ثمين أكرم الله به الإنسان، حيث يستطيع به تدبير شؤونه ومعرفة مصلحته، وفقر العقل أشد بكثير من فقر المال، لأن الآثار والنتائج لفقر العقل لا يمكن تعويضها، حكىٰ الأصمعي رحمه الله قال: قلت لغلامٍ حدَثٍ من أولاد العرب كان يحادثني فأَمْتَعَني بفصاحة وملاحة: أيسُرُّك أنْ يكون

(١) أمالي القالي لأبي علي القالي (٢/ ١٦٦). رواه أبو علي القالي بسنده عن الأصمعي عن بعض الحكماء.

(٢) مختار الصحاح للرازي (١/ ١٧١).

لك مائة ألف درهم وأنت أحمق؟ قال: لا والله، قال: فقلت: ولم؟ قال: أخافُ أن يَجني علي حُمقي جناية تَذهب بمالي ويبقىٰ علي حُمقي(١).

وأشد أنواع الفقر ضررا وخطورة هو الجهل والعَوَز من العلم والمعرفة، فالجاهل فقير ولو ملك جميع أموال الدنيا، فالفقر من المال ليس عيبا في نفسه لأنه غالبا ما يكون خارجا عن الإرادة، لكن الجهل هو عيب مستشنع في نفسه، إذ لا مانع أمام الإنسان من أن يتعلم.

وأفضل ما يَرِثُه الإنسان ويأخذه عن أهله هو الأدب والخلق الحسن، روي عن النبي ﷺ أنه قال: «ما نَحَل والدٌ ولدا من نُحْل أفضل من أدب حسن»(٢)، والنُّحْل هو العطية والهبة ابتداء من غير عوض ولا استحقاق(٣).

وأفضل معين وظهير في الأمور هو المشاورة لأصحاب التقوىٰ والعقل والحكمة، والأخذ بالشورىٰ هو صفة المؤمنين، قال تعالىٰ: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورىٰ:٣٨].

(١) أدب الدنيا والدين للماوردي (ص: ٢١).

(٢) أخرجه الحاكم في مستدركه (٤/ ٢٦٣) برقم: (٧٧٧٤)؛ والترمذي في جامعه (٣/ ٥٠٣) برقم: (١٩٥٢).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (٥/ ٢٩).

مسرد المصادر والمراجع

١. الإبانة في اللغة العربية، سلمة بن مسلم العَوْتبي، تحقيق عبد الكريم خليفة ونصرت عبد الرحمن وصلاح جرار ومحمد حسن عواد وجاسر أبو صفية، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م.

٢. إبراز المعاني من حرز الأماني، عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي الدمشقي المعروف بأبي شامة، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣. إبطال الحيل، عبيد الله بن محمد العُكْبَري، المعروف بابن بَطَّة العكبري، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.

٤. إتحاف المهرة بالفوائد المبتكرة من أطراف العشرة، أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني، مركز خدمة السنة والسيرة النبوية، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م.

٥. آثار الإمام محمّد بن بشير بن عمر الإبراهيمي، جمع وتقديم أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.

٦. أحكام القرآن للشافعي، أحمد بن الحسين الخسروجردي البيهقي، تحقيق أبي عاصم الشوامي، دار الذخائر، الطبعة الأولى، ٢٠١٨م.

٧. أحكام القرآن، محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الاشبيلي، تحقيق محمد عبد القادر، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٣م.

٨. إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، دار المعرفة، بيروت.

٩. أخبار القضاة، أبو بكر محمد بن خلف، الملقب بوكيع، تحقيق عبد العزيز المراغي، المكتبة التجارية الكبرىٰ، القاهرة، الطبعة الأولىٰ، ١٩٤٧م.
١٠. الإخلاص والنية، عبد الله بن محمد بن عبيد الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا، تحقيق إياد خالد الطباع، دار البشائر، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٣هـ.
١١. الأخلاق الإسلامية وأسُسها، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، الطبعة الخامسة، ١٩٩٩م.
١٢. الأخلاق والسير في مداواة النفوس، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي الظاهري، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٩م.
١٣. آداب الحسن البصري، أبو الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي، تحقيق سليمان الحرش، دار النوادر، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٨م.
١٤. الآداب الشرعية والمنح المرعية، محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج الراميني، دار عالم الكتب.
١٥. آداب الصحبة، محمد بن الحسين بن محمد النيسابوري، أبو عبد الرحمن السلمي، تحقيق مجدي فتحي السيد، دار الصحابة للتراث، مصر، الطبعة الأولىٰ، ١٩٩٠م.
١٦. آداب الطريقة وأسرار الحقيقة في رسائل الشيخ عبد الرزاق القاشاني، ضبطها وعلق عليها عاصم إبراهيم الكيالي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠٥م.
١٧. آداب النفوس، الحارث بن أسد المحاسبي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الجيل، بيروت.
١٨. أدب الدنيا والدين، أبو الحسن علي بن محمد الشهير بالماوردي، دار مكتبة الحياة، ١٩٨٦م.
١٩. أدب المجالسة وحمد اللسان، أبو عمر يوسف بن عبد الله ابن عبد البر القرطبي، تحقيق سمير حلبي، دار الصحابة للتراث، طنطا، الطبعة الأولىٰ، ١٩٨٩م.
٢٠. الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ١٩٧٩م.

٢١. أدب النفس، محمد بن علي بن الحسن الترمذي، تحقيق أحمد عبد الرحيم السايح، الدار المصرية اللبنانية، مصر، الطبعة الأولىٰ، ١٩٩٣م.

٢٢. الأدب لأبي بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم، تحقيق محمد رضا القهوجي، دار البشائر الإسلامية، لبنان، الطبعة الأولىٰ، ١٩٩٩م.

٢٣. الأذكار، أبو زكريا محيي الدين يحيىٰ بن شرف النووي، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٤م.

٢٤. الأركان الأربعة في ضوء الكتاب والسنة، مقارنة مع الديانات الأخرىٰ، أبو الحسن علي الحسن الندوي، دار الكتب الإسلامية.

٢٥. أساس البلاغة، محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٩٩٨م.

٢٦. أسباب نزول القرآن، علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، تحقيق كمال بيسوني زغلول، الطبعة الأولىٰ، ١٤١١هـ.

٢٧. الاستقامة، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني، تحقيق محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٣هـ.

٢٨. الاستيعاب في معرفة الأصحاب، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر القرطبي، تحقيق علي البجاوي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٩٩٢م.

٢٩. أسرار المحبين في رمضان، محمد بن حسين بن يعقوب، مكتبة التقوىٰ ومكتبة شوق الآخرة، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠٥م.

٣٠. اشتقاق أسماء الله، عبد الرحمن بن إسحاق البغدادي النهاوندي، تحقيق عبد الحسين المبارك، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٩٨٦م.

٣١. الإشراف في منازل الأشراف، أبو بكر عبد الله بن محمد، المعروف بابن أبي الدنيا، تحقيق نجم عبد الرحمن خلف، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولىٰ، ١٩٩٠م.

٣٢. إصلاح المنطق، ابن السكيت، أبو يوسف يعقوب بن إسحاق، تحقيق محمد مرعب، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م.

٣٣. الأضداد، أبو بكر محمد بن القاسم بن محمد ابن دعامة الأنباري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٨٧م.

٣٤. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، دار عطاءات العلم، الرياض، ودار ابن حزم، بيروت، الطبعة الخامسة، ٢٠١٩م.

٣٥. اعتلال القلوب، محمد بن جعفر بن محمد الخرائطي، تحقيق حمدي الدمرداش، نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، الرياض، الطبعة الثانية، ٢٠٠٠م.

٣٦. الإعجاز والإيجاز، عبد الملك بن محمد أبو منصور الثعالبي، مكتبة القرآن، القاهرة.

٣٧. إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق محمد عزير شمس، تخريج الأحاديث مصطفى بن سعيد، مراجعة سليمان بن عبد الله العمير ومحمد أجمل الإصلاحي، دار عطاءات العلم، الرياض، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الثالثة، ٢٠١٩م.

٣٨. اقتضاء العلم العمل، أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الرابعة.

٣٩. الألفاظ، ابن السكيت، أبو يوسف يعقوب بن إسحاق، تحقيق فخر الدين قباوة، مكتبة لبنان ناشرون، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.

٤٠. أمالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد)، الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي العلوي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى، ١٩٥٤م.

٤١. إمتاع الأسماع بما للنبي ﷺ من الأحوال والأموال والحفة والمتاع، أحمد بن علي بن عبد القادر، تقي الدين المقريزي، تحقيق محمد عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م.

٤٢. الأمثال السائرة من شعر المتنبي، إسماعيل بن عباد بن العباس، المشهور بالصاحب بن عباد، تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين، مكتبة النهضة، بغداد، الطبعة الأولىٰ، ١٩٦٥م.

٤٣. الأمثال والحكم، أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، تحقيق فؤاد عبد المنعم أحمد، دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولىٰ، ١٩٩٩م.

٤٤. أمراض القلوب وشفاؤها، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني، المطبعة السلفية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ.

٤٥. إنباه الرواة علىٰ أنباه النحاة، علي بن يوسف جمال الدين القفطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٩٨٢م.

٤٦. الانتصار في الرد علىٰ المعتزلة القدرية الأشرار، أبو الحسين يحيىٰ بن أبي الخير بن سالم العمراني، تحقيق سعود بن عبد العزيز الخلف، أضواء السلف، الرياض، الطبعة الأولىٰ، ١٩٩٩م.

٤٧. إيقاظ الهمم في شرح الحكم، أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني، مراجعة محمد أحمد حسب الله، دار المعارف، مصر، ١٩٨٣م.

٤٨. الإيمان باليوم الآخر (فقه القدوم علىٰ الله)، علي محمد الصلابي.

٤٩. البارع في اللغة، أبو علي القالي، إسماعيل بن القاسم، تحقيق هشام الطعان، مكتبة النهضة، بغداد، دار الحضارة العربية، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٩٧٥م.

٥٠. بحر الفوائد المشهور بمعاني الأخبار، أبو بكر محمد بن إسحاق الكلاباذي البخاري، تحقيق محمد حسن محمد حسن وأحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٩٩٩م.

٥١. البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف بن حيان الأندلسي، تحقيق صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت.

٥٢. البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني، تحقيق أحمد عبد الله القرشي رسلان وحسن عباس زكي، القاهرة، ١٤١٩هـ.

٥٣. بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي، بيروت.

٥٤. بدائع الفوائد، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، تحقيق علي بن محمّد العمران، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٥هـ.

٥٥. بريقة محمودية في شرح طريقة محمدية، محمد بن محمد بن مصطفىٰ، أبو سعيد الخادمي، مطبعة الحلبي، ١٣٤٨هـ.

٥٦. بستان الواعظين ورياض السامعين، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، تحقيق أيمن البحيري، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٨م.

٥٧. البصائر والذخائر، أبو حيان التوحيدي علي بن محمد، تحقيق وداد القاضي، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٩٨٨م.

٥٨. بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث، أبو محمد الحارث بن محمد التيمي، تحقيق حسين أحمد صالح الباكري، مركز خدمة السنة والسيرة النبوية، المدينة المنورة، الطبعة الأولىٰ، ١٩٩٢م.

٥٩. بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، أحمد بن يحيىٰ أبو جعفر الضبي، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٧م.

٦٠. بهجة المجالس وأنس المجالس، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي.

٦١. بيان الوهم والإيهام في كتاب الأحكام، علي بن محمد الكتامي، ابن القطان، تحقيق الحسين آيت سعيد، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولىٰ، ١٩٩٧م.

٦٢. البيان والتبيين، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني، الشهير بالجاحظ، مكتبة الهلال، بيروت.

٦٣. تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد مرتضىٰ الحسيني الزَّبيدي، وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ٢٠٠١م.

٦٤. تاج العروس من جواهر القاموس، محمد بن محمد بن عبد الرزاق، الملقب بالمرتضىٰ الزبيدي، تحقيق مجموعة من المحققين، دار الهداية.

٦٥. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، تحقيق عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٣م.

٦٦. تاريخ الإسلام ووفيات مشاهير الأعلام، أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق بشار عوَّاد، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠٣م.

٦٧. التاريخ الكبير، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، رواية أبي الحسن محمد بن سهل البصري الفسوي، تحقيق ودراسة محمد بن صالح بن محمد الدباسي ومركز شذا للبحوث بإشراف محمود بن عبد الفتاح النحال، الناشر المتميز للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولىٰ، ٢٠١٩م.

٦٨. تاريخ بغداد، أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، تحقيق الدكتور بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠٢م.

٦٩. تاريخ دمشق، علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر، تحقيق عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر، ١٩٩٥م.

٧٠. التبصرة، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٩٨٦م.

٧١. تثبيت دلائل النبوة، القاضي عبد الجبار الهمذاني، دار المصطفىٰ، القاهرة.

٧٢. تحرير ألفاظ التنبيه، يحيىٰ بن شرف النووي، تحقيق عبد الغني الدقر، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٨هـ.

٧٣. التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)، محمد الطاهر ابن عاشور التونسي، الدار التونسية، تونس، ١٩٨٤هـ.

٧٤. تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفورى، دار الكتب العلمية، بيروت.

٧٥. تحفة الذاكرين بعدة الحصن الحصين من كلام سيد المرسلين، محمد بن علي الشوكاني، دار القلم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م.

٧٦. التحفة العراقية في الأعمال القلبية، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني، المطبعة السلفية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ.

٧٧. التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار، عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السلامي، البغدادي، تحقيق بشير محمد عيون، مكتبة المؤيد، الطائف، ودار البيان، دمشق، الطبعة الثانية، ١٩٨٨م.

٧٨. تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي، مكتبة الكوثر، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ.

٧٩. التذكرة الحمدونية، محمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمدون، أبو المعالي، بهاء الدين البغدادي، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

٨٠. التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، تحقيق الصادق بن محمد بن إبراهيم، مكتبة دار المنهاج، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ.

٨١. التذكرة في الوعظ، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق أحمد عبد الوهاب فتيح، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

٨٢. التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية، محمد منير مرسي، عالم الكتب، ٢٠٠٥م.

٨٣. ترتيب الأمالي الخميسية للشجري، يحيىٰ بن الحسين بن زيد الحسني الشجري، ترتيب محيي الدين محمد أحمد القرشي، تحقيق محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠١م.

٨٤. ترتيب المدارك وتقريب المسالك، القاضي عياض بن موسىٰ اليحصبي، تحقيق فريق من الباحثين، مطبعة فضالة، والمحمدية، المغرب، الطبعة الأولىٰ.

٨٥. الترغيب والترهيب من الحديث الشريف، عبد العظيم بن عبد القوي، زكي الدين المنذري، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٧هـ.

٨٦. تسلية أهل المصائب، محمد بن محمد، شمس الدين المنبجي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠٠٥م.

٨٧. التعرف لمذهب أهل التصوف، أبو بكر محمد بن إسحاق الكلاباذي، دار الكتب العلمية، بيروت.

٨٨. التعريفات، علي بن محمد الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٩٨٣م.

٨٩. تعظيم قدر الصلاة، محمد بن نصر بن الحجاج المروزي، تحقيق عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي، مكتبة الدار، المدينة المنورة، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٦هـ.

٩٠. تعليم المتعلم طريق التعلم، برهان الإسلام الزرنوجي، تحقيق مروان قباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٩٨١م.

٩١. تفسير ابن أبي حاتم، عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، تحقيق أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفىٰ الباز، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثالثة، ١٤١٩هـ.

٩٢. تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، عبد الحميد محمد بن باديس، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٩٩٥م.

٩٣. تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم)، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفىٰ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٩٤. التفسير البسيط، علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولىٰ، ١٤٣٠ هـ.

٩٥. تفسير البغوي (معالم التنزيل في تفسير القرآن)، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق محمد عبد الله النمر، وعثمان جمعة ضميرية، وسليمان مسلم الحرش، دار طيبة، الطبعة الرابعة، ١٩٩٧م.

٩٦. تفسير التستري، سهل بن عبد الله بن يونس بن رفيع التُستري، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٣هـ.

٩٧. تفسير الجلالين، جلال الدين محمد بن أحمد المحلي وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولىٰ.

٩٨. تفسير الفاتحة والبقرة، محمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي، السعودية، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٣هـ.

٩٩. تفسير القرآن العزيز، محمد بن عبد الله المري الإلبيري المعروف بابن أبي زَمَنِين، تحقيق حسين بن عكاشة ومحمد بن مصطفىٰ الكنز، الفاروق الحديثة، القاهرة، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠٢م.

١٠٠. تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، تحقيق سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، الطبعة الثانية، ١٩٩٩م.

١٠١. تفسير القرآن العظيم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد الرازي، تحقيق أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفىٰ الباز، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثالثة، ١٤١٩هـ.

١٠٢. تفسير القرآن الكريم (التفسير القيم)، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية، بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان، دار ومكتبة الهلال، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٠هـ.

١٠٣. تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٦٤م.

١٠٤. تفسير القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، تحقيق إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، الطبعة الثالثة.

١٠٥. التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ.

١٠٦. تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)، محمد بن محمد، أبو منصور الماتريدي، تحقيق مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.

١٠٧. تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، تحقيق يوسف علي بديوي، دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.

١٠٨. تفسير النيسابوري (غرائب القرآن ورغائب الفرقان)، نظام الدين الحسن بن محمد القمي النيسابوري، تحقيق زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.

١٠٩. التفسير الوسيط للقرآن الكريم، مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م.

١١٠. تفسير سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م.

١١١. تفسير مجاهد، أبو الحجاج مجاهد بن جبر، تحقيق محمد عبد السلام أبو النيل، دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر، الطبعة الأولى، ١٩٨٩م.

١١٢. تفسير مقاتل بن سليمان، أبو الحسن مقاتل بن سليمان الأزدي البلخي، تحقيق عبد الله شحاته، دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.

١١٣. التفسير من سنن سعيد بن منصور بن شعبة الخراساني، دراسة وتحقيق سعد بن عبد الله آل حميد، دار الصميعي، الطبعة الأولىٰ، ١٩٩٧م.

١١٤. تفسير يحيىٰ بن سلام بن أبي ثعلبة، تقديم وتحقيق هند شلبي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠٤م.

١١٥. تكملة المعاجم العربية، رينهارت بيتر آن دُوزِي، نقله إلىٰ العربية وعلق عليه محمد سليم النعيمي وجمال الخياط، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠٠م.

١١٦. تلبيس إبليس، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠١م.

١١٧. التمثيل والمحاضرة، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، الدار العربية للكتاب، الطبعة الثانية، ١٩٨١ م

١١٨. تنبيه الغافلين بأحاديث سيد الأنبياء والمرسلين، أبو الليث نصر بن محمد السمرقندي، تحقيق يوسف بديوي، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٠م.

١١٩. تنبيه الغافلين عن أعمال الجاهلين وتحذير السالكين من أفعال الجاهلين، أحمد بن إبراهيم ابن النحاس، تحقيق عماد الدين عباس سعيد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٩٨٧م.

١٢٠. تنبيه المغتربين أواخر القرن العاشر علىٰ ما خالفوا فيه سلفهم الطاهر، عبد الوهاب بن أحمد بن علي الشافعي، المعروف بالشعراني، تحقيق وائل أحمد عبد الرحمن، المكتبة التوفيقية.

١٢١. تهذيب الأسرار في أصول التصوف، عبد الملك بن محمد النيسابوري الخركوشي، تحقيق إمام سيد محمد علي، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٢٢. تهذيب الأسماء واللغات، أبو زكريا محيي الدين بن شرف النووي، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٢٣. تهذيب الكمال في أسماء الرجال، يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف، ابن الزكي القضاعي الكلبي المزي، تحقيق بشار عواد، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٩٨٠م.

١٢٤. تهذيب اللغة، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، تحقيق محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠١م.

١٢٥. تهذيب خالصة الحقائق ونصاب غاية الدقائق، محمود بن أحمد الفاريابي، هذبه محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠٠م.

١٢٦. توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم، محمد بن عبد الله، الشهير بابن ناصر الدين الدمشقي، تحقيق محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٩٩٣م.

١٢٧. التوقيف علىٰ مهمات التعاريف، زين الدين عبد الرؤوف المناوي، دار عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الأولىٰ، ١٩٩٠م.

١٢٨. تيسير العلام شرح عمدة الأحكام، عبد الله بن عبد الرحمن البسام، تحقيق محمد صبحي بن حسن حلاق، مكتبة الصحابة، الإمارات، ومكتبة التابعين، القاهرة، الطبعة العاشرة، ٢٠٠٦م.

١٢٩. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق عبد الرحمن اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠٠م.

١٣٠. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الآملي الطبري، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠١م.

١٣١. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الآملي الطبري، دار التربية والتراث، مكة المكرمة.

١٣٢. جامع البيان عن تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد الآملي الطبري، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠٠م.

١٣٣. جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، البغدادي، تحقيق شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة السابعة، ٢٠٠١م.

١٣٤. الجامع الكبير، محمد بن عيسىٰ بن سَوْرة الترمذي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٨م.

١٣٥. جامع بيان العلم وفضله، أبو عمر يوسف بن عبد البر، تحقيق أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، السعودية، الطبعة الأولىٰ، ١٩٩٤م.

١٣٦. الجامع في السنن والآداب والمغازي والتاريخ، عبد الله بن أبي زيد القيرواني، تحقيق محمد أبو الأجفان وعثمان بطيخ، مؤسسة الرسالة، بيروت، المكتبة العتيقة، تونس، الطبعة الثانية، ١٩٨٣م.

١٣٧. الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي، تحقيق محمود الطحان، مكتبة المعارف، الرياض.

١٣٨. الجد الحثيث في بيان ما ليس بحديث، أحمد بن عبد الكريم بن سعودي الغزي العامري، تحقيق بكر عبد الله أبو زيد، دار الراية، الرياض، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٢هـ.

١٣٩. جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، محمد بن فتوح الأزدي، الدار المصرية، القاهرة، ١٩٦٦م.

١٤٠. جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام علىٰ خير الأنام ﷺ، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، تحقيق زائد بن أحمد النشيري، دار عطاءات العلم، الرياض، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الخامسة، ٢٠١٩م.

١٤١. جلاء الخاطر في الباطن والظاهر، عبد القادر بن موسىٰ بن عبد الله الحسني، محيي الدين الجيلاني، تحقيق خالد الزرعي وعبد الناصر سري، دار ابن القيم، دمشق، الطبعة الأولىٰ، ١٩٩٤م.

١٤٢. جمع الوسائل في شرح الشمائل، علي بن سلطان محمد، أبو الحسن الملا الهروي، المطبعة الشرقية، مصر.

١٤٣. جمل من أنساب الأشراف، أحمد بن يحيىٰ بن جابر بن داود البَلَاذُري، تحقيق سهيل زكار ورياض الزركلي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٩٩٦م.

١٤٤. جمهرة اللغة، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، تحقيق رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٩٨٧م.

١٤٥. جواهر التصوف، يحيىٰ بن معاذ الرازي، جمع وتبويب وشرح وتعليق سعيد هارون عاشور، مكتبة الآداب، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠٢م.

١٤٦. حاشية السندي علىٰ سنن ابن ماجه (كفاية الحاجة في شرح سنن ابن ماجه)، محمد بن عبد الهادي التتوي، السندي، دار الجيل، بيروت.

١٤٧. الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة، إسماعيل بن محمد بن الفضل الأصبهاني، الملقب بقوام السنة، تحقيق محمد بن ربيع بن هادي عمير المدخلي، دار الراية، السعودية، الطبعة الثانية، ١٩٩٩م.

١٤٨. حديث الزهري، عبد الله بن عبد الرحمن بن محمد الزهري، دراسة وتحقيق حسن محمد شبالة، أضواء السلف، الرياض، الطبعة الأولىٰ، ١٩٩٨م.

١٤٩. حرز الأماني ووجه التهاني في القراءات السبع، القاسم بن فيرُّه بن خلف الرعيني، أبو محمد الشاطبي، تحقيق محمد تميم الزعبي، مكتبة دار الهدىٰ ودار الغوثاني، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٥م.

١٥٠. حسن التنبيه لما ورد في التشبيه، نجم الدين محمد بن محمد العامري الغزي، تحقيق ودراسة لجنة مختصة من المحققين بإشراف نور الدين طالب، دار النوادر، سوريا، الطبعة الأولىٰ، ٢٠١١م.

١٥١. حسن الظن بالله، عبد الله بن محمد بن عبيد الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا، تحقيق مخلص محمد، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولىٰ، ١٩٨٨م.

١٥٢. حطِّم صنمك وكن عند نفسك صغيرًا، مجدي الهلالي، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، ٢٠٠٤ م.

١٥٣. حفظ العمر، عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي، تحقيق محمد ناصر العجمي، دار البشائر الإسلامية، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠٤م.

١٥٤. الحكم العطائية شرح وتحليل، محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر المعاصر، بيروت، ٢٠٠٣م.

١٥٥. الحكم العطائية والمناجاة الإلهية، ابن عطاء الله السكندري، مع تعليقات يوسف الحاج أحمد، مكتبة العلم الحديث، دار نور البشير، ٢٠٠٠م.

١٥٦. حكم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، جمع وترتيب إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٥٧. حل الرموز ومفاتيح الكنوز في شرح المصطلحات والمفاهيم الصوفية المبهمة، الشيخ عز الدين بن عبد السلام بن أحمد بن غانم المقدسي، تحقيق محمد بوخنيفي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ٢٠١١م.

١٥٨. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٧٤م.

١٥٩. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن إسحاق الأصبهاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٩هـ.

١٦٠. حلية الأولياء، أبو نعيم الأصفهاني، طبعة دار الفكر، بيروت.

١٦١. حينما يعتكف القلب، عبد الرحمن بن عبد العزيز العقل، مركز النخب العلمية، القصيم، الطبعة الأولىٰ، ٢٠١٤م.

١٦٢. الحيوان، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني، الشهير بالجاحظ، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ.

١٦٣. خريدة القصر وجريدة العصر، عماد الدين محمد بن محمد الكاتب الأصفهاني.

١٦٤. خلاصة الأحكام في مهمات السنن وقواعد الإسلام، أبو زكريا محيي الدين يحيىٰ بن شرف النووي، تحقيق حسين إسماعيل الجمل، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٩٩٧م.

١٦٥. الخمول والتواضع، عبد الله بن محمد بن عبيد البغدادي، المعروف بابن أبي الدنيا، دار أطلس الخضراء، الرياض، ٢٠١٢م.

١٦٦. الخواطر (تفسير الشعراوي)، محمد متولي الشعراوي، مطابع أخبار اليوم، ١٩٩٧م.

١٦٧. الداء والدواء (الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي)، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق محمد أجمل الإصلاحي، تخريج الأحاديث زائد بن أحمد النشيري، مراجعة سليمان بن عبد الله العمير وعلي بن محمد العمران، دار عطاءات العلم، الرياض، ودار ابن حزم، بيروت، الطبعة الرابعة، ٢٠١٩م.

١٦٨. الدر الفريد وبيت القصيد، محمد بن أيدمر المستعصمي، تحقيق كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ٢٠١٥م.

١٦٩. دعوة الرسل ﷺ، أحمد غلوش، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠٢م.

١٧٠. دقائق التفسير، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ.

١٧١. الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، إبراهيم بن علي ابن فرحون اليعمري، تحقيق محمد الأحمدي، دار التراث، القاهرة.

١٧٢. ديوان أبي إسحاق الإلبيري، إبراهيم بن مسعود بن سعيد، تحقيق محمد رضوان الداية، دار قتيبة، دمشق، الطبعة الثانية، ١٩٨١م.

١٧٣. ديوان أبي العتاهية، إسماعيل بن القاسم بن سويد العيني، الشهير بأبي العتاهية، دار بيروت، ١٩٨٦م.

١٧٤. ديوان الإمام الشافعي، تحقيق أيمن الصياد، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٢٠م.

١٧٥. ديوان الإمام الشافعي، محمد بن إدريس الشافعي، اعتنىٰ به عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٥م.

١٧٦. ديوان الإمام المجاهد ابن المبارك، جمع وتحقيق ودراسة مجاهد مصطفىٰ بهجت، الرياض، ١٤٣٢هـ.

١٧٧. ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٨م.

١٧٨. ديوان امرئ القيس بن حجر بن الحارث الكندي، اعتنىٰ به عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠٠٤م.

١٧٩. ديوان عروة بن الورد، شرح ابن السكيت يعقوب بن إسحاق، تحقيق عبد المعين الملوحي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم، ١٩٦٦م.

١٨٠. ديوان لبيد بن ربيعة بن مالك، أبو عقيل العامري، اعتنىٰ به حمدو طماس، دار المعرفة، مصر، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠٤م.

١٨١. الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة، الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق أبو زيد العجمي، دار السلام، القاهرة، ٢٠٠٧م.

١٨٢. ذم الهوىٰ، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق مصطفىٰ عبد الواحد، مراجعة محمد الغزالي.

١٨٣. ذم قسوة القلب، عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، تحقيق طلعت بن فؤاد الحلواني، الفاروق الحديثة، الطبعة الثانية، ٢٠٠٣م.

١٨٤. ربيع الأبرار ونصوص الأخيار، جار الله محمود بن عمرو الزمخشري، مؤسسة الأعلمي، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٢هـ.

١٨٥. رسالة ابن القيم إلىٰ أحد إخوانه، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق عبد الله المديفر، مراجعة سليمان بن عبد الله العمير وجديع الجديع، دار عطاءات العلم، الرياض، ودار ابن حزم، بيروت، الطبعة الخامسة، ٢٠١٩م.

١٨٦. الرسالة التبوكية زاد المهاجر إلىٰ ربه، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، تحقيق محمد جميل غازي، مكتبة المدني، جدة.

١٨٧. الرسالة القشيرية، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، تحقيق عبد الحليم محمود، ومحمود بن الشريف، دار المعارف، القاهرة.

١٨٨. رسالة المسترشدين، الحارث بن أسد المحاسبي، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، الطبعة الثانية، ١٩٧١م.

١٨٩. رسائل ابن حزم الأندلسي، أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهري، تحقق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

١٩٠. الرضا عن الله بقضائه، عبد الله بن محمد الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا، تحقيق ضياء الحسن، الدار السلفية، بومباي، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٠هـ.

١٩١. رقائق القرآن، إبراهيم السكران، دار الحضارة، الطبعة الأولىٰ، ٢٠١٤م.

١٩٢. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، محمد بن عبد الله الحسيني الألوسي، تحقيق علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٥هـ.

١٩٣. روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار، محمد بن قاسم ابن الخطيب الأماسي، دار القلم العربي، حلب، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٣هـ.

١٩٤. الرَّوضُ الفائق في المواعظ والرقائق، شعيب بن سعد الحريفيش.

١٩٥. روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، محمد بن حبان البُستي، أبو حاتم، الدارمي، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٩٦. روضة المحبين ونزهة المشتاقين، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق محمد عزير شمس، مراجعة سليمان بن عبد الله العمير ومحمد أجمل الإصلاحي، دار عطاءات العلم، الرياض، ودار ابن حزم، بيروت، الطبعة الرابعة، ٢٠١٩م.

١٩٧. رياض الصالحين، أبو زكريا يحيىٰ بن شرف النووي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٩٨م.

١٩٨. رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، عبد الله بن محمد المالكي، تحقيق بشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٤م.

١٩٩. رياضة النفس، محمد بن علي، الحكيم الترمذي، تقديم وتعليق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠٠٥م.

٢٠٠. ريحانة الألبّا وزهرة الحياة الدنيا، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، مطبعة عيسىٰ البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الأولىٰ، ١٩٦٧م.

٢٠١. زاد المسير في علم التفسير، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٢ هـ.

٢٠٢. زاد المعاد في هدي خير العباد، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، دار عطاءات العلم، الرياض، ودار ابن حزم، بيروت، الطبعة الثالثة، ٢٠١٩م.

٢٠٣. الزاهر في معاني كلمات الناس، محمد بن القاسم بن محمد بن بشار، تحقيق حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٩٩٢م.

٢٠٤. الزهد الكبير، أحمد بن الحسين بن علي الخراساني، أبو بكر البيهقي، تحقيق عامر أحمد حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٩٦م.

٢٠٥. الزهد والرقائق، أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك المروزي، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، نشره محمد عفيف الزعبي، الهند.

٢٠٦. الزهد والرقائق، عبد الله بن المبارك المروزي، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٠٧. الزهد وصفة الزاهدين، أبو سعيد بن الأعرابي أحمد بن محمد، تحقيق مجدي فتحي السيد، دار الصحابة للتراث، طنطا، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٨هـ.

٢٠٨. الزهد، أبو السَّرِي هَنَّاد بن السَّرِي، تحقيق عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

٢٠٩. الزهد، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق ياسر إبراهيم محمد، دار المشكاة، حلون، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م.

٢١٠. الزهد، أبو سفيان وكيع بن الجراح، تحقيق عبد الرحمن بن عبد الجبار، مكتبة الدار، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م.

٢١١. الزهد، أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، وضع حواشيه محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م.

٢١٢. الزهد، عبد الله بن محمد بن عبيد الأموي، المعروف بابن أبي الدنيا، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م.

٢١٣. زهر الأكم في الأمثال والحكم، الحسن بن مسعود اليوسي، تحقيق محمد حجي، ومحمد الأخضر، الشركة الجديدة، دار الثقافة، المغرب، الطبعة الأولى، ١٩٨١م.

٢١٤. الزواجر عن اقتراف الكبائر، أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي، دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.

٢١٥. سراج الظلم في شرح تلخيص الحكم، أبو بكر بن محمد بن عمر الملا الحنفي، تحقيق يحيىٰ بن محمد الملا، دار الفتح، الطبعة الأولى، ٢٠١١م.

٢١٦. سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، محمد خليل بن علي الحسيني، دار البشائر الإسلامية، دار ابن حزم، الطبعة الثالثة، ١٩٨٨م.

٢١٧. السنة، أحمد بن عمرو بن أبي عاصم الشيباني، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ.

٢١٨. سنن ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، بيروت.

٢١٩. سنن أبي داود، أبو داوود سليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد كامل قره، دار الرسالة العالمية، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠٩م.

٢٢٠. سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث الأزدي السِّجِسْتاني، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة صيدا، بيروت.

٢٢١. سنن الترمذي، أبو عيسىٰ محمد بن عيسىٰ بن سَوْرة الترمذي، تحقيق أحمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة عوض، مطبعة مصطفىٰ البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثانية، ١٩٧٥م.

٢٢٢. سنن الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، تحقيق حسين سليم أسد الداراني، دار المغني، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠٠م.

٢٢٣. السنن الكبرىٰ، أحمد بن الحسين أبو بكر البيهقي، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٣م.

٢٢٤. السنن الكبرىٰ، أحمد بن شعيب بن علي الخراساني النسائي، تحقيق حسن عبد المنعم شلبي، إشراف شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠١م.

٢٢٥. سنن ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني، تحقيق شعيب الأرنؤوط، دار الرسالة العالمية، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠٩م.

٢٢٦. سنن سعيد بن منصور، تحقيق فريق من الباحثين بإشراف سعد بن عبد الله الحميد وخالد بن عبد الرحمن الجريسي، دار الألوكة للنشر، السعودية، الطبعة الأولىٰ، ٢٠١٢م.

٢٢٧. سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٩٨٥م.

٢٢٨. سير السلف الصالحين، إسماعيل بن محمد بن الفضل بن علي القرشي الأصبهاني، الملقب بقوام السنة، تحقيق كرم حلمي فرحات، دار الراية، الرياض.

٢٢٩. السيرة النبوية (من البداية والنهاية لابن كثير)، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، تحقيق مصطفىٰ عبد الواحد، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٦م.

٢٣٠. شرح التعرف لمذهب أهل التصوف، علاء الدين علي بن إسماعيل القونوي، تحقيق السيد يوسف أحمد، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٣١. شرح الحكم العطائية، عبد المجيد الشرنوبي، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الثانية، ١٩٨٩م.

٢٣٢. شرح الحكم، محمد بن إبراهيم، المعروف بابن عباد النفزي الرندي، وبهامشه شرح المحقق عبد الله الشرقاوي، دار الفكر.

٢٣٣. شرح الزرقاني علىٰ موطأ الإمام مالك، محمد بن عبد الباقي الزرقاني، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠٣م.

٢٣٤. شرح السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٣م.

٢٣٥. شرح الشواهد الشعرية في أمات الكتب النحوية، محمد بن محمد حسن شُرَّاب، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠٧م.

٢٣٦. شرح الطيبي علىٰ مشكاة المصابيح المسمىٰ بـ (الكاشف عن حقائق السنن)، شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي، تحقيق عبد الحميد هنداوي، مكتبة نزار مصطفىٰ الباز، مكة المكرمة، الطبعة الأولىٰ، ١٩٩٧م.

٢٣٧. شرح العقيدة الطحاوية، محمد بن علاء أبي العز الحنفي، تحقيق جماعة من العلماء، دار السلام، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠٥م.

٢٣٨. شرح العقيدة الواسطية، محمد بن صالح العثيمين، خرج أحاديثه واعتنىٰ به سعد بن فواز الصميل، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، السعودية، الطبعة السادسة، ١٤٢١هـ.

٢٣٩. شرح بلوغ المرام، عطية بن محمد سالم، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية.

٢٤٠. شرح ديوان المتنبي، علي بن أحمد بن محمد الواحدي النيسابوري، الشافعي.

٢٤١. شرح رياض الصالحين، الشيخ الطبيب أحمد حطيبة، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية.

٢٤٢. شرح صحيح البخاري، أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك بن بطال، تحقيق ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الثانية، ٢٠٠٣م.

٢٤٣. شرح كتاب الفوائد، عمر عبد الكافي شحاتة، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية.

٢٤٤. شرح كلمة الإخلاص، عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، شرح عبد الرحمن بن ناصر البراك، عناية ياسر بن سعد بن بدر العسكر، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولىٰ، ٢٠١٤م.

٢٤٥. شرح مختصر الطحاوي، أحمد بن علي الجصاص الحنفي، تحقيق سائد بكداش ورفاقه، دار البشائر الإسلامية ودار السراج، الطبعة الأولىٰ، ٢٠١٠م.

٢٤٦. شرح مشكل الآثار، أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي، المعروف بالطحاوي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولىٰ، ١٤٩٤م.

٢٤٧. شرح مصابيح السنة للإمام البغوي، محمد بن عبد اللطيف الكرماني، تحقيق ودراسة لجنة مختصة بإشراف نور الدين طالب، إدارة الثقافة الإسلامية، الطبعة الأولىٰ، ٢٠١٢م.

٢٤٨. شرح مقامات الحريري، أحمد بن عبد المؤمن بن موسىٰ القَيْسي الشُّريشي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠٠٦م.

٢٤٩. شرح منازل السائرين إلىٰ الحق المبين، عفيف الدين سليمان بن علي التلمساني.

٢٥٠. شرح منازل السائرين، محمد عبد الرؤوف المناوي.

٢٥١. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد المعتزلي، تحقيق محمد إبراهيم، دار الكتاب العربي، دار الأميرة، بغداد، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠٧م.

٢٥٢. شعب الإيمان، أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠٠م.

٢٥٣. شُعَبُ الإيمان، أحمد بن الحسين، أبو بكر البيهقي، تحقيق عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد، الرياض، والدار السلفية، بومباي، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠٣م.

٢٥٤. الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ، مذيلًا بالحاشية المسماة مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء، القاضي عياض بن موسىٰ اليحصبي، الحاشية أحمد بن محمد بن محمد الشمني، دار الفكر الطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٨م.

٢٥٥. شفاء السقم وفتح خزائن الكلم في معاني الحكم (شرح الحكم العطائية)، علي بن عبد الله الكندي الدوعني، بعناية لجنة إحياء التراث بدار الحاوي، دار السنابل، دار الحاوي، الطبعة الأولىٰ، ٢٠١٦م.

٢٥٦. الشكر، عبد الله بن محمد بن عبيد الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا، تحقيق بدر البدر، المكتب الإسلامي، الكويت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٠م.

٢٥٧. الشكوىٰ والعتاب وما وقع للخلان والأصحاب، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، تحقيق إلهام عبد الوهاب المفتي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠٠م.

٢٥٨. شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، نشوان بن سعيد الحميري، تحقيق حسين عبد الله العمري وآخرين، دار الفكر المعاصر، بيروت، ودار الفكر، دمشق، الطبعة الأولىٰ، ١٩٩٩م.

٢٥٩. الصبر مطيّة النجاح، محمد بن أحمد بن عمر، المعروف بابنِ الظَّهِير الإِرْبلي، جمع عبد القادر المبارك، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠١م.

٢٦٠. الصبر والثواب عليه، عبد الله بن محمد بن عبيد الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا، تحقيق محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٩٩٧م.

٢٦١. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة ١٩٨٧م.

٢٦٢. الصحاح في اللغة والعلوم، نديم مرعشلي وأسامة مرعشلي.

٢٦٣. صحيح ابن حبان (المسند الصحيح علىٰ التقاسيم والأنواع)، محمد بن حبان البُستي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٣م.

٢٦٤. صحيح ابن خزيمة (مختصر المختصر من المسند الصحيح عن النبي ﷺ)، محمد بن إسحاق بن خزيمة، دار الميمان، السعودية، الطبعة الأولىٰ ٢٠٠٩م.

٢٦٥. صحيح البخاري (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه)، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري، دار طوق النجاة، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٢هـ.

٢٦٦. صحيح مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢٦٧. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، دار الجيل، بيروت، ترقيم الأحاديث وفق طبعة دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.

٢٦٨. صفة الجنة وما أعدّ الله لأهلها من النعيم، عبد الله بن محمد بن عبيد الأموي المعروف بابن أبي الدنيا، تحقيق عبد الرحيم أحمد، دار البشير ومؤسسة الرسالة، الطبعة الأولىٰ، ١٩٩٧م.

٢٦٩. صفة الجنة، عبد الله بن محمد بن عبيد الأموي المعروف بابن أبي الدنيا، تحقيق عمرو عبد المنعم سليم، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ومكتبة العلم، جدة.

٢٧٠. صفة الصفوة، عبد الرحمن بن الجوزي، تحقيق أحمد بن علي، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٠م.

٢٧١. صفحات من صبر العلماء علىٰ شدائد العلم والتحصيل، عبد الفتاح أبو غدة، اعتنىٰ بإخراجه سلمان عبد الفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة العاشرة، ٢٠١٢م.

٢٧٢. الصلاة وحكم تاركها وسياق صلاة النبي من حين كان يكبر إلىٰ أن يفرغ منها، محمد بن أبي بكر بن أيوب، ابن قيم الجوزية، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٩٩٦م.

٢٧٣. صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال، القاضي حسين بن محمد المهدي، وزارة الثقافة للجمهورية اليمنية، دار الكتاب، ٢٠٠٩م.

٢٧٤. صيد الخاطر، عبد الرحمن بن الجوزي، تحقيق حسن المساحي عنان، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠٤م.

٢٧٥. طالب العلم بين أمانة التحمل ومسؤولية الأداء، محمد بن خليفة بن علي التميمي، غراس، الكويت، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠٢م.

٢٧٦. طبقات الأولياء، ابن الملقِّن، عمر بن علي بن أحمد المصري، تحقيق نور الدين شريبه، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٤م.

٢٧٧. طبقات الشافعية الكبرىٰ، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي، تحقيق محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ.

٢٧٨. طبقات الشافعيين، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق أحمد عمر هاشم ومحمد زينهم محمد، مكتبة الثقافة الدينية، ١٩٩٣م.

٢٧٩. طبقات الصوفية، محمد بن الحسين النيسابوري، أبو عبد الرحمن السلمي، تحقيق مصطفىٰ عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٩٩٨م.

٢٨٠. طبقات الفقهاء، أبو إسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي، تهذيب محمد بن مكرم ابن منظور، تحقيق إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٩٧٠م.

٢٨١. الطبقات الكبرىٰ، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع، المعروف بابن سعد، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٩٩٠م.

٢٨٢. الطبقات الكبرىٰ، محمد بن سعد بن منيع الهاشمي، المعروف بابن سعد، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠١م.

٢٨٣. طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلّام بن عبيد الله الجمحي بالولاء، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة.

٢٨٤. العاقبة في ذكر الموت، عبد الحق بن عبد الرحمن الأندلسي الإشبيلي المعروف بابن الخراط، تحقيق خضر محمد خضر، مكتبة دار الأقصىٰ، الكويت، الطبعة الأولىٰ، ١٩٨٦م.

٢٨٥. عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق إسماعيل بن غازي مرحبا، مراجعة سليمان بن عبد الله العمير ومحمد أجمل الإصلاحي وعلي بن محمد العمران، دار عطاءات العلم، الرياض، ودار ابن حزم، بيروت، الطبعة الرابعة، ٢٠١٩م.

٢٨٦. عدّة الصابرين وذخيرة الشاكرين، محمد بن أبي بكر بن أيوب، ابن قيم الجوزية، تحقيق إسماعيل بن غازي مرحبا، دار عالم الفوائد.

٢٨٧. عدة المريد الصادق، أبو العباس أحمد بن أحمد الفاسي، المعروف بزرُّوق، تحقيق الصادق عبد الرحمن الغرياني، دار ابن حزم، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠٦م.

٢٨٨. العزلة، حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي، المطبعة السلفية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ.

٢٨٩. العقد الفريد، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٤هـ.

٢٩٠. العقل وفضله، عبد الله بن محمد بن عبيد الأموي المعروف بابن أبي الدنيا، مكتبة القرآن، مصر.

٢٩١. عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولىٰ، ١٩٩٦م.

٢٩٢. عمدة القاري شرح صحيح البخاري، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسىٰ بن أحمد الغيتابي الحنفي بدر الدين العيني، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢٩٣. عون المعبود شرح سنن أبي داود، ومعه حاشية ابن القيم، محمد أشرف بن أمير الصديقي العظيم آبادي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ.

٢٩٤. العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.

٢٩٥. عيوب النفس، محمد بن الحسين بن محمد النيسابوري، أبو عبد الرحمن السلمي، تحقيق مجدي فتحي السيد، مكتبة الصحابة، طنطا.

٢٩٦. عيون الأخبار، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ.

٢٩٧. غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب، أبو العون محمد بن أحمد السفاريني، مؤسسة قرطبة، مصر، الطبعة الثانية، ١٩٩٣م.

٢٩٨. غذاء الروح وغذاء الجسد، وحيد عبد السلام بالي، مقالة نشرت علىٰ شبكة الألوكة.

٢٩٩. غريب الحديث، إبراهيم بن إسحاق الحربي، تحقيق سليمان إبراهيم محمد العايد، جامعة أم القرىٰ، مكة المكرمة، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٥هـ.

٣٠٠. غريب الحديث، أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي البغدادي، تحقيق محمد عبد المعيد خان، مطبعة دار المعارف العثمانية، حيدر آباد، الطبعة الأولىٰ، ١٩٦٤م.

٣٠١. غريب الحديث، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تحقيق عبد الله الجبوري، مطبعة العاني، بغداد، الطبعة الأولىٰ، ١٣٩٧هـ.

٣٠٢. غريب القرآن، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تحقيق أحمد صقر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨م.

٣٠٣. الغريبين في القرآن والحديث، أبو عبيد أحمد بن محمد الهروي، تحقيق أحمد فريد المزيدي، مكتبة نزار مصطفىٰ الباز، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولىٰ، ١٩٩٩م.

٣٠٤. الغنية لطالبي طريق الحق ﷻ، عبد القادر بن موسىٰ بن عبد الله الحسني، محيي الدين الجيلاني، تحقيق صلاح بن محمد بن عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٩٩٧م.

٣٠٥. الفائق في غريب الحديث والأثر، محمود بن عمرو الزمخشري، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، لبنان، الطبعة الثانية.

٣٠٦. فتاوىٰ نور علىٰ الدرب، محمد بن صالح العثيمين.

٣٠٧. فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.

٣٠٨. فتح الباري شرح صحيح البخاري، عبد الرحمن ابن رجب الحنبلي، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة النبوية، مكتبة تحقيق دار الحرمين، القاهرة، الطبعة الأولىٰ، ١٩٩٦م.

٣٠٩. فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري، تحقيق محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٩٨٣م.

٣١٠. فتح القدير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٤هـ.

٣١١. فتح القريب المجيب على الترغيب والترهيب للإمام المنذري، أبو محمد حسن بن علي بن سليمان البدر، تحقيق محمد إسحاق محمد آل إبراهيم، الطبعة الأولى، ٢٠١٨م.

٣١٢. فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام، محمد بن صالح العثيمين، تحقيق صبحي بن محمد رمضان، المكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م.

٣١٣. الفتوّة، محمد بن الحسين بن محمد السلمي النيسابوري، تحقيق إحسان ذنون الثامري ومحمد عبد الله القدحات، دار الرازي، الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م.

٣١٤. الفتوحات المكية، أبو بكر محيي الدين محمد بن علي بن محمد الحاتمي، المعروف بابن العربي، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣١٥. الفَرَجُ بعد الشدة، المحسن بن علي التنوخي، تحقيق عبود الشالجي، دار صادر، بيروت، ١٩٧٨م.

٣١٦. الفروسية، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن القيم الجوزية، تحقيق مشهور حسن محمود، دار الأندلس، السعودية، حائل، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م.

٣١٧. الفروق اللغوية، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن مهران العسكري، تحقيق محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة.

٣١٨. فصل الخطاب في الزهد والرقائق والآداب، محمد نصر الدين محمد عويضة.

٣١٩. فصول في الدعوة والإصلاح، علي الطنطاوي، جمع مجاهد ديرانية، دار المنارة، جدة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م.

٣٢٠. فضائل الصحابة، أحمد بن حنبل الشيباني، تحقيق وصي الله محمد عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م.

٣٢١. الفنون، أبو الوفاء علي بن عقيل البغدادي، تحقيق جورج المقدسي، دار المشرق، بيروت، ١٩٧٠ م، مكتبة لينة للنشر والتوزيع، دمنهور، ١٩٩١م.

٣٢٢. فهم القرآن ومعانيه، الحارث بن أسد المحاسبي، تحقيق حسين القوتلي، دار الكندي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ.

٣٢٣. فوائد أبي علي عبد الرحمن بن محمد ابن فضالة، مخطوط نشر في برنامج جوامع الكلم، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠٤م.

٣٢٤. الفوائد والزهد والرقائق والمراثي، جعفر بن محمد الخلدي، تحقيق مجدي فتحي السيد، دار الصحابة، طنطا، الطبعة الأولىٰ، ١٩٨٩م.

٣٢٥. الفوائد، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق محمد عزير شمس، دار عطاءات العلم، الرياض، ودار ابن حزم، بيروت، الطبعة الرابعة، ٢٠١٩م.

٣٢٦. الفوائد، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن القيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٣م.

٣٢٧. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، مصر، الطبعة الثالثة.

٣٢٨. فيض القدير شرح الجامع الصغير، عبد الرؤوف زين الدين المناوي، المكتبة التجارية الكبرىٰ، مصر، الطبعة الأولىٰ، ١٣٥٦هـ.

٣٢٩. قاعدة في الصبر، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني، تحقيق محمد بن خليفة التميمي، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد ١١٦، ٢٠٠٢م.

٣٣٠. قاعدة في المحبة، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام، ابن تيمية الحراني، تحقيق محمد رشاد سالم، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة.

٣٣١. القاموس المحيط، أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثامنة، ٢٠٠٥م.

٣٣٢. قصر الأمل، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا، تحقيق محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٧م.

٣٣٣. قلائد العقيان في محاسن الرؤساء والقضاة والكتاب والأدباء والأعيان، أبو نصر الفتح بن خاقان، المطبعة الأميرية، بولاق، ١٨٦٦م.

٣٣٤. قواطع الأدلة في الأصول، أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار المروزي السمعاني، تحقيق محمد حسن إسماعيل الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٩٩٩م.

٣٣٥. قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلىٰ مقام التوحيد، محمد بن علي الحارثي، أبو طالب المكي، تحقيق عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠٠٥م.

٣٣٦. الكامل في التاريخ، علي بن أبي الكرم الشيباني، عز الدين ابن الأثير، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٩٩٧م.

٣٣٧. الكامل في اللغة والأدب، محمد بن يزيد المبرد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٩٧م.

٣٣٨. الكامل في ضعفاء الرجال، أبو أحمد بن عدي الجرجاني، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٩٩٧م.

٣٣٩. كتاب الأفعال، ابن القوطية، تحقيق علي فوده، مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٣م.

٣٤٠. كتاب الأفعال، علي بن جعفر المعروف بابن القَطَّاع الصقلي، دار عالم الكتب، الطبعة الأولىٰ، ١٩٨٣م.

٣٤١. كتاب الأمثال في الحديث النبوي، عبد الله بن محمد بن جعفر المعروف بأبي الشيخ الأنصاري، تحقيق عبد العلي عبد الحميد حامد، الدار السلفية، بومباي، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م.

٣٤٢. كتاب التوابين، عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي، دار ابن حزم، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠٣م.

٣٤٣. كشف المحجوب، علي بن عثمان بن أبو علي الجلابي الهجويري الغزنوي، ترجمة إسعاد عبد الهادي قنديل، المجلس الأعلىٰ للثقافة بالقاهرة.

٣٤٤. الكشف والبيان عن تفسير القرآن، أبو إسحاق أحمد بن إبراهيم الثعلبي، أشرف علىٰ إخراجه صلاح باعثمان، وحسن الغزالي، وزيد مهارش، وأمين باشه، تحقيق عدد من الباحثين، دار التفسير، جدة، الطبعة الأولىٰ، ٢٠١٥م.

٣٤٥. الكشكول، محمد بن حسين الحارثي الهمذاني، تحقيق محمد عبد الكريم النمري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٩٩٨م.

٣٤٦. الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أيوب بن موسىٰ الحسيني الكفوي، أبو البقاء الحنفي، تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٨م.

٣٤٧. الكنز اللغوي في اللسان العربي، ابن السكيت، أبو يوسف يعقوب بن إسحاق، تحقيق أوغست هفنر، مكتبة المتنبي، القاهرة.

٣٤٨. الكنز في القراءات العشر، عبد الله بن عبد المؤمن بن الوجيه الواسطي، تحقيق خالد المشهداني، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠٤م.

٣٤٩. لامية ابن الوردي، عمر بن مظفر بن عمر ابن أبي الفوارس.

٣٥٠. لسان العرب، محمد بن مكرم ابن منظور الأنصاري، الحواشي لليازجي وجماعة من اللغويين، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ.

٣٥١. لطائف الإشارات (تفسير القشيري)، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، تحقيق إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر.

٣٥٢. لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، عبد الرحمن بن أحمد بن رجب السَلامي الحنبلي، دار ابن حزم للطباعة والنشر، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠٤م.

٣٥٣. اللطائف والظرائف، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي، دار المناهل، بيروت.

٣٥٤. متن العقيدة الطحاوية، أحمد بن محمد المعروف بالطحاوي، شرح وتعليق محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ.

٣٥٥. المجالسة وجواهر العلم، أبو بكر أحمد بن مروان بن محمد الدينوري، تحقيق أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، جمعية التربية الإسلامية، البحرين، ودار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٩٩٨م.

٣٥٦. مجاني الأدب في حدائق العرب، رزق الله بن يوسف شيخو، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩١٣م.

٣٥٧. المجتبىٰ، أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي، دار المعارف العثمانية، الطبعة الثانية، ١٩٦٢م.

٣٥٨. مجلة البيان، المنتدىٰ الإسلامي.

٣٥٩. مجمع الأمثال، أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت.

٣٦٠. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، تحقيق حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٩٩٤م.

٣٦١. مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار، محمد طاهر بن علي الصديقي الهندي، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، الطبعة الثالثة، ١٩٦٧م.

٣٦٢. مجمل اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، تحقيق زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٦م.

٣٦٣. مجموع الفتاوىٰ، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، ١٩٩٥م.

٣٦٤. محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٠ هـ.

٣٦٥. المحجة في سير الدلجة، عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، تحقيق طلعت الحلواني، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م.

٣٦٦. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن المحاربي، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

٣٦٧. المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، تحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.

٣٦٨. المحيط في اللغة، إسماعيل بن عباد الطالقاني، المشهور بالصاحب ابن عباد، تحقيق محمد حسن آل ياسين، دار عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م.

٣٦٩. مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي، تحقيق يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٩٩م.

٣٧٠. مختصر شرح تسهيل العقيدة الإسلامية، عبد الله بن عبد العزيز الجبرين، مدار الوطن للنشر، السعودية، الطبعة السادسة، ٢٠١٧م.

٣٧١. مختصر قيام الليل وقيام رمضان وكتاب الوتر، محمد بن نصر بن الحجاج المَرْوَزِي، اختصار أحمد بن علي المقريزي وحديث أكادمي، فيصل آباد، باكستان، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م.

٣٧٢. مختصر منهاج القاصدين، أحمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسي، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط، مكتبة دار البيان، دمشق، ١٩٧٨م.

٣٧٣. المخصص، علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، تحقيق خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.

٣٧٤. مدارج السالكين في منازل السائرين، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، دار عطاءات العلم، الرياض، ودار ابن حزم، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠١٩م.

٣٧٥. مدارج السالكين في منازل السائرين، محمد بن أبي بكر بن أيوب، ابن قيم الجوزية، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٩٦م.

٣٧٦. المدخل إلىٰ علم السنن، أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق محمد عوامة، دار اليسر، القاهرة، ودار المنهاج، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ٢٠١٧م.

٣٧٧. المدهش، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق مروان قباني، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٥م.

٣٧٨. المدهش، لجمال الدين أبي الفرج ابن الجوزي، بعناية عبد الكريم تتان وخلدون مخلوطة، دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية، ٢٠١٤م.

٣٧٩. مذكرات في منازل الصديقين والربانيين، سعيد حوىٰ، دار السلام، القاهرة، الطبعة العاشرة، ٢٠١٤م.

٣٨٠. مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، أبو المظفر يوسف المعروف بسبط ابن الجوزي، تحقيق محمد بركات عرقسوسي وجماعة، دار الرسالة العالمية، دمشق، الطبعة الأولىٰ، ٢٠١٣م.

٣٨١. مرشد الزوار إلىٰ قبور الأبرار، أبو محمد بن عبد الرحمن، ابن الشيخ أبي الحرم مكّي بن عثمان الشارعي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٥هـ.

٣٨٢. مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، علي بن محمد، الملا الهروي القاري، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠٢م.

٣٨٣. المروءة، أبي بكر محمد بن خلف بن المرزبان، تحقيق محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٩٩٩م.

٣٨٤. مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، أحمد بن يحيىٰ بن فضل الله القرشي العمري العدوي، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٣هـ.

٣٨٥. المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، دار المعرفة، بيروت.

٣٨٦. المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد النيسابوري، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م.

٣٨٧. المستقصى في أمثال العرب، أبو القاسم محمود بن عمرو، الزمخشري جار الله، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م.

٣٨٨. مسند أبي بكر ابن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم العبسي، تحقيق عادل يوسف العزازي، أحمد فريد المزيدي، دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.

٣٨٩. مسند أبي يعلى، أحمد بن علي التميمي، تحقيق حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م.

٣٩٠. مسند البزار (البحر الزخار)، أبو بكر أحمد بن عمرو البزار، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ومؤسسة علوم القرآن، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٩م.

٣٩١. مسند عبد بن حميد (المنتخب من مسند عبد بن حميد)، عبد الحميد بن حميد الكَسّي، تحقيق صبحي البدري السامرائي ومحمود محمد خليل، مكتبة السنة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م.

٣٩٢. مسند علي بن الجَعْد بن عبيد الجَوْهَري البغدادي، تحقيق عامر أحمد حيدر، مؤسسة نادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م.

٣٩٣. مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.

٣٩٤. مسند الإمام أحمد بن حنبل، جمعية المكنز الإسلامي، دار المنهاج، الطبعة الأولى ٢٠١٠م.

٣٩٥. مشارق الأنوار على صحاح الآثار، القاضي عياض اليحصبي، المكتبة العتيقة ودار التراث.

٣٩٦. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أبو العباس أحمد بن محمد بن علي الفيومي، المكتبة العلمية، بيروت.

٣٩٧. مصنف ابن أبي شيبة (المصنف في الأحاديث والآثار)، أبو بكر بن أبي شيبة، دار القبلة، السعودية، ومؤسسة علوم القرآن، دمشق، الطبعة الأولىٰ ٢٠٠٦ م.

٣٩٨. مصنف ابن أبي شيبة (المصنف في الأحاديث والآثار)، أبو بكر بن أبي شيبة، تحقيق كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٩هـ.

٣٩٩. مصنف عبد الرزاق الصنعاني، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، المجلس العلمي، الهند، والمكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.

٤٠٠. المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، ابن حجر العسقلاني، دار العاصمة، دار الغيث، السعودية، الطبعة الأولىٰ ٢٠٠٠م.

٤٠١. مطلوب كل طالب من كلام علي بن أبي طالب، رشيد الدين الوطواط، جامعة أكسفورد، ١٨٣٧م.

٤٠٢. معالم السنن، وهو شرح سنن أبي داود، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم البستي، المطبعة العلمية، حلب، الطبعة الأولىٰ، ١٩٣٢م.

٤٠٣. معاني القرآن وإعرابه، إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج، تحقيق عبد الجليل شلبي، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٩٨٨م.

٤٠٤. معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلىٰ معرفة الأديب)، ياقوت بن عبد الله الحموي، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٩٩٣م.

٤٠٥. المعجم الأوسط، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير الطبراني، تحقيق طارق بن عوض الله محمد، عبد المحسن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، الطبعة الأولىٰ ١٩٩٥م.

٤٠٦. المعجم العربي لأسماء الملابس «في ضوء المعاجم والنصوص الموثقة من الجاهلية حتىٰ العصر الحديث»، إعداد رجب عبد الجواد إبراهيم، دار الآفاق العربية، القاهرة، مصر، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠٢م.

٤٠٧. معجم الفروق اللغوية، أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، تحقيق بيت الله بيات، مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٢هـ.

٤٠٨. المعجم الكبير، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني، مكتبة ابن تيمية، القاهرة.

٤٠٩. معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عبد الحميد عمر، عالم الكتب، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠٨م.

٤١٠. المعجم المفصل في شواهد العربية، إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٩٩٦م.

٤١١. المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفىٰ، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ودار الدعوة.

٤١٢. معجم لغة الفقهاء، محمد رواس قلعجي وحامد صادق قنيبي، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٩٨٨م.

٤١٣. معجم متن اللغة، أحمد رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٠م.

٤١٤. المعلم بفوائد مسلم، محمد بن علي بن عمر المازري، تحقيق محمد الشاذلي، الدار التونسية للنشر، الطبعة الثانية، ١٩٩١م.

٤١٥. معلم في تربية النفس (وقفات مع حديث «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»)، عبد اللطيف بن محمد الحسن، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض.

٤١٦. المُغْرِب في ترتيب المُعْرِب، ناصر بن عبد السيد أبي المكارم ابن علي، برهان الدين الخوارزمي المُطَرِّزِي، دار الكتاب العربي.

٤١٧. المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار (مطبوع بهامش إحياء علوم الدين)، عبد الرحيم بن الحسين العراقي، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠٥م.

٤١٨. المفاتيح في شرح المصابيح، الحسين بن محمود بن الحسن، المشهور بالمُظهري، تحقيق ودراسة لجنة مختصة بإشراف نور الدين طالب، دار النوادر، وزارة الأوقاف الكويتية، الطبعة الأولىٰ، ٢٠١٢م.

٤١٩. مفتاح الأفكار للتأهب لدار القرار، عبد العزيز بن محمد السلمان.

٤٢٠. مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق عبد الرحمن بن حسن بن قائد، مراجعة محمد أجمل الإصلاحي وسليمان بن عبد الله العمير، دار عطاءات العلم، الرياض، ودار ابن حزم، بيروت، الطبعة الثالثة، ٢٠١٩م.

٤٢١. المفردات في غريب القرآن، الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق صفوان عدنان الداودي، دار القلم والدار الشامية، دمشق، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٢هـ.

٤٢٢. المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس أحمد بن عمر القرطبي، تحقيق محيي الدين مستو ويوسف علي بديوي وغيرهما، دار ابن كثير، دمشق، دار الكلم الطيب، دمشق، الطبعة الأولىٰ، ١٩٩٦م.

٤٢٣. مقامات الحريري، القاسم بن علي الحريري، مطبعة المعارف، بيروت، ١٨٧٣م.

٤٢٤. مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٩م.

٤٢٥. المقصد الأسنىٰ في شرح معاني أسماء الله الحسنىٰ، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي، قبرص، الطبعة الأولىٰ، ١٩٨٧م.

٤٢٦. المقلق، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، تحقيق مجدي فتحي السيد، دار الصحابة للتراث، طنطا، الطبعة الأولىٰ، ١٩٩١م.

٤٢٧. من تواضع لله رفعه، عبد الملك بن محمد القاسم، دار القاسم.

٤٢٨. منازل السائرين، أبو إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري الهروي، دار الكتب العلمية، بيروت.

٤٢٩. مناقب الأبرار ومحاسن الأخيار، الحسين بن نصر ابن خميس، تحقيق محمد أديب الجادر، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين، الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠٦م.

٤٣٠. مناقب الشافعي، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق السيد أحمد صقر، مكتبة دار التراث، القاهرة، الطبعة الأولىٰ، ١٩٧٠م.

٤٣١. المنتحل، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي، تحقيق أحمد أبو علي، المطبعة التجارية، عرزوزي وجاويش، الإسكندرية، ١٩٠١م.

٤٣٢. المنهاج (منهاج الطالبين وعمدة المفتين)، أبو زكريا يحيىٰ بن شرف النووي، تحقيق عوض قاسم أحمد عوض، دار الفكر، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠٥م.

٤٣٣. منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولىٰ، ١٩٨٦م.

٤٣٤. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا محيي الدين يحيىٰ بن شرف النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ.

٤٣٥. المنهاج في شعب الإيمان، الحسين بن الحسن الحليمي، تحقيق حلمي محمد فودة، دار الفكر، الطبعة الأولىٰ، ١٩٧٩م.

٤٣٦. المهذب في فقه الإمام الشافعي، أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي، دار الكتب العلمية.

٤٣٧. موجز دائرة المعارف الإسلامية، تحرير هوتسما، أرنولد، باسيت، هارتمان، إعداد وتحرير إبراهيم زكي خورشيد، وأحمد الشنتناوي، وعبد الحميد يونس، ترجمة نخبة من أساتذة الجامعات المصرية والعربية، المراجعة والإشراف العلمي حسن حبشي، وعبد الرحمن عبد الله الشيخ، ومحمد عناني، مركز الشارقة للإبداع الفكري، الطبعة الأولىٰ، ١٩٩٨م.

٤٣٨. موسوعة الأخلاق والزهد والرقائق، (قصص تربوية من حياة الأنبياء والصحابة والتابعين والصالحين)، ياسر عبد الرحمن، مؤسسة اقرأ، القاهرة، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠٧م.

٤٣٩. موسوعة التفسير المأثور، مركز الدراسات والمعلومات القرآنية، بإشراف مساعد بن سليمان الطيار ونوح بن يحيىٰ الشهري، مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الإمام الشاطبي، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ٢٠١٧م.

٤٤٠. موسوعة المفاهيم الإسلامية العامة، المجلس الأعلىٰ للشؤون الإسلامية، مصر.

٤٤١. موسوعة فقه القلوب، محمد بن إبراهيم التويجري، بيت الأفكار الدولية.

٤٤٢. موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد بن علي ابن القاضي الحنفي التهانوي، تحقيق علي دحروج، نقل النص الفارسي إلىٰ العربية عبد الله الخالدي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٩٩٦م.

٤٤٣. موسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج والتربية، محمد بن عبد الرحمن المغراوي، المكتبة الإسلامية، القاهرة، والنبلاء للكتاب، مراكش، الطبعة الأولىٰ.

٤٤٤. الموشىٰ (الظرف والظرفاء)، محمد بن أحمد بن إسحاق بن يحيىٰ، المعروف بالوشاء، تحقيق كمال مصطفىٰ، مكتبة الخانجي، مصر، الطبعة الثانية، ١٩٥٣م.

٤٤٥. موضح أوهام الجمع والتفريق، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، تحقيق عبد المعطي أمين قلعجي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٧هـ.

٤٤٦. موطأ الإمام مالك بن أنس، تحقيق بشار عوَّاد ومحمود خليل، مؤسسة الرسالة، ١٤١٢هـ.

٤٤٧. ميزان العمل، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، تحقيق سليمان دنيا، دار المعارف، مصر، الطبعة الأولىٰ، ١٩٦٤م.

٤٤٨. الميسر في شرح مصابيح السنة، فضل الله بن حسن بن حسين بن يوسف، شهاب الدين التُّورِبِشْتِي، تحقيق عبد الحميد هنداوي، مكتبة نزار مصطفىٰ الباز، الطبعة الثانية، ٢٠٠٨م.

٤٤٩. نثر الدر في المحاضرات، أبو سعد الآبي منصور بن حسين، تحقيق خالد محفوظ، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠٤م.

٤٥٠. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، يوسف بن تغري بردي بن عبد الله، أبو المحاسن، جمال الدين، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر.

٤٥١. نشر طي التعريف في فضل حملة العلم الشريف، محمد بن عبد الرحمن بن عمر، جمال الدين الحبيشي الوصابي، دار المنهاج، جدة، الطبعة الأولىٰ، ١٩٩٧م.

٤٥٢. نصائح العباد في بيان ألفاظ منبهات علىٰ الاستعداد ليوم المعاد، أحمد ابن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٨م.

٤٥٣. نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ، عدد من المختصين بإشراف الشيخ صالح بن حميد، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة، الطبعة الرابعة.

٤٥٤. نظرات العقول وثمرات المنقول، مصطفىٰ كرامة الله مخدوم، مكتبة الأسرة العربية، إسطنبول، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٢١م.

٤٥٥. النفحات الشاذلية شرح البردة البوصيرية، حسن الحمزاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٥م.

٤٥٦. النهاية في غريب الحديث والأثر، المبارك بن محمد الشيباني الجزري ابن الأثير، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٩٧٩م.

٤٥٧. نهج البلاغة، المنسوب لعلي بن أبي طالب ﵁، مع تعليقات محمد عبده، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٧م.

٤٥٨. نور وهداية، علي بن مصطفىٰ الطنطاوي، جمع وترتيب مجاهد مأمون ديرانية، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة، الطبعة الثانية، ٢٠٠٩م.

٤٥٩. الهداية إلىٰ بلوغ النهاية، أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي، جامعة الشارقة، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠٨م.

٤٦٠. هكذا علّمتني الحياة، مصطفىٰ السباعي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٩٧م.

٤٦١. الهمة العالية وأثرها في تحقيق الأهداف، سعيد العنزي (مفرغة عبر النت).

٤٦٢. الوابل الصيب من الكلم الطيب، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن القيم الجوزية، تحقيق سيد إبراهيم، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٩٩م.

٤٦٣. الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق عبد الرحمن بن حسن بن قائد، مراجعة حاتم بن عارف الشريف ويحيىٰ بن عبد الله الثمالي، دار عطاءات العلم، الرياض، ودار ابن حزم، بيروت، الطبعة الخامسة، ٢٠١٩م.

٤٦٤. الوحي المحمدي، محمد رشيد بن علي رضا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠٥م.

٤٦٥. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أحمد بن محمد بن إبراهيم البرمكي الإربلي، المعروف بابن خلكان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

٤٦٦. يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي، تحقيق مفيد محمد قمحية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٩٨٣م.

فهرس المصادر المستخرج منها التغريدات

م	المصدر	عدد الحكم	أرقام الحكم الخاصة بكل مصدر
١	آداب الحسن البصري لابن الجوزي	٩	١١٧، ١١٩، ٢٠٨، ٢٦٤، ٦١١، ٦٦١، ٦٩٣، ٧٢٣، ٧٨٧
٢	الآداب الشرعية والمنح المرعية لمحمد بن مفلح	٢	١٧٤، ٦٠٧
٣	آداب الصحبة لمحمد بن الحسين النيسابوري	١	١٣٩
٤	الإخلاص والنية لابن أبي الدنيا	١	٦٦
٥	الأمثال والحكم للماوردي	٢	٦٦٢، ٩٢٨
٦	آداب الطريقة وأسرار الحقيقة لعبد الرزاق القاشاني	٨	٣٢، ٢٢٤، ٢٤٧، ٤٨٣، ٥٨٨، ٦٧٥، ٧٠٠، ٩٣٠
٧	أدب الدنيا والدين للماوردي	٣	٣٨٣، ٥٥٩، ٨٥٦
٨	الإعجاز والإيجاز للثعالبي	١	٧٩٧
٩	أمراض القلوب وشفاؤها لابن تيمية	١	٤٢٢
١٠	أنساب الأشراف لأحمد البلاذري	١	٨٥٩
١١	إحياء علوم الدين لأبي حامد	٩	١٦٩، ٣٢٥، ٣٧٠، ٤٦٣، ٧٩٠، ٨٢٦،

م	المصدر	عدد الحكم	أرقام الحكم الخاصة بكل مصدر
	الغزالي		٨٦٢، ٨٦٣، ٩١٥
١٢	إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان لابن القيم	٣	٢١٠، ٢٣٦، ٥٣١
١٣	بدائع الفوائد لابن القيم	٤	٥١، ٢٥٢، ٢٩٦، ٢٩٧
١٤	البصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي	٢	٣٠٨، ٤٤٨
١٥	بغية الطلب لابن العديم	١	٢٦٣
١٦	البيان والتبيين للجاحظ	٣	٤، ٤٩١، ٩٦٩
١٧	تاريخ الإسلام للذهبي	٣	٤١٢، ٥٢١، ٩١٩
١٨	تاريخ بغداد للخطيب البغدادي	١	٩٤٠
١٩	التاريخ الكبير للبخاري	٢	٨٨، ٩٢
٢٠	ترتيب المدارك للقاضي عياض	١	٨١٠
٢١	التبصرة لابن الجوزي	١	١٣١
٢٢	التذكرة في الوعظ لابن الجوزي	١٦	٤٦، ٥٥، ٧٦، ٧٧، ٢١٩، ٢٨٣، ٣٥٦، ٤٧٦، ٥٠١، ٦٢٤، ٦٢٦، ٧٦٦، ٧٦٧، ٧٦٨، ٨١٥، ٩٤٤
٢٣	التعرف لمذهب أهل التصوف لمحمد الكلاباذي	١	٩٩٢
٢٤	تعظيم قدر الصلاة للمروزي	١	٥٣٣
٢٥	تفسير الطبري	٢	١٩٥، ٣٢٧
٢٦	التمثيل والمحاضرة للثعالبي	١	٢٣٢

م	المصدر	عدد الحكم	أرقام الحكم الخاصة بكل مصدر
٢٧	تنبيه الغافلين للسمرقندي	٢	١٢٠، ٥١١
٢٨	تهذيب الأسماء واللغات لأبي زكريا النووي	٢٧	٩٦، ٩٧، ١٢٩، ١٣٠، ١٧٣، ٤٣٤، ٤٣٥، ٤٥١، ٤٥٢، ٤٥٣، ٤٥٤، ٤٥٥، ٤٥٦، ٤٥٧، ٤٥٨، ٤٥٩، ٦٦٤، ٧١٦، ٧١٧، ٧١٨، ٨٧٦، ٨٧٧، ٨٧٨، ٨٧٩، ٨٨٠، ٩٥٠، ٩٨٨
٢٩	تهذيب خالصة الحقائق لمحمود الفاريابي	٧٥	١٠٢، ١٠٦، ١٤٢، ١٤٥، ١٥٨، ١٦٦، ١٧٦، ١٧٧، ١٨٤، ١٩٩، ٢٠٦، ٢٠٩، ٢١٧، ٢٢٠، ٢٤٥، ٢٦٩، ٢٧٥، ٢٨١، ٣٠٤، ٣١١، ٣١٣، ٣١٥، ٣١٦، ٣٢٤، ٣٣٦، ٣٤١، ٣٧٣، ٣٨٩، ٤٠٠، ٤٤٥، ٤٦٧، ٥٠٨، ٥٢٥، ٥٥٢، ٥٦٥، ٥٦٦، ٥٨٦، ٥٨٧، ٦٠٩، ٦١٦، ٦١٧، ٦٢٢، ٧٠٣، ٧٠٦، ٧٢٧، ٧٢٨، ٧٢٩، ٧٧٦، ٧٨٠، ٧٨٥، ٨٠٣، ٨١٢، ٨١٧، ٨٣٤، ٨٤١، ٨٩٣، ٩٠٧، ٩٠٨، ٩١٨، ٩٣٢، ٩٤١، ٩٦١، ٩٧٠، ٩٧٣، ٩٨٢، ٩٨٥، ٩٨٦، ٩٨٧، ٩٩٠، ٩٩٥، ٩٩٦، ٩٩٧، ٩٩٨، ٩٩٩، ١٠٠٠
٣٠	جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر	٤	٣٨٠، ٣٨١، ٤٧٥، ٩٢٧
٣١	جامع العلوم والحكم لابن رجب	١٣	٦٤، ٧٣، ١٦٨، ٤٩٠، ٥٠٩، ٥١٤، ٦٧٩،

م	المصدر	عدد الحكم	أرقام الحكم الخاصة بكل مصدر
	الحنبلي		٦٨٢، ٨٢٣، ٨٣٧، ٨٥٢، ٨٨٢، ٩١١
٣٢	الجامع في السنن والآداب والمغازي والتاريخ لأبي زيد القيرواني	١	٧٩٣
٣٣	جواهر التصوف ليحيىٰ بن معاذ الرازي	٨	١٣٧، ٢٢٧، ٢٢٨، ٣١٢، ٤٩٣، ٥٧٩، ٦٩٧، ٩٩١
٣٤	الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري	١٠٩	٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨١، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤، ٢٠٤، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٤٦، ٢٩٠، ٣١٧، ٣١٨، ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٥٢، ٣٧٧، ٣٩٠، ٣٩١، ٣٩٢، ٣٩٣، ٣٩٤، ٣٩٥، ٤١٩، ٤٢٠، ٤٢١، ٤٣٧، ٤٣٨، ٤٣٩، ٤٧٧، ٤٧٨، ٤٧٩، ٤٨٠، ٤٨١، ٤٨٢، ٥٢٦، ٥٢٧، ٥٦٩، ٥٧٠، ٥٩٩، ٦٠٠، ٦٠١، ٦٢٧، ٦٢٨، ٦٢٩، ٦٣٠، ٦٣١، ٦٣٢، ٦٤١، ٦٤٢، ٦٤٣، ٦٤٤، ٦٥٠، ٦٥١، ٦٥٢، ٦٥٣، ٦٥٤، ٦٥٥، ٦٥٦، ٦٦٠، ٦٧٣، ٦٧٤، ٦٩١، ٦٩٢، ٧٠٩، ٧١٠، ٧٣٠، ٧٤٣، ٧٤٤، ٧٤٥، ٧٤٦، ٧٤٧، ٧٤٨، ٧٤٩، ٧٥٠، ٧٨٣، ٧٨٤، ٧٩١، ٨٩٩، ٩٠٠، ٩٠١، ٩٠٢، ٩٠٣، ٩٠٤، ٩١٦،

م	المصدر	عدد الحكم	أرقام الحكم الخاصة بكل مصدر
			٩٣٣، ٩٤٥، ٩٤٦، ٩٦٢، ٩٦٣
٣٥	حل الرموز ومفاتيح الكنوز لابن غانم المقدسي	١٠	٤٧، ١٤٦، ١٤٧، ١٨٦، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨، ٣٤٢، ٣٥٩، ٩٥٢
٣٦	حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني	٢٠٦	١، ٢، ٣، ٩، ١٤، ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٤٠، ٤١، ٥٣، ٥٤، ٥٦، ٥٩، ٦٠، ٦٢، ٦٣، ٧٢، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٥، ٩٨، ٩٩، ١١٣، ١١٥، ١١٦، ١٢١، ١٢٤، ١٢٥، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٧٠، ١٧٢، ١٧٥، ١٩٤، ٢٠٠، ٢١١، ٢١٢، ٢١٤، ٢٢٦، ٢٣١، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٨٩، ٣٠٥، ٣٠٦، ٣٠٧، ٣٢٦، ٣٢٨، ٣٣٠، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٤٨، ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٥٣، ٣٦٨، ٣٦٩، ٣٧١، ٣٨٥، ٣٩٩، ٤٠١، ٤٠٤، ٤٦١، ٤٦٤، ٤٦٩، ٤٨٨، ٥١٢، ٥١٣، ٥١٨، ٥٢٠، ٥٢٢، ٥٢٣، ٥٣٢، ٥٣٧، ٥٣٨، ٥٣٩، ٥٤٠، ٥٤١، ٥٤٢، ٥٤٣، ٥٤٤، ٥٦٠، ٥٦١، ٥٦٢، ٥٦٣، ٥٨١، ٥٩٠، ٥٩٣، ٥٩٤، ٦٠٣، ٦٠٥، ٦٠٦، ٦١٢، ٦١٣، ٦١٤، ٦١٥، ٦١٩، ٦٣٩، ٦٤٦، ٦٤٧، ٦٤٨، ٦٤٩، ٦٨٠، ٦٩٨، ٧٠١، ٧١٤، ٧٢٤، ٧٢٥، ٧٣٥،

م	المصدر	عدد الحكم	أرقام الحكم الخاصة بكل مصدر
			٧٣٨، ٧٤٠، ٧٥١، ٧٥٢، ٧٥٣، ٧٥٤، ٧٥٦، ٧٥٨، ٧٥٩، ٧٦٠، ٧٦١، ٧٦٢، ٧٧٠، ٧٧٢، ٧٧٤، ٧٧٧، ٧٧٨، ٧٨٨، ٧٨٩، ٧٩٤، ٧٩٦، ٧٩٨، ٧٩٩، ٨٠٠، ٨٠١، ٨٠٦، ٨٠٧، ٨٠٨، ٨١١، ٨٢١، ٨٢٤، ٨٢٧، ٨٢٨، ٨٢٩، ٨٣٢، ٨٣٣، ٨٣٥، ٨٣٦، ٨٣٩، ٨٤٠، ٨٥١، ٨٥٣، ٨٥٤، ٨٥٧، ٨٥٨، ٨٦٠، ٨٦١، ٨٦٤، ٨٦٥، ٨٦٦، ٨٦٧، ٨٦٨، ٨٦٩، ٨٧١، ٨٧٣، ٨٧٤، ٨٧٥، ٨٨٤، ٨٨٥، ٨٨٧، ٨٨٨، ٨٩١، ٨٩٢، ٩٠٩، ٩١٢، ٩١٤، ٩١٧، ٩٢٣، ٩٢٤، ٩٢٥، ٩٣٤، ٩٣٦، ٩٣٧، ٩٤٧، ٩٥٦، ٩٥٧، ٩٦٨، ٩٧٦، ٩٧٧، ٩٧٩، ٩٨١
٣٧	الأخلاق والسير في مداواة النفوس لابن حزم الأندلسي	٧	٢٨٢، ٤٩٨، ٨١٤، ٨٤٢، ٨٩٦، ٩٥١، ٩٩٣
٣٨	دقائق التفسير لابن تيمية	١	١٥٥
٣٩	ذم الهوىٰ لابن الجوزي	١	٢٧٨
٤٠	الرسالة التبوكية لابن القيم	٢	١٦٠، ٦٢٣
٤١	الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري	٥٣	١١، ١٢، ١٥، ٤٤، ٩٣، ٩٤، ١٠٥، ١٣٨، ١٧٨، ١٨٢، ١٨٣، ١٩٧، ١٩٨، ٢٣٠، ٢٣٨، ٣٣٤، ٤٣١، ٤٧٠، ٤٧٤، ٤٩٦،

م	المصدر	عدد الحكم	أرقام الحكم الخاصة بكل مصدر
			٤٩٧، ٥٣٥، ٥٤٦، ٥٤٧، ٥٤٨، ٥٥٨، ٥٧٢، ٥٨٢، ٥٩٦، ٦٠٢، ٦٦٣، ٦٦٦، ٦٦٧، ٦٦٨، ٦٧١، ٦٨٣، ٦٨٨، ٦٨٩، ٦٩٤، ٦٩٥، ٦٩٩، ٧٠٥، ٧٠٨، ٧١٥، ٧٣٣، ٧٣٦، ٨٧٠، ٨٨١، ٨٨٣، ٨٩٥، ٩١٣، ٩٨٠، ٩٩٤
٤٢	الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا	١	٣٩
٤٣	الزهد الكبير للبيهقي	٣	١٢٦، ٢٤٠، ٣٠٩
٤٤	الزهد لأحمد بن حنبل	١٥	٥، ٥٨، ١١٤، ٤٠٣، ٤٠٦، ٤٣٠، ٤٤٣، ٤٤٤، ٧٢٢، ٧٨٦، ٧٩٥، ٨٠٢، ٨٠٤، ٩٣٥، ٩٧٤
٤٥	الزهد لابن أبي الدنيا	٣	٣٢٢، ٦٣٦، ٨٩٨
٤٦	الزهد لابن أبي عاصم	١	٩٧٥
٤٧	الزهد لوكيع	٤	١٢٧، ٤٨٧، ٦٠٤، ٨٥٥
٤٨	الزهد والرقائق لابن المبارك	٣	٢٥٩، ٣٦٧، ٧٥٥
٤٩	السنة لعبد الله بن أحمد بن حنبل	١	٦٣٧
٥٠	سنن الدارمي	١	٥٧
٥١	سير أعلام النبلاء للذهبي	٤	٦٧، ٤٤٧، ٥٨٣، ٦٧٨
٥٢	شعب الإيمان للبيهقي	٥	٤٩٥، ٥١٩، ٥٥١، ٦١٨، ٩٧٨
٥٣	الشكر لابن أبي الدنيا	٢	٥٩١، ٥٩٢
٥٤	الصبر مطية النجاح لابن الظهير	١	١٠٧

م	المصدر	عدد الحكم	أرقام الحكم الخاصة بكل مصدر
٥٥	صفة الصفوة لابن الجوزي	٥٧	٦، ١٧، ٤٣، ١٢٢، ١٢٣، ١٣٥، ١٣٦، ١٦٥، ١٧١، ١٩٦، ٢٠٢، ٢٠٧، ٢١٣، ٢٢٩، ٢٣٧، ٢٧٩، ٣١٠، ٣٣٥، ٣٣٧، ٣٨٦، ٤٠٥، ٤٠٧، ٤٠٨، ٤٠٩، ٤١٠، ٤١١، ٤١٣، ٤١٤، ٤٤٦، ٤٦٥، ٤٩٢، ٥١٧، ٥٥٠، ٥٥٣، ٥٥٧، ٥٨٠، ٦١٠، ٦٥٩، ٦٦٥، ٦٩٦، ٧٢٦، ٧٣٧، ٧٣٩، ٧٤١، ٧٥٧، ٧٧٣، ٨٢٢، ٨٣١، ٨٣٨، ٨٨٦، ٨٩٠، ٩٣٨، ٩٤٢، ٩٤٣، ٩٤٨، ٩٥٨، ٩٨٩
٥٦	الصمت وآداب اللسان لابن أبي الدنيا	١	٩٢٦
٥٧	صيد الخاطر لابن الجوزي	٤	٢٤٤، ٣٣٩، ٥١٥، ٥٨٤
٥٨	طبقات الأولياء لابن الملقن	٣	١٣٢، ٥٧٣، ٦٦٩
٥٩	طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي	٦٩	١٠، ١٣، ١٦، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١، ٤٢، ٦٨، ٦٩، ٧١، ١٠٠، ١٠١، ١٠٣، ١٠٤، ١٣٤، ١٤١، ١٤٣، ١٤٤، ١٧٩، ١٨٥، ٢٠٣، ٢١٥، ٢١٦، ٢٣٥، ٢٣٩، ٣٣١، ٣٥١، ٣٨٧، ٣٨٨، ٤١٥، ٤١٦، ٤١٧، ٤٣٦، ٤٤٩، ٤٥٠، ٤٦٠، ٤٦٨، ٤٧١، ٤٧٢، ٤٧٣، ٥١٦، ٥٢٤، ٥٤٥، ٥٥٥، ٥٦٤، ٥٦٧، ٥٦٨، ٥٧٤، ٥٧٥، ٥٧٦، ٥٩٧، ٦٢٠، ٦٢١، ٦٧٠، ٦٧٢، ٦٨١، ٦٨٤، ٦٨٦، ٦٨٧، ٧٠٢، ٧٠٧، ٧٦٤، ٧٦٥، ٧٧٥،

م	المصدر	عدد الحكم	أرقام الحكم الخاصة بكل مصدر
			٧٧٩، ٨٠٩، ٨٧٢، ٨٨٩، ٩٣٩
٦٠	الطبقات الكبرىٰ لابن سعد	٢	٣٨٢، ٥٣٦
٦١	عدة الصابرين لابن القيم	٢	٢٩٩، ٣٠٠
٦٢	العقد الفريد لشهاب الدين الأندلسي	١	٧٢١
٦٣	العقل وفضله لابن أبي الدنيا	١	٩٨٣
٦٤	عيون الأخبار لابن قتيبة	٢	١٦٧، ٩٢٢
٦٥	الفتوة لأبي عبد الرحمن السلمي	١	٧٠٤
٦٦	فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل	١	٧٧١
٦٧	الفنون لابن عقيل	١	٨٩٧
٦٨	الفوائد لابن القيم	٨٨	٣٣، ٣٤، ٣٥، ٥٠، ٥٢، ٨٢، ٨٣، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٧، ١٥٦، ١٥٧، ١٨٨، ١٩٠، ١٩١، ٢٠٥، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٦٥، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٥، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٥٨، ٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٤، ٣٧٨، ٣٧٩، ٤١٨، ٤٢٣، ٤٢٤، ٤٢٥، ٤٢٦، ٤٢٨، ٤٣٣، ٤٤١، ٤٤٢، ٥٠٣، ٥٠٤، ٥٠٥، ٥٢٨، ٥٢٩، ٥٣٠، ٥٨٩، ٥٩٥، ٦٠٨، ٦٣٣، ٦٣٤، ٦٣٥، ٦٤٥، ٦٥٧، ٦٧٦، ٦٧٧، ٧١١، ٧٦٩، ٨١٨، ٨٤٣، ٨٤٤، ٨٤٥، ٨٤٦، ٨٤٧،

م	المصدر	عدد الحكم	أرقام الحكم الخاصة بكل مصدر
			٨٤٨، ٨٤٩، ٩٠٦، ٩١٠، ٩٢٠، ٩٢١، ٩٣١، ٩٥٣، ٩٥٥، ٩٦٥، ٩٦٦، ٩٦٧
٦٩	الفوائد والزهد والرقائق والمراثي لجعفر الخلدي	١	٥١٠
٧٠	قصر الأمل لابن أبي الدنيا	١	٧
٧١	قواطع الأدلة للسمعاني	١	٤٦٦
٧٢	قوت القلوب لأبي طالب المكي	٣	٦٥، ٧٠، ٣٢٩
٧٣	لطائف الإشارات للقشيري	١	٤٩٩
٧٤	لطائف المعارف لابن رجب الحنبلي	١	٣٧٢
٧٥	اللطائف والظرائف	١	٨١٣
٧٦	المجالسة وجواهر العلم لأبي بكر الدينوري	٣	٣٦٦، ٤٨٩، ٧٩٢
٧٧	مجمع الأمثال للميداني	١	٥٠٧
٧٨	مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية	٤	٦٤٠، ٦٩٠، ٧٣١، ٩٧١
٧٩	مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة المقدسي	٣	٦١، ٢٦٨، ٨٠٥
٨٠	مدارج السالكين لابن القيم	٦١	٤٨، ٤٩، ٧٤، ٧٥، ١١١، ١١٨، ١٢٨، ١٣٣، ١٤٠، ١٨٠، ١٨٧، ١٨٩، ١٩٣، ٢٠١، ٢٢٥، ٢٤٨، ٢٥٧، ٢٨٠، ٢٩٤، ٣٣٨، ٣٤٥، ٣٥٤، ٣٦٠، ٣٦٣، ٣٦٥، ٣٩٦، ٣٩٧، ٣٩٨، ٤٠٢، ٤٢٧، ٤٢٩،

م	المصدر	عدد الحكم	أرقام الحكم الخاصة بكل مصدر
			٤٣٢، ٤٤٠، ٤٨٤، ٤٨٥، ٤٨٦، ٤٩٤، ٥٣٤، ٥٤٩، ٥٥٤، ٥٥٦، ٥٧١، ٥٧٧، ٥٧٨، ٥٩٨، ٦٣٨، ٦٨٥، ٧١٢، ٧١٩، ٧٣٢، ٧٣٤، ٧٦٣، ٨٢٥، ٨٥٠، ٨٩٤، ٩٠٥، ٩٢٩، ٩٤٩، ٩٥٤، ٩٦٤، ٩٧٢
٨١	المدخل إلىٰ علم السنن للبيهقي	١	٤٦٢
٨٢	المدهش لابن الجوزي	١٨	٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٨٤، ٢٨٥، ٣١٤، ٣٤٠، ٣٥٥، ٣٥٧، ٣٧٤، ٣٧٥، ٥٠٠، ٥٠٢، ٥٨٥، ٦٢٥، ٧٤٢، ٨١٦، ٩٦٠
٨٣	المستقصىٰ في أمثال العرب	١	٩٨٤
٨٤	مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي	١	٨٢٠
٨٥	مصنف ابن أبي شيبة	٧	١٥٩، ٣٨٤، ٦٥٨، ٧١٣، ٧٢٠، ٨١٩، ٨٣٠
٨٦	المعجم الكبير للطبراني	١	٣٢٣
٨٧	مفتاح دار السعادة لابن القيم	١	٢٩٨
٨٨	مفيد العلوم ومبيد الهموم لأبي بكر الخوارزمي	٢	١٨١
٨٩	المقلق لابن الجوزي	١	٨
٩٠	منازل السائرين لأبي إسماعيل الهروي	٣	٤٥، ٧٨١، ٧٨٢
٩١	الموشىٰ للوشاء	١	٢٥٨

م	المصدر	عدد الحكم	أرقام الحكم الخاصة بكل مصدر
٩٢	موضح أوهام الجمع والتفريق للخطيب البغدادي	١	١٩٢
٩٣	هكذا علمتني الحياة لمصطفىٰ السباعي	٢	١١٢، ٥٠٦
٩٤	الوابل الصيب لابن القيم	١	٢١٨
٩٥	وفيات الأعيان لأبي العباس الأربلي	٢	٣٧٦، ٩٥٩

فهـرس الأعـلام

(تراجمهم ومواطن تغريداتهم)

م	القائل	تاريخ الوفاة	عدد الحكم	موطن الترجمة	أرقام الحكم الخاصة بكل قائل
١٤	أبو العباس الدينوري	٣٤٠	٢	١٤٣	١٤٣، ٤١٦
١٥	أبو الليث السمرقندي	٣٧٥	٣	١٨٤	١٨٤، ٢١٧، ٨١٢
١٦	أبو الوفاء ابن عقيل	٥١٣	٢	٦٠٧	٦٠٧، ٨٩٧
١٧	أبو بكر الصديق	١١	١	٢٢٦	٢٢٦
١٨	أبو بكر الواسطي	٣٢٠	٢	٥٦٧	٥٦٧، ٥٩٦
١٩	أبو بكر الوراق	٣٩٠	٥	١٠٥	١٠٥، ١٨٥، ٢٤٠، ٤٧٣، ٦٧٢
٢٠	أبو جعفر المحولي	٢٢١	١	٢١١	٢١١
٢١	أبو حامد الغزالي	٥٠٥	١	٧٢٧	٧٢٧
٢٢	أبو حمزة الخراساني	٢٦٠	١	٨٠٩	٨٠٩
٢٣	أبو ذر الغفاري	٣٢	١	٩٢٥	٩٢٥
٢٤	أبو سعيد ابن الأعرابي	٣٤١	٢	٢٠	٢٠، ٤١٧
٢٥	أبو سليمان الداراني	٢٠٥	١٣	٩	٩، ٣٣٣، ٤٠٧، ٥٤٥، ٥٤٦، ٦١٥، ٦٤٩، ٦٥٩، ٧٧٥، ٨٣٨، ٨٣٩، ٨٨١، ٨٨٢
٢٦	أبو عبد الله الروذباري	٣٦٩	١	٥٢٥	٥٢٥
٢٧	أبو عبد الله السجزي	٥١٢	١	١٤٤	١٤٤
٢٨	أبو عبد الله القرشي	٥٩٩	١	٣٧٦	٣٧٦
٢٩	أبو عبد الله المغربي	٢٧٩	١	٣١٠	٣١٠

م	القائل	تاريخ الوفاة	عدد الحكم	موطن الترجمة	أرقام الحكم الخاصة بكل قائل
٣٠	أبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود	٨١	١	٧٥٣	٧٥٣
٣١	أبو عبيدة معمر بن المثنى	٢٠٩	١	٣٠٨	٣٠٨
٣٢	أبو عثمان الحيري	٢٩٨	٧	٣٥٤	٣٥٤، ٤٦٩، ٥٥٣، ٥٥٤، ٦١٩، ٦٦٨، ٨١١
٣٣	أبو عثمان المغربي	٣٧٣	٢	٢١	٢١، ٥٦٨
٣٤	أبو علي الثقفي	٣٢٨	١	٢٣٩	٢٣٩
٣٥	أبو علي الجوزجاني	٣٠٠	٢	٣٥١	٣٥١، ٧٨٠
٣٦	أبو علي الحسن بن أحمد	٣٤١	١	٥٥٧	٥٥٧
٣٧	أبو علي الدقاق	٤٠٦	٧	٢٨١	٢٨١، ٣٣٨، ٤٧٤، ٥٥٨، ٦٨٨، ٦٨٩، ٦٩٩
٣٨	أبو عمران الجوني	١٢٣	١	٩٣٧	٩٣٧
٣٩	أبو عمرو ابن نجيد	٣٦٦	٣	١٠٤	١٠٤، ٢١٦، ٦٨٦
٤٠	أبو عمرو الأوزاعي	١٥١	٤	١٢٥	١٢٥، ٣٠٧، ٨٦٧، ٩٧٦
٤١	أبو عمرو الدمشقي	٣٢٠	٤	١٠٢	١٠٢، ٢٣٠، ٤١٥، ٥٥٥
٤٢	أبو عنبة الخولاني	٩٠	١	٩٢٧	٩٢٧
٤٣	أبو محمد الجريري	٣١١	٢	٢٣٨	٢٣٨، ٧٠٦
٤٤	أبو محمد الراسبي	٣٦٧	١	٦٨٧	٦٨٧
٤٥	أبو هاشم الزاهد	١١٠	١	٤٤٥	٤٤٥

م	القائل	تاريخ الوفاة	عدد الحكم	موطن الترجمة	أرقام الحكم الخاصة بكل قائل
٤٦	أبو يزيد البسطامي	٢٦١	٦	١٦	١٦، ١٧٥، ٢٣٧، ٣٣٥، ٤٦٧، ٧٢٦
٤٧	أبو يعقوب النهرجوري	٣٣٠	٣	١٧٩	١٧٩، ٤٧١، ٦٧١
٤٨	أحمد ابن أبي الحواري	٢٣٠	١	١١	١١
٤٩	أحمد بن حنبل	٢٤١	٢	١٧٤	١٧٤، ٩٤٠
٥٠	أحمد بن خضرويه البلخي	٢٤٠	٤	١٢	١٢، ١٣٢، ٤٠٩، ٥٧٦
٥١	أحمد بن عاصم الأنطاكي	٢٢١	٣	٤٠٨	٤٠٨، ٤٦٠، ٩٨٠
٥٢	الأحنف بن قيس	٧٥١	١	١٩٢	١٩٢
٥٣	أم هارون الدمشقية	٢٠٠	١	٣٣١	٣٣١
٥٤	أوس بن عبد الله	٨٣	١	٧٧٢	٧٧٢
٥٥	أيوب السختياني	١٣١	٣	٩١	٩١، ٧١٤، ٨٦٠
٥٦	إبراهيم التيمي	٩٢	٣	٢٠٧	٢٠٧، ٥٣٧، ٨٢٦
٥٧	إبراهيم الخواص	٢٩١	٤	٧٣	٧٣، ٢٠١، ٥٨٠، ٨٩٢
٥٨	إبراهيم القصار	٣٢٦	٢	٦٢٠	٦٢٠، ٦٢١
٥٩	إبراهيم القصار الرقي	٧٠٣	١	٢٨٩	٢٨٩
٦٠	إبراهيم المغربي	٧٧٩	١	٩٦٨	٩٦٨
٦١	إبراهيم بن أدهم	١٦٢	٧	٩٢	٩٢، ١٢٦، ٢٧٦، ٥١٥، ٥٤٢، ٨٧٠، ٩١٨

م	القائل	تاريخ الوفاة	عدد الحكم	موطن الترجمة	أرقام الحكم الخاصة بكل قائل
٦٢	إبراهيم بن شيبان	٣٣٧	٤	١٨٠	١٨٠، ٥٥٦، ٧١٩، ٨٩٤
٦٣	إبراهيم النخعي	٩٦	٢	٩٠	٩٠، ٣٤٩
٦٤	إياس بن معاوية	١٢١	١	٦٦٢	٦٦٢
٦٥	ابن الجوزي	٥٩٧	٣٩	٤٦	٤٦، ٥٥، ٧٦، ٧٧، ٢١٩، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٥، ٣١٤، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٧٤، ٣٧٥، ٤١٨، ٤٧٦، ٥٠٠، ٥٠١، ٥٠٢، ٥٨٤، ٥٨٥، ٦٢٤، ٦٢٥، ٦٢٦، ٧٤٢، ٧٦٦، ٧٦٧، ٧٦٨، ٨١٥، ٨١٦، ٩٤٤، ٩٦٠
٦٦	ابن القيم	٧٥١	١١٤	٣٣	٣٣، ٣٤، ٣٥، ٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٢، ٨٢، ٨٣، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٧، ١١١، ١٥٦، ١٥٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ٢٠٥، ٢٢٥، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٥، ٢٩٦، ٢٩٧، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٢،

م	القائل	تاريخ الوفاة	عدد الحكم	موطن الترجمة	أرقام الحكم الخاصة بكل قائل
					٣٦٣، ٣٦٤، ٣٦٥، ٣٦٦، ٣٧٨، ٣٧٩، ٣٩٦، ٣٩٧، ٤٢٣، ٤٢٤، ٤٢٥، ٤٢٦، ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٣٣، ٤٤٠، ٤٤١، ٤٤٢، ٤٨٤، ٤٨٥، ٤٨٦، ٥٠٣، ٥٠٤، ٥٠٥، ٥٢٨، ٥٢٩، ٥٣٠، ٥٣١، ٥٨٩، ٦٠٨، ٦٣٣، ٦٣٤، ٦٣٥، ٦٤٥، ٦٥٧، ٦٧٦، ٦٧٧، ٧٣٢، ٧٦٩، ٧٩٢، ٨١٨، ٨٤٣، ٨٤٤، ٨٤٥، ٨٤٦، ٨٤٧، ٨٤٨، ٨٤٩، ٩٠٦، ٩١٠، ٩٢٠، ٩٢١، ٩٣١، ٩٥٣، ٩٥٤، ٩٥٥، ٩٦٤، ٩٦٥، ٩٦٦، ٩٦٧، ٩٧٢
٦٧	ابن تيمية	٧٢٨	٩	٤٨	٤٨، ١٥٥، ١٨٧، ٣٤٥، ٤٢٢، ٧١٢، ٧٣١، ٩٠٥، ٩٧١
٦٨	ابن حزم	٤٥٦	٧	٢٨٢	٢٨٢، ٤٩٨، ٨١٤، ٨٤٢، ٨٩٦، ٩٥١، ٩٩٣
٦٩	ابن ظفر الصقلي	٥٦٥	١	٩٥٩	٩٥٩
٧٠	ابن عبد البر	٤٦٣	١	٤٧٥	٤٧٥
٧١	ابن عطاء الأدمي	٣٠٩	٨	١٨	١٨، ٤٤، ١٧٨، ٢٨٠، ٥٨٢، ٦٨٥، ٧٠٥، ٩٩٢

م	القائل	تاريخ الوفاة	عدد الحكم	موطن الترجمة	أرقام الحكم الخاصة بكل قائل
٧٢	ابن عطاء الله السكندري	٧٠٩	١١٠	٢٢	٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨١، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤، ٢٠٤، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٤٦، ٢٩٠، ٣١٧، ٣١٨، ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٥٢، ٣٧٧، ٣٩٠، ٣٩١، ٣٩٢، ٣٩٣، ٣٩٤، ٣٩٥، ٤١٩، ٤٢٠، ٤٢١، ٤٣٧، ٤٣٨، ٤٣٩، ٤٧٧، ٤٧٨، ٤٧٩، ٤٨٠، ٤٨١، ٤٨٢، ٥٢٦، ٥٢٧، ٥٦٩، ٥٧٠، ٥٩٩، ٦٠٠، ٦٠١، ٦٢٧، ٦٢٨، ٦٢٩، ٦٣٠، ٦٣١، ٦٣٢، ٦٤١، ٦٤٢، ٦٤٣، ٦٤٤، ٦٥٠، ٦٥١، ٦٥٢، ٦٥٣، ٦٥٤، ٦٥٥، ٦٥٦، ٦٦٠، ٦٧٣، ٦٧٤، ٦٩١، ٦٩٢، ٧٠٩، ٧١٠، ٧١١، ٧٣٠، ٧٤٣، ٧٤٤، ٧٤٥، ٧٤٦، ٧٤٧، ٧٤٨، ٧٤٩، ٧٥٠، ٧٨٣، ٧٨٤، ٧٩١، ٨٩٩، ٩٠٠، ٩٠١، ٩٠٢، ٩٠٣، ٩٠٤، ٩١٦، ٩٣٣، ٩٤٥، ٩٤٦، ٩٦٢، ٩٦٣

م	القائل	تاريخ الوفاة	عدد الحكم	موطن الترجمة	أرقام الحكم الخاصة بكل قائل
٧٣	ابن غانم المقدسي	٦٧٨	١٠	٤٧	٤٧، ١٤٦، ١٤٧، ١٨٦، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨، ٣٤٢، ٣٥٩، ٩٥٢
٧٤	ابن مسروق	٢٩٨	١	٢٠٢	٢٠٢
٧٥	الزهري	٦٠٧	١	٨٩٨	٨٩٨
٧٦	السري السقطي	٢٥٣	٥	١٣	١٣، ١٠١، ٥١٩، ٦٣٩، ٦٨٤
٧٧	الشافعي	٢٠٤	٢٧	٩٦	٩٦، ٩٧، ١٢٩، ١٣٠، ١٧٣، ٤٣٤، ٤٣٥، ٤٥١، ٤٥٢، ٤٥٣، ٤٥٤، ٤٥٥، ٤٥٦، ٤٥٧، ٤٥٨، ٤٥٩، ٦٦٤، ٧١٦، ٧١٧، ٧١٨، ٨٧٦، ٨٧٧، ٨٧٨، ٨٧٩، ٨٨٠، ٩٥٠، ٩٨٨
٧٨	الشبلي	٣٣٤	٦	١٤٢	١٤٢، ٣١٣، ٤٧٢، ٥٩٨، ٦٢٢، ٨٩٣
٧٩	الفاريابي	٦٠٧	٢٠	١٠٦	١٠٦، ١٤٥، ٢٢٠، ٢٤٥، ٣١٥، ٣١٦، ٣٤١، ٣٨٩، ٥٨٦، ٥٨٧، ٧٢٨، ٧٢٩، ٨١٧، ٩٦١، ٩٧٠، ٩٨٢، ٩٩٥، ٩٩٦، ٩٩٧، ٩٩٨
٨٠	الفضيل بن عياض	١٨٦	١٦	٦٨	٦٨، ٦٩، ٩٣، ٩٤، ٢٣٥، ٣٢٩، ٤٤٩، ٤٥٠، ٥١٦، ٥٤٣، ٧١٥، ٨٣٥، ٨٧١، ٨٧٢، ٨٧٣، ٨٧٤
٨١	القاسم بن عثمان	٢٤٨	١	٤٦٤	٤٦٤
٨٢	القشيري	٤٦٥	١	٤٩٩	٤٩٩

م	القائل	تاريخ الوفاة	عدد الحكم	موطن الترجمة	أرقام الحكم الخاصة بكل قائل
٨٣	النصر آبادي	٣٦٧	٢	١٨٢	١٨٢، ٣٣٦
٨٤	بشر بن الحارث الحافي	٢٢٧	١٥	٩٨	٩٨، ٩٩، ١٣١، ٢٧٨، ٤٦١، ٥٤٧، ٥٧٥، ٦٨٣، ٧٧٦، ٧٧٧، ٨٨٣، ٨٨٤، ٨٨٥، ٩٣٩، ٩٨١
٨٥	بكر بن عبد الله المزني	١٠٦	١	١٦٥	١٦٥
٨٦	بلال بن سعد	١٢٢	٥	٥	٥، ٦، ١٢٢، ٣٥٠، ٨٥٨
٨٧	ثابت البناني	١٢٣	١	٢٦٨	٢٦٨
٨٨	الثعالبي	٤٣٠	١	٨١٣	٨١٣
٨٩	ثويبة بنت بهلول	٢٥٠	١	٤٩٢	٤٩٢
٩٠	الجاحظ	٢٥٠	٢	٤٩١	٤٩١، ٩٦٩
٩١	جعفر الخلدي	٣٤٨	١	١٠٣	١٠٣
٩٢	الجنيد	٢٩٧	٩	٧٤	٧٤، ١٤٠، ١٧٧، ٤٣٢، ٤٩٧، ٥٣٤، ٥٥٢، ٦٦٧، ٧٠٤
٩٣	حاتم الأصم	٢٣٧	٥	١٩٦	١٩٦، ٤٦٣، ٥٤٨، ٦١٦، ٧٩٠
٩٤	الحارث بن قيس	٤٨	١	٣٦٨	٣٦٨
٩٥	الحارث المحاسبي	٢٤٣	٥	٤٢	٤٢، ١٣٣، ١٩٧، ٦٩٥، ٧٠٢
٩٦	حبيب ابن أبي ثابت	١٥٤	١	٧٢٥	٧٢٥
٩٧	حبيب الفارسي	١١٠	١	٣٨	٣٨
٩٨	حذيفة بن اليمان	٣٦	٢	٤٢٩	٤٢٩، ٧٣٥
٩٩	حسان ابن أبي سنان	١٥١	١	٩١٤	٩١٤

م	القائل	تاريخ الوفاة	عدد الحكم	موطن الترجمة	أرقام الحكم الخاصة بكل قائل
١٠٠	حسان بن سعد	٩٥	١	٩٧٣	٩٧٣
١٠١	حسان بن عطية	١٣٠	٣	٦٣	٦٣، ٢٧٠، ٧٥٨
١٠٢	الحسن البصري	١١٠	٢٥	٣	٣، ٤، ٣٧، ٦١، ١١٧، ١١٨، ١١٩، ٢٠٨، ٢٦٤، ٢٦٥، ٣٧٠، ٤٠٢، ٥٣٨، ٦١١، ٦٥٨، ٦٦١، ٦٧٩، ٦٩٣، ٧٢٣، ٧٨٧، ٨٠٢، ٨٠٣، ٨٥٦، ٨٥٧، ٩١١
١٠٣	الحسن بن صالح	١٦٩	١	٣٢٨	٣٢٨
١٠٤	الحسن بن علويه	٢٩٨	١	٣١١	٣١١
١٠٥	الحسن بن علي	٤٩	١	٦٧٨	٦٧٨
١٠٦	الحكم بن أبان	١٥٤	١	٩٨٥	٩٨٥
١٠٧	خالد بن معدان	١٠٣	٢	١٦٤	١٦٤، ٣٦٩
١٠٨	خليد بن عبد الله	١١٠	٢	٣٠٦	٣٠٦، ٩٣٦
١٠٩	ذو النون المصري	٢٤٥	١٢	١٠٠	١٠٠، ١٩٨، ٤١٠، ٤٩٠، ٥١٧، ٥١٨، ٥٤٩، ٥٦٤، ٥٧٧، ٧٦٣، ٩٤١، ٩٨٩
١١٠	الربيع ابن أبي راشد	١٢١	١	٥٦٠	٥٦٠
١١١	الربيع ابن عبد الرحمن	١٩٠	١	٧	٧
١١٢	الربيع بن خُثَيْم	٦٥	٤	٣٦	٣٦، ٨٩، ٢٦٢، ٢٦٣
١١٣	ربيعة ابن أبي عبد الرحمن	١٣٦	١	٤٤٧	٤٤٧

م	القائل	تاريخ الوفاة	عدد الحكم	موطن الترجمة	أرقام الحكم الخاصة بكل قائل
١١٤	رجاء بن حيوة	١١٢	١	٨٠٤	٨٠٤
١١٥	رويم بن أحمد	٣٠٣	١	٥٨١	٥٨١
١١٦	زياد بن حدير	٨٠	٢	١٥٩	١٥٩، ٧٥٢
١١٧	زيد بن علي بن الحسين	١٢٢	١	٨٥٩	٨٥٩
١١٨	سعد بن عبادة	١٥	١	٧٩٣	٧٩٣
١١٩	سعيد بن المسيب	٩٣	٢	٦١٠	٦١٠، ٩٤٨
١٢٠	سعيد بن جبير	٩٥	١	٧٩٨	٧٩٨
١٢١	سعيد بن عامر	١٩	١	٥٣٦	٥٣٦
١٢٢	سفيان الثوري	١٦١	١١	٦٥	٦٥، ٢٧٥، ٣٨٥، ٥٤١، ٦١٣، ٨٣٣، ٨٣٤، ٨٦٨، ٨٦٩، ٩٠٩، ٩٢٨
١٢٣	سفيان بن عيينة	١٩٨	٧	٩٥	٩٥، ٦٣٨، ٧٨٩، ٨٧٥، ٩٤٩، ٩٧٧، ٩٨٧
١٢٤	سلام ابن أبي مطيع	١٧٣	١	٥٩٣	٥٩٣
١٢٥	سلمة بن دينار	١٤٠	٨	٢٧٢	٢٧٢، ٥٩٢، ٦٤٦، ٦٤٧، ٨٦١، ٨٦٢، ٨٦٣، ٩٨٤
١٢٦	سهل بن عبد الله التستري	٢٨٣	٤	١٣٩	١٣٩، ٤٩٦، ٦٦٦، ٧٧٩
١٢٧	سيف اليماني	٣٠٠	١	٣١٢	٣١٢
١٢٨	شفي بن ماتع الأصبحي	١٠٥	١	٦٠	٦٠

م	القائل	تاريخ الوفاة	عدد الحكم	موطن الترجمة	أرقام الحكم الخاصة بكل قائل
١٢٩	شقيق البلخي	١٥٣	٦	١٧١	١٧١، ٥٧٣، ٦٦٣، ٦٨٠، ٦٨١، ٩٣٨
١٣٠	شميط بن عجلان	١٥٠	١٢	١٧٠	١٧٠، ٢٣٤، ٢٧٣، ٢٧٤، ٣٧١، ٥١٢، ٥٤٠، ٧٥٩، ٨٠٥، ٨٣٢، ٨٦٤، ٨٦٥
١٣١	صالح بن عبد الجليل	٢٠٠	٢	٣٣٢	٣٣٢، ٦١٤
١٣٢	طاووس بن كيسان	١٠٦	١	٨٢٨	٨٢٨
١٣٣	طلق بن حبيب	٩٥	٤	١٦٠	١٦٠، ١٦١، ٣٢٦، ٨٥٣
١٣٤	عائشة أم المؤمنين	٥٨	١	١٥٨	١٥٨
١٣٥	عبد الرزاق القاشاني	٧٣٠	٨	٣٢	٣٢، ٢٢٤، ٢٤٧، ٤٨٣، ٥٨٨، ٦٧٥، ٧٠٠، ٩٣٠
١٣٦	عبد العزيز بن سلمان	١٥٠	١	٨٠٦	٨٠٦
١٣٧	عبد القادر الجيلاني	٥٦١	٣	٦٢٣	٦٢٣، ٦٤٠، ٦٩٠
١٣٨	عبد الله ابن أبي زكريا	١١٧	١	٩٧٥	٩٧٥
١٣٩	عبد الله ابن منازل	٣٢٩	١	١٤١	١٤١
١٤٠	عبد الله بن المبارك	١٨١	٣	٦٧	٦٧، ٤٤٨، ٩٢٩
١٤١	عبد الله بن خبيق الأنطاكي	٢٦٠	٢	٣٣٤	٣٣٤، ٥٦٦
١٤٢	عبد الله بن عباس	٦٨	٢	٥٣٣	٥٣٣، ٦٣٧
١٤٣	عبد الله بن عبيد بن عمير	١١٣	١	٦١٢	٦١٢
١٤٤	عبد الله بن عمر	٧٣	١	٩٢٦	٩٢٦

م	القائل	تاريخ الوفاة	عدد الحكم	موطن الترجمة	أرقام الحكم الخاصة بكل قائل
١٤٥	عبد الله بن مسعود	٣٢	١٩	٥٧	٥٧، ٢٣١، ٢٦٠، ٣٠٥، ٣٢٣، ٣٩٩، ٤٤٤، ٤٨٧، ٦٣٦، ٧١٣، ٧٢٠، ٧٧٠، ٧٨٦، ٧٩٥، ٨١٩، ٨٥١، ٩٢٣، ٩٣٥، ٩٤٧
١٤٦	عبد الملك بن أبجر	١٥٠	١	٦٠٦	٦٠٦
١٤٧	عبد الواحد بن زيد	١٧٧	٢	٦٦	٦٦، ٦٩٤
١٤٨	عبيد الله بن محمد بن عائشة	٢٢٨	١	٢٣٦	٢٣٦
١٤٩	عبيد بن عمير	٦٤	٣	٥٤	٥٤، ٥٣٢، ٧٥١
١٥٠	عثمان بن عفان	٣٥	١	٧٧١	٧٧١
١٥١	عسكر بن حصين	٢٤٥	١	١٣٤	١٣٤
١٥٢	عكرمة مولى ابن عباس	١٠٧	١	٢٣٣	٢٣٣
١٥٣	علي بن أبي طالب	٤٠	١٥	٢٣٢	٢٣٢، ٢٦١، ٣٢٤، ٣٦٧، ٣٨٠، ٣٨١، ٤٠٠، ٥٥٩، ٥٧١، ٥٧٢، ٦٠٩، ٧٢١، ٧٩٧، ٨٢٠، ٩٣٢
١٥٤	علي بن سهل الأصبهاني	٣٠٧	١	٥٢٤	٥٢٤
١٥٥	علي بن عبد الله بن عباس	١١٨	١	١٦٧	١٦٧
١٥٦	عمر بن الخطاب	٢٣	٨	٥٦	٥٦، ١١٣، ٢٥٨، ٣٩٨، ٦٠٢، ٧٣٤، ٨٥٠، ٩٣٤

م	القائل	تاريخ الوفاة	عدد الحكم	موطن الترجمة	أرقام الحكم الخاصة بكل قائل
١٥٧	عمر بن عبد العزيز	١٠١	١٠	٢	٢، ٥٩، ١١٦، ١٦٢، ١٦٣، ٧٩٩، ٨٠٠، ٨٠١، ٨٢٧، ٩٧٤
١٥٨	عمران القصير	١٥٠	١	٨٦٦	٨٦٦
١٥٩	عمرو بن سلمة النيسابوري	٢٦٤	١	٢١٤	٢١٤
١٦٠	عمرو بن قيس	١٤٠	١	٩١٧	٩١٧
١٦١	عمرو بن مرة	١١٠	١	٨٢٩	٨٢٩
١٦٢	عون بن عبد الله	١١٥	١٤	٤٠	٤٠، ٤١، ١٢٧، ١٧٢، ٢٧٧، ٣٣٠، ٥٩٤، ٦٤٨، ٧٦٠، ٧٦١، ٧٦٢،٨٣٠، ٨٣٦، ٨٣٧
١٦٣	عيسىٰ بن مسكين الإفريقي	٢٧٥	١	٨١٠	٨١٠
١٦٤	غزوان الرقاشي	١٠٠	١	٥٠٩	٥٠٩
١٦٥	فرقد بن يعقوب السبخي	١٣١	١	٨٣١	٨٣١
١٦٦	فضالة بن عبيد	٥٣	١	٨٨	٨٨
١٦٧	قتادة	١١٨	٢	١٦٨	١٦٨، ١٩٥
١٦٨	قسامة بن زهير	٩٥	١	٤٠١	٤٠١
١٦٩	كعب الأحبار	٣٢	٢	٧٩٦	٧٩٦، ٩٢٤
١٧٠	لقمان الحكيم		٢	٩٠٧	٩٠٧، ٩٩٩

م	القائل	تاريخ الوفاة	عدد الحكم	موطن الترجمة	أرقام الحكم الخاصة بكل قائل
١٧١	مالك بن دينار	١٢٣	١١	١٢٣	١٢٣، ٢٠٩، ٢٦٩، ٤٠٤، ٤٠٥، ٤٠٦، ٤٤٦، ٤٨٨، ٥١١، ٧٥٧، ٧٧٣
١٧٢	مالك بن مغول	١٥٩	١	٥١٤	٥١٤
١٧٣	ماهان الحنفي	٨٣	١	٧٥٤	٧٥٤
١٧٤	مجاهد	١٠٤	٣	٣٢٧	٣٢٧، ٧٢٢، ٧٥٥
١٧٥	محمد ابن الحنفية	٨١	٢	٨٢٣	٨٢٣، ٨٥٢
١٧٦	محمد ابن الظهير الإربلي	٦٧٧	١	١٠٧	١٠٧
١٧٧	محمد بن الفضل	٣١٩	٣	٢٢٩	٢٢٩، ٤٧٠، ٧٦٥
١٧٨	محمد بن المبارك	١٢٥	١	١٢٤	١٢٤
١٧٩	محمد بن المنكدر	١٣٠	١	٢٧١	٢٧١
١٨٠	محمد بن النضر الحارثي	١٥٠	١	٨٠٧	٨٠٧
١٨١	محمد بن الهروي	١٧٥	١	٩٨٦	٩٨٦
١٨٢	محمد بن حامد الترمذي	٢٧٥	١	٤٦٨	٤٦٨
١٨٣	محمد بن خفيف	٣٧١	٣	١٨٣	١٨٣، ٧٠٨، ٨٩٥
١٨٤	محمد بن سيرين	١١٠	٢	١٢٠	١٢٠، ١٩٤
١٨٥	محمد بن صالح		١	٩٠٨	٩٠٨
١٨٦	محمد بن علي الباقر	١١٤	١	٧٢٤	٧٢٤
١٨٧	محمد بن علي الترمذي	٣٢٠	٥	١٩	١٩، ٢٠٣، ٢١٥، ٥٩٧، ٧٠٧

م	القائل	تاريخ الوفاة	عدد الحكم	موطن الترجمة	أرقام الحكم الخاصة بكل قائل
١٨٨	محمد بن كعب القرظي	١٠٨	١	٨٥٥	٨٥٥
١٨٩	محمد بن واسع	١٢٣	٢	٢١٠	٢١٠، ٧٧٤
١٩٠	محمد بن يونس	٢٨٦	١	٤١٤	٤١٤
١٩١	مريج بن مسروق	١٢٠	١		٥٦٢
١٩٢	مسروق بن الأجدع	٦٣	٢	٣٢٥	٣٢٥، ٣٨٢
١٩٣	مسلم بن يسار	١٠٠	١	٥١٠	٥١٠
١٩٤	مصطفى السباعي	١٣٨٤	٢	١١٢	١١٢، ٥٠٦
١٩٥	مصعب بن عبيد الله الزبيري	٢٣٦	١	٤٦٢	٤٦٢
١٩٦	مطر الوراق	١٢٩	١	٥٦٣	٥٦٣
١٩٧	مطرف بن عبد الله بن الشخير	٨٧	٦	٥٨	٥٨، ١١٥، ٦٠٣، ٦٠٤، ٨٢٤، ٨٢٥
١٩٨	معاذ بن جبل	١٨	٢	٥٣٥	٥٣٥، ٧٣٣
١٩٩	معروف الكرخي	٢٠٠	٤	٨	٨، ٦٨٢، ٩٧٨، ٩٧٩
٢٠٠	معضد أبو يزيد العجلي	٣٠	١	٢٥٩	٢٥٩
٢٠١	مكحول الدمشقي	١١٢	٢	٤٠٣	٤٠٣، ٤٣٠
٢٠٢	ممشاد الدينوري	٢٩٩	٢	١٧	١٧، ٩٤٣
٢٠٣	منصور بن عمار	٢٢٥	٢	١٠	١٠، ٥٧٤
٢٠٤	مورق العجلي	١٠٥	١	٣٨٣	٣٨٣
٢٠٥	ميمون بن سياه	١٢٠	١	٧٥٦	٧٥٦

م	القائل	تاريخ الوفاة	عدد الحكم	موطن الترجمة	أرقام الحكم الخاصة بكل قائل
٢٠٦	ميمون بن مهران	١١٨	٣	٦٢	٦٢، ١٦٩، ٥٣٩
٢٠٧	هانئ بن كلثوم	١٠٠	١	٨٥٤	٨٥٤
٢٠٨	هرم بن حيان	٤٦	٣	١١٤	١١٤، ٨٢١، ٨٢٢
٢٠٩	وهب بن منبه	١١٤	٦	١٢١	١٢١، ١٦٦، ٢٦٦، ٢٦٧، ٣٨٤، ٩٨٣
٢١٠	وهيب بن الورد	١٥٤	٢	٣٧٢	٣٧٢، ٥١٣
٢١١	يحيىٰ بن أبي كثير	١٣٢	١	٦٤	٦٤
٢١٢	يحيىٰ بن معاذ	٢٥٨	٦٨	١٤	١٤، ١٥، ٤٣، ٧١، ٧٢، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٩٩، ٢٠٠، ٢١٢، ٢١٣، ٢٢٨، ٢٧٩، ٣٠٩، ٣٧٣، ٣٨٦، ٤١١، ٤١٢، ٤١٣، ٤٣١، ٤٦٥، ٤٦٦، ٤٩٣، ٤٩٤، ٤٩٥، ٥٢٠، ٥٢١، ٥٢٢، ٥٢٣، ٥٥٠، ٥٥١، ٥٦١، ٥٦٥، ٥٧٨، ٥٧٩، ٥٩٥، ٦١٧، ٦١٨، ٦٦٥، ٦٩٦، ٦٩٧، ٦٩٨، ٧٠٣، ٧٣٦، ٧٣٧، ٧٣٨، ٧٣٩، ٧٤٠، ٧٤١، ٧٧٨، ٨٠٨، ٨٤٠، ٨٤١، ٨٨٦، ٨٨٧، ٨٨٨، ٨٨٩، ٨٩٠، ٨٩١، ٩١٩، ٩٤٢، ٩٥٦، ٩٥٧، ٩٥٨، ٩٩٠، ٩٩١

م	القائل	تاريخ الوفاة	عدد الحكم	موطن الترجمة	أرقام الحكم الخاصة بكل قائل
٢١٣	يزيد الرقاشي	١٢٠	٣	٣٩	٣٩، ٣٥٣، ٧٨٨
٢١٤	يزيد بن ميسرة	١١١	١	٦٠٥	٦٠٥
٢١٥	يوسف بن أسباط	١٩٥	٥	٧٠	٧٠، ١٢٨، ٤٨٩، ٥٤٤، ٩١٥
٢١٦	يوسف بن الحسين	٣٠٤	٢	٧٥	٧٥، ٣٨٧
٢١٧	يونس بن عبيد	١٣٩	٢	٩١٢	٩١٢، ٩١٣
٢١٨	بعض الصالحين		٩	١٩٣	١٩٣، ٣٢٢، ٣٠٤، ٢٠٦، ٥٠٧، ٥٠٨، ٧٨٥، ٩٢٢، ١٠٠٠

فهـرس الـموضوعـات

الموضوعات	الصفحة

تم بحمد الله